

مكتبة الدراسات الأدبية

٢٢

دكتور جودت الركابى

فى الأدب الأندلسىّ



دار المعارف بمصر

فى الأدب الأندلسىّ



مكتبة الدراسات الأدبية

٢٢

في الأدب الأندلسي

تأليف

دكتور جودت الركابي
أستاذ ذو كرسي بجامعة دمشق

الطبعة الثانية



دار المعارف بمصر
١٩٦٦

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه محاضرات فى الأدب الأندلسى ألقيتها على طلاب شهادة آداب اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة دمشق خلال عدة سنوات .

وما كنت أحسب أنى سأنشرها فى كتاب بعد أن تداولها الطلاب وأصبحت فى أيديهم ، وبعد أن اتصلت بأوساط المدرسين والأساتذة . ولكنّ رغبتى فى أن تخرج هذه المحاضرات عن جوّها التعليمى وتنطلق إلى ميادين الأدباء هى التى دفعتنى اليوم إلى نشرها .

وقد حاولت فى مطلع هذه المحاضرات أن أدرس الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية لبلاد الأندلس بشكل عام ، وأن أصوّر حياة الشاعر الأندلسى وبيئته الثقافية بشكل خاص كى لا يبقى عالم الأندلس مغلقاً أمام الطلاب فى أثناء دراساتهم لأدبائه وأعلامه .

ولكنّ هذه الحياة الأندلسية كانت غامضة الجوانب قليلة المصادر . ولذلك كان من الخير أن أفيض فى وصفها بعض الشيء علماً منى بأن تفهُّم البيئة يجب أن يعيره مؤرخ الأدب أقصى اهتمامه .

ثم أتيت على عرض موجز للأغراض الشعرية الهامة التى طرقها شعراء الأندلس ؛ ووقفت ، بشكل خاص ، عند شعر الطبيعة فأوضحت بواعثه وذكرت خصائصه وأوردت طائفة من المنتخبات الشعرية لبعض أعلام شعراء الطبيعة أمثال ابن حمديس وابن خفاجة وغيرهما .

وقد حاولت ، فى هذا ، أن أوضح جانباً هامًّا من جوانب أدبنا العربى فى الأندلس ، وأبين كيف أن هذا الأدب لم يعش فقط بين جدران القصور وإنما

عاش أيضاً فى رحاب الرياض الأندلسية وجاء ثمرة لتلك الطبيعة النديّة التى عرف الشاعر الأندلسى كيف يصف جمالها ويصف ما فيها من حب ولهو وطرب ، فى كثير من الحذق والفن والأصالة .

وشئت بعدئذ أن أقدّم فى شخص ابن زيدون مثلاً فذّاً للشاعر الأندلسى ، ولذا جئت على دراسته بروح جديدة تعكس أصالته الأدبية وترسم من قريب خصائص الشعر الأندلسى الذى بقى على الرغم من جدّته ينظر إلى الشرق فى شوق ولهفة .

وكان علىّ ، بعد هذا ، أن أبيّن الميزة التى انفرد بها أدب الأندلس عن أدب المشرق فقمت ، لهذه الغاية ، بدراسة « الموشح » هذا الفن المستحدث الذى غذّته طبيعة الأندلس الجميلة ، وجادت به عبقرية العرب الخالدة . وقد تحرّيت واستقصيت ما وسعنى التحرى والاستقصاء فى أثناء دراستى لهذا الفن الجديد ، وحاولت أن أقدم عن « الموشح » بحثاً أزعم أننى كشفت فيه النقاب عن كثير من النواحى الغامضة التى قلما عُنى بها الباحثون .

وإننى أرجو أن أكون قد أفدت بعملى هذا إخوانى الطلاب وأسهمت فى مدّ خزانة الأدب الأندلسى بهذا الجهد المتواضع الذى آمل أن يجد الأدباء والنقاد فى قراءته والبحث عن هفواته ما يساعد على كشف ما غمض من أدبنا العربى فى تلك الديار الأندلسية .

ولا يسعنى ، آخر الأمر ، إلا أن أشيد بفضل من سبقنى من الأدباء والباحثين الذين عنوا بتراث الأندلس الأدبى ، من عرب ومستشرقين ، والذين كان لدراساتهم التى عدت إليها الأثر الأوفى فى تغذية هذه الفصول ومدّها بالأفكار التى هدتنى سواء السبيل ، والله من وراء القصد وله الحمد أولا وآخراً .

دمشق فى ١٥ شباط (فبراير) ١٩٦٠ — جودت الركابى

الباب الأول

الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية



الفصل الأول

الفتح

الأندلس – المعنى الجغرافي والعنصري [1] :

سمى العرب جميع البلدان الإسبانية التي فتحوها باسم « الأندلس » ، وليس من السهل شرح هذه التسمية ، ويمكن تقريبها من اسم جماعات الفنداليين les Vandales الذين هاجموا إسبانيا ومرّوا بها مهاجرين إلى إفريقيا الشمالية في مبدأ القرن الخامس الميلادى . إذ يقال إن هؤلاء الفنداليين عند قطعهم مضيق جبل طارق سُمى المرفأ الذى أبحروا منه ، ولعله مرفأ طريف Tarifa أو الجزيرة Algéciras ، سُمى باسمهم وقيل له فندلس . وقد حافظ هذا المرفأ على هذا الاسم حتى جاء المسلمون فجعلوه شاملا لجميع البلدان التى احتلوها بعد أن حرّفوه وجعلوه « أندلس » .

ومن المؤرخين من يقول إن إقطاعية إسبانيا الجنوبية كلها ، التى كانت تسمى فى العهد الرومانى إقطاعة بيتيك Bétique ، قد سميت بـ « فندالسيا Vandalicia» عند مرور الفنداليين من إسبانيا الجنوبية أثناء هجرتهم إلى إفريقيا الشمالية ، ولكن هذا الزعم الأخير لم تؤيده الوثائق .

ومهما يكن من أمر فإن كلمة الأندلس قد استعملها المؤرخون العرب والجغرافيون بسرعة وتقبلوها بسهولة ، وكانت تدل بادئ ذى بدء على إسبانيا كلها ثم أخذت تقتصر على المنطقة التى احتلها المسلمون من الأرض الإسبانية ، ونرى ، حتى هذا اليوم ، أن مقاطعات إشبيلية وقرطبة وغرناطة قد حافظت على هذا الاسم .

هذا وإن كلمة « أندلس » كانت تدل على مختلف العناصر التى سكنت

---

(١) انظر : Lévi - Provençal, L'Espagne musulmane au Xe siècle p. 5 et suiv.
انظر أيضاً : بطرس البستانى ، أدباء العرب فى الأندلس وعصر الانبعاث ، ص ٢ وما بعدها

القسم الذى احتله المسلمون من الجزيرة الإسبانية ، سواء أكانوا من الفاتحين العرب أم من سكان الجزيرة الأصليين الذين خضعوا أو لم يخضعوا للإسلام ، ولهذا لم تكن كلمة « أندلس » لتدل إلا على وحدة خيالية ، وكان على الحكام المسلمين أن يواجهوا فى جميع عصور احتلالهم للأندلس معضلة العناصر والأجناس ، فنراهم أحياناً يعملون من ناحية على قمع ثورات وطنية يقوم بها الإسبانيون المغلوبون على أمرهم ، ونراهم من ناحية ثانية يضطرون فى أوقات كثيرة إلى قمع حركات داخلية تقوم بها العناصر الفاتحة التى جاءت من مختلف المناطق : من الشرق ومن إفريقيا ومن المغرب ، وهكذا سنرى أن تاريخ الأندلس السياسى كان دائماً مهدداً بخطرين : خطر سكان البلاد الأصليين وخطر العناصر الفاتحة ولا سيما البرابرة .

الفتح :

كانت إسبانيا ، فى الوقت الذى أخذت تجذب فيه أنظار العرب على أسوإ حالة من الضعف السياسى والاجتماعى . وهذا ما ساعد على فتحها . فإن الضرائب الباهظة امتصت ثروة الطبقة الوسطى ، واستبد الموسرون ، على قلتهم ، بأراضيهم الخصبة وأخذوا يستغلونها لترفهم وملذاتهم بينما كان الفلاحون عبيداً مرهقين . ولم تبدل النصرانية ، على رغم انتشارها فى إسبانيا ، كثيراً من الشرائع الرومانية القديمة. فظلت السيادة لأصحاب الإقطاعات والعبودية للفلاحين والضعفاء . وكان القوط Wisigoth هم الذين دخلوا هذه البلاد فى القرن الخامس للميلاد وأقاموا مطمئنين بعد أن قضوا على سلطان الرومان وأقاموا سلطانهم وانتحلوا النصرانية ديناً ، ولكنهم صاروا بها إلى الاضطهاد وإلى احتقار الرومانيين لأنهم مغلوبون ، فطبيعى أن تُفضى هذه الحالة إلى اختلال فى بناء الدولة ، وأن يمقتها أكثر الشعب ويتمنى زوالها .

وكان على إسبانيا ملك يقال له لذريق Roderic اغتصب العرش القوطى بعد وفاة الملك غيطشة Witiza . وكانت مدينة سبتة Ceuta الواقعة فى أقصى شمالى المغرب يحكمها عامل لقيصر الروم يدعى يليان julien ، وكانت بينه وبين لذريق عداوة شديدة لا ندخل فى أسبابها ، إلا أن هذه العداوة حملت يليان على السعى

لإسقاط لذريق وثلّ عرشه . لذلك ليس عجيباً أن نراه يساعد العرب ويمهد لهم سبيل الفتح .

« فكتب يليان إلى موسى بن نصير عامل الوليد بن عبد الملك فى المغرب يزيّن له فتح الأندلس ، ويصف خصب أراضيها ووفرة أموالها وسهولة التغلب عليها لتخاذل أهلها وانقسام بعضهم على بعض ، ووعده بالمساعدة ، فاستأذن موسى بن نصير الخليفة بغزو الأندلس فأذن له على أن يأخذ حذره ويخوضها أول الأمر بالسرايا ، ولا يغرر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال ، فبعث موسى مولى له من البرابرة يقال له طريف بن مالك النّخعى ، فى أربعمائة راجل ، ومائة فارس ، فحملتهم أربع سفن ليليان إلى جزيرة الفندال التى اشتق منها اسم الأندلس ، فسميت جزيرة طريف Tarifa لنزوله بها ، وأقاموا فيها أياماً ثم كروا إلى المغرب وقد أصابوا مالاً جسيماً وسبياً لم ير موسى وأصحابه مثله .

« وعاد يليان يحرّض موسى على اقتحام الأندلس حتى أغراه ، وفى الواقع لم يكن موسى ليريد أن يقوم بحملة كبيرة ، إنما كان يرغب القيام بغزو متبعاً بذلك توصية الوليد[1] . وبدافع هذه الفكرة دعا بربرى من مواليه اسمه طارق بن زياد ، فعقد له ، وبعثه فى سبعة آلاف من البربر ليس فيهم إلاّ ثلثمائة من العرب ، فأقلتهم سفن يليان التجارية لخمس خلون من رجب سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م ، فسارت بهم تعبر بحر الزقاق من سبتة إلى جزيرة الفندال ، ويسميها العرب الجزيرة الخضراء ، وكان نزولهم عند جبل كلبة Calpé فقيل له جبل طارق »[2] .

ولن ندخل فى تفاصيل الحوادث . فقصة الفتح وما رافقها من زيادة أو نقص موجودة فى مختلف الكتب التاريخية ، ولكننا نشير فقط إلى أن العنصر البربرى هو الذى كان يهيمن فى هذه الحملة الأولى وأن المقاومة التى لاقاها العرب فى الجزيرة الخضراء لم تكن شديدة . فعندما علم ملك الإسبان لذريق بتقدم المسلمين حشد الجيوش وكتب إلى أولاد غيطشة يدعوهم إلى الاجتماع معه على حرب العرب ، ويحذرهم

(١) يرى هذا الرأى ليفى بروفنسال ، انظر المصدر السابق ص ٩ .

(٢) بطرس البستانى . المصدر السابق ص ٣ — ٤ .

من القعود عنه ، فلم يجدوا بداً من إجابته ومضوا معه وهم مرصدون لمكروهه لأنه كان قد اغتصب الملك من أبيهم – كما ذكرنا – . وفي وادي بكة Bekka التقى الفريقان، وكان جيش طارق قد أمد بخمسة آلاف بربرى جاءوه من المغرب فبلغ اثنى عشر ألفاً ، سلاحهم حسن ، وقلوبهم متحدة على الغزو واقتسام الغنائم ، وكان جيش لذريق ، على رواية ابن خلدون ، أربعين ألفاً . وعلى رواية المقرى مائة ألف ، وينقل بطرس البستاني في كتابه أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث عن كليمان هوار قائلا : « إن جيش الإسبانيين كاد يكون خلواً من الفرسان ، وإن أغلب سلاحه العصى والمقاليع » ولا ندرى إلى أى حد يمكن أن نؤمن بهذا القول . وتحمّل البرابرة صدمة الجيوش القوطية وظفر المسلمون ظفراً لم يكونوا ليحلموا به بعد معارك دامت ثمانية أيام وتمّ النصر للمسلمين في رمضان سنة ٩٢ هـ .

على أن أولاد غيطشة ويليان صاحب سبتة لم يظاهروا العرب في غارتهم على الأندلس إلا لاعتقادهم أنهم قوم غزاة لا يلبثون بعد الغنيمة أن يعودوا إلى بلادهم ، فشدوا أزرهم للتخلص من لذريق . والعرب أنفسهم لم يكونوا مصممين على البقاء في إسبانيا عند ما اقتحموها ؛ يدل على ذلك حديث رواه المقرى لميمون العابد . وكان في عداد الشاميين الذين دخلوا الأندلس ، فقد قال لأحد أولاد غيطشة : « إنا قدمنا إلى هذا البلد غزاةً نحسب أن مقامنا فيه لا يطول ، فلم نستعد للمقام ولا أكثرنا من العدة » [١] .

وبلغ موسى بنَ نصير فتحُ الأندلس . فحسد طارقاً . وطلب إليه أن يتوقف عن الإيغال في البلاد حتى يأتي إليه . ولكن طارقاً لم يطعه بل تابع الفتح ، وأراد موسى بن نصير أن يناله نصيب من المجد فحشد جيشاً يزيد على عشرة آلاف من البربر والعرب [٢] وعبر بهم بحر الزقاق ودخل الأندلس في شهر رمضان سنة ٩٣ هـ ولكن عوضاً عن أن يلحق بطارق أخذ يعمل لحسابه الخاص فافتتح إشبيلية وماردة Mérida في غربي إسبانيا واستعمل دار السكة وضرب باسمه نقوداً ذهبية .

---

(١) بطرس البستاني ، المصدر نفسه ص ٥ .

(٢) يقول ليفي بروفنسال إن هذا الجيش كان كله من العرب هذه المرة وفيه كثير من اليمانيين والقيسيين مع مواليهم . انظر المصدر السابق ص ٩ .

هذا وقد كانت جيوش طارق قد افتتحت أكثر الأندلس عند ما ذهب موسى إلى طليطلة فاستقبله فيها طارق ، ونزل إليه إعظاماً إلا أن موسى قد وبخه على عصيانه ثم أظهر الرضا عنه ، وتابع وإياه الفتح متوغلين فى بلاد الفرنجة . وبينما كانا يتنقلان من بلد إلى آخر إذا بأمر الوليد بن عبد الملك يدعو موسى إليه وقد بلغه ما أصاب من الأموال والغنائم فولّى موسى ابنه عبد العزيز على الأندلس وعاد مع طارق قاصدين الشرق . وكانت إسبانيا المسلمة قد أدركت حدودها النهائية فى الفتح .

ومنذ أن ترك موسى ابنه عبد العزيز والياً على الأندلس بدأ عهد الولاة .

الفصل الثانى

عهد الولاة ٩٢ هـ/٧١٠ م – ١٣٨هـ/٧٥٥م

إن عهد الولاة فى الأندلس يبدأ فى الواقع بطارق بن زياد ، ثم بموسى بن نصير ثم بابنه عبد العزيز ، فبعد مقتل عبد العزيز هذا بقيت الأندلس نحو ستة أشهر دون أن يرسل بنو أمية والياً إليها . فاجتمع زعماء البربر واختاروا أيوب بن حبيب اللخمى ، وهو ابن أخت موسى بن نصير ، فحكم فى قرطبة مدة قصيرة ، ثم تعاقب الولاة بعدئذ على الأندلس ، فمنهم من كان يعينهم الخليفة ، ومنهم من كان يعينهم عامل إفريقية . وافتتحت بلاد جديدة فى عهدهم كبرشلونة Bercelone وقشتالة Castille وأغار العرب على شواطئ الرون فبلغوا ليون Lyon وتقدموا فى قلب فرنسة حتى بلغوا تور Tours وكادوا يعبرون اللوار عندما هب لملاقاتهم شارل مارتل بجموع الفرنجة فى سهل بواتيه ، وردّهم على أعقابهم ، وقُتل فى الواقعة قائد العرب عبد الرحمن الغافقى والى الأندلس وكان ذلك سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م .

ولم يقتصر عهد الولاة على الحروب بين المسلمين والنصارى فى أوربا بل حدث شقاق عظيم فى المسلمين أنفسهم . فعهد الولاة كان عهداً مضطرباً ، قامت فيه من ناحية ثورات البرابرة ضد العرب ، واستحكم الشقاق والتنافس من ناحية أخرى بين مختلف الولاة القادمين من الشرق وانتقلت معهم العصبية القبلية وبدأ نزاعها ظاهراً بين القيسية واليمانية .

ولن نشير هنا إلى تفصيل الحوادث بل نكتفى بالقول إن ثورات البرابرة خلال هذا العهد ليست سوى صدى للحوادث الدامية التى كانت تجرى فى المغرب . فقد حدث أن ثار البرابرة فى المغرب على الشاميين والمصريين فتحرك برابرة الأندلس وثاروا بواليها عبد الملك بن قَطَن ، هذا فضلاً عن أن البربر كانوا يعتدّون بأنفسهم لأن الفاتح منهم والفتح قد تم على أيديهم ، ويرون أنهم أولى من غيرهم بتقلد الحكم . وقد حملت ثورات البرابرة الخليفة هشام بن عبد الملك على أن يرسل نجدات إلى

إفريقية وكان من بينها نجدة الجند السوريين تحت قيادة بلج بن بشر الذى استطاع أن يخمد ثورتهم فى إسبانيا .

هؤلاء الجند الشاميون يجلبون انتباهنا ، إذ أنهم سيلعبون دوراً هاماً فى تأسيس الدولة الأموية فى الأندلس ، وسينقلون إليها النظم الشامية والتقاليد العسكرية التى كانت سائدة فى الشام ، والتى ستبقى من مميزات الدولة الأموية فى الأندلس .

وقد أخذ الجند الشاميون يتصرفون فى بلاد الأندلس بحسب أهوائهم ونزعاتهم القبلية ، إلا أن إقامتهم فيها قد كونت نواةً عربية هامة أخذت تقاوم نشاط البرابرة وتخفف من غلوائهم .

ومن السهل ، بعدُ ، أن نلاحظ أن وضع المغرب الإسلامى المضطرب كان يستدعى أن يدفع العرب إلى التفكير فى تأسيس دولة قوية فيه ، وستقع مهمة تأسيس هذه الدولة على عاتق عبد الرحمن الداخل بعد أن تضعضعت سلطة الأمويين فى الشرق بنشاط الدعوة العباسية .

الدولة الأموية

إمارة قرطبة المستقلة وعبد الرحمن الداخل حتى خلافة عبد الرحمن الثالث

(١٣٨ هـ / ٧٥٦ م – ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م)

بعد أن انهار البيت الأموى فى الشرق وأعمل العباسيون السيف فى رقاب الأمويين ،إستطاع عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن مروان ، وكان شاباً ، أن ينجو من بطش العباسين ويفرّ مستخفياً مع مولاه بدر حتى خلص إلى المغرب . وقد بقى خلال أربع سنوات هائماً على وجهه فى شمال إفريقية حتى نزل على أخواله بنى نَفْزة بالقرب من سبتة . وكان عبد الرحمن فى أثناء اتجواله يظهر نشاطاً سياسياً ، فهل كان يرغب بتأسيس دولة فى إفريقية ؟ إن هذا لممكن ، إلا أن الأرض المواتية لطموحه السياسى ما كانت إلا الأندلس التى تضم نواة أموية شامية وهى جند بلج ، أضف إلى ذلك العوامل الأخرى التى كانت تساعده لتحقيق ما يبغى

كحماية البربر له لأن أمه كانت بربرية .

وقد استطاع عبد الرحمن فى كثير من الحذق السياسى أن يستثمر لصالحه الخاص المنازعات القائمة بين القيسيين واليمانيين ، وكانت كل هذه العوامل سبباً فى نجاحه ، لذلك لم يطأ أرض الأندلس حتى استُقْبل استقبالاً فاق حدّ خياله . فانتصر على الصُّمَيْل ويوسف الفهرى ، والي الأندلس ، وأهلكهما . ودانت له الأندلس وأصبح أميرها ولُقِّبَ بالداخل لدخوله إياها ولقّبه أبو جعفر المنصور بصقر قريش ، وكان دخوله قرطبة ، التى جعل فيها سرير ملكه ، فى العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٩ هـ . فقطع الخطبة عن بنى العباس ودُعِىَ له على المنابر وبنى المسجد الجامع فى قرطبة واختطّ مدينة الرُّصافة فى شمالها على مثال رُصافة الشام لجدّه هشام ، وجعل بلاطه كبلاط لذريق فى عظمته وبهائه ، وبدأت منذ ذاك العهد إمارة قرطبة المستقلة وتأسست الدولة الأموية .

فما هى صفات هذا التأسيس وما هو منهج مؤسس هذه الإمارة ؟

لم يكن عهد إمارة قرطبة المستقلة فى الواقع سوى عهد طويل لتعزيز السلطة الأموية فى الغرب الإسلامى ، ويجب علينا أن ننتظر عهد خلافة عبد الرحمن الثالث لكى تتمركز نهائيًّا هذه السلطة وتبلغ الحضارة الأموية أوجها وعهدها الذهبى .

ومنذ أن أصبح عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس أخذ فى تحقيق برنامجه . وكان هذا البرنامج يرمى إلى أمور ثلاثة :

١ — تنظيم الجيش الذى قاد إلى الظفر .

٢ — فتح أبواب الأندلس أمام الأمويين المضطهدين فى الشرق .

٣ — إيجاد التفاهم بين عناصر العرب ولا سيما القبائل التى تحارب بعضها بعضاً ، ودعم السلطة الأموية باللجوء إلى توطيد الأمن فى جميع أنحاء البلاد الأندلسية .

ولم تكن سياسته سوى سياسة جلب واسترضاء ، وكان من نتائجها أن أخذت وفود المهاجرين الأمويين تنثال على بلاد الأندلس لدعم هذه الدولة الناشئة ، وتعزيزها ، وكوّن المروانيون ما نسميه اليوم بالطبقة الأرستقراطية أو الخواص .

هذا وإن حملة شارلمان الشهيرة تقع فى النصف الثانى من حكم عبد الرحمن

الداخل ، فقد قطع شارلمان جبال البرنه فى جيش من الفرنجة وجاء فحاصر سرقسطة سنة ١٦٢ هـ / ٧٧٨ م إلا أنه اضطر لترك الحصار فجاءة عند ما استدعى للعودة إلى شواطئ الرين ، فقام عبد الرحمن عندئذ ، مستفيداً من عودة شارلمان ، وحاصر سرقسطة واحتلها مدة قصيرة ثم أرسل حملة لحقت بشارلمان فى مقاطعة الباسك وأنزلت به هزيمة فادحة .

وكان من نتاج هذه المعارك بين العرب وشارلمان فى شمال الأندلس تلك الملحمة الرائعة « أنشودة رولان » التى هتف بها شعراء مجهولون مجدوا فيها مصرع أبطال شارلمان وعلى رأسهم الفارس الكبير رولان وغيره من الأبطال الذين كان يعتز بهم شارلمان .

وقد كانت مدة ملك عبد الرحمن الداخل أربعاً وثلاثين سنة (من سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م إلى ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م) وعند وفاته كانت الدولة الأموية فى الأندلس تتمتع من الناحية السياسية والاجتماعية بجميع صفات الدولة القوية المنظمة ، وكانت تمتاز بطابعها الشامى ، هذا الطابع الذى أخذ يظهر فى التقاليد وفى نمط النظم وأشكال البلاط حتى أصبح لدى كل أمير أموى ميل لوسم الأندلس بالسمات التى كانت تمتاز بها الدولة الأموية فى الشرق سواء أكان ذلك فى العادات أم فى نمط الحكم أم فى تنظيمات الدولة .

وتداول الملك بعد عبد الرحمن الداخل أبناؤه وأحفاده نذكر من بينهم هشاماً الأول والحكم الأول وعبد الرحمن الثانى وغيرهم . وفى أثناء حكم عبد الرحمن الثانى (٢٠٦ هـ / ٨٢٢ م — ٢٣٨ هـ / ٨٥٢م) قدم الأندلس من بغداد المغنى زِرْياب تلميذ إسحاق الموصلى ، وقد كان له تأثير كبير فى نقل كثير من العادات الشرقية السائدة فى بلاط بنى العباس إلى بلاد الأندلس . وقد أخذت تلك العادات الحضرية تنتشر فى كثير من التأنق والذوق الناعم وتبدو على الأخص فى المآكل وفى قوانين المآدب والحفلات ، وقد كان لقدوم زرياب تأثير كبير فى الحياة الاجتماعية والأدبية والفنية .

إن نجاح صقر قريش فى تأسيس الدولة الأموية فى الأندلس يعدّ حادثاً هامّاً

فى تاريخ العرب ، وإذا كانت الدولة الأموية قد وطّدت دعائمها فى هذا العهد ، عهد إمارة قرطبة المستقلة ، فإنها بلغت أوجها من الرقى والحضارة فى عهد عبد الرحمن الثالث . فبملكه تبدأ الخلافة الأموية فى قرطبة سنة ٣٠٠ للهجرة . هذه الخلافة التى ازدهر فيها الأدب والفن ازدهاراً سنرى مداه ونشعر بأصالته وغزارته .

الفصل الثالث

خلافة قرطبة وعبد الرحمن الثالث

عند ما تقلّد عبد الرحمن الثالث زمام الحكم كان قد بلغ من العمر ثلاثاً وعشرين سنة . وعلى الرغم من صغر سنه فقد اختاره جده عبد الله لما توسم فيه من المقدرة والصفات الحسنة . وقد دام ملكه خمسين حوْلا من سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م إلى سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م . ولم يعرف التاريخ الإسلامى عهداً زاهراً كعهده ، وقد سمحت له مدة مُلكه الطويلة أن يؤمّن لسياسته نوعاً من الاستقرار لم يعرفه الملوك الذين سبقوه ولا الذين لحقوه . فنَهد إلى الميادين يخمد الفتن ومراكز الثورات التى لم تنطفئ نارها منذ أن قدم المسلمون إلى الجزيرة الإسبانية عاملاً على إخضاع العصاة وجمع كلمة المسلمين ، ثم قام بغزوات لقهر المناوئين من ملوك الإسبان فدان أكثرهم له ووفدوا إلى بلاطه خاضعين وذاع صيته وانتشرت سطوته فوفد إلى حضرته السفراء من القسطنطينية وألمانيا وإيطاليا وفرنسا ، وجعل الأندلس أمة واحدة تحت سلطانه واستكثر من الصقالبة واعتمد عليهم فى الجيش وخطط الدولة ، فأزال بهم زعامة الأرستقراطية العربية .

وكان أمراء بنى أمية يطمعون فى استرجاع الخلافة ويتحينون لها الفرص ولم يتلقبوا أول أمرهم بألقابها مخافة أن يجد المسلمون فى عملهم بدعة لأن الخلافة العباسية كانت فى إبان عظمتها ، فلا مسوغ لقيام خلافة أخرى ، فلما صار أمرها إلى الضعف وبدأ الانحلال والوهن يدب فى جسمها حتى أصبح الخليفة ألعوبة فى أيدى الجند من الأتراك ومن مواليه سنحت الفرصة لملوك الأندلس ، فاغتنمها عبد الرحمن الثالث وأعلن نفسه خليفة ولُقّب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله ، سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م .

وكان الناصر أعظم ملوك الأندلس وأول خليفة فيها . بلغت الأندلس فى زمنه أوج مجدها ، واحتلت مكانة سياسية ومدنية عظيمة فى نظر المسيحية والعالم

الإسلامى نفسه . ونهضت الآداب والعلوم نهضة مباركة ونافست قرطبة بغداد فى أعظم أيامها . فبلغ عدد سكانها فيما يروون نصف مليون وكان فيها مئة وثلاثة عشر ألف جامع وثلاثمائة حمام وثمان وعشرون ضاحية ، حتى لم يعد لها فى كل المغرب شبيه فى كثرة الأهل وسعة المحال وفسحة الأسواق وكثرة العمارات والحمامات والفنادق [١] .

وبنى الناصر على مقربة من عاصمة ملكه قرطبة قصراً أسماه الزهراء باسم جارية له كانت تمنت عليه أن يبنى لها قصراً . فكانت الزهراء هذا القصر الفخم الذى قضى الناصر فى بنائه وإعداده خمساً وعشرين سنة واستدعى للعمل فيه مهرة البنائين من بغداد والقسطنطينية ، وأجرى فيه المياه وأنشأ حوله الحدائق والبساتين بحيث أصبحت قرطبة وزهراؤها مدينةً سحرية تخلب الناظرين بجمالها .

وقد ذكر المقرى : « أن مُلْكَ الناصر بالأندلس كان فى غاية الضخامة ورفعة الشأن وهادته الملوك وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر ، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعةً راغبة وانصرفت عنه راضية ، ومن جملتهم صاحب القسطنطينية الكبرى فإنه هاداه ورغب فى موادعته » [٢] وقد زخرت بيوت الأموال فى زمنه فبلغ دخل الخزينة نحو ستة ملايين دينار فى العام . وكان الناصر يقسم الجباية أثلاثاً : ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مُدّخر .

وقد أنشأ أسطولاً زاحم به أسطول الفاطميين وجيشاً قوياً سيطر به على أكثر بلاد الأندلس ، وأسس المدارس ، وشجع العلماء ، ونهضت الآداب والفنون فى زمنه نهضة مباركة .

ولما توفى عبد الرحمن الناصر كان له من العمر سبعون عاماً . وقد عرفت بلاد الأندلس فى زمنه حياة الدعة والرخاء ، وحقّ لقرطبة أن تدعى مدينة العلم والأدب والفن .

---

(١) انظر : جبرائيل جبور ، من مقال له عن الأدب الأندلسى فى مجلة الأبحاث – بيروت ، السنة ٢ الجزء ٢ ، حزيران ١٩٤٩ .

(١) المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ص ١٧٢ – ١٧٩ .

الحكم بن عبد الرحمن الناصر :

انتقلت الخلافة بعد عبد الرحمن الناصر إلى ابنه الحَكَم ، وجرت بيعته فى حفل عظيم وصفه المقرى وصفاً مفصلاً يدل على أبهة المراسيم التى جرت[١] .

كان الحَكَم كأبيه حازماً حسن التدبير ، أخضع الثائرين من الفرنجة ، وملك خمس عشرة سنة(٣٥٠ – ٣٦٦ هـ) فى يُمْنٍ وإقبال. وكان الحَكَم ميالاً إلى العلوم والآداب محبًّا لها مكرماً لأهلها جمَّاعاً للكتب بأنواعها ، ذكر المقرى أن عدد الفهارس فى خزانة العلوم والكتب فى عهده بلغت أربعاً وأربعين فهرسة ؛ فى كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر الدواوين لا غير[٢] .

وقد امتاز عهده بإنشاء المدارس والمكاتب فابتنى فى قرطبة سبعاً وعشرين مدرسة . وجعلها مجاناً للطلاب ، وأتم بناء الجامع الكبير الذى كانت تدرس فيه العلوم والآداب العالية ، وأرسل البعوث العلمية إلى الشرق فكانت تنسخ له الكتب وتأتى بها إليه حتى جمع فى خزانته أربعمائة ألف كتاب ، وذكر المقرى أنه اشترى نسخة من الأغانى بمبلغ ألف دينار من الذهب .

الحاجب المنصور – استبداد العامريين :

كان الحَكَم قد عهد ، فى حياته ، أمر الإشراف على ابنه هشام إلى محمد بن أبى عامر ، وكان شابًّا ذكيًّا استطاع بدهائه أن يكسب عطف الملكة صُبْح ، امرأة الحكم ، الإسبانية الأصل ، وقد كانت تهواه . واستطاع أيضاً أن يتقلب فى مناصب عالية حتى أصبح حاجباً ، وبعد موت الحكم استبد بشئون الدولة مستغلاً حداثة سن هشام ، فأخذ يتخلص من منافسيه واحداً واحداً حتى تنكّر فى النهاية إلى صبح نفسها واستلم زمام الأمور بيده واستبد بالملك وأصبح ملكاً على الأندلس ولقّب نفسه بالحاجب المنصور ، ودُعىَ له على المنابر ، ولم يترك للخليفة غير الدعاء ليلة الجمعة .

(١) انظر : نفخ الطيب ج ١ ص ١٨٢ – ١٨٣ .
(٢) نفح الطيب : ج ١ ص ١٨٢ .

وقد كان المنصور كثير الغارات قام بنحو عشرين غزوة استرد بها ما كان فقده الحكم فى أواخر عهده حين انصرف بكليته إلى الآداب والعلوم . وقد أعاد إلى الملك سطوته ومجده وهابه ملوك الإسبان . وبموته سنة ٣٩٣ هـ وموت ابنه المظفر من بعده ينتهى حكم العامريين المستبد وتعود السلطة إلى البيت المروانى ويطرأ على الدولة الفساد وتسود الفوضى ويضطرب الأمن وتسير خلافة قرطبة نحو الاضمحلال والضعف .

وقد تجلّى بطش المنصور فى غزواته الكثيرة على الفرنجة وهدمه مدنهم حتى أنزل الرعب فى قلوبهم . وقد كان محبًّا للفلسفة فرُمىَ بالزندقة ، وقرّب العلماء والشعراء وأحسن صلاتهم فنطقوا بحمده وأشادوا بذكره .

وقد كانت الفترة التى تلت موتَ المنصور فترةً مضطربة تعاقب فيها خلفاء ضعفاء إلى أن انتهت بخلع هشام الثالث سنة ٤٢٢ هـ/ ١٠٣١ م، فكان آخر خليفة فى قرطبة ، فانقطعت الخلافة الأموية ، وصار الأمر فى قرطبة إلى الطبقة الأرستقراطية . ثم قام رؤساء الطوائف فى الولايات ، من بربر وعرب وموال ، يقتسمون خططها ويستبدون بأمرها ، فعُرف هؤلاء الرؤساء بملوك الطوائف .

الفصل الرابع

ملوك الطوائف

٤٠٣ هـ / ١٠١٢م – ٥٣٦ هـ/ ١١٤١ م

عند ما أخذ الضعف يدب فى جسم الدولة الأموية ، بعد أن استبد العامريون بأمر الخلافة ، بدأ رؤساء الطوائف يستقلون بالإمارات التى يحكمونها فعرفوا بملوك الطوائف .

وقد أصبحت المدن الهامة فى الأندلس عواصم لهذه الدويلات الصغيرة . ومن أهم هذه الدويلات (١) :

الدولة الزيرية : استقلت فى غرناطة سنة ٤٠٣ هـ ، وهى دولة بربرية ، ظل مُلْكها إلى سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م .

والدولة الحمودية : استقلت فى عهد المستعين الأموى سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م ، وهى شيعية من المغرب تنتسب إلى إدريس من سلالة الحسن بن على . تنقلت بين قرطبة ومالقة والجزيرة الخضراء ، وانقرضت سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م

والدولة الهودية : فى سرقسطة Saragosse من سنة ٤١٠ هـ / ١٠١٩ م إلى سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م وهى دولة عربية أشهر ملوكها المقتدر بالله وابنه المؤتمن .

والدولة العامرية : فى بلنسية Valence من سنة ٤١٢ هـ/ ١٠٢١م إلى سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥ م وهم من موالى بنى عامر .

والدولة العبادية : فى إشبيلية من سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م إلى سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م وهى عربية من بنى لخم من ولد النعمان بن المنذر ، وقد اتصل بملوكها الشاعر بن زيدون . وهى من أبهج الدول فى الكرم والفضل والأدب .

---

(١) انظر : تاريخ ابن خلدون . وقد استقينا هذه المعلومات باختصار عن كتاب أدباء العرب فى الأندلس وعصر الانبعاث لبطرس البستانى .

ودولة بنى الأفطس : فى بطليوس Badajoz من سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م إلى سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م وكانت دولة متحضرة نهضت بالعلوم والفنون .

والدولة الجهورية : فى قرطبة من سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م إلى سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م قامت بعد سقوط الخلافة الأموية . فتولى الأمر عميد طبقة الخواص فى قرطبة أبو الحزم بن جهور ثم توارث الحكم أبناؤه من بعده .

ودولة ذى النون : فى طليطلة من سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م إلى سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٧٥ م وهى بربرية من قبائل هوارة .

وقد قامت بين ملوك الطوائف حروب متصلة ، وكان القوى فيهم يغلب الضعيف فيزيل سلطانه كما حدث أن أزال ملوك بنى عباد حكم بنى جهور فى قرطبة . ولم يتوان بعضهم عن أن يستنجد بملوك الفرنجة ، فيغتنم هؤلاء الفرصة ويهاجمون الأندلس ويستولون على عواصمها ويخضعون ملوكها ويجعلونهم عمالا لهم ، كما فعل فرديناند الأول بالمظفر ملك بطليوس ، وبالمأمون ملك طليطلة ، وكما فعل ألفونس السادس بملك سرقسطة .

ولم يكن التنافس بين هؤلاء الملوك سياسيًّا فقط ، بل كان أيضاً عمرانيًّا وأدبيًّا وفنيًّا ، فتنافسوا فى ابتناء الحصون والقلاع وتنافسوا فى مجالس الأدب والطرب وفى تشجيع الشعراء والكتاب والمغنين .

وكان من بين هؤلاء الملوك من خطب لخلفاء بنى أمية وإن زالت خلافتهم ومنهم من خطب لبنى العباس على رغم بعدهم عنهم ، ومنهم من تقلب بنعوت الخلفاء كبنى عباد فكان منهم المعتضد والمعتمد .

ومن أجل تهافتهم على هذه النعوت العباسية قال الشاعر أبو بكر بن عمار يهجوهم :

مما يُزَهِّدُنى فى أَرض أَندلسٍ ... أَسماءُ معتضدٍ فيها ومعتمدِ
أَلقابُ مملكةٍ فى غيرِ موضعها ... كالهرِّ يحكى انتفاخاً صُورةَ الأَسدِ [١]

(١) نفح الطيب ، ج ٢ ص ١١٢٥ .

ومن الإنصاف لهؤلاء الملوك أن نذكر أنهم رعوا حركة الأدب وقرّبوا أصحابها وكانت أكثر عواصمهم أسواقاً لها ، وكان منهم أدباء وشعراء كالمظفر وابنه المتوكل ملِكَىْ بطليوس، والمعتمد بن عباد ملك إشبيلية ، وكان أكثرهم يدعوإلى بلاطه العلماء والشعراء والفلاسفة يحاضرهم ويجالسهم ، وفى عهدهم ظهرت الفلسفة وعلى رأسها ابن باجة .

ودام أمر الطوائف نحو مائة سنة تقريباً استطاع فى أواخرها ملوك الإسبان من جمع كلمتهم فهاجموا هذه الدويلات واحدةً واحدة وقضوا عليها حتى بلغوا إشبيلية عاصمة بنى العباد فضايقوا المعتمد حتى اضطر إلى أن يطلب النجدة من أمير المرابطين فى العدوة الإفريقية . فجاء يوسف بن تاشفين أميرُ المرابطين ومحا ملوك الطوائف ، إلا دولة سرقسطة فإن صاحبها اعتصم بالفرنجة فحموها حيناً ، ولم ينل منها المرابطون إلاّ فى سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م ، واستعادها ألفونس الأول ملك أرغون Aragon سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م .

دولة المرابطين[1]

تنحدر هذه الدولة من قبيلة لمتونة من برابرة صنهاجة فى المغرب ، وكان من عادتهم أن يضعوا لثاماً على وجوههم فلقبوا بالملثمين .

وسُمّوا بالمرابطين لأن أحدهم يحيى بن إبراهيم أسلم فجاء بفقيه اسمه عبد الله بن ياسين ليعلم قبيلته القرآن وأحكام الدين . ثم مات يحيى فتفرق الناس عن الفقيه ، فلم يفتّ ذلك فى عضده بل جمع فئة منهم واعتزل بهم فى جزيرة من السنغال ، وابتنى لهم رباطاً فسموا المرابطين[2] .

ولما كَثُر عددهم حتى بلغوا الألف قام عبد الله وحضّهم على الجهاد فى سبيل الحق وأمرهم بإرشاد عشائرهم ، ولما أبت هذه أن تهتدى بهديهم شنوا عليها الغارة وقتلوا منها خلقاً كثيراً حتى أسلمت . ثم تابعوا الغزوات فى بلاد المغرب يدْعون الناس إلى دينهم ناشرين الرّعب والهوْل فى تلك الأنحاء .

وجعل عبد الله قيادة الجيش ليحيى بن عمر ، وكانت له زعامة فى قبيلته لَمْتُونة ، فابتدأت به دولة المرابطين سنة ٤٨٨ هـ . فلما مات خَلَفَه أخوه أبو بكر ، ثم تنازل أبو بكر لابن عمه يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٣ هـ ، فدوّخ يوسف المغربَ وفتح فاس وطنجة وسبتة وبنى مراكش وجعلها داراً له فعظمت هيبته وذاع ذكره .

وكانت الأندلس فى تلك الحال تعانى أشد الضيم من ملوك الإسبان . فإن ألفونس السادس صاحب قشتالة غزاها غير مرة ، وأثخن فى المسلمين ، وأخضع ملوك الطوائف ، حتى بلغ جزيرة طريف ، وأدخل قوائم فرسه فى البحر وقال : « هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئته » فلما بلغ الضعف بالمسلمين حدّه أجمعوا رأيهم على استنفار يوسف بن تاشفين ، فكتب إليه المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية

---

(١) باختصار عن بطرس البستانى ، المصدر السابق .

(٢) الرباط والرابطة : مكان ينفرد به المسلمون للعبادة ويتأهبون فيه للجهاد . فهو بيت دين وحرب .

يعلمه بحال الأندلس ويسأله النصر والإعانة ، وكتب إليه أهل الأندلس كافة يستنجدونه على العدو المغير ، فجمع جيشاً كثيفاً وجاء إلى نجدة المعتمد فى كتائب بربرية من قبائل زناتة ومصمودة وقهر الإفرنج فى واقعة الزّلاّقة الشهيرة سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، فازداد يوسف بن تاشفين عظمة بهذا الانتصار وتلقّب منذ ذلك اليوم بأمير المسلمين وأتاه به تقليد الخليفة العباسى المقتدى بأمر الله ، ولقبه ناصر الدولة . ثم رجع يوسف إلى المغرب ظافراً منصوراً بعد أن ثبّت للمتعمد سلطته .

وما كادت تنقضى ثلاث سنوات حتى أعاد الإفرنج الكرّة وطلب المعتمد النجدة ثانية فعاد ابن تاشفين وقضى على المناوئين سنة ٤٨٤ هـ /١٠٩١ م ، وهنا طابت لابن تاشفين الأندلس ورياضها الغناء وقصورها ومُناها(١) ومواردها الصافية فاستبد بالملك لنفسه ، وانتحل الخصومة مع المعتمد وأخذه أسيراً إلى أغمات فى أفريقية حيث قضى غمّاً وحزناً فى منفاه وملك ابنُ تاشفين الأندلس .

وتوفى يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م ، بعد أن أصبحت الأندلس ولاية للمرابطين ، وآلت إمارة المسلمين بعده إلى ولده علىّ ، فجعل مقره مراكش وترك فى الأندلس أخاه .

ولم تنعم الأندلس فى دولة علىّ فإن تعصبه الشديد للدين ، واستمساكه بمذهب مالك وكُرْهَ غيره من المذاهب جعله آلة بيد الفقهاء فساد التعصب والإرهاب ، وكثرت الوشايات ، وخُنقت حرية الفكر . وفى أيامه ظهر المهدىّ محمد بن تومرت فى جبال المصامدة بالمغرب فكان ظهوره وبالا على دولة المرابطين وسبباً لقيام دولة الموحدين .

ودام حكم المرابطين فى الأندلس نحو ستين سنة أديل منهم بعدها إلى الموحدين .

(١) منى : ج منية ، وهى قصر يحيط به روض .

دولة المُوَحِّدين
(٥٢٤ / ١١٢٩ م — ٦٦٧ هـ / ١٢٦٨ م)

الموحِّدون طائفة أخرى من إفريقية من أصحاب ابن تومرت الذى أراد أن يضع للدين عهداً جديداً فدعا نفسه بالموحِّد وجمع حوله الأنصار وأعلنت شيعته بعد ذلك الجهاد على المرابطين فغلبوهم فى إفريقية ثم نقلوا الحرب إلى الأندلس وغلبوهم أيضاً فيها . وإليكم نبذة عن نشأتهم[1] .

نشأ محمد بن تومرت فى جبل السوس من المغرب الأقصى وقومه من بنى مصمودة ، وهى قبيلة شديدة البأس كثيرة العدد . وبدت عليه دلائل التقوى منذ حداثته فكان يزور قبور الأولياء ويتبرك بها . وطلب العلم فى بلده فوجد أن المدارس فى الغرب لا غناء فيها فرحل إلى الشرق وجاء بغداد ، وتلمذ لأبى حامد الغزالى فى المدرسة النظامية ، فأخذ عنه طرفاً صالحاً من العلم وأصول الدين .

فلما رجع إلى المغرب شرع يدعو الناس إلى التمسك بأهداب الشرع وإقامة أحكام السنة ، ويبين لهم فساد الملوك والأمراء وظلمهم ويدعوهم إلى عصيانهم ، وأطلق على طريقته اسم التوحيد ، فتبعه خلق من بنى قومه عُرفوا بالموحدين. ثم أوقع فى خلَدهم أن النبى بشّر بالمهدى الذى يملأ الأرض عدلا ، وقال إنه يخرج من المغرب الأقصى . فقام إليه عشرة رجال وقالوا له : « أنت المهدى » ، وبايعوه ، وساروا فى ركابه ، يبثون له الدعوة فى بلاد المصامدة ، حتى كثر أتباعه ، ورسخت تعاليمه ، فدعاهم إلى جهاد المرابطين ، وأباح لهم دماءهم ، فبايعوه على الموت ، فراحوا يغزون فى بلاد المغرب ويوقعون بالمرابطين حتى بلغوا مراكش فحصروها ، ولكنها امتنعت عليهم ، ومات المهدى سنة ٥٢٤ هـ ، قبل أن يفتحوها ، وكان قد أوصى بعده لعبدالمؤمن بن علىّ ، أحبّ صحابته إليه ،

---

(١) باختصار عن : بطرس البستانى ، المصدر السابق .

فبايعوه بالخلافة وتلقّب بأمير المؤمنين . وتابع عبد المؤمن جهاده حتى أزال دولة المرابطين وأقام دولة الموحدين ، وجاءته الوفود من الأندلس تدعوه فأجاز إليها جيشاً من الموحدين وامتلكها وجعلها من ولاياته .

وبلغت دولة الموحدين أوج عزها فى عهد أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الخليفة الثانى بعد المهدى (دامت خلافته من سنة ٥٥٨ — ٥٨٠ هـ) ثم فى عهد ولده أبى يوسف يعقوب الخليفة المنصور (٥٨٠ — ٥٩٥ هـ) .

ومع تمسُّك الموحدين بأمور الدين ، كانوا أكثر ميلا من المرابطين إلى تشجيع العلوم والآداب وأعلق منهم بالحضارة : فإن أبا يعقوب استقدم الفلاسفة إلى بلاطه كابن طفيل وابن رشد ، وعنى بالعمارة ، ومن آثاره الباقية منارة الجامع الكبير فى إشبيلية .

وقد دام ملك الموحدين نحو مئة وثلاثين سنة استطاع بعدها ملوك النصارى فى الأندلس قهرهم وإخراجهم من الجزيرة والاستيلاء على أكثر إماراتها .

دولة بني الأحمر[1]

بعد زوال الموحدين من الأندلس ، استطاع محمد بن هود صاحب بطليوس أن يبسط سلطانه على كثير من المدن الأندلسية فشمل به بطليُوس ومرسية وقرطبة وإشبيلية . وكان يرى فى مقاتلة أعدائه النصارى عاملاً لدعم قوته وسلطانه ، ولكنه كان أضعف من أن يردهم عن مملكته ويحرس استقلالها . وفى هذا الوقت الذى كانت فيه الأندلس ترزح تحت عبء الفتنة والضعف كان فى أرَجُونة ، من حصون قرطبة ، قبيلة عربية من بنى الأحمر عميدها محمد بن يوسف النصرى المعروف بابن الأحمر سليل بنى نصر ، فقام هذا أيضاً بقتال النصارى ، ولكن روح التنافس والضعف لم تكن لتسمح للمسلمين بالتفوق ، واستطاع الإفرنج أن يستولوا على المدائن والحصون حتى بلغوا قرطبة فحصروها ستة أشهر ثم سقطت فى أيديهم سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م ، وكان سقوطها كارثة عظيمة بعد أن لبثت نحو خمسمائة وعشرين سنة عاصمة مملكة إسبانيا المسلمة[2] . وقتل ابن هود فى المرية Alméria ولم يبق للمسلمين غير إقطاعة الأندلس وعاصمتها غرناطة يتولاها ابن الأحمر أمير المسلمين من قبل فرديناند الثالث .وهذه الدولة الصغيرة استطاعت أن تقف فى وجه التوسع الإفرنجى مدة طالت نحو قرنين ونصف ، ويعود ذلك إلى أن الملوك الإسبانيين كانوا يشغلون عنها بمحاربة بعضهم بعضاً ، وأنها كانت تستنجد سلاطين المغرب فى ضنكها فيجيزون إليها جيوشهم لدفع المسيحيين عن أرباضها .

وقد عرفت غرناطة فى حكم بنى الأحمر أزهى عصورها وفيها شيدت قصور الحمراء التى لا تزال ماثلة حتى اليوم . وامتاز عصرهم بتعزيز الآداب ، فنبغ فى دولتهم جملة من الشعراء والكتاب ، وعُرف جماعة من سلاطينهم بالشعر والنثر ،

---

(١) باختصار عن : بطرس البستانى ، المصدر السابق . انظر أيضاً : محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ص ١٨ — ٤٠ .

(٢) راجع سقوط قرطبة فى تاريخ ابن خلدون وفى نفح الطيب .

كأبى عبد الله محمد بن محمد المخلوع ثالث ملوكهم .

وفى سنة ٨٩٨ هـ / ١٤٩٢ م ، أى بعد نحو ثمانية قرون من عام الفتح ، هاجم فرديناند وإيزابيلا بنى الأحمر فسقطت غرناطة ، آخر معقل للفاتحين ، وسلّم أبو عبد الله ، آخر ملوكها ، مفاتيحَ الحمراء إلى الغالبين .

ويروى أن أبا عبد الله قد أعطى ضيعة يقيم فيها ، فخرج وأهله من قصر الحمراء حزيناً منخلع القلب ، ومشى مطرقاً إلى منفاه ، حتّى إذا انعطف به الطريق ، وكادت الحمراء تتوارى عنه ، أرسل إليها النظرة الأخيرة ، وهطلت عيناه بالدموع ، فقالت له أمه عائشة :

ابك مثل النساء ملكاً مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال

ولا يزال هذا الموضع يسمى إلى اليوم زفرة المغربى . وأقام أبو عبد الله فى ضيعته الجديدة مدة قصيرة ، ثم عبر البحر إلى المغرب ، ونزل بفاس واتخذها مقرًّا حتّى مات. وهكذا زال ملك العرب من بلاد تركوا فيها مجدهم وآثارهم وحضارتهم وجلا آخر عربى تحت تأثير اضطهاد الإسبانيين الذين لم يفوا بعهودهم وأقفر الفردوس المفقود .

وصارَ ما كانَ مِن مُلْكٍ ومِن مَلِكٍ كما حَكَى عن خيالِ الطَّيْفِ وَسْنانُ

السمات المميزة لهذه الأدوار[1] :

تتسم مختلف هذه العصور بسمات خاصة : فالدور الأموى الذى يشمل عهد الولاة وعهد الإمارة وعهد الخلافة كان دور السيادة العربية . فيه نزح إلى الجزيرة الإسبانية أكثر من جاء إليها من العرب ولا سيما أهل الشام وتفرّقوا فى المدن الأندلسية . وقد نشط العمران فى هذا الدور وتوضّحت فى آخره أسس النهضة الأدبية والغنائية .

---

(١) باختصار عن الدكتور جبرائيل جبور ، من مقال له فى مجلة الأبحاث عن الأدب الأندلسى .

أما الدور الثانى دور طوائف الملوك فقد تميز بازدهار الحركة الأدبية وكثرة الشعراء والشاعرات وشاع فن الموشح بعد أن ظهرت طلائعه فى مطلع هذا الدور .

واتسم دور المرابطين بالتعصب الدينى وبتسلط البرابرة وضعف الحركة الأدبية وظهور الزجل ، هذا الشعر العامىّ الشعبى الذى لاقى رواجاً كبيراً فى هذا العهد وكاد ينافس الشعر التقليدى .

وتميز دور الموحدين بالحماسة الدينية ، ولكنها لم تقيد الفلاسفة فنمت الحركة الفلسفية نموًّا دعا إليه التأمل الدينى من ناحية والتفكير الفلسفى الحر من ناحية أخرى .

أما دور بنى الأحمر والجلاء فقد عُرف بحياة الرخاء وحياة القلق ، رخاء داخلى وقلق يبثه فى النفوس عدوّ متربص شَعَر بضعف الفاتحين واستسلامهم فأخذ ينزل بهم النكبة تِلْوَ النكبة ، وفى هذه الغمرة أخذت النفوس الحساسة تنشر شعر الأنين حيناً وتجأر بشعر الاستنجاد والصريخ حيناً آخر . وقد نضجت فى هذا الدور تلك الفنون الأدبية التى استحدثت فى الأندلس من موشحات وأزجال وساعدت أوزانها وتقاسيمها على أن تجد فى اللحن والغناء طريق ذيوعها وانتشارها بين الناس بعد أن وجد لها الغناء نفسه طريق نشأتها وسبيل بزوغها[1] .

وقد شهد هذا الدور أعظم محنة نزلت بالعرب على أيدى ملوك الإفرنج وزعمائهم الدينيين ، وتجلَّتْ فى ألوان من الاضطهاد الدينى والقسوة والتعذيب الذى لم ينته إلا بعد أن تمّ الجلاء الأخير سنة ١٦٠٩ م . وكانت دواوين التفتيش التى أنشأها الإفرنج لمحو كل أثر للإسلام والعرب ، لطخة عارٍ فى تاريخ المدنية . وقد أحرقت تحت تأثير هذه الحملة التعصبية الكتب العربية الكثيرة وأبيدت روائع الفكر الإسلامى وأتلفت آثار العبقريات ، ولولا أن هذه العبقريات العربية كانت أقوى من يد

---

(١) يرى الدكتور جبرائيل جبور أن اتصال هذه الفنون الجديدة بحياة العامة من سكان الجزيرة الأصليين كان عاملا على ظهور فن شعرى غنائى عند التروبادور Troubadours وليس لدينا ما ينفى هذا القول إلا أنه من الممكن أن يكون التروبادور أنفسهم قد أثروا فى نشأة بعض هذه الفنون الشعرية الأندلسية وأثر فيها أيضاً أدب اللغة الرومانية roman نفسها وقد كان معروفاً على حدود الدولة الإسلامية القائمة فى إسبانيا .

الإنسان الغاشم لما كنت ترى اليوم ما يشهد على ما شاده الفكر العربى فى بلاد الأندلس من مجد وما مدّ به الحضارة الأوربية والإنسانية من روح أصيل . كل ذلك قد جرى مقابل اللين والتساهل اللذين أبداهما الفاتحون العرب للنصارى واليهود فى الأندلس والتشجيع الذى أغدقوه لنقل العلوم الأجنبية إلى اللغة العربية فى جميع الأمصار التى فتحها العرب .

* * *

وقد شهدت بلاد الأندلس طوال هذه الأدوار مختلف المعارك وضروب المحن واللهو والاضطهاد والتساهل ، وجرى فيها كثير من الاختلاط بين الأجناس والأقوام ، فالعرب الذين تحدّروا إلى الأندلس ، جاءوها بطوائفهم الكثيرة وقبائلهم المختلفة ومواليهم الذين ينتمون إلى شتى الجنسيات فى الشرق ، والبربر إنما نزلوا بها مع الفاتحين ، وامتزجوا جميعاً بسكان الجزيرة الأندلسية وما يجاورها من قوط وإسبان وصقالبة وغيرها من شعوب الفرنجة . ونشأ من هذا الاختلاط أجيال جديدة مولّدة ، لم تتصف بها الأقطار الأخرى التى دخلها العرب فى فتوحاتهم .

وسنرى تفصيل هذه العناصر التى كوّنت شخصية الأندلسى .

الفصل الخامس

عناصر الشعب الأندلسى

لدراسة عناصر الشعب الأندلسى[1] يجب أن نبدأ بعهد الفتح الذى يسوغ الهجرات الأولى التى هى فى نظرنا أهم الهجرات ، ثم نستعرض الحوادث السياسية التى كانت سبباً ، فى التالى ، لدفعات شعبية نحو الجزيرة من أصل شرقى أو إفريقى . وهذه الدفعات العربية والبربرية لا يمكن تفريقها ، فالحوادث التى سببتها مختلطة فى تشعبات تاريخ مبدأ الإسلام فى إسبانيا .

ومما لا شك فيه أن إسبانيا قد فتحت فى بادىء الأمر بعون البربر ، بل لعل الحملة الأولى كانت مؤلفة من برابرة فقط كما ذكرنا وكما يؤكده المستشرق ليفى بروفنسال ، ولم يدخل العنصر العربى الجزيرة الإسبانية إلا عند ما قدم إليها موسى ابن نصير ، وبين جنوده العرب عدد كبير من اليمانية والقيسية .

ويظهر لنا أنه بعد أن تم الفتح وعاد طارق وموسى إلى الشرق ، بقى الجنود الفاتحون ، خلال السنين الأولى ، فى الجزيرة لا يغادرونها ، فأقاموا فى هذه البلاد الجديدة وتزوج أكثرهم بنساء الشعب المغلوب وأسسوا أسراً .

ولكن هذه النواة البربرية العربية العسكرية قد تبعها ، خلال القرن الثامن الميلادى ، دفعات أخرى هامة إفريقية وشرقية ، ويظهر أن الولاة الذين كانت تعينهم دمشق لم يحبذوا بادىء الأمر إسكان الجزيرة بالعرب ، ويتراءى من إشارات المؤرخين أن بربر المغرب قد قدموا الجزيرة مدفوعين بخيراتها . ولكنهم منذ البدء لم يلاقوا استقبالا حسناً ، وهكذا أخذ المغاربة البرابرة يتدفقون نحو الجزيرة ويكونون الأكثرية الإسلامية فيها ، واستطاعوا بهذه الكثرة أن يقاوموا العرب ويقوموا بفتن عديدة ، وكانت كل ثورة يقوم بها البرابرة فى المغرب تجد صداها فى بلاد الأندلس ، وما إرسال جنود بَلْج الشاميين إلى بلاد المغرب ومنها إلى الأندلس إلا

---

(١) انظر Lévi - Proven çal, Ibid., P. 8 - 40

لقمع هذه الثورات ، وقد استطاع هؤلاء الجنود الشاميون سحق البرابرة إلا أن خطرهم كان جاثماً .

إن قدوم عبد الرحمن الداخل إلى الجزيرة قد سبب تدفقاً جديداً للعرب نحوها . وقد استدعى إليها عدداً كبيراً من المغاربة المسلمين ، بينهم عدد من البربر لتقوية جنده . ويشير المقرى إلى أن عبد الرحمن الداخل قد اعتمد على البرابرة فى مبدأ حكمه ليقاوم العناصر العربية المناوئة ولكن هذا لم يمنع البرابرة أيضاً من القيام بحركات عصيان . ومهما يكن من أمر فإن اضطراب هذه العناصر البربرية والعربية لم يهدأ إلا عندما استطاع عبد الرحمن الثالث إخضاعهم إلى الطريق السوىّ ، فأذعنوا عندئذ لهيبة الملك ، وخضعوا للسلطان الذى شاده . وهكذا نلاحظ أن مجرى الهجرة نحو إسبانيا كان تابعاً للحوادث السياسية لا سيما فى العهدين الأولين : عهد الولاة وعهد الإمارة ، وكانت الصبغة البربرية هى الطاغية إلى أن جاء عهد الخلافة .

* * *

يميز المؤرخون بين العناصر العربية أو البربرية التى جاءت فحلّت الجزيرة الأندلسية منذ الفتح وبين العناصر الإسبانية التى اعتنقت الإسلام ، وهذه العناصر الإسبانية المسلمة تسمى ، عند المؤرخين العرب ، بالمسالمة أو بالمولّدين . فاسم المسالمة يطلق على الإسبانيين الذين اعتنقوا الإسلام ، واسم المولدين على نسلهم . أما الإسبانيون الذين احتفظوا بدينهم فيسمون بالعجم أى الأغراب أو الأجانب .

وكان المولّدون يؤلفون زمن الأمويين القسم الهام من شعب الدولة الأموية . لقد اعتنقوا الإسلام بسرعة وأصبح من الصعب ، بعد عدة أجيال مضت ، تمييزهم عن المسلمين الذين جاءوا الجزيرة . وقد أخذ عددهم فى الازدياد منذ حُكْم عبد الرحمن الثانى إذ قد اعتنق فى عهده كثير من الإسبانيين الدين الإسلامى ، وكان بينهم من دخل فى خدمة العرب المسلمين وأصبحوا موالى لأسيادهم وتلقبوا بألقابهم ، ومنهم من احتفظ باسمه الإسبانى ، ومن هذه الأسر الإسبانية التى اعتنقت الإسلام من كانت غنيةً وقوية لا سيما فى إشبيلية التى وجد فيها الإسلام أنصاراً منذ ظهوره فى الجزيرة ، ولا شك أن الصلات أصبحت وثيقة بين العرب والمولدين

على أثر الاختلاط والزواج ، ولم يبق بين أكثر العرب من لا يجرى فى عروقه دم إسبانى . وهذا الاختلاط قد كثر زمن الخلافة الأموية ولا سيما فى المدن .

هذا وقد قلّ شأن الدور السياسى والاجتماعى الذى لعبته الأسر العربية الكبيرة فى مبدأ الاحتلال ، وأخذت هذه الأسر تخضع للنظام الأموى الذى عمّ الجزيرة منذ نهاية القرن التاسع الميلادى .

وعندما حلّ عهد ملوك الطوائف كنتَ ترى منْ كان أصله بربريًّا ومن كان أصله عربيًّا ، إلا أنّ الصفة الأندلسية هى التى كانت تربط العرب بعضهم ببعض ، فهم أندلسيون قبل كل شىء ، ولهذا يجب ألا نتحدث إلا عن طائفة أندلسية وأخرى بربرية وثالثة صقلبية نسبة إلى الصقالبة ، أما الطائفة العربية فهى بالأحرى تلك التى نسميها أندلسية .

وكان من عادة مؤلفى التراجم عندما يذكرون ترجمة رجل عربى أن يأتوا على ذكر نسبه مشيرين إلى اسم الجد الأول الذى جاء إلى الأندلس ، فيسلسلون نسبه عادةً إلى أن يصلوا إلى عهد موسى بن نصير أو يجعلونه منحدراً من أحد الأشخاص الذين جاءوا مع حملة بلج ، ومن النادر ألا يكون هذا الجد الأول من رجال ما يسمونه (الطالعة الأولى) أو البلديين أى من رجال حملة الفتح ، أو من رجال (الطالعة الثانية) أى جند بلج أو الشاميين . وقد حافظ عرب إسبانيا على تقسيمهم القَبَلىّ حتى جاء المنصور بن أبى عامر ، ويشير المقرى إلى ذلك فيقول : « وكان عرب الأندلس يتميزون بالقبائل والعمائر والبطون والأفخاذ إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبى عامر الداهية الذى ملك سلطنة الأندلس »(١) وقد رأينا أن المهاجرين الأولين قد نقلوا معهم نزاعهم القبلى : بين قيسيين ويمانين ، وعندما هدأ هذا التنافس ، مع الزمن ، لم يمح مع ذلك هذا التقسيم العنصرى الذى كان أساساً لكتاب الأنساب الذى ألفه ابن حزم ، وظهر أيضاً فى رسالة ابن غالب « فرحة الأنفس » التى يذكرها المقرى(٢) والتى تقدّم لنا معلومات قيمة عن أنساب

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٣٩ — العمائر : ج عميرة وهى الحى العظيم .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٣٨ .

العرب وقبائلهم التى قطنت الأندلس فى عهد الدولة الأموية .

ولكنّ رسالة ابن غالب لم تشر ، أثناء تعدادها لقبائل العرب وتوزيعهم فى مختلف الأقاليم الأندلسية ، إلى ذكر جند بلج ، هذه الطبقة الشامية الخاصة التى سكنت الأندلس منذ سنة ١٢٥ هـ ، وتوزعت فى الأقاليم الجنوبية ، والتى نقلت إلى الأندلس التقاليد العسكرية السائدة فى الشام .وكان هؤلاء الجند يعيشون من إقطاعات منحتها لهم حكومة قرطبة ، ولهذا كانوا على استعداد لإجابة رغباتها والدفاع عنها كجندها الخاص ، وقد أقاموا فى المدن واستخدموا عمالاً يستثمرون لهم إقطاعاتهم التى كانوا يعيشون من وارداتها لأنهم لم يعتادوا حياة الزراع .

وكذلك نزعت هذه النزعة أسرٌ عربيةٌ أخرى تنحدر من رجال (الطالعة الأولى) أو البلديين ، فكانوا يفضّلون سكنى المدينة ، ورأينا معظم الأسر العربية الأرستقراطية تقطن مدن الأندلس الجنوبية ، بينما تُـرِكَ إلى طبقة المولدين استثمار الأرض ضمن شروط حرة أو مقيدة .

وقد جذبت العاصمةُ قرطبة خلال القرن العاشر الميلادى كثيراً من الأسر العريقة لما فيها من مباهج الحياة المدنية .

ولم يكن الأمر كذلك فيما يخص العنصر البربرى . فقد فضّلت أقلية ضئيلة سكنى المدن . هذا ولا نملك مصادر كثيرة تتعلق بسكنى العناصر البربرية القادمة من إفريقية ، وليس لدينا إلا صفحة من كتاب ابن حزم وبعض الإشارات الموزعة فى تاريخ ابن خلدون . ويجب أن نلاحظ أنه إذا كانت العناصر العربية قد تمركزت منذ القرن التاسع للميلاد فى بلاد الأندلس ولم يأتها بعد ذلك إلا دفعات ضئيلة فإن الهجرة البربرية إلى الأندلس قد امتدت حتى عصر الموحدين . فالسياسة الإفريقية التى كان يتبعها الخليفة عبد الرحمن الناصر والخليفة الحكم الثانى والمنصور من بعدهما كانت تساعد هذه الهجرة وتحبذها ، إذ أن خطر الفاطميين جعل هؤلاء الخلفاء ينتبهون إلى تقوية مركزهم بالاعتماد على العناصر البربرية ، ولقد رغبوا فيها لتقف فى وجه الأرستقراطية العربية من ناحية وفى وجه الأرستقراطية الصقلبية من ناحية أخرى .

نعم ؛ لقد جددت هذه الهجرة البربرية التى كثرت خلال آخر القرن العاشر الميلادى وأوائل القرن الحادى عشر — أقول لقد جددت عناصر الشعب الإسلامى ، إلا أنها أدت إلى كثير من الفوضى والاضطراب وقادت الخلافة إلى الانهيار كما رأينا .

هذا ويشير المؤرخون العرب ولا سيما ابن العذارى إلى أن أكثر المستعمرات البربرية كانت قائمة فى الجبال ولا سيما فى الجبال الجنوبية كفحص البلوط وجبال كرمونا وغيرها وفى المرتفعات الغربية أيضاً .

وقد كانت قرطبة تضم بين سكانها عدداً من البرابرة ، ولكن أكثرهم كانوا موالى للأمراء الأمويين منذ سنين عديدة ، حتى إنهم قد نسوا ، بتأثير اتصالهم الطويل بالحياة المدنية ، كل علاقة تربطهم بأصلهم الإفريقى الجبلى .

ولم يكن الناصر أول خليفة قلد بعض البرابرة القاطنين قرطبة مناصب القيادة العسكرية والإدارة والقضاء ، بل رأينا عدداً منهم قد وصل إلى أمثال هذه المناصب العالية فى عهود أخرى تلت عهد الناصر . وهؤلاء البرابرة الذين تمصّروا هم الذين يشير إليهم ابن حزم فى الصفحة المخصصة لهم فى كتابه الأنساب ، ويؤكد لنا أصل الشاعر ابن دَرّاج القسطلى ويقول إنه بربرى ، وابن دراج هذا مع ابن صاعد البغدادى يمثلان البيئة الأدبية فى قرطبة أثناء عهد الخلافة أصدق تمثيل .

الصقالبة :

وهناك طبقة اجتماعية أخرى أخذت تلعب دوراً هامًّا فى حياة الأندلس السياسية والاجتماعية ، ولا سيما فى قرطبة ، هم أولئك الموالى المنحدرون من أصل أجنبى ، الذين كان يسميهم العرب الصقالبة . وهذه التسمية التى كانت تدل على الشعوب التى كانت تقطن الأراضى الممتدة بين الآستانة وبلاد المجر بدأت تأخذ معنى خاصًّا فى إسبانيا . ويظهر أنها كانت تشمل فى الأندلس الأسرى الذين كانت تأسرهم الجيوش الجرمانية ثم تأتى بهم فتبيعهم إلى مسلمى إسبانيا . ولكن فى عصر ابن حوقل ، أى حوالى منتصف القرن العاشر الميلادى ، كان يُقصَد بهذه التسمية

جميع العبيد الأجانب الأوربيين الذين دخلوا فى عداد جنود الخليفة ، أو أنهم قُبلوا للقيام بخدمات فى البلاط . ويؤكد ابن حوقل قائلاً إنه عندما جال فى إسبانيا ، زمن الحكَم الثانى ، كان أكثر الصقالبة الذين شاهدهم هناك لا ينحدرون فقط من شواطئ البحر الأسود ، بل هم أيضاً من المقاطعات الإسبانية الشمالية كمقاطعات جليقية Galice وكاتالون Catalogne أى (بلاد الإفرنج) ، ولومبارديا فى إيطاليا .

وفى الواقع ، فقد كان أكثرهم أسرى جلَبهم رجالٌ من القرصان المغاربة أو الأندلسيين أثناء غاراتهم على الشواطئ الأوربية للبحر الأبيض المتوسط ، أما مَن كان مُعدًّا لحراسة الحرم فى البلاط ، فكان يشتريهم من فرنسا تجار مختصون من اليهود ،وكان لهم فى فيردان Verdun سوق خاصة بهم[1]. وكانوا على الأغلب صغار السن عند مجيئهم إلى الأندلس ، ولكن سرعان ما يتعلمون العربية واللغة الرومانية Roman ويصبحون مسلمين .

وقد أخذ عددهم فى الازدياد وبلغوا كما يقول المقرى فى عهد عبد الرحمن الثالث (٣٧٥٠) صقلبيًّا ثم ازدادوا إلى (٦٠٨٦) وارتفع هذا العدد حتى بلغ (١٣٧٥٠) واستطاع فريق منهم أن يتحرر من العبودية ويشغل مكاناً لائقاً فى الحياة الاجتماعية ، ومنهم من امتلك الأراضى وأصبح غنيًّا . وقد تهذبت طباعهم بالاحتكاك بالحضارة الأندلسية فرأينا فيهم بعض الأدباء والشعراء والمؤلفين ، وإذا صدّقنا ابن الأبار والمقرى علمنا أن أحدهم ويدعى حبيباً الصقلبى قد ألف كتاباً يعدد فيه مناقبهم بعنوان « كتاب الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة » .

وكلما ازداد عدد الصقالبة ازداد تأثيرهم وقاموا يلعبون دوراً سياسيًّا هامًّا ، وقد بدأوا فى عهد عبد الرحمن الثالث بتقلد المناصب العالية فى الدولة حتى إنهم قد قلدوا مناصب القيادة العسكرية ، وكان الخليفة يستخدمهم ليضعف من سلطة الأرستقراطية العربية ويحاربها . وهكذا لم يتردد الخليفة الناصر فى أن يعهد

(١) هذه السوق يسميها دوزى « مصانع الخصيان Manufactures d'ennuques ».

إلى الصقلبي نجْدة بقيادة حملة وجهها ضد ملك مقاطعة جليقية الإسبانى على الرغم مما أبدته حاشيته من استياء . وقد أظهر خليفة الناصر ، الحكَم الثانى ، كثيراً من التساهل تجاه الصقالبة مما جعل المؤرخين العرب يدهشون لموقفه ، ولا سيما بعد أن أخذوا يمعنون فى التكبر والوقاحة . وعندما توفى الحكَم الثانى كان الصقالبة أسياد الموقف . ويشير ابن العذارى فى (البيان المغرب) إلى أن عدد الخصيان فى قصر الخليفة الحكَم الثانى قد زاد على الألف. وكان حرس مدينة قرطبة بقيادة صقلبيين ، هما فائق النظامى وجؤذر .

ومجمل القول أن الدور الذى لعبه الصقالبة أثناء ضعف الخلافة الأموية كان سيئاً يشبه الدور الذى لعبه البرابرة ، إذ اشتركوا فى جميع المؤامرات التى كانت تحاك فى قرطبة ضد الكيان الأموى فى نهاية القرن العاشر الميلادى .

* * *

يضاف إلى هذه العناصر الشعبية عددٌ كبير من الإسبانيين الذين لم يعتنقوا الإسلام ، ومن بينهم المسيحيون واليهود . والمصادر العربية التى لدينا عن هاتين الطبقتين قليلة ، بل هى أقل مما نملكه من المصادر عن العناصر الأخرى التى ذكرناها ، ولكن هناك مصادر لاتينية ومصادر عبرانية قد كشفت النقاب عن كثير من الأمور المتعلقة بحياة هاتين الطبقتين(١) .

وقد بدأ ، منذ خمسين سنة ، اهتمام المؤرخين بالعناصر المسيحية التى كانت تقطن الأندلس ، وأخذ يسند إليها دور هام لعبته فى الحياة الاجتماعية الأموية . ولكنّ بعض هذه الأبحاث التى كتبت فى هذا الصدد لا تخلو من التحزب ولا سيما عند ما يولون هذه العناصر مكانة تفوق مكانتها والدور الذى لعبته .

---

(١) هناك مصدر لاتينى هام للمؤلف Simonet عن تاريخ مسيحيى الأندلس ، ويسميهم المؤلف باسم الـ Mozarabes هو : Historia de los Mozarabes de Espana, Madrid 1903

أما المصدر العبرانى فهو للمؤلف Groetz ترجمة Stenne وعنوانه :

Les Juifs d' Espagne, Paris 1872

وقد أصبح هذا المرجع اليوم قديماً فى نظر المؤرخين .

ومهما يكن من أمر فإن عدد الذميين كان كبيراً وكانوا على جانب من الانتظام أكثر مما كانوا عليه فى أية بقعة إسلامية أخرى . وقد جرى بينهم وبين الفاتحين من الاختلاط والتأثير المتبادل الطويل ما لم يجر مثله فى أى صقع إسلامى آخر . وقد أظهر الإسلام تجاههم كثيراً من التساهل على خلاف ما عاملوا به العرب الفاتحين عند ما زال سلطان الإسلام من تلك البلاد .

هذا وقد كانت هذه العناصر المسيحية مراكز للمقاومة الوطنية التى تحاك ضد الفاتحين ، ولئن كان المسلمون قد أخمدوا حركاتهم الثورية بشىء من القسوة أحياناً ، إن الدافع إلى هذه القسوة كان سياسيًّا لا دينيًّا .

وكذلك فقد كان العنصر اليهودى كبيراً فى الدولة الأموية ، وقد استقبل هذا العنصر الفاتحين العرب كمحررين لأن القوط كانوا يسومون اليهود أنواع العذاب ولهذا فقد قدّموا للعرب المساعدة ، وفى القرن العاشر الميلادى كانت قرطبة أكبر مدينة إسبانية تضم يهوداً ، وكانوا يمتهنون تجارة العبيد وبيع أدوات الزينة . وقد تقلب بعضهم فى مناصب الدولة ولا سيما فى عهد الناصر ، أما فى عهد المرابطين والموحدين فقد نالهم العذاب .

* * *

هذا الاستعراض لمختلف العناصر الجنسية التى تألفت منها الدولة الأموية يبين لنا كيف كانت هذه الدولة مزيجاً متبايناً من عناصر تختلف فى العرق وفى الدين وفى الأهواء والغايات . وقد أدى هذا المزيج إلى أن تتصف الدولة بصفة خاصة تميزها عن باقى الدول الإسلامية . ولهذا كان الشاغل الأول الذى يشغل حكامها وخلفاءها هو أن يحققوا ، ضمن هذا المزيج ، وحدة تستند قبل كل شىء إلى القوة ، وأن يمنحوا دولتهم بناء متيناً يشبه بناء الخلافة الشرقية فى أوج مجدها أو بناء الدولة الفارسية أو البيزنطية ، آخذين بعين الاعتبار العناصر المختلفة التى يجب أن تبقى دائماً فى خضوع تام للسلطة الحاكمة . وقد استطاع هؤلاء الحكام أن يحققوا الغاية التى يرمون إليها خلال قرن من الزمن يمكن اعتباره عصر الأندلس الذهبى . ولكن

عند ما بدأ يضعف السلطان الأموى وتظهر الرغبات الكامنة فى قلوب هذه العناصر المختلفة ، أخذ ذلك البناء الذى شاده عبد الرحمن الثالث بحزمه وقوته يتأرجح شيئاً فشيئاً ، حتى جاءت الفتنة إثر الفتنة ، وكان هذا الاختلاف الجنسى من أعظم الأسباب التى أزالت مُلْكَ الإسلام فى الأندلس .

الفصل السادس

شخصية الأندلسي

هل يمكننا أن نتكلم عن مجتمع أندلسي ؟ للإجابة عن هذا السؤال يجب ألا ننسى ما قلناه سابقاً عن العناصر المختلفة التي تؤلف الشعب الأندلسي ، وعلى رغم اختلافها وتعددها الظاهر فقد تركت في الأندلسي صفات مشتركة استطاعت أن تمنحه شخصيةً خاصةً به ؛ فالطبيعة نفسها فرضت سلطانها في تكوين هذه الشخصية ، والاختلاف العنصري نفسه لعب أيضاً دوره في تكوين هذه الشخصية ، إذ — سواء أكان الأندلسي عربيًّا أم بربريًّا ، أم صقلبيًّا ، أم إسبانيًّا محافظاً على دينه — كنت تراه يتميز بصفات لا تجدها عند هذه العناصر التي بقيت خارجة عن محيط الأندلس . ولكن هذه الشخصية لم تكن لتستدعي أن تمحو كل الصفات الأخرى التي تميز العربي عن البربري وعن الصقلبي وعن الإسباني ، كما يريد أن يعتقد به المستشرق هنري به رس[1] . فالشخصية الأندلسية إذاً موجودة ضمن هذا الاختلاف العنصري ، ومما لا شك فيه أن ظواهر هذا الاختلاف تقل عند ما ننظر إلى الشعر الأندلسي من خلال الطبقات التي يتألف منها ؛ فالطبقة الأرستقراطية مثلاً أو طبقة الحكام قد تجمعها صفات واحدة على رغم اختلاف العناصر الجنسية التي تتألف منها . وكذلك الطبقات الأخرى المتوسطة أو الدنيا التي تشمل سائر غوغاء السوق . ومن المفيد أن نشير إلى أن لسان الدين بن الخطيب قد نظر إلى الشعب الأندلسي هذه النظرة أي من خلال الطبقات التي يتألف منها ولم يهتم كثيراً بالفوارق العنصرية ، وقد عدّ المستعربين أي الإسبانيين الذين حافظوا على دينهم والذين نسميهم : (Mozarabes) عدّهم من طبقة الأشراف . ونجد تقسيمه هذا في كتاب « أعمال الأعلام » عند كلامه على

---

(١) انظر : Henri Pérès *la poéseandalouse en arabe classique au Xe siècle, p.*16-20.

حكم هشام المؤيد[١] .

بعد هذه الملاحظات يمكننا أن نتكلم على صفات الأندلسى ، وقد أشار إليها كثير من المؤلفين العرب :

فابن غالب فى رسالته « فرحة الأنفس » التى يذكرها المقرى[٢] يصف لنا الأندلسى رجلا مهتمًّا بلباسه وهندامه وطعامه محبًّا للهو والغناء والموسيقى ، ونجده أيضاً ، إلى جانب هذه الحياة اللاهية ، حسن التدبير محبًّا للعلوم والفلسفة والعدالة . نعم إن الذى لا شك فيه أن الأندلسى قد تمتع بصفات تنحدر من باخوس (Bacchus) إله الخمر واللهو كما تنحدر من أبولون (Apollon) إله الفن والشعر ، ولهذا فليس عجيباً أن نراه محبًّا للفن شاعراً ولاهياً عابثاً ثم بعد هذا منصرفاً إلى التفقه فى العلوم والتشريع والدين والفلسفة بتأثير الدافع الإسلامى وحب التأمل وفهم أسرار الحياة . وقد عدّ ابن غالب من فضائل الأندلسيين اختراعهم للموشحات التى استحسنها أهل المشرق وصاروا ينتزعون منتزعها .

هذا وابن غالب لا يكتفى بذلك بل يحاول أن يجد بين الأندلسيين والشعوب الأخرى بعض المشابهات فيقول : « أهل الأندلس عربٌ فى الأنساب والعزة والأنفة وعلو الهمم وفصاحة الألسن وطيب النفوس وإباء الضيم وقلة احتمال الذل ، والسماحة بما فى أيديهم ، والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية ؛ هنديون فى إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيها وضبطهم لها وروايتهم ، بغداديون فى نظافتهم وظرفهم ورقة أخلاقهم ونباهتهم وذكائهم وحسن نظرهم وجودة قرائحهم ولطافة أذهانهم وحدة أفكارهم ونفوذ خواطرهم ، يونانيون فى استنباطهم للمياه ومعاناتهم لضروب الفراسات واختيارهم لأجناس الفواكه وتدبيرهم لتركيب الشجر وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة[٣] » .

مما لا شك فيه أن هذه الأقوال التى تصف الأندلسى تميزه بأمور لا نجدها عند عربىّ البادية ، ولا شك فى أن للطبيعة الأندلسية أثرها فى صقل هذه الشخصية

---

(١) نشر المستشرق ليفى بروفنسال هذا الكتاب سنة ١٩٣٤ فى مدينة الرباط .
(٢) نفح الطيب . ج ٢ ص ٧٦٣ — ٧٦٤ .
(٣) نفح الطيب . ج ٢ ص ٧٦٣ .

وجعلها تتلاءم مع الأرض والمحيط ، ولكن لا يجب أن نرى فيها ما يحمل على الاعتقاد مع هنرى به رس أن الأندلسى شخصية قطعت صلاتها بأصلها وجنسها ، وإنما هى شخصية عرفت التلاؤم مع المحيط بل عرفت أن تعيش فيه . وإذا كنا نراها بعيدة فى نمط عيشها عن نمط عيش البدوىّ فما ذلك إلا لاختلاف الحياتين . ولكنّ وسائل التعبير بقيت هى هى ، وبقى الأندلسى ينظر إلى عبارة الشرق وأسلوب المشارقة وحياتهم الفكرية نظرة مثالية فيها كثير من الشوق وكثير من العز وكثير من الرغبة فى عدم الابتعاد عن تقاليدهم المرسومة كما سنرى .

هذا ونرى ابن حزم يحذو حذو ابن غالب فى وصف الأندلسى فيجد فيه من المزايا ما تقربه من شعوب أخرى فيقول : « إن أهل الأندلس صينيون فى إتقان الصنائع العملية وإحكام المهن الصورية ، تركيُّون فى معاناة الحروب ومعالجات آلاتها والنظر فى مهماتها »[1].

وإذا كانت هذه المقارنات توحى إلى نفوسنا ببعض الفكر الصحيحة عن صفات الأندلسى فإنها لا تصل إلى تعريفه تعريفاً صادقاً . ونشعر حقًّا أن اللعب بالألفاظ قد يطول ، إذ أنها تستند إلى ضروب البيان والبلاغة والمدح أكثر من استنادها إلى علم الاجتماع . والأدب العربى حافل بأنواع هذه المشابهات وهذه الأوصاف التى لا يتردد الأدباء فى منحها لفريق دون فريق ، وقبيلة دون أخرى أو شخص مفضل دون آخر .

هذا وقد وصف المقرى أيضاً أهل الأندلس بصفات خاصة وامتدح ظرفهم وأدبهم وقال إن فيهم صفات متأصلة تميزهم عن غيرهم ويتناقلها أولادهم وعلماؤهم وكبراؤهم . لامراء فى أنه من العبث أن نحاول فى كلمات محدودة تعريف الأندلسى المسلم ، ولكن جميع الصفات التى وردت فى الأقوال السابقة لا يمكن إهمالها

---

(١) نفح الطيب . ج ٢ ص ٧٦٣ . فى الصفحات التالية من نفح الطيب نجد نص رسالة لابن حزم كتبها رداً على أبى الحسن بن محمد بن الربيب التميمى القيروانى الذى ذكر تقصير أهل الأندلس فى تخليد أخبار علمائهم وسير ملوكهم فأجابه ابن حزم داحضاً مزاعمه ومشيراً إلى من ألف فى تخليد أخبار علماء الأندلس ومآثرهم فى رسالة قيمة تذكر لنا أسماء طائفة من العلماء مع مؤلفاتهم وتطلعنا على مظهر من مظاهر الحركة العلمية والأدبية فى ذلك العصر .

عندما نرغب فى تعريفه ، وهى تثبت أن الأندلسى ، فى نظر المؤلفين العرب ، لم يكن عربيًّا صرفاً ؛ إنه عربى وشىء آخر اكتسبه من الحياة الجديدة التى عاشها ؛ ولذلك يحاول هؤلاء المؤلفون أن يجدوا بينه وبين الشعوب الأخرى بعض الصفات التى تقربه منهم ، فالاختلاط والحياة الجديدة والأصل العربى ، بل الحياة العربية التى تملأ مخيلته ، هى عناصر ثلاثة كوّنت الأندلسى المسلم فى الجزيرة الإسبانية . نعم إنه أندلسى ولكن عند قراءة آثاره ولا سيما شعره لا نستطيع أن ننكر أصله العربى وصفته الشرقية ، فقد بقى هذا الأندلسى شرقيًّا فى تفكيره شرقيًّا فى أسلوب تعبيره إلى جانب بعض المميزات التى لا يمكن الفرار منها والتى هى ناجمة عن اختلاف المحيط الجغرافى والإنسانى . لهذا نحن لا نستطيع أن نقول مع هنرى به رس إن الأندلسى المسلم هو امتداد عنصرى للشعوب الأصلية التى سكنت الجزيرة الإسبانية ، إن مثل هذا الحكم الجازم لانستطيع أن نوافق المستشرق عليه ، ولا تستطيع الآثار نفسها أن توافقه على ما زعم . بقى علينا أن نعلم ما إذا كان هذا الأدب هو ظل للأدب الشرقى ، وهذا ما سنراه فى الفصول المقبلة ، وسنرى أنه ظل لشرق وحقيقة لأندلس .

الفصل السابع

سمات العصر الأندلسى فى السياسة والاجتماع والفكر

يتصف العصر الأندلسى بصفتين متناقضتين هما : التعصب والاستبداد من ناحية ، والتساهل والحرية من ناحية أخرى .

أما التعصب فلم يكن على درجة واحدة وقوة واحدة فى مختلف الأدوار التى مر بها هذا العصر . ولقد كان لوجود المسلمين فى بقعة تتاخمها النصرانية ويناصبهم أهلها العداء أثر كبير فى إذكاء الشعور الدينى فى نفوسهم ، وقد ساعد الفقهاء فى دعم هذا الشعور وتقويته لما لهم من نفوذ دينى .

ولكن هذا التعصب الذى كان خيراً فى سبيل دعم القوة الإسلامية ضد أعدائها ، كان فى الوقت ذاته شرًّا على الحرية الفكرية عند المسلمين أنفسهم . وذلك أن الفقهاء ، حرصاً منهم على سيادتهم ، كانوا يثيرون العامة فى كثير من الأوقات على المفكرين والفلاسفة ومَنْ نظروا فى أمور الدين والشرع والسنة ، ولا يحجمون عن أن يطلبوا من الخلفاء أنفسهم أن يمعنوا فى التضييق على رجال الفكر . ولهذا كنت ترى عامة الشعب ، تحت تأثير دعوة الفقهاء ، ساخطين على الفلاسفة الذين كان ينظر إليهم أحياناً كزنادقة وملحدين . وكان من الطبيعى أن تروج الدسائس والسعايات فى مثل هذا الجو ، وأن يلقى المفكرون العنت والشر فيعمد الخلفاء أحياناً فى سبيل التودد إلى الفقهاء والعامة إلى حرق كتبهم واضطهادهم . فقد نُكِب ابن رشد وأصحابه ونُفى ابن هانئ عن الأندلس ، وامتدت النقمة إلى الوزراء والقضاة فنالهم السجن والاضطهاد كابن زيدون وابن الخطيب وابن زمرك وغيرهم .

ولئن كانت الصفة الغالبة هى التعصب ؛ لقد كانت تمر فترات يأتى فيها ملوك عادلون ينتصرون لحرية الفكر دون أن يثيروا الفقهاء كما كان الشأن زمن الموحدين حيث انتعشت الفلسفة وقلت الوشايات ذات الصبغة الدينية .

إلى جانب هذا التعصب الديني الذى كان يكم الأفواه ، كنت ترى حياة الدعة والتساهل منتشرة ، فقد كانت الحياة الخاصة متعة متصلة الحلقات ، وهنا تبدو الحرية ما دامت لا تتصل بأمور السياسة والدين والحكم ولا تتصدى للمصالح الذاتية ، ولهذا كنت ترى الأندلسى يتهتك دون وازع ، وقد انغمس الشعراء والكتاب فى حمأة الدعارة ونطقت ألسنتهم بأفحش الأقوال ، وامتدت هذه الحرية إلى الملوك فرأيتهم يرخون العنان للهوهم وطربهم وللهو الناس وطربهم ، ما دام هذا اللهو وهذا الطرب لا يمسان الدين الذى له حرمته فى النفوس . فانتشرت الخلاعة وعمت مجالس اللهو وساءت الأخلاق وكان ضرر هذا التسامح أبلغ أثراً من ضرر التعصب ، إذ قد أفسد النفوس فاستسلمت للراحة والدعة وهان عليها أن تقبل الصدمات والذل ولا تثور لكرامتها فبقيت خانعة باكية معولة تحن إلى مجد آفل وعز سليب .

ومن أمثلة هذه المجالس اللاهية ما يرويه لنا ابن خاقان فى المطمح عن مجلس مُزِج فيه الجد بالهزل قد أقامه الوزير أبو عامر بن شُهَيد [١] فى ليلة سبع وعشرين من رمضان فى هذه الليلة المباركة التى يجب أن ينقطع فيها الإنسان إلى التهجد والعبادة :

قال الفتح بن خاقان : « وأخبرنى الوزير أبو الحسين بن سراج وهو بمنزل الوزير أبى عامر بن شُهَيد ، وكان من البلاغة فى مدى غاية البيان ، ومن الفصاحة فى أعلى مراتب التبيان ، وكنا نحضر مجلس شرابه ، ولا نغيب عن بابه ، وكان له بباب الصومعة من الجامع موضع لا يفارقه أكثر نهاره ، ولا يخليه عن نثر درره وأزهاره ، فقعد فيه ليلة سبع وعشرين من رمضان فى لُمَّة من إخوانه ، وأئمة سلوانه ، وقد حَفُّوا به ليقتطفوا نخب أدبه ، وهو يخلط لهم الجد بهزل ، ولا يفرط من انبساط مشتهر ولا انقباض جَزْل ، إذا بجارية من أعيان أهل قرطبة معها مِنْ جواريها ، مَنْ يسترها ويواريها ، وهى ترتاد موضعاً لمناجاة ربها وتبتغى منزلا لاستغفار ذنبها ، وهى متنقبة ، خائفة ممن يرقبها مترقبة ، وأمامها طفل لها كأنه

(١) من شعراء الدولة العامرية ، ولد سنة ٣٨٢ هـ وتوفى بقرطبة سنة ٤٢٦ هـ .

غصن آس ، أو ظبي يمرح فى كناس ، فلما وقعت عينها على أبى عامر ولت سريعة ، وتولت مروعة ، خيفة أن يشبب بها ، أو يشهرها باسمها ، فلما نظرها ، قال قولا فضحها به وشهرها :

ونـاظـرة تحت طى القناع ... دعاها إلى الله للخير داع
سعت خفية تبتغى منزلاً ... لوصل التبتل والإنقطاع
وجالت بموضعنا جولة ... فحل الربيع بتلك البقاع
أتتنا تبختر فى مشيها ... فحلت بواد كثير السباع
وريعت حذارا على طفلها ... فناديت يا هذه لا تراعى
غزالك تفرق منه الليوث ... وتنصاع منه كماة المصاع
فولت وللمسك من ذيلها ... على الأرض خط كظهر الشجاع[1]

وهذا أبو القاسم بن العطار أحد أدباء إشبيلية ونحاتها ، كان رجلا مستسلماً إلى الصبابة ، كما يقول الفتح بن خاقان فى قلائده ، لا يحفل بملام ولا ينتقل عن المدام ، فلنسمعه يتغزل بهذه الأبيات الرقيقة :

هب النسيم مع العشى فشاقنى ... إذ كان من جهة الحبيب هبوبه
قد كنت ودعت الصبا ودواعه ... وأخو الصبابة لا تفيق ندوبه
فدعا الهوى لى دعوة لم أعصها ... والصب راحة قلبه تعذيبه
لو لم أجب داعى الهوى وعصيته ... لغدت جفونى بالدموع تجيبه

ومن مظاهر هذه الحياة اللاهية أيضاً علاقة الشعراء وغير الشعراء بالمسيحيين والمسيحيات من سكان الأندلس ، وعندما يحدثنا الشعراء عن هذه العلاقات ،

---

(١) مطمح الأنفس ص ١٩ — ٢٠ .

لا يكتفون بتصوير الجانب اللاهى من الحياة الأندلسية وإنما يقدّمون لنا معلومات ذات قيمة عن حياة هؤلاء المستعربين Mozarabes وعن لباسهم وأزيائهم ، وعن الحرية التى كانوا يتمتعون بها فى قيامهم بشعائرهم الدينية وعن اختلاط المسلمين الأندلسيين بهم اختلاطاً كبيراً ، فقد ذكر ابن خاقان فى المطمح[1] « أن أبا عامر بن شُهَيْد قد بات ليلة بإحدى كنائس قرطبة وقد فُرِشَتْ بأضغاث آس ، وعرشت بسرور واستئناس ، وقَرْعُ النواقيس يُبهج سمعَهُ وبرقُ الحُميَّا يَسْرَحُ لمعُهْ ، والقَسُّ قد برز فى عبدة المسيح ، متوشّحاً بالزنانير أبدعَ توشيح ، قد هجروا الأفراح ، واطّرحوا النِّعَمَ كلَّ اطّراح :

لا يَعْمَدُونَ إلى ماءٍ بآنيةٍ ... إلا اغترافاً من الغُدرانِ بالرَّاحِ

وأقام بينهم يرشف حُمَيَّا ، كأنما يرشف من شَفَة لميَّا ؛ وهى تَنْفح له بأطيب عَرْف ، كلما رشفَ أعذبَ رَشْف ، ثم ارتجل بعدما ارتحل ، فقال :

وَلَرُبَّ حانٍ قد شَمَمْتُ بِدَيْرِهِ ... خَمْرَ الصِبا مُزِجَتْ بِصِرْفِ عَصِيرِهِ

فى فتيةٍ جَعَلوا السرورَ شِعارَهم ... متصاغرينَ تخشُّعاً لِكَبيرِهِ

والقَسُّ مما شاءَ طولَ مُقَامِنا ... يدعُو بعُودٍ حولنا بَزَبُورِهِ

يَهدِى لنا بالرَّاحِ كلَّ مُصَفَّرٍ ... كالخَشفِ خَفَّرَه التماحُ خَفِيرِه

يتناولُ الظرفاء فيه وشُرْبُهم ... أَسلافُهم والأَكلُ من خِنْزِيرِه

هذه الأبيات الصريحة التى لا يستبعد أن تكون صراحتها مقصودة تشير إلى أكثر مما أشار إليه المستشرقون عندما ذكروها فى مؤلفاتهم . ورسالة ابن عبدون[2]

---

(١) ص ٢١ .

(٢) تبحث هذه الرسالة عن الحياة المدنية والمهن فى إشبيلية فى مطلع القرن الثانى عشر الميلادى . نشرها المستشرق ليفى بروفنسال سنة ١٩٣٤ فى الجريدة الآسيوية (عدد : نيسان — حزيران)

تتبت لنا أن هناك امتزاجاً شديداً بين الأندلسيين والمسيحيين المستعربين مما يؤيد أن الصورة التى يقدمها أبو عامر بن شهيد فى الأبيات السابقة ليست على صراحتها كثيرة المبالغة .

هذا عدا مشاهد الحب التى كان يصورها الشعراء والتى كانت ترسم لنا علاقات الأندلسيين بالمسيحيات والمستعربات ، وهى علاقات ما كانت لتقتصر على الطبقات العليا بل نجدها فى مختلف طبقات الشعب الأندلسى ولا سيما الطبقات الوسطى والدنيا . فالشاعر الرمادى[1] يشير إلى نوع من العلاقات الماجنة بشىء من الصراحة أحياناً ، فيقول مخاطباً الساقى النصرانى :

أَدِرْها مثلَ ريقِكَ ثم صَلِّبْ   كعادتِكم على وَهْمِى وكَاسى

فَقَضَّى ما أَمرتُ به اجتلاباً   لمسرورى وزادَ خُنُوعَ راسى[2]

ويقول فى مكان آخر :

قَبَّلْتُهُ قُدَّامَ قِسِّيسه   شَرِبْتُ كاساتٍ بتقديسِهِ

يَقرَعُ قلبى عند ذِكرى له   مِن فَرْطِ شَوْقى قرعَ ناقوسه[3]

* * *

وإذا كان الشعراء قد تعبهروا فى حبهم وذكْر علاقاتهم بالأوساط المسيحية فهناك آخرون قد أظهروا لنا وجهاً عفيفاً محبباً لهذا الاختلاط ، كما فعل أبو عبد الله بن الحداد[4] أحد شعراء بلاط المرية زمن المعتصم بن صمادح ، وإذا ما تلونا أشعاره التى نجدها فى الذخيرة والتى تصور لنا حبه لأولئك النصرانيات كحبه لنُوَيْرة ،

---

(١) هو أبو عمر يوسف بن هارون المعروف بالرمادى ، شاعر قرطبى مجيد ، سريع القول ، عاصر المتنبى ، توفى سنة ٤٠٣ هـ .

(٢) المطمح ص ٨٠ . نفح الطيب ج ٥ ص ١٨٠ (طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد) .

(٣) المطمح ص ٨٣ .

(٤) توفى هذا الشاعر سنة ٤٨٠ هـ .

أقول إذا تلونا هذه الأشعار شعرنا بنفحة عذرية بدا مثلها فيما بعد على أشعار التروبادور . وأشعار ابن الحداد لها فائدة أخرى فهى تمنحنا صورة واضحة عن طريقة إحياء المسيحيين والمسيحيات لشعائرهم الدينية كما كانت معروفة عندهم .

ولعلنا ، ونحن نرغب أن نعرض وجهاً من وجوه حياة الأندلس اللاهية التى امتاز بها العصر ، قد استطعنا أن نبين لكم مدى الاختلاط الذى نشأ بين الأندلسيين المسلمين والإسبانيات اللواتى حافظن على دينهن ، ولا شك أن الأثر الذى تركه هذا الاختلاط فى الشعر والأدب لا يمكن نكرانه .

* * *

والآن يجدر بنا ، كخاتمة لهذا الباب ، أن نلم بوصف مجمل لإدارة المجتمع الأندلسى والحياة العقلية فيه .

إدارة المجتمع الأندلسى :

من الكتب القيمة التى تصف الحياة الاجتماعية الأندلسية ومنظماتها السياسية والإدارية والقضائية كتاب المستشرق ليفى بروفنسال المسمى (إسبانيا المسلمة فى القرن العاشر الميلادى)[١] . لقد خصّ المستشرق بحثه فى هذا الكتاب بالقرن العاشر الميلادى إلا أن ما جاء فيه يمكن أن ينطبق على سائر العصور التى مرّت بالأندلس بعد السنين الأولى من الفتح ؛ فما هى أبرز صفات هذه الحياة الاجتماعية التى كانت مسرحاً لحياة عقلية خصبة ؟

كانت السلطة العليا فى الأندلس فى مختلف العهود السياسية التى مرت بها بيد الأمير أو الخليفة . وكان يساعده فى أمور المالية والأعمال الخارجية ورفع المظالم (القضاء) والإدارة الحربية أربعة وزراء ، وكان له مستشاران يسميان بالوزيرين ، وكثيراً ما كان يطلق على كل منهما اسم ذى الوزارتين ، وكان لكل مصلحة فى الدولة كُتّاب مختصون بها ، ككتّاب الرسائل وكتّاب الذمام الذين ينظرون فى شئون أهل الذمة . وكان يتوسط نقل الأوامر بين الخليفة والوزراء رجل يسمى

---

(١) أشرنا إليه سابقاً ، واسمه بالفرنسية
L'Espagne musulmane au Xo. siécle

بالحاجب صارت وظيفته فيما بعد أعظم من وظيفة الوزير . وقد استبد بعض الحجَّاب بالخلفاء كما فعل الحاجب المنصور ، وكثيراً ما كان يتسابق ملوك الطوائف إلى أخذ هذا اللقب ، وكان فى كل مدينة قاض وكان قاضى الجماعة أى قاضى القضاة يقيم فى قرطبة ، ولا يشغل مناصب القضاة سوى أكابر العلماء والفقهاء .

وكان إلى جانب وظيفة القضاء وظيفة العدالة ويقوم صاحبها بتسجيل العقود والاتفاقات ، وكان يعهد بحفظ النظام والأمن إلى رئيس الشرطة ويعتبر منصبه من أعظم المناصب القضائية والإدارية . ويقوم المحتسب على شئون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومراقبة الأسواق ، ومن خصائصه مطاردة المنكرات والتأديب والعمل على احترام الأحكام الشرعية وقمع الغش والاختلاس فى المعاملات . وكان للأندلس فى عهدها الزاهر أسطول قوى كان يسمى قائده بأمير الماء ، ووضعت أنظمة للجيش متأثرة بأنظمة الإفرنج وبضرورات الحياة التى كانت تحيط بالأندلسيين . وكان إلى جانب الطبقة الحاكمة طبقة الفقهاء التى كان لها نفوذ واسع حاولت كثيراً أن تستغله فى السياسة وتدبير الملك ، وفى القضاء على الروح العلمية والثقافية بل كثيراً ما دبَّرت الثورات لقلب الحكم كما أشرنا إلى ذلك سابقاً[1] .

وقد ساعدت تنحية العرب عن الجيش فى زمن عبد الرحمن الداخل على وجود طبقة الجنود المتطوعة من بربر وصقلبيين ، فقامت بنصيبها الكبير من الفتن ، بل إن طبقة الخصيان والموالى أصبحت فى عهود ضعف الدولة تتصرف فى شئون الخلافة والملك كما ذكرنا . وقد ضعفت الروح الحربية عند العرب كما ضعف الروح الاجتماعى وتدهورت الأخلاق وساعد الغنى وخصب البلاد على انصراف الناس إلى اللهو والملذات كما قلنا ، وظهر فيهم شعور الأثرة حتى استنجد المسلمون بالفرنجة أعدائهم . ونشأ من بين العرب أنفسهم طبقة الزراع والتجار والصناع الذين قاموا بنصيبهم فى رقى الأندلس وحضارتها ، أضف إليهم طبقة الموالى المؤلفة من الإسبانيين وغيرهم الذين دخلوا فى الإسلام ، وطبقة اليهود الذين كانوا منتشرين فى إسبانيا .

---

(١) انظر ص ٢٧ و ٤٧ من هذا الكتاب .

ويجب ألا ننسى عاملا اجتماعيًا هامًا ساعد على تقويض الأندلس وضعف الروح الحربية فى الأندلسيين وميلهم إلى الترف وهو تزوجهم أو تسريهم بالقوطيات (الإسبانيات) اللاتى أضعفن روح العروبة فى أبنائهن كما بدا لنا ذلك أثناء البحث عن عناصر الشعب الأندلسى .

وقد انتشرت فى الأندلس روح الفتوة التى سادت بنفس الوقت لدى الإسبانيين والغربيين قاطبة وكانت لها قوانين متبعة وأصول مقررة إذا خالفها الفارس أخل بشرفه .

وقد بقيت الفروسية الأندلسية عصوراً تجذب الأنظار إليها باكتمالها وروعتها إلا أنها لم تستطع أن تُذْكى فى نفوس أكثر العرب روح الحرب لانصرافهم عنها إلى اللهو والرخاء ، وظلت على الأكثر مظهراً من مظاهر المباهج والتسامح . وقد كثر الشغف بالفروسية فى حُكْم دولة بنى الأحمر وكانت مبارياتها وحفلاتها من أجمل المباهج العامة التى تجرى فى غرناطة . وكثيراً ما اجتمع فيها الفرسان المسلمون والنصارى يتبادلون الزيارات ويسوُّون منازعاتهم . وكان من أهم مميزات هذه الحفلات اختلاط الجنسين ، فكان نساء غرناطة ، البارعات فى الحسن والأناقة ، يشهدن هذه الحفلات وغيرها من المحافل العامة سافرات ، ويخلعن عليها جوًا من السحر والروعة ينم عما كن يتمتعن به من الحرية[1] .

(١) محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس ، ص ٣٣١ .

الحضارة الأندلسية والحياة الفكرية

عرفت الحضارة الأندلسية تطورات مختلفة ، متبعة تطور تاريخ الأندلس السياسى . فقد وصلت هذه الحضارة إلى ذروة القوة فى عهد الخلافة الأموية أيام حكم عبد الرحمن الناصر وولده الحكم ولكنها لم تصل إلى ذروة نضجها الفكرى ، ولما انهارت الخلافة الأموية وسادت الفوضى أرجاء الأندلس فى عهد الفتنة ذوت الحضارة الأندلسية وخبت مظاهرها العمرانية والفكرية حتى جاءت دول الطوائف فاستطاعت على رغم تطاحنها أن تعيد بهاء الحضارة الأندلسية فى قصورها ومنشآتها ومجتمعاتها ، وسطعت شمس الأدب والفكر ، وعرفت الأندلس فى هذه الحقبة المضطربة من تاريخها طائفة من أعظم مفكريها وأدبائها وشعرائها أمثال الفيليسوف ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ والمؤرخ ابن حيان المتوفى سنة ٤٦٩ هـ والشاعر ابن زيدون المتوفى سنة ٤٦٢ هـ والشاعر الأديب ابن عبدون المتوفى سنة ٥٢٠ هـ وغيرهم من المفكرين والأدباء والشعراء الذين ذكرهم ابن خاقان فى « قلائد العقيان » والمقرى فى « نفح الطيب » . بل إن ملوك الطوائف أنفسهم كانوا — كما قدمنا — فى طليعة الأدباء والشعراء ، كالعالم عمر بن الأفطس صاحب بطليوس ، والمعتضد والمعتمد صاحبي إشبيلية ، والمعتصم بن صمادح صاحب المرية .

ولكن هذه النهضة الفكرية والأدبية الزاهرة ما عتمت أن توقفت عقب تضعضع دول الطوائف واستيلاء المرابطين على الأندلس سنة ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م ، فقد كان هؤلاء المرابطون ، كما ذكرنا[١] ، شديدى التعصب ، قساة غلاظاً ، ألفوا الحرب والخشونة فلم تجد دولة الفكر والأدب فى ظلهم مرتعاً خصباً . نعم لقد تألقت فى عهدهم القصير بعض الأسماء اللامعة أمثال الطبيب أبى القاسم خلف بن عباس القرطبى[٢] والفيلسوف ابن باجة[٣] والفتح بن خاقان[٤] وابن بسام[٥] صاحب

---

(١) انظر ص ٢٦ ، ٣٢ من هذا الكتاب .
(٢) توفى سنة ٥١٦ هـ .
(٣) توفى سنة ٥٢٣ هـ .
(٤) توفى سنة ٥٣٥ هـ .
(٥) توفى سنة ٥٤٢ هـ .

كتاب « الذخيرة » ، وابن قزمان[1] صاحب الأزجال الشهيرة ، ولكن ظهورهم وأضرابهم فى هذه الفترة لم يكن إلا امتداداً للنهضة الفكرية التى ازدهرت فى عهد ملوك الطوائف .

ثم جاءت دولة الموحدين ، فانتعشت الحضارة الأندلسية ونشطت حركة التفكير . لقد نشأ الموحدون كالمرابطين فى مهاد الخشونة والتقشف ولكنهم كانوا أوسع أفقاً ، وكان مؤسس دولتهم المهدى بن تومرت من أئمة التفكير الدينى . وأظهر خلفاؤه عبد المؤمن وبنوه اهتماماً بالعلوم والفنون ، وأطلقت حرية التفكير والبحث بعد أن قيدت فى عهد المرابطين وأفرج عن كتب الغزالى وغيره من مفكرى المشرق ، وكانت قد كوفحت ومنعت فى أيامهم بالمغرب والأندلس . وفى هذه الفترة ، أى فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجرى ، بلغت النهضة الفكرية فى الأندلس ذروة نضجها وظهرت طائفة من أقطاب العلم والأدب ، وفى طليعتهم أبو جعفر بن الطفيل الإشبيلى صاحب رسالة « حى بن يقظان » المتوفى سنة ٥٧١ والفيلسوف ابن رشد القرطبى المتوفى سنة ٥٩٤ هـ ، والرئيس موسى بن ميمون القرطبى المتوفى سنة ٦٠٢ هـ وكان يهودياً وهو من أشهر الأطباء والفلاسفة فى عصره .

وقد كان ابن رشد أعظم فلاسفة الإسلام ومفكريه فى ذلك العصر ، ومن أهم آثاره شروحه لفلسفة أرسطو فى المنطق وما وراء الطبيعة ، وقد ترجمت إلى اللاتينية منذ القرن الثالث عشر وكانت مفتاح الدراسات الأرسطوطالية فى العصور الوسطى . وغدت شروح ابن رشد أساساً لكثير من المباحث الفلسفية التى ازدهرت أيام حركة الإحياء الأوربى . وكانت الأندلس ، بفضل ابن رشد وأمثاله من الفلاسفة والعلماء العرب ، عاملا هاماً فى رقى أوربا . فعن طريق الأندلس بالدرجة الأولى اطلع الأوربيون على الفلسفة والعلوم اليونانية القديمة .

وظهر فى تلك الفترة ، إلى جانب هؤلاء العلماء ، عدد من أعلام الشعر والأدب مثل أبى القاسم خلف بن بشكوال القرطبى المتوفى سنة ٥٧٨ هـ وهو مؤلف كتاب الصلة ، وابن بدرون الإشبيلى المتوفى فى فاتحة القرن السابع ، وهو شارح

---

(١) توفى سنة ٥٥٥ هـ .

قصيدة ابن عبدون الشهيرة فى رثاء بنى الأفطس .

وازدهرت المعاهد العلمية أيام الموحدين بالمغرب والأندلس ، وكانت المعاهد الأندلسية فى إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبلنسية ومرسية يومئذ مجمع العلوم والمعارف ، ومقصد الطلاب من كل فج ، وفيها المكتبات التى تضم الكتب النفيسة والتآليف النادرة فى مختلف العلوم والفنون . وعنى الموحدون أيضاً برعاية الفنون وأقيمت فى عهدهم طائفة من المساجد والأبنية الفخمة التى تمتاز بجمالها الفنى .

ولما اضمحل شأن الموحدين ، وضعف أمرهم بالمغرب والأندلس ، فى أوائل القرن السابع الهجرى ، واجتاحت الفتنة معظم البلاد والثغور الأندلسية ، قام المتغلبون يتنافسون فى اجتناء أسلاب الدولة الذاهبة ، وبدأت قواعد الأندلس تسقط تباعاً فى يد النصارى ، وشغلت الأندلس بمحنتها ، وانصرفت إلى متابعة الجهاد ومدافعة المغيرين ، فانكمشت فنون السلم ، واضطربت دولة التفكير والأدب ، ومع ذلك فقد ظلت تمتاز بكثير من نواحى القوة والنضج ، وقد أثرت المحنة فى نفوس الشعراء فأذكت عواطفهم بشعر اللوعة وبعثت إلينا بطائفة من المراثى التى ما زالت تحتفظ إلى يومنا بكثير من قوتها وروعتها[١] .

وغادر الأندلس فى تلك الفترة كثير من الكتاب والعلماء الذين توقعوا سوء المصير ، وآثروا العمل فى جو أكثر استقراراً وطمأنينة ؛ مثل الشيخ محيى الدين بن العربى شيخ المتصوفين الشهير[٢] ، وابن البيطار المالقى[٣] وابن الأبار القضاعى[٤]

---

(١) من هذه المراثى مرثية أبى البقاء صالح بن شريف الرندى ، وكان أديباً وشاعراً جزلا من أهالى رندة عاش فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى وعاصر الفتنة التى تمخضت عن قيام مملكة غرناطة ، ولا نعرف كثيراً عن حياته .

(٢) ولد بمرسية سنة ٥٦٠ هـ ونزح إلى الشرق وبقى فيه حتى توفى بدمشق سنة ٦٣٨ هـ .

(٣) العالم النباتى والطبيب المشهور ولد بمالقة فى أواخر القرن السادس الهجرى : غادر الأندلس فى شبابه وطاف بأنحاء المغرب وقدم إلى مصر والشام وآسيا الصغرى وبلاد اليونان ، ودرس عليه ابن أبى أصيبعة وتوفى بدمشق سنة ٦٤٦ هـ .

(٤) ولد سنة ٥٩٥ هـ وبرز فى الفقه واللغة والنثر والنظم ، تولى الكتابة للأمير أبى جميل زيان أمير بلنسية ، ولما سقطت بلنسية بيد النصارى نزح إلى تونس وتوفى قتيلا بتحريض خصومه سنة ٦٥٩ هـ . وكتب ابن الأبار فى الأدب والتاريخ ومن آثاره تكملة كتاب لابن بشكوال .

وابن سعيد الأندلسى [1] ، وكثيرون غيرهم ممن رحلوا إلى المشرق أو عبروا البحر إلى المغرب .

وانجلت الفتن الداخلية ، وانجلى الصراع بين إسبانيا المسلمة وإسبانيا النصرانية بعد نحو ثلث قرن ، عن سقوط معظم القواعد الأندلسية فى يد النصارى ، وانكمشت رقعة الأندلس تباعاً ، وانحصرت فى الركن الجنوبى الغربى للمملكة الإسلامية القديمة ، فى مملكة غرناطة الصغيرة ، التى برزت من غمر الفوضى وتأسست على يد محمد بن الأحمر زعيم بنى نصر كما تقدم ذكره [2] وإليها هرعت معظم الأسر الأندلسية القديمة وغدت ، خلال مدة تزيد على القرنين ، مستودع تراث الأندلس القومى والسياسى ومستودع الحضارة الأندلسية والتفكير الأندلسى .

وفى ظل مملكة غرناطة أخذت الحركة الفكرية فى الاستقرار وبدأت الأندلس حياتها الجديدة وآنست جواً من الطمأنينة والهدوء . وكان ملوك غرناطة من حماة الآداب والعلوم؛ وسطع بلاط دولة بنى الأحمر بتقاليده الأدبية الزاهرة على غرار قصور ملوك الطوائف .

ويجب أن نلاحظ أن الحركة الفكرية الأندلسية فى عصر بنى الأحمر تكاد تنحصر فى النواحى الأدبية ، فقد ازدهر الأدب والشعر وحفلت غرناطة بجمهرة من أكابر الأدباء والشعراء ، ولكن العلوم العقلية أصابها الركود ، وقلما نجد فى هذه الفترة أحداً من أقطاب الطب والفلسفة أو غيرها من العلوم المحضة التى ازدهرت من قبلُ بالأندلس [3] .

(١) أديب ورحالة ولد فى غرناطة سنة ٦١٠ هـ وطاف بقواعد الأندلس والمغرب والمشرق وتوفى بدمشق سنة ٦٧٣ هـ وله كتاب « المغرب فى حلى المغرب » .

(٢) انظر ص ٣٠ من هذا الكتاب .

(٣) من بين من اشتهر من العلماء والأدباء والشعراء فى هذه الفترة :

— الكاتب الوزير ابن الحكيم أبو عبد الله محمد بن يحيى اللخمى الرندى ولد برندة سنة ٦٦٠ هـ .

— وأبو حيان الغرناطى ولد بغرناطة سنة ٦٥٤ هـ وتوفى بمصر سنة ٧٤٥ هـ وكان بارعاً فى اللغة والأدب ونظم الموشحات .

— ولسان الدين بن الخطيب قطب الحركة الأدبية فى مملكة غرناطة ولد فى لوشة من أعمال غرناطة سنة ٧١٣ هـ وأخباره نجدها فى نفح الطيب فى مجلدين ضخمين .

— ابن زمرك تلميذ ابن الخطيب تزعم من بعده الحركة الأدبية فى الأندلس . ولد سنة ٧٣٣ هـ وقتل سنة ٧٩٧ هـ .

هذا عرض تاريخى لأهم مظاهر الحياة العقلية فى بلاد الأندلس ، والناظر إليها يرى أن العقلية العربية فى الأندلس قد أثر فيها الاختلاط العنصرى تأثيراً كبيراً ، إذ قد صنع الأمويون فى الغرب الإسلامى صنع العباسيين مع الفرس وقربوا القوط إليهم كما ذكرنا فكان من أثر هذا الاختلاط امتزاج العقلية الآرية بالعقلية السامية فنضجت العقلية العربية وزهت الآداب وازدهرت الحضارة واقتبس الإسبانيون ثقافة العرب لأنهم كانوا دونهم ثقافة ، ودخلوا فى دينهم وتعلموا لغتهم وأدبهم وهجروا اللاتينية وأعرضوا عن كتب المسيحية ، حتى أصبح رجال الدين الإسبان يشكون من انصراف الإسبان المسيحيين عن اللاتينية إلى اللغة العربية ، ويأسفون على حماستهم الشديدة للغة العرب وعلى ضياع اللاتينية بين المسيحيين الذين يقبلون على العربية والشعر العربى ويدرسون كتابات متكلمى الإسلام وفقهائه لا ليفندوها بل لكى يكتبوا العربية فى صحة وإتقان[١] .

وقد رأينا كيف شيد الأندلسيون المدارس حتى أصبح أكثر الناس متعلمين ، وكيف ازدهرت الآداب والفنون ازدهاراً يقوى وينخفض بحسب الظروف السياسية والعهود المختلفة التى مرت بها الأندلس ، وكيف أن روح التعصب قد حدت أحياناً من نشاط الفلسفة والعلوم العقلية .

ويحسن أن نشير فى النهاية إلى أن الأندلسيين كانوا فى آدابهم مقلدين للمشارقة لأنهم كانوا يرون فيهم المثل الأعلى لشعرهم وأدبهم ، ويجدونهم منبع علومهم وآدابهم وفنونهم ، وقد ظلت معانى الشعر الأندلسى سطحية ليس فيها إكثار من الحكم وطرق المعانى الفلسفية وذلك لعدم إقبال الشعراء والأدباء على الفلسفة العقلية ولانصرافهم إلى اللهو والحياة السهلة .

وقد كان من نتيجة انتشار الكتابة فيهم وقلة الأمية أن كان عدد الشعراء والأدباء كبيراً ، فقد كان أكثر الخلفاء والفقهاء والوزراء ينظمون الشعر ، بل نجد روايات أدبية تذكر أن بعض السوقة ينظمون الشعر باللغة العربية الفصحى ،

---

(١) انظر : Dozy, *Histoire des Musulmans d'Espagne*

وعلى رغم كثرة عدد الشعراء ووجود طائفة من النابغين فقد قصَّروا عن اللحاق بفحول الشعراء المشرقيين ، وذلك لإقبالهم على اللهو وانصرافهم عن كل ما يكدُّ الذهن من دراسات عقلية ، ولنظرتهم المثلى لكلِ ما كان يرد من الشرق من فكر وأدب وفلسفة والنسج على منواله دون أن يعمدوا ، على الغالب ، إلى إبداع أصيل .

الباب الثانى

الشاعر الأندلسى – أغراض الشعر الأندلسى – شعر الطبيعة



الفصل الأول

الشاعر الأندلسى وطرق التعليم

تهيأت لأهل الأندلس أسباب الشعر ، وتوافرت لديهم دواعيه ؛ فطبعوا على الشغف به ، وانبسطت ألسنتهم بقوله ، حتى قل أن تجد منهم من ألم بطرف من الآداب ولم يقل شعراً .

وقد كان لطبيعة الأندلس الزاخرة بالمفاتن أثر كبير فى طبعهم على هذه الشيمة ، حتى لم تخل مدينة من مدنها من شاعر حاذق ، أو كاتب بليغ كما يقول ابن بسام فى مقدمة ذخيرته .

ولم تقتصر الرغبة فى الشعر والارتياض بنظمه على الرجال ، بل عدتهم إلى النساء ، فنبغ منهن شواعر يكدن يضاهين الشعراء عدداً ؛ وكان منهن طبقة من المحسنات البارعات ، كولادة بنت المستكفى ، وتلميذتها مهجة القرطبية وحمدة بنت زياد المؤدب المعروفة بخنساء المغرب وحفصة بنت الحاج الركونية ، وعائشة بنت أحمد القرطبية ، ونزهون القلاعية الغرناطية ؛ . . وكن جميعاً موصوفات بالجمال والظرف ، إلا عائشة فقد استغنت بالفهم والأدب والفصاحة [١] .

وقد كان للشعر حظوة لدى الملوك ، فنبغ منهم شعراء ، ودرجوا على استيزار الشعراء فكان الوزير نديم الملك وشاعره ومدبر مملكته بآن . فاعتز الشعراء بذلك ، وسمت مكانتهم ؛ وحفلت بهم دور الأمراء ودر عليهم الرزق ، فنعموا ، وترفوا ولهوا وعبثوا إلا أنهم كانوا أبداً مهددين بزوال النعمة ، لوشاية حاسد ، أو مكيدة مبغض ، أو خشية ملك أن يستقل الوزير بالأمر دونه ، كما اتفق لابن زيدون عند بنى جهور ، ولابن الخطيب عند بنى الأحمر ؛ .. وقد تحدث الوزير نفسه

(١) للبحث عن أخبار هؤلاء النساء انظر : نفح الطيب ، فصل : الأديبات من نساء الأندلس ج ٢ ص ١٠٧٦ - ١١٤٨ .

بالملك ، فيظهر مسلكه على رغبته ، فيوقع به ، كما صنع المعتمد بن عباد بوزيره الشاعر ابن عمار .

إلا أن هذا لم يكن شأن جميع الشعراء ؛ فقد عجز فريق منهم عن التقرب من السلطان ، أو الوصول إلى الوزارة فظلوا ، على نباهتهم ، مغمورين خاملين .

ولم تخل حياة الشعراء من مضايقات ، وأعنفها ما كان يلقاه بعضهم من لفيف من الفقهاء ، كانت تدفعهم غيرتهم الدينية إلى أن يوقعوا ببعض من عرفوا بزيغ أو مجون أو خلاعة ؛ كما جرى لابن هانئ ، فقد نفاه أمير إشبيلية خوفاً من الفقهاء والعامة ، لما بدا فى شعره من آثار الخلاعة ، والمجاهرة بما يمس العقيدة .

على أن شعراء الأندلس وأدباءها ، على ما أوتوا من طبع صقلته الطبيعة ونمته المرانة ، لم يكن لهم بد من ثقافة تعينهم وترفد طبعهم ، وغرضنا من هذا الفصل أن نتحدث عن طرق انتشار الثقافة فى ذلك الصقع ، ومادة هذه الثقافة ، وعن الآثار الهامة التى كان الشعراء يتدارسونها ، لنضع أيدينا على ينابيع ثقافة الشاعر .

* * *

كانت العربية لغة الأندلس الرسمية ، بها تجرى المكاتبات والمراسلات ، رغم جنوح لغة التخاطب إلى العامية ، واستعمال بعض الفئات اللغة البربرية ، أو الرومانية ؛ . . وكان الخلفاء ورجال الدولة يقربون من يحسن العربية ، ويتنافسون هم أنفسهم فى دراستها وإجادتها ، ويعملون على استجلاب الكتاب والشعراء إليهم ، ولم يكن التنافس بين الأمراء والحكام مقصوراً على الجانب السياسى ، بل كان يشمل الناحية الأدبية أيضاً ، وكان كل أمير يعمل على أن يكون فى كنفه من الكتاب والشعراء ما يفوق ما لدى منافسه عدداً ومكانة ؛ بل كانت المنافسة فى هذا الباب تدفع الواحد منهم أن يقتنص من لدى منافسه من أدباء أو شعراء كبار ، كما فعل المعتمد بن عباد ملك إشبيلية بابن الأرقم وزير المعتصم بن صمادح صاحب المرية وكاتبه الخاص ، وإن كان لم يوفق فى مسعاه .

والمقرى فى نفح الطيب يروى من الأخبار ما يدل بصراحة على مدى اهتمام الحكام بالكتاب النابهين المالكين زمام العربية ، المقتدرين عليها ، كما يدلنا على

احتقارهم لمن قلّ نصيبه منها ؛ ومن هنا كان تعلُّم العربية والتمكن منها ضرورة لمن يريد أن يصل إلى ديوان الإنشاء .

ولما كان الشاعر يتولى فى كثير من الأوقات وظيفة كتابية بوصفه وزيراً ، كان عليه أيضاً أن يكون واقفاً على أصول الإنشاء مجوّداً للكتابة ، وإذا كان اهتمام الشعراء بالكتابة وفن إنشاء الرسائل ضرورة تقتضيها مهنتهم ككتاب فى دواوين الإنشاء ، فقد كانت الكتابة أيضاً نتيجة لميل أدبى متأصل فيهم ، وقد رأينا كيف أدى العطف الذى أبداه الخلفاء والأمراء نحو الأدب والمتأدبين إلى كثرة الكتاب والشعراء وإلى ازدهار الأدب ولا سيما فى زمن ملوك الطوائف ، ولكن هذا العطف لم يكن السبب الوحيد فى هذا الازدهار بل إن أساوب تعلم اللغة العربية والتثقف بالثقافة الأدبية العامة كان لهما أيضاً أثر كبير فى نهضة الأدب وازدهاره فى بلاد الأندلس .

فما هى طرق هذا التعليم ؟

لدينا كثير من الأخبار التى تشير إلى طرق التعلم والثقافة الأدبية فى البلاد الأندلسية . ويكفى أن نجمع ما يكتبه بعض المترجمين والمؤرخين لحياة كاتب أو شاعر أو عالم عاش فى الأندلس لنعلم ما كان يدرسه هذا الكاتب أو ذاك الشاعر ولنعلم الطريق التى كان يتبعها فى شبابه وفى باقى أيام حياته .

ويحسن أن نضيف إلى هذه الأخبار ما كتبه ابن خلدون فى مقدمته فى الفصل الواحد والثلاثين عن « تعليم الولدان واختلاف أمصار المذاهب الإسلامية فى طرقه » فهو فصل قيّم أشار فيه إلى طرق التعليم فى بلاد المغرب وفى بلاد الأندلس وقارن بين مختلف هذه الطرق . ويتبين من قراءة المقطع الخاص بالأندلسيين(١) أنهم

---

(١) « . . . وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو وهذا هو الذى يراعونه فى التعليم ، إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلا فى التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه فقط بل يخلطون فى تعليمهم للولدان رواية الشعر فى الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب ولا تختص عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة وقد شدا بعض الشىء فى العربية والشعر والبصر بهما وبرز فى الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة » . ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٥٣٨ .

كانوا يعنون بتعليم العربية والشعر قبل العلوم الأخرى وإلى جانب القرآن الكريم أيضاً ليتفهموه ، على خلاف أهل المغرب والمشارقة الذين كانوا يبدءون بتعليم القرآن الكريم دون سائر العلوم ؛ وقد فضّل القاضى أبو بكر بن العربى (٤٦٨ — ٥٤٣ هـ) طريقة أهل الأندلس ونصحها للمشارقة « لأن الشعر — كما قال أبو بكر ابن العربى — ديوان العرب ويدعو على تقديمه وتعليم العربية فى التعليم ضرورة فساد اللغة ثم ينتقل منه إلى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين ثم ينتقل إلى درس القرآن فإنه يتيسر عليك بهذه المقدمة »[1] .

فنلاحظ أن الثقافة الشعرية واللغوية كانت أول ما يتعلمه الطالب فى الأندلس. فهنا إذن طريقة أندلسية فى التعليم ، هى أن العلوم الإنسانية لها مكان خاص إلى جانب العلوم الدينية. نعم قد يكون أهل المغرب (أى أهل أقصى شمالى إفريقية) قد قصروا أحياناً همهم على تعلم القرآن ولم يرغبوا بأن يمزجوا مع تعلمه علماً آخر ، إلا أن المشارقة قد لجئوا أيضاً إلى مثل ما لجأ إليه أهل الأندلس واهتموا أيضاً بالعلوم الإنسانية ، ولا يهمنا كثيراً أن يبدءوا بالقرآن أو بالشعر واللغة ، فقد كانت هاتان الدراستان متصلتين ، ومن الصعب أن نفصل تعلم القرآن عن تعلم اللغة والشعر القديم لما بينهما من وشائج وثيقة ، وقد يكون من المستحسن لفهم القرآن أن نبدأ بدراسة اللغة ، كما شاء الأندلسيون وكما قال أبو بكر بن العربى ، فهى طريقة منطقية .

ويتساءل هنرى به رس[2] عما إذا كان هذا المفهوم المنطقى للتعليم فى الأندلس ليس ناتجاً عن تأثير العرق الأسبانى الرومانى الذى كان أحد العناصر الهامة التى كونت شخصية الأندلسى ، ثم يضيف قائلا : إن الاهتمام ، فى الدرجة الأولى ، كان منصرفاً فى باقى البلاد الإسلامية إلى الأمور الدينية وقد تركت العلوم العقلية فى درجة ثانوية ، بينما كان الأمر فى إسبانيا على العكس ، إذ أخذت العلوم العقلية تحتل المكان الأول ، دون أن تهمل مع هذا العلوم الأخرى المشتقة من

(١) مقدمة ابن خلدون : ص ٥٣٩ .
(٢) انظر كتابه السابق ص ٢٥ .

القرآن والحديث ، وعلى هذا فقد أخذ الأندلسى يفكر فى الإنسان قبل الدين ، وأخذ التعليم يرمى إلى تنمية جميع مواهب هذا الإنسان بشكل متناسق .

هذه الملاحظات صائبة ، أما أن نستنتج منها أن المشارقة لم يهتموا بالإنسان لمجرد أنهم بدءوا بتدريس القرآن قبل الشعر واللغة ، فهذا أمر لا نوافق المستشرق عليه ، لأن القرآن الكريم دستور إنسانى يطل على أمور الإنسان وحياته ويشرحها إلى جانب ما له من صفة دينية ، ولا نستطيع أن نقر أيضاً أن الأندلسيين قد تخلوا عن دراسة الأمور الدينية تماماً عندما بدءوا بدراسة الشعر والأدب . نعم لقد اهتم الأندلسيون بالإنسان ولكن هذا الاهتمام لم يمنعهم من الاشتغال بالقضايا الدينية ، وكذلك فعل المشارقة فقد بدءوا بالدين ولكن الدين لم ينسهم الاهتمام بالإنسان[1] .

ومن دلائل النهضات الإنسانية فى شعب ما ، أن يهتم هذا الشعب بدراسة الإنسانيات القديمة وآثارها . فالنهضة الإنسانية الفرنسية فى القرن السادس عشر Humanisme تتمثل فى اهتمام الشعراء والمفكرين بدراسات الإنسانيات الإغريقية والرومانية . ولولا هذا العود إلى آثار الإغريق وتفهم عبقريتهم وتقليدهم فى الموضوعات والأساليب لما كانت النهضة الأدبية الفرنسية التى ظهرت منذ القرن السادس عشر وشعّت فى القرن السابع عشر .

وكذلك نحن ، فعودتنا إلى آثارنا القديمة ، إلى الشعر الجاهلى والأموى والعباسى ، إلى هذا الأدب الإنسانى الواسع ، دليل على رغبتنا فى المحافظة على إنسانيتنا الأدبية . والأدب الأندلسى ، كأدب إنسانى ، أخذ يتطلع إلى هذا التراث القديم ويغذى فكره الإنسانى بالشعر القديم وشعر صدر الإسلام وشعر المحدثين وآدابهم ، وإذا فهمنا الإنسانية بمعناها الفنى هذا ، حق لنا أن نقول إن كل أديب عربى ، سواء أكان شرقيًّا أم أندلسيًّا ، كان يرمى إلى هذه النزعة الإنسانية فى آثاره ودراساته وقراءاته إذا ما أراد لإنتاجه ولفنه النجاح .

---

(١) بل إن الأندلسيين لم يكونوا أقل حرصاً على علوم الدين من المشارقة إن لم يزيدوا عليهم فى هذا الباب ، ومصداق ذلك آثار علمائهم وفقهائهم ، بل إن الفقيه كان عندهم معظماً كما يقول المقرى : « وسمة الفقيه عندهم جليلة حتى إن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذى يريدون تنويهه بالفقيه ، وقد يقولون للكاتب والنحوى واللغوى : فقيه ، لأنها أرفع السمات » . نفح الطيب ج ١ ص ١٠٤ .

فالتعليم الذى يتلقاه الشاعر الأندلسى إذن لا يختلف فى شىء كبير عن التعليم الذى يتلقاه الشاعر المشرقى ، وهو قبل كل شىء عودة إلى الآثار القديمة وحفظها وتفهمها وأحياناً تقليدها .

وقد أراد الأندلسى أن يكون تعلمه للشعر واللغة سابقاً لتعلم القرآن الكريم وسائراً معه ، كما أراد المشرقى أن يسبق تعلم القرآن دراسة الشعر والأدب ، ولا أظن أن الأندلسى والمشرقى استطاعا أن يجدا حدوداً فارقة بين هذا وذاك أثناء تلقيهما العلوم والمعارف الأولى .

* * *

وقد كان التعليم الخاص الذى لا تشرف عليه الدولة منتشراً فى كل مكان فى الأندلس ، فكنت ترى فى القرى الصغيرة ، كما فى المدن الكبيرة ، ما يشبه المدارس الابتدائية اليوم ، أما فى المراكز الهامة كقرطبة وإشبيلية وطليطلة وسرقسطة فكنت ترى حلقات التعليم على مختلف درجاته منتشرة فى المساجد . وكان هناك مدارس يشرف عليها أساتذة قديرون ، إلا أنه لم يكن فى الأندلس مدرسة جامعية على نمط المدرسة النظامية التى أسست ببغداد سنة ٤٥٧ هـ . ١٠٦٥ م . هذا وقد خسرت قرطبة مركزها الثقافى بعد زوال الخلافة عنها ، وأصبحت المراكز الثقافية موزعة بين طوائف الملوك ، فكان لكل بلاط مركز من مراكز الثقافة .

وجُلُّ هذه الثقافة كانت ترمى لجعل الأندلسى أديباً ، شاعراً أو كاتباً . وإذا ما نظرنا إلى المؤلفات التى كان يتداولها الأندلسيون تحقق لنا هذا القول .

فما هى هذه المؤلفات التى كان يقرؤها الأندلسيون ؟ سيجيبنا عن هذا السؤال أبو بكر محمد بن خير ، الأديب الذى توفى سنة ٥٧٥ هـ وترك لنا مؤلفاً هاماً عنوانه « الفهرسة » [1] يبين لنا فيه الدراسات والمؤلفات الشائعة فى عصره ، عصر ازدهار

---

(١) العنوان التام لهذا الكتاب هو : « فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة فى ضروب العلم وأنواع المعارف ، الشيخ الفقيه المقرئ المحدث المتقن أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموى الإشبيلى » طبعة المستشرقين Codera, Ribera Tarrago فى مدينة سرقسطة سنة ١٨٩٣ ، ونشر فى مجموعة : Bibliotheaca arabica-hispana, T. IX—X

الأدب فى الأندلس ، ويمكن أن نعتبر هذه المؤلفات مقروءة فى مختلف العصور الأندلسية مع بعض الزيادة والنقص .

فهرسة ابن خير :

لقد خصص مؤلف هذه الفهرسة مكاناً كبيراً لكتب الحديث التى كان يتداولها الناس وكانت شائعة فى عصره . وقد كان اهتمام الأندلسيين بالحديث كبيراً منذ بادئ أمرهم ، ولا أدل على ذلك من كثرة من ترحّل منهم إلى المشرق فى طلب الحديث والوقوف على أمهات دواوينه وتلقيها عن جامعيها أو من رووا عنهم . ولذلك ليس غريباً أن نرى ابن خير يهتم بها فى فهرسته .

إلا أن القسم الذى خصصه لذكر المؤلفات الأدبية هو الذى يهمنا وهو الذى يطلعنا على ثقافة الشاعر والأديب ويعبر عن ميولهما . ونلاحظ أن أحدث كتاب يذكره المؤلف فى هذا القسم هوكتاب سِقْط الزّند واللزوميات للمعرى ، وهذان الكتابان لا يبعد أن يكونا قد وصلا إلى الأندلس فى حياة المعرى أو بعيد وفاته .

يمكننا أن نصنّف هذه الآثار الأدبية التى يذكرها ابن خير فى عدة زمر : زمرة المختارات والدواوين ، وزمرة طبقات الشعراء ، وزمرة كتب الأدب ، وزمرة كتب اللغة والنوادر ، وزمرة كتب النحو :

١ ــ فمن كتب المختارات المعروفة نشير إلى المعلقات مع شرح ابن النحاس النحوى المتوفى سنة ٣٣٧ هـ ، ثم إلى المفضليات ، والأصمعيات ، وكتاب الحماسة لأبى تمام ، وأشعار الهذليين ، والنقائض بين جرير والفرزدق ، وكتاب اليتيمة للثعالبى .

٢ ــ أما الدواوين الشائعة فهى : ديوان ذى الرّمة ، ويذكر المقرى أن أبا بكر بن زهر كان يحفظ هذا الديوان ويقول إنه يحوى ثلث مفردات اللغة العربية ، ودواوين الأعشى وأبى تمام والمتنبى والصنوبرى (المتوفى سنة ٣٣٤ هـ) ، وسقط الزند واللزوميات للمعرى ، وديوان أبى العتاهية . وإلى جانب هذه الدواوين يجب أن نشير أيضاً إلى الدواوين التى جلبها أبو على القالى من الشرق عندما رحل

إلى الأندلس وهى تشمل معظم الشعراء الشرقيين المعروفين لعصره (وقد أشار إليها ابن خير) .

٣ ــ أما كتب « طبقات الشعراء » التى تضم عادة مختاراً من القصائد مع نقد موجز ، فلم تكن عديدة ، ويذكر ابن خير منها كتاب الطبقات لابن قتيبة (المتوفى ٢٧٦ هـ) وكتاب الطبقات لابن النحاس (المتوفى ٣٣٧ هـ) .

٤ ــ ومن كتب اللغة لا يذكر ابن خير سوى كتاب الميسر والقداح لابن قتيبة والكامل للمبرد .

٥ ــ أما كتب النوادر فيذكر منها كتاب النوادر لعلى بن حزم اللحيانى ، والنوادر لأبى زياد الكلابى والنوادر للحصرى .

٦ ــ ويذكر من كتب الأدب كتاب زهر الآداب للحصرى وكتاب الآداب لابن المعتز .

* * *

لا شك أن قائمة ابن خير هذه بعيدة عن أن تكون تامة . فهى لا تشير إلا إلى عدد ضئيل من الكتب المعروفة والمقروءة فى عصره ، وإذا كانت جميع الكتب التى ضمتها مكتبة الحكم[1] الفخمة ، قليلة عدد النسخ ، بعيدة عن أن تكون فى متناول عامة الناس ، فإننا نزعم أن عدداً منها كان يتداوله الأدباء المقربون من البلاط الأموى ، وأن هذا التراث الأدبى ، عندما سقطت خلافة قرطبة لم يفقد بأجمعه ، وقد أدى التوزع السياسى الذى عقب هذا السقوط توزعاً أدبياً ، وتبعثر ما بقى من مكتبة الحكم فى مكتبات ملوك الطوائف وفى المكتبات الخاصة لبعض متذوقى الأدب .

ويمكننا أن نعتقد بأن كتاب الأغانى الذى كان الحكم قد اشترى نسخة من نسخه الأولى كان يُقرأ فى حلقات بعض مدرسى الأدب . ألم يزعم بعض المؤرخين وهو عبد الوهاب المراكشى فى كتابه (المُعْجب فى تلخيص تاريخ المغرب) أن

(١) بدأ حكمه سنة ٣٥٠ هـ .

ابن عبدون كان فى شيخوخته يتلو الأغانى عن ظهر قلب ؟ ومهما يكن من أمر فإن الذى يبدو لنا هو أن كتاب الأغانى قد لاءم — وهذا شىء طبيعى — ذوق الأندلسيين وميلهم للشعر والموسيقى ، وعلى رغم قلة النسخ التى كانت قيد التداول فقد أثر تأثيراً كبيراً فى الأوساط الأدبية وحلقات السمر المرهفة التى كانت منتشرة فى الأندلس وهناك إشارات فى نفح الطيب تفيد أن هذا الكتاب قد قلده بعض الأندلسيين ، فقد ألف يحيى الخُدُجّ أديب مرسية كتاباً على نمطه يدعى كتاب الأغانى الأندلسية ، وأن أبا الربيع أحد أمراء دولة الموحدين وحاكم سجلماسة قد وضع له موجزاً .

وهناك مؤلفات أخرى هامة لدراسة اللغة العربية وآدابها لم يشر إليها ابن خير فى « فهرسته » ولكن لدينا وثائق تؤيد انتشارها فى الأندلس ، من هذه الوثائق رسالة ابن حزم والحكايات الكثيرة التى يرويها المقرى فى نفح الطيب . وإننا ذاكرون الآن أهم هذه المؤلفات وهى : النوادر لأبى على القالى وأماليه وقد أملاهما فى الأندلس نفسها ، الكتاب لسيبويه وقد اهتم به أهل الأندلس وتدارسوه وشرحه شرحاً مطولا ابن المناصف [1] ، وكذلك فصيح ثعلب كان له قارئوه من الأندلسيين ، أما كتاب إصلاح المنطق لابن السكّيت فلم يكن له قراء عديدون ومع هذا فقد كان ابن سيده يحفظه . وهناك كتاب نال حظوة كبيرة لدى الأندلسيين هو كتاب أبى عبيد القاسم بن سلاّم الهروى (وفاته سنة ٢٢٣ هـ) المسمى « الغريب المصنّف » ، فقد قرأه أبو على القالى وحفظه ابن سيده وقرظه ابن حزم فقال إنه أكمل كتاب لمعرفة اللغة العربية . وقد حدث مرة أن استعصت على الشاعر الأبيض قضية لغوية فأقسم أن يقيد نفسه ، كما فعل الفرزدق ، حتى يحفظ هذا الكتاب ، ولما رأته والدته على هذه الحال تساءلت عما إذا كان أصاب ابنها مس من الجنون .

وهناك كتاب آخر لابن قتيبة ذكره ابن خير فى فهرسته وكان شائعاً أيضاً هو « أدب الكاتب »[2] وقد شرحه ابن السيد البطليوسى أحد نحاة بجاية فى القرن

---

(١) كثير من الشروح التى وضعت لهذا الكتاب كانت أندلسية ، انظر : تاريخ آداب العرب للرافعى ج ٣ ص ٣٣٢ — ٣٣٤ .

(٢) لقى هذا الكتاب حظوة كبيرة عند الأندلسيين والمغاربة حتى قال ابن خلدون فى مقدمته =

الحادى عشر الميلادى ، أما الكامل للمبرد فقد أقبل الأندلسيون على دراسته بكثير من الشغف والاهتمام ، وقد جاء به ابن أبى علاقة من الشرق فى زمن الحكَم المستنصر ، فنال شهرة كبيرة وطفق أدباء الأندلس يتدارسونه ويشرحونه ، وحفظه عدد كبير منهم نساء ورجالا . وقد حملت هذه الشهرة بعض اللغويين فى الأندلس أو من القادمين إليها على تقليده فألف صاعد اللغوى ، وهو نحوى شهير قَدِمَ الأندلس زمن طوائف الملوك ، كتاباً أسماه « كتاب الفصوص » حذا فيه حذو المبرد فى الكامل .

ومن البديهى أن ابن خير لم يسجل فى فهرسته جميع المؤلفات الأدبية التى كانت تدرس فى عصره وفى العصر الذى سبقه مباشرة ، ولذا كانت الإشارات التى يذكرها ، فى هذا الصدد ، اللغويون وعلماء البلاغة والأدباء كانت ذات قيمة هامة ولا سيما إشارات ابن رشيق صاحب كتاب العمدة .

أما أبو نواس فهو فى طليعة الشعراء الذين اهتم الأندلسيون بهم واستساغوا شعرهم وأحبوهم. أما ابن الرومى فكانوا ينظرون إليه نظرتهم لشاعر هَجَّاء ، ويعجبون بوصفه للطبيعة ويحفظون له أشعاره فى تفضيل النرجس على الورد ، وقد نظم فى هذا المعنى كثير من شعراء الأندلس أشعاراً تعارض ابن الرومى .

وكذلك البحترى فقد كان محط إعجاب الأندلسيين ، وقد لجئوا إلى طريقته فى النظم ، حتى إن ابن بسام عندما وصف شعراء الأندلس لم يجد لمدحهم غير تشبيههم بالبحترى فقال ما معناه :

« وكانت طريقتهم فى النظم مثالية فهى طريقة البحترى فى رقته وجزالته وعذوبته وشدته » .

أما المتنبى ، وقد ملأ الدنيا كما يقول ابن رشيق ، فقد وصل تأثيره إلى المغرب الإسلامى وبخاصة الأندلس . وإذا كان لم يستطع أن يطمس أثر البحترى وابن المعتز فقد استطاع أن يشغل أذهان الناس وأضاف إلى قوة النظم فكرة

= ص ٥٥٣ : « وسمعنا من شيوخنا فى مجلس التعلم أن أصول هذا الفن « الأدب » وأركانه أربعة دواوين ، وهى أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبى على القالى البغدادى وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها » .

الفيلسوف ، حتى أصبح ديوانه موضع اهتمام ودراسة ، فشرحه الإفليلى المتوفى سنة ٤٤١ هـ وابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨ هـ . وذكر ابن بسام عدداً من أشعاره التى نسج على منوالها كثير من شعراء الأندلس . ويظهر أن المعتمد هو أول ملك من ملوك الطوائف اهتم اهتماماً كبيراً بالمتنبي ، حتى إن إعجابه بشاعرنا العربى الكبير قد أزعج الشعراء المحيطين به .

ولم تقف إسبانيا المسلمة عند المتنبي فقط فى إعجابها ، بل هناك شعراء شرقيون آخرون قد جلبوا انتباهها ، فابن خفاجة الذى يُعد شاعر الطبيعة الأول فى الأندلس والذى لم يكن سوى مقلِّد عبقرى ، يعترف بأنه مدين فى أكثر وحيه إلى شعراء مشارقة كالشريف الرضى الموسوى (وفاته ٤٠٤ هـ) وعبد المحسن الصورى (وفاته ٤١٩ هـ)[١] ومهيار الديلمى (وفاته ٤٢٨ هـ) . ولا يصعب علينا أن نبين ما أخذه عن البحترى والصنوبرى[٢] من معان وأخيلة تتعلق بوصف الطبيعة ، حتى إنه كان يلقب بصنوبرى الأندلس .

ويدهشنا ألا يذكر ابن خير للمعرى غير سقط الزند واللزوميات بينما نلاحظ أن رسالة من رسائل أبى العلاء المسماة « الصاهل والشاحج » قد قلدها أحد أولاد الأندلسى ابن عبد الغفور تحت عنوان « الساجعة » وهذا الأمر ذكره ابن خاقان فى المطمح والمقرى فى نفح الطيب ، ونص هذه الرسالة لا يوجد إلا فى الذخيرة . ولهذا نستبعد ألا يكون هناك مؤلفات أخرى لأبى العلاء قد عرفها الأندلس[٣] .

* * *

(١) يظهر أن ديوان هذا الشاعر قد ضاع ؛ انظر ابن خلكان .

(٢) مقطوعات الصنوبرى المتفرقة جمعها محمد راغب الطباخ تحت عنوان الروضيات ، حلب ١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م .

(٣) يشير المؤرخون إلى أن أبا عامر بن شهيد (٣٨٢ — ٤٢٦ هـ) كان مولعاً بآثار المعرى حاذياً حذوه . ويقال إنه عارض (رسالة الغفران) للمعرى برسالته (التوابع والزوابع) التى أورد ابن بسام فى الذخيرة أقساماً كثيرة منها . وقد أفردها بالنشر بطرس البستانى عام ١٩٥١ فى بيروت ، معتمداً على ما جاء منها فى الذخيرة . ويزعم المستشرق بروكلمان أنها صنفت قبل رسالة الغفران بعشرين سنة ، إلا أن بطرس البستانى يرى أنها لم تتقدم رسالة الغفران بأكثر من تسع سنوات ، وليس لدينا ما يثبت أن أبا العلاء قد أطلع عليها .

هذه هى أهم المؤلفات التى كان يدرسها الشاعر والأديب ورجل الفكر فى الأندلس ، وكان من جراء تأثير اختلاط الأندلسيين بالبيئات الأجنبية المحيطة بهم أن انتقل إليهم كثير من النزعات الإنسانية فجعلت لهم تفكيراً خاصاً تميز بنزعة إنسانية جديدة ظهرت فيهم تحت تأثير اطلاعهم على الآثار اليونانية التى انتقلت إليهم من الشرق أحياناً وعن طريق الغرب والإسبانيين أحياناً أخر . فائتلف حبهم للعلم مع حبهم للآداب ، وأرهفت الفنون ذوقهم الشعرى ، وأخذت الصفات الحربية تضعف فيهم وشرعوا ينظرون إليها كشىء يمكن إهماله بجانب المشاغل الفكرية . فلا نعجب بعد هذا إذا رأينا الشاعر الأندلسى يحيى الفكرة القديمة ويطبعها بطابع إنسانى كنتيجة للأثر المسيحى الرومانى الذى أحاط به . وسنرى أن الأدب الأندلسى قد استطاع أن يتلون بهذا اللون الجديد دون أن تمحى تقاليده الشرقية .

الفصل الثانى

طبقات الشعراء ، حياة الشاعر وشروطه الاجتماعية

إن الكتب التى ذكرناها بينت لنا مدى ثقافة الشاعر الأندلسى بشكل عام ، وبينت لنا أيضاً لون هذه الثقافة . وقد رأينا كيف كان الشعر الدعامة الأولى لهذه الثقافة يتدارسونه مع القرآن الكريم إن لم نقل قبله ، وكيف كان الناس فى الأندلس مطبوعين على قول الشعر مشغوفين به ، فهل كان الشعر ملكاً لطبقة خاصة من الناس ؟

إننا إذا ألقينا نظرة على الشعب الأندلسى رأينا أن الشعر قد استطاع التغلغل فى مختلف طبقاته ، فلم يقتصر على الأمراء وعلية القوم الذين أخذوا يدرسونه وينشدونه منذ شبابهم مستفيدين من ثقافتهم التى جاءتهم عن طريق التعليم ، بل كنا نرى أناساً من عامة الشعب لا يعرفون القراءة والكتابة محرومين من الثقافة ينظمون الشعر ويتذوقونه . ولعل هؤلاء قد اكتسبوا هذه القدرة على النظم بعد أن تقدمت بهم السن ، وبعد أن اختلفوا إلى بعض الحلقات العلمية واستمعوا بدافع ميل شخصى عفوى إلى ما يقوله المتأدبون والعلماء فى دروسهم فنما فيهم ذوقهم الفطرى . فقد كان المدرسون يقبلون فى حلقاتهم أى شخص كان على أن يكون لديه الاستعداد الفطرى لتذوق ما يسمع ، ومن هؤلاء الشعراء الأميين ابن لبال الأمى أستاذ ابن عبدون .

ويمكننا أن نحشر العميان فى زمرة الشعراء الذين لا يعرفون القراءة والكتابة . وكثيرون فى الأندلس الشعراء الذين يحملون لقب الأعمى أو الضرير أو المكفوف . ويشير الصفدى فى كتابه (نكت الهِمْيان) إلى عدد كبير منهم ، ممن امتازوا بالعلم والأدب ، كالنحوى ابن سيده الذى عاش فى مرسية ، والشاعر الوشاح الأعمى التطيلى الذى عاش فى تطيلة .

وهناك شعراء من أصل متواضع ، أو من أرباب المهن ، كانوا على جانب بسيط من الثقافة ، ويحدثنا ابن عمار شاعر المعتمد ، وهو من أسرة متواضعة ، عن الفائدة التى يمكن أن يجنيها المرء من مخالطته هذه الجماعات الكادحة التى تسعى جاهدة فى سبيل نيل قوتها اليومى ، وقد كان ابن عمار قبل أن يصبح شاعر المعتمد يخالط هذه الأوساط باحثاً فيها عن موضوعاته الأدبية مدركاً ما يمكن أن يستفيده الشاعر من صور جديدة وتشابيه مستمدة من واقع الحياة . وابن عمار هو الذى اكتشف الشاعر ابن جامع وقد كان صباغاً فى مدينة بطليوس . أما أبو تمام غالب بن رباح وهو حجّام فى قلعة الرباح فقد اشتهر بشعره الواقعى ونظم شعراً يصف الجروح والقروح وافتراس الطيور الجارحة لأحشاء القتلى وصفاً واقعيًّا تشمئز منه النفس أحياناً .

ومن بين الشعراء الذين انبثقوا فى طبقات متواضعة ، يمكننا أن نشير إلى هؤلاء الذين كانوا يعيشون فى الحقول وكانت مهنتهم الزراعة ، ولا شك أن نشاطهم الأدبى كان ذا قيمة . فالحياة فى الحقول ليست دائماً عملا مرهقاً ، إنها تترك فسحات للأحلام ، ولا نكون مغالين إذا قلنا إن الشعر الشخصى هو ما كان منبعثاً عن أولئك الذين عرفوا الطبيعة وتحسسوا بجمالها . والميزة التى امتاز بها بعض شعراء الأندلس الذين تأثروا بالطبيعة كابن خفاجة مثلا هى أنهم لم ينظروا إليها كشىء خارج عن كيانهم بل وصفوها من خلال عواطفهم وأشركوها إحساسهم فجسّموها وشخّصوها ، وهذا ما فطن إليه الرومانتيكيون بعدهم ، ولاشك أن هذا الوصف العاطفى للطبيعة الأندلسية قليلٌ إلى جانب الوصف المادى إلا أنه موجود كما سنرى ويجب أن يشار إليه عندما يبحث عن خصائص شعر الطبيعة فى الأندلس . ونلاحظ أن جمال الطبيعة وقساوتها قد انتقلت إلى أشعار هؤلاء النفر من الشعراء الذين مارسوا حياة الحقل ، وهم هؤلاء الذين استطاعوا بعد أن انتقلوا إلى حياة المدن الناعمة أن يعبروا عن أفكار قوية بصور جديدة ملونة ، وهم الذين منحوا الشعر الأندلسى هذا اللون الحقلى ، لون الشعر الرعوى[1] القريب

(١) هذا اللون من الشعر يسمى بالفرنسية La poésie bucolique

من أشعار بعض اليونانيين والرومانيين . وهو شعر يصف الطبيعة والحياة الحقلية فى رقة ظاهرة تذكرنا برقة أشعار الشاعر الغنائى اليونانى Anacréon [١] وهو ينشد نعيم الأرض وسعادة الطبيعة فى كثير من الانطلاق والجمال . وعديدون الشعراء الأندلسيون الذين تفتحت عبقريتهم فى أحضان الطبيعة ، فابن عمار نشأ فى الريف وقال فيه أول شعره ، وابن شرف أحس بشاعريته وهو فى قريته برجة ، ومنهم من غادر قريته إلى المدينة ولكنه لم يستطع الابتعاد عنها نهائيًا فعاوده الحنين إليها وفضل أن يقضى آخر أيامه فيها كما فعل الشاعر ابن مقانة الذى يتحدث عنه عبد الواحد المراكشى فى تاريخه عن الموحدين .

وكذلك كنا نلمس ذوقاً شعريًا وشغفاً كبيراً بالنظم فى الطبقات العالية والأرستقراطية فها هو ذا المظفر بن المنصور كان مشغوفاً بالأشعار التى تصف الأزهار والمسماة بالنَّوْريات ، وكان يقترح على الشعراء أن ينظموا فى وصف الحدائق والحقول كما يقول المقرى . ولم تكن السياسة والحروب لتشغل الأندلسيين عن الاهتمام بالأدب ، فها نحن أولاء نرى المستظهر بالله ، وكانت خلافته زمن الفتنة (توفى سنة ٤١٤ هـ) ، يعقد مجالس أدبية يشترك فيها أدباء مشهود لهم بالمقدرة كأبى عامر بن شهيد وأبى محمد بن حزم على رغم اضطراب الأمور من جراء العراك الشديد القائم ضد البرابرة .

وكذلك المعتضد فقد قرض الشعر ، ويحدثنا ابن بسام فى دخيرته أن قصائده قد جمعت فى ديوان ، أما ابنه المعتمد ، فقد كان صورة صادقة للشاعر الأندلسى ، وفى عهده أصبحت إشبيلية قطب الحركة الأدبية والشعرية ، واستطاع بنو عباد أن يجمعوا فى دولتهم الزعامة السياسية والزعامة الأدبية . وكذلك بلاط المرية أصبح ملتقى الشعراء فى عهد المعتصم بن صمادح . أما بقية ملوك الطوائف فقد كان حبهم للشعر والأدب ظاهرة من ظواهر التباهى والتفاخر ، وأكثر من أن يكون حبًا خالصاً وذوقاً شعريًا مجرداً ، ولهذا لا نعجب أن نرى المظفر ملك بطليوس يقول إنه لا يقبل فى بلاطه شاعراً يقل عن المتنبى أو المعرى ، وكان من جراء ذلك أن ابتعد

---

(١) عاش هذا الشاعر فى القرن الخامس قبل الميلاد .

الشعراء عنه ، أما الذين جاءوه فقد دفعوا الثمن وأراقوا ماء وجههم فى مدحه والتملق له .

أما فى غرناطة ، فيظهر أن الشعراء ، فى بادئ أمرهم ، قد عاشوا فى خوف دائم لا سيا فى عهد الأمير باديس بن حبوس ، وإذا كان هذا الأمير قد أكرم الأدباء كغانم المخزومى فذلك أنه كان يعتبرهم كفقهاء ، وقد أبعد كل من كان حرًّا فى رأيه . ولكن الأمراء الذين خلفوا باديس كانوا على عكس ذلك ، فقد أكرموا الشعراء والأدباء الذين كانوا يتوافدون على غرناطة ، وكان من بينهم من ينظم شعراً ، حتى إن الأمراء البرابرة ، كعلى بن حمود الناصر ، كان يلذ لهم أن يسمعوا الشعر ويحضوا الشعراء على نظمه . ونحن نعلم ما تمتعت به غرناطة فى أيامها الأخيرة من شهرة عظيمة وكيف كانت آخر نواة لقى فيها الشعر رواجاً ومتعة ورخاء .

ولنقل إن الاهتمام بالشعر والأدب كان على نفس الشدة فى بقية المراكز التى قام بها بلاط لطائفة من طوائف الملوك ، وإذا كان أمراء سرقسطة وطليطلة قد امتازوا بحبهم للفلك وللعلوم الرياضية فما نحسب أنهم ضنوا على الأدباء أو قصروا فى تشجيع الشعر والعطف على الشعراء .

أفلا يدهشنا إذاً هذا الرواج للشعر فى مختلف الطبقات الأندلسية ولا سيا فى زمن ملوك الطوائف ؟ إن مثل هذا الرواج قد لا نجده فى الشرق الإسلامى . فهو ظاهرة وطنية ساعدتها ظروف المحيط السياسية والاجتماعية والطبيعة ، حتى أصبح على فم كل إنسان . فهو فى نظر العامل والفلاح الأندلسى أنشودة تنسيه أتعابه ، وهو فى نظر الوزير والأمير هرب من مشاغل السياسة والإدارة ، وهو فى نظر الشاعر الرسمى أو شاعر البلاط سبب للرزق ، ولكن على رغم هذا الطمع المادى الذى أبداه شاعر البلاط فإنه ما كان لينسى النواحى الفنية ، بل لعله كان يجبر الفن على الانطلاق لينال إعجاب الممدوح . ويمكننا أن نقول إن الشعر كان فى نظر الأندلسى على الإطلاق رمزاً للفخر ، وما كان الأمير ليجد فى ممارسته

غضاضة أو نقصاً بل على العكس فخاراً ومجداً . ولهذا فالأندلسى رغب بالشعر للشعر ، لهذا التناسق الموسيقى الذى تختلج به الشفاه والقلوب ، ولأنه كلام مجنح وموسيقى قبل أن يكون ألفاظاً ، فهم يغنونه ولا يلقونه إلقاء .

والآن كيف يمكننا أن نختصر حياة الشاعر الأندلسى الذى نراه على الغالب منبعثاً من أوساط متواضعة ؟ وما هى الطريق التى يجب عليه أن يشقها ؟ لا شك أننا نُبعد أثناء الجواب عن هذا السؤال الشعراء والأمراء الذين لهم نمط خاص فى حياتهم وتربيتهم والذين كان شعرهم وصفاً لهذه الحياة مع اندفاعات خاصة رسمت إنسانيتهم وأشواقهم التى لم يستطيعوا التخلى عنها أو تناسيها .

فالشاعر الأندلسى ، وهو على الغالب من منبت متواضع ، يمكن أن تُختصر حياته بالكلمات الآتية : دراسة فى قرية متواضعة ثم فى مدينة كبيرة ، بعدئذ حياة هائمة قريبة من التشرد إلى أن يقترب من محسن أو أمير فيواتيه الحظ وينعم بالجاه والمكانة والمال وينغمس فى حمأة الدسائس .

ونرى أن أكثر الشعراء قد نشأوا فى الأرياف وقد لقنهم بعض النحويين النظامين علوم العربية والشعر ثم يقصدون المدينة . والحكايات فى هذا الصدد كثيرة مبعثرة فى المقرى وغيره من كتب الأدب ، فابن عمار عندما غادر قريته كان لا يملك إلا بغلته التى كان يمتطيها ، ومع هذا فقد أصبح وزيراً للمعتمد .

والشاعر ابن فضل بن شرف عندما قدم على بلاط المعتصم بن صمادح فى المرية كان فى ثياب رثّة أثارت ضحك رجال البلاط حتى تساءلوا من أية صحراء هو قادم .

وهكذا فقد كان على الشاعر أن يجاهد للبحث عن المجد والمادة ، لا سيما إذا كان من طبقة متواضعة . ولكن حياة المجد التى كانت تنتظر الشاعر الناجح هى التى كانت تحثه على العمل ومواصلة السعى ، وهو رغم سعيه ما كان ليخفى المصاعب التى تعترض سبيله ، فالشعراء كثيرون والنقاد متهيئون ومن الصعب لمن لا يتحلى بالعبقرية والثبات أن يفترع له طريقاً فى هذا المضمار الوعر .

وكانت حياة الشعراء حياة تنقّل ، فالشاعر يحمل إنتاجه الشعرى ويطرق أبواب

الأغنياء والأمراء طلباً للجائزة وسعياً وراء المادة ، حتى ولو استقر به المقام عند أمير من الأمراء فقد لا يكون هذا المقام طويلا ، ويضطر الشاعر ، وقد شعر أن ممدوحه قد ملّ معانيه وشعره ، أن يغادر بلاط هذا الممدوح إلى بلاط ممدوح آخر ، وهو يظهر تذمره وشكواه مما لاقاه ويتألم من ممدوحه الذى لم يستطع إدراك مزاياه . وهذا التنقل سنراه شائعاً أيضاً عند شعراء التروبادور .

وشكوى الشعراء من سوء الطالع ومن سوء الناس وقلة فهمهم لهم ازدادت فى زمن المرابطين . حتى رأينا ابن بقّى يتهم اتهاماً قويًّا المجتمع الذى لم يعد يقدر العبقريات ورجال الشعر ، ولاشك أن ابن بقّى قد نظر هذه النظرة الشديدة لمجتمعه عندما شعر ببعض الإخفاق ، وكان إخفاقه طعنة آلمت شعوره وأثارت سخطه حتى وصف أفراد مجتمعه بالجهلة والقساة . ومهما يكن من أمر فحياة الشعراء لم تكن دائماً حياة ضاحكة . بل هى كحياة أولئك التروبادور الذين كان عليهم أن ينشدوا ليعيشوا .

ولكن مهما اتصفت حياة الشاعر بالتنقل والتشرد ، فقد كان يعرف كيف يخضع نفسه لشروط معينة ولطاعة مذعنة عندما يصل إلى مدينة يحكم فيها أمير يرغب فى الدخول تحت زعامته . وهكذا يطرق باب قصر الأمير ويخصص له صاحب الإنزال (وهو موظف مخصص لإسكان الشعراء واستقبال ضيوف الأمير) مكاناً فى ملحقات القصر ، وأحياناً فى القصر ذاته عندما ينال الحظوة اللائقة التى تستدعى هذا الإكرام . وهنا تبدأ حياة الشاعر مرتبطة بحياة الأمير ، لا يترك مناسبة تمرّ دون أن يوجّه له مديحاً يعدد فيه مناقبه وشجاعته وكرمه على طريقة الشعراء المشارقة مردداً معانى المدح التقليدية .

وحياة شاعر البلاط فى الأندلس لا تختلف فى شىء كثير عن حياة شاعر البلاط فى الشرق ، ولا بد للشاعر بعد أن يدخل القصر ، أن يمثل بين يدى الأمير ليسمعه بعض شعره ، ويكون ذلك بمثابة امتحان له فإذا ما لاقى الشاعر استحساناً تمكن من البقاء . ومن الشعراء من استطاعوا أن ينالوا مرتبة عظيمة ويتقلبوا فى المناصب العالية وتغدق عليهم الأموال بعد أن أخضعوا شيطانهم للمدح والاستجداء .

فالشاعر الرسمى عبدٌ لصنعته وسيده ، وكلما خضع لدواعى مهنته كشاعر بلاط تضاءلت شخصيته ، ولكن هناك شعراء استطاعوا أن يلائموا بين مهنتهم ووحيهم الشخصى ، ومنهم من استطاعوا أحياناً أن يفروا من دواعى المهنة ويتركوا لطبعهم فرصة التحليق فى أجواء الخيال والتعبير عن هواجس النفس دون قيد أو إكراه .

ولا ننتظر من شاعر البلاط أن يقدم لنا صوراً جديدة أو شعراً ينحدر إلى أعماق القلوب ما دام خاضعاً لسلطان المهنة ودواعيها ، بل لنبحث عنها فى الشاعر الشخصى الذاتى الذى لم يُخضع شيطانه للمال بل جعله طوع قلبه وعاطفته وهواجسه ، ويمكننا أن نختم هذا البحث قائلين إن الشاعر الأندلسى فى صفتيه الرسمية والذاتية قد استطاع أن يرضى ممدوحه ونفسه وفنه .

الفصل الثالث

الآثار الأدبية الأولى وذِكْر لأشهر الأدباء والشعراء

ما إن تم للعرب فتح الأندلس حتى أخذت القبائل العربية تتقاطر عليها من أنحاء المشرق ، ولا سيما ديار الشام ، مستوطنة . وكان بين هؤلاء النازحين من عرف بالشعر وارتاض بنظمه ، إلا أن من الطبيعي ألا نعتبر ما أثر عن هؤلاء الطارئين شعراً أندلسيًّا يحمل طابع الأندلس الخاص وملامح الشخصية الأندلسية المتميزة ؛ إذ لايعدو هؤلاء أن يكونوا جيلا مشرقيًّا تظهر فى آثارهم مسحة المشرق ، ولا بد من تصرم حقبة من الزمن غير قصيرة لينشأ جيل أندلسى طبّعه الجو الجديد بطابعه وظهرت فى تكوينه آثار طبيعة الأندلس ومناخها على نحو مستقل .

على أن هذه الأجذام العربية النازحة ، وما انحدر منها من سلالة أندلسية كانوا ، فى واقع الأمر ، أول تاريخ الأدب فى الأندلس « وقلما تجد فى الأندلسيين شاعراً مفلقاً أو كاتباً بليغاً أو عالماً ضليعاً إلا ونسبه فى قبيلة من تلك القبائل العربية »(١) .

هذا ، وقد حفظت لنا كتب الأدب طائفة مما أثر من شعر هؤلاء النازحين ، وفى طليعة هؤلاء عبد الرحمن الداخل الذى وطد الملك لبنى مروان فى الأندلس ، فالمقرى يذكر له خطباً ورسائل تشبه فى أسلوبها خطب الأمويين ورسائلهم فى آخر أيام دولتهم بالمشرق ، ويذكر له فوق ذلك شعراً يتمتع برقة الشعر الأموى وجزالته . ومنه ما بعث به إلى أخت له بالشام يصف فيه شوقه إليها وحنينه إلى بلده ووطنه الذى فارقه موجع القلب فارًّا من سيوف العباسيين ، قال :

أَيها الراكبُ الميممُ أَرضى ... إِقْرَ بعضَ السلام عنى لبعضِ

إن جسمى كما تراه بأَرضٍ ... وفؤادى ومالكِيهِ بأَرضِ

---

(١) مصطفى صادق الرافعى ، تاريخ آداب العرب ٣/٢٦٨ .

قُدِّر البَيْنُ بيننا فافترقنا وطوى البينُ عن جفونىَ غمضى
قد قَضَى الله بالفِراق علينا فَعَسى باجتماعنا سوف يَقضِى [١]

ومنه أيضاً هذه الأبيات التى تفيض بالحنين والشوق والتى قالها فى نخلة فريدة فى حديقة قصره بالرُّصافة الذى بناه على نسق رصافة الشام ، فهاجت شجنه وأثارت كوامن عاطفته :

تَبَدَّت لنا وَسْطَ الرُّصافة نخلةٌ تَنَاءَتْ بِأَرْضِ الغَرْبِ عَنْ بَلَدِ النَّخْل
فقلتُ : شَبيهِى فى التَّغَرُّبِ والنَّوى وطُولِ التنائِى عن بَنِىَّ وعَنْ أَهْلى
نشأْتِ بأَرضٍ أَنتِ فيها غريبةٌ فمثْلُكِ فى الإِقصاءِ والمنتأَى مِثْلى
سَقَتْكِ غوادى المُزْنِ فى المُنْتأَى الذى
يَصُحُّ ويَسْتَمْرِى المساكينَ بالوَبْل [٢]

وقد كان ابن عمه الأمير عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموى من الذين فروا من الشام خوفاً من المسَوِّدة ، وقد مضى إلى الأندلس فولاه عبد الرحمن على إشبيلية ، وكان يقول الشعر ، وقد رووا له أيضاً أبياتاً قالها فى نخلة فريدة رآها بحديقة بإشبيلية فتذكر وطنه وحن إلى أهله ، قال :

يا نَخلُ أَنتِ فريدةٌ مثلى فى الأَرضِ نائيةٌ عنِ الأَهْلِ
تَبْكِى ، وهلْ تَبْكى مُكَمَّمَةٌ عجماءُ لم تُجْبَلْ عَلَى جَبْلى
ولو انها عَقِلَتْ إذًا لَبَكَت ماءَ الفُراتِ ومَنبِتَ النَّخْل
لكنَّها حُرِمَت وأَخرجَنِى بُغضِى بنى العباسِ عَنْ أَهْلى [٣]

---

(١) المقرى ٢/٧٠٧ و ٧١٦ . (٢) المقرى ٢/٧١٦ .
(٣) المقرى ٢/٧١٨ .

وهذه الأبيات تنسب أيضاً لعبد الرحمن ، وهى كما ترى تنمّ عن قوة ورقة كانتا طابع الشعر الأندلسى فى جميع أطواره .

وقد أصبحت قرطبة فى زمن عبد الرحمن ومن عقبه من الأمراء مركز الحركة العلمية والأدبية فى الأندلس ، فتوافد إليها الكثيرون من المشرق يعرضون إنتاجهم وشعرهم . وحدث اتصال أدبى ، شرقى غربى ؛ ولكن قرطبة كانت ترسم خطى بغداد فى نهضتها ، وكان المشرق قبلة الأندلس ، وقد رأينا كيف كان الأندلسيون يعيشون على الثقافة الشرقية ، فلا يكاد يُعْرف كتابٌ فى المشرق حتى يُطلب إلى المغرب[١] ، ورأينا كيف كان الأندلسيون يرتحلون إلى المشرق فى طلب العلم والأدب والرواية ثم يعودون فينشرون هذا العلم والأدب فى الأندلس .

وهكذا كان الأدب حتى أواخر الدور الأموى وسقوط الخلافة أدباً وافداً على الأندلس يتذوقه الأندلسيون ويقلّدونه ، وكانت خطبهم ورسائلهم لا تختلف كثيراً عن خطب المشرق ورسائله أواخرَ العصرَ الأموى وصدرَ العصر العباسى . ولم يكن هناك جِدّةٌ فى أشعارهم إلا ما تقتضيه طبيعة إقليمهم من وصف للرياض والبساتين والمنشآت التى استحدثها ملوكهم ، وبقيت أكثر الأغراض الشعرية التقليدية تحتذى نماذج مشرقية ، وكثرت فيما بعد الألقاب التى تشير إلى أن همّ شعراء الأندلس أن يجاروا الفحول من شعراء المشرق .

زرياب والنهضة الغنائية :

يُستدل من الأخبار التى يرويها المقرى أن عبد الرحمن الداخل قد استقدم إلى الأندلس الجاريات المحسنات للغناء ، منهنّ فَضْل المدَنيّة[٢] ، وبذلك يكون أول من شجع رحلة الغناء إلى الأندلس .

---

(١) انظر ص ٦٩ – ٧٣ من هذا الكتاب .

(٢) نشأت وتعلمت ببغداد ثم درجت من هناك إلى المدينة المنورة فارتقى غناؤها ثم اشتريت لعبدالرحمن مع صاحبتها علم المدينة وصواحب غيرها ، وجيء بهن إلى الأندلس فأنزلن بقصر الأمير فى دار تعرف بدار المدنيات نسبة إليهن ، وكان عبد الرحمن يؤثرهن لجودة غنائهن ورقة أدبهن . المقرى ٢ / ٧٥٨ .

ويُعدُّ زرياب المغنى رأس النهضة الغنائية الأندلسية ، وهو أثر من آثار الحضارة الشرقية التى وفدت إلى الأندلس عن طريق من جاءها من المشارقة . وزرياب هذا ظهر فى بغداد وأخذ الغناء عن إسحق الموصلى حتى برع فيه ، وقد رأى إسحق أن يُسمع الرشيد غناءه فسمعه وأعجب به وأوصى أن يعتنى بشأنه ، فما كان من إسحق إلا أن لحقته غيرة منه وخاف من منافسته فأوعز إليه أن يترك العراق . وفى ذلك يقول المقرى :

« فسقط فى يد إسحق وهاج به من داء الحسد ما غلب على صبره فخلا بزرياب وقال يا علىّ إن الحسد أقدم الأدواء وأدواها ، والدنيا فتانة ، والشركة فى الصناعة عداوة ولا حيلة فى حسمها ، وقد مكرت بى فيما انطويت عليه من إجادتك وعلوّ طبقتك ، وقصدت منفعتك ، فإذا أنا أتيت نفسى من مأمنها بإدنائك ، وعن قليل تسقط منزلتى وترتقى أنت فوقى ، وهذا ما لا أصاحبك عليه ولو أنك ولدى ، ولولا رعيى لذمة تربيتك لما قدّمت شيئاً على أن أُذهب نفسك يكون فى ذلك ما كان ، فتخير فى ثنتين لا بد لك منهما : إما أن تذهب عنى فى الأرض العريضة لا أسمع لك خبراً بعد أن تعطينى على ذلك الأيمان الموثقة ، وأنهضك لذلك بما أردت من مال وغيره ، وإما أن تقيم على كرهى ورغمى مستهدفاً إلىّ . فخذ الآن حذرك منى فلست والله أبقى عليك ولا أدع اغتيالك باذلا فى ذلك بدنى ومالى ، فاقض قضاءك . فخرج زرياب لوقته وعلم قدرته على ما قال واختار الفرار قدّامه ، فأعانه إسحق على ذلك سريعاً ، وراش جناحه ، فرحل عنه ومضى يبغى مغرب الشمس »[1].

ويترك زرياب بغداد ويقصد الأندلس فيصل إليها فى أول إمارة عبد الرحمن الثانى سنة ٢٠٦ هـ / ٨٢٢ م[2] . فيستقبله الأمير استقبالا فخماً ، وينزله فى قصر من أحسن القصور ، ويكرمه ويقدمه على جميع المغنين .

إن النهضة الغنائية التى أحدثها قدوم زرياب إلى الأندلس دامت طويلا وكان

---

(١) انظر أخبار زرياب فى نفح الطيب ج ٢ ص ٧٤٩ — ٧٥٥ .
(٢) انظر ص ١٧ من هذا الكتاب .

لها أثر كبير فى الشعر الأندلسى وفى اختراع الموشحات والزجل . وزرياب هو الذى زاد فى الأندلس على أوتار العود وتراً خامساً وكانت أربعة قبل عهده ، وهو الذى اخترع مضراب العود من قوادم النسر ، وهو الذى سنّ لأهل الأندلس سنناً فى آداب الاجتماع أخذت عنه ونسبت إليه ، فقد روى أنه علم الأندلسيين طريقة جديدة لتصفيف الشعر وترتيبه شاعت عنه ، وعرّفهم ألواناً جديدة من الطعام ، وهو أول من اجتنى بَقْلَة الهليون المسماة بلسانهم الأسفراج ، ولم يكن أهل الأندلس يعرفونها قبله ، وهو الذى دلهم على فنون جديدة فى الطعام وفى ترتيب المائدة ، وأرشدهم إلى اتخاذ آنية الزجاج الرفيع بدلا من آنية الذهب والفضة ، ونقل إليهم أزياء من اللباس وغير ذلك من الأمور التى تدل على ذوقه المرهف وتعكس أثر الحضارة المشرقية .

وقد استطاع زرياب أن ينقل غناءه إلى أكثر بقاع الأندلس ، بفضل أبنائه وجواريه الذين وفدوا معه وتلقوا على يده صناعته وحفظوها ونشروها وقد كان لهذه النهضة الغنائية فيما بعد أثرها فى موسيقى الغرب أيضاً وفى شعره الغنائى .

وجاء بعد زرياب أبو بكر بن باجة الغرناطى مؤلف الألحان فكان أن ارتقى على يده علم الموسيقى وأتم نهضة زرياب الغنائية .

نحو أدب أندلسى :

هذه النهضة الغنائية التى وفدت من الشرق وتطورت بتأثير الحياة الجديدة ، كانت تجاريها نهضة أدبية استقت أصولها من الشرق ثم أخذت تتطور رويداً رويداً بتأثير الاتصال الذى جرى بين العناصر المختلفة .

وقد رأينا كيف أقبل الإسبانيون على حضارة العرب يغترفون منها ، وعكفوا على اللغة العربية يتدارسونها ولا سيما بقرطبة عاصمة الملك حتى هال أسقفها ألفارو Alvaro هذا الأمر ، فكتب يشكو أنه لا يجد بين الألوف من أبناء طائفته من يستطيع أن يكتب رسالة باللاتينية المقبولة بينما يتقن الكثيرون العربية وينظمون الأشعار فيها بمهارة لا تقاربها مهارة العرب أنفسهم [١] ، ولا شك فى أن التساهل

---

(١) انظر ص ٥٩ من هذا الكتاب .

الذى أبداه العرب والرُّواء الذى كان لحضارتهم قد مهدا السبيل لهذا الاتصال الذى بدت آثاره جلية فى الإنتاج الأدبى الذى جاء يحمل طابع الشرق والأندلس معاً .

ويمكننا أن نقول إن الأدب العربى فى الأندلس ، وقد بلغ أوج ذروته فى حكم عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم والحاجب المنصور ، لم يستطع أن يتخلى عن أثر المشرق . وعندما جاء عهد ملوك الطائف كانت الموشحات أظهر طابع امتاز به أدب الأندلس الذى صدر عن خصائص الحياة الجديدة .

طائفة من الأدباء

وقد نبغ فى بلاد الأندلس شعراء استطاعوا أحياناً أن يجاروا الفحول من شعراء المشرق فى بعض الأغراض وإن كانوا قد قصروا فى أغراض أخرى ولم يستطيعوا أن يتفوقوا عليهم . ولا بد لنا هنا من استعراض بعض الأسماء اللامعة على سبيل الذكر لا على سبيل الحصر .

بعض أدباء فترة مجد الدولة الأموية :

ابن عبد ربه (٢٤٦ – ٣٢٨ هـ)

يأتى ابن عبد ربه فى طليعة هذه الأسماء، فقد ولد هذا الأديب الشاعر فى قرطبة سنة ٢٤٦ هـ ونشأ فيها ميالاً إلى العلم والأدب. ونال من أمراء بنى أمية بالأندلس دنيا عريضة وحلّ عندهم فى المكان الأسمى . وقد برع فى الفقه والتاريخ ودرس علوم العربية وأتقن الشعر والكتابة ، ويروى أنه كان فى صباه لاهياً مولعاً بالغناء ونظم فى ذلك القصائد والمقطعات الرقيقة الجميلة ، ثم أقلع فى كبره عن صبوته وأخلص لله فى توبته ، ففعل مثل أبى نواس وغيره ، وأنشأ القصائد الزهدية على أوزان شعره الغزلى وقوافيه وسماها « الممحِّصات » ليمَحِّص الله عنه ذنوب شبابه ، أى يطهره منها . وقد أصيب فى نهاية عمره بالفالج ومات بقرطبة سنة ٣٢٨ هـ .

وابن عبد ربه من الشعراء المعدودين زمن الخلافة فى الأندلس ، وقد عارض

بعض شعراء المشرق . وشعره غزير ولكن أكثره ُفقد، ولم ينقل إلينا سوى ما دوّنه الثعالبى فى يتيمة الدهر .

وله فى النثر كتابه الشهير المعروف بـ « العِقْد الفريد » نافس به المشارقة فى فن التأليف الأدبى . ولهذا الكتاب مزية هامة هى جمعه لكثير من الرسائل والخطب والقصص والفوائد التاريخية التى بادت الأصول المأخوذة هى عنها وبقيت فيه مخلَّدة ، وقد قصره المؤلف على أخبار المشارقة، ولعل السبب فى ذلك أن الشرق فى نظر الأندلسيين موطن اللغة والأدب ، تحتل مؤلفاته المكان الأسمى، وإليه تتجه الأنظار . ويروى أنه ، لما وقع الكتاب فى يد الصاحب ابن عباد ، أقبل عليه ينشد فيه أخبار أهل المغرب ، ولما لم يجد فيه شيئاً جديداً ، تركه آسفاً وقال جملته المشهورة : « هذه بضاعتنا رُدّت إلينا » .

وابن عبد ربه أولع حقًّا بمحاكاة أهل المشرق ولم تظهر عليه النزعة التجديدية ، وهى بعد ضئيلة ضعيفة فى بلاده ، فكان شعره متيناً محكماً ولكن لم تظهر عليه آثار التجديد .

والمهم فى شأن ابن عبد ربه أن ابن بسام صاحب الذخيرة والصلاح الكتبى مؤلف فوات الوفيات وابن خلدون ينسبون إليه فى رواية يتناقلونها أنه أول من سبق إلى نظم الموشحات . وهذا زعم خاطىء سنجليه عند الكلام عن الموشحات ، فالظاهر أن فن الموشح قد تأخر عن زمن ابن عبد ربه قليلا ولم يكن لصاحب العِقْد أثر فيه كما سنبين ذلك .

ابن هانئ (٣٢٦ — ٣٦٣ ﻫ)

ومن الأسماء المشرقة فى سماء الشعر الأندلسى ابن هانئ ، فقد ولد بإشبيلية ونشأ بها واتصل بصاحبها ، وكانت الأندلس إذ ذاك فى عصرها الذهبى زمن عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم . واشتهر ابن هانئ بالآراء الفلسفية وباللهو والمجون ، فحمل الفقهاء والشعب عليه واضطر صاحب إشبيلية إلى نصحه بالابتعاد عن هذه المدينة زمناً فسافر إلى المغرب وسِنُّه ست وعشرون سنة . واتصل بجوهر الصقلى قائد المعزّ ثم بالمعز نفسه فمدحه وعلت منزلته عند الخليفة الفاطمى فجعله

شاعره الخاص . ثم سار المعز لفتح مصر ففتحها وأراد ابن هانئ اللحاق به فمات ببرقة فى طريقه إليه . وتأسّف المعز عليه وقال عندما بلغه خبر وفاته : « هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدّر لنا ذلك » . وقد قال فيه ابن خلكان إنه عند المغاربة كالمتنبى عند المشارقة وليس فى المغاربة من هو فى طبقته لا مِنْ متقدميهم و لا من متأخريهم بل هو أشعرهم على الإطلاق . وهو صاحب القصيدة المشهورة :

تقولُ بنو العباس هلْ فُتحت مِصْرُ ... فقلْ لبنى العباسِ قدقُضِىَ الأَمْرُ
وقد جاوَزَ الإسكندرية جَوْهَرٌ ... تُطَالِعُهُ البُشْرَى وَيَقْدُمُهُ النَّصرُ

وله قصيدة يمدح بها المعز ويصف أسطوله وصفاً دقيقاً فيقول فيها :

أَمَاوالجوَارِى المُنشآتِ التى سَرَتْ ... لقد ظَاهَرَتها عُدَّةٌ وَعَدِيدُ
قِبابٌ كما تُزجَى القِبابُ على المَهَا ... ولكنَّ مَنْ ضُمَّت عليه أُسُود
ولله مما لا يَرَوْن كَتائبٌ ... مُسَوَّمَةٌ تَحْدُو بها وجُنود
أَطاعَ لها أَنَّ الملائكَ خَلْفَهَا ... كما وقفتْ خلفَ الصُّفوفِ رُدُود
وأَن الرياحَ الذارياتِ كتائبٌ ... وأَنَّ النجوم الطالعاتِ سُعُود
وما راعَ مَلْكَ الروم إلا اطِّلاعُها ... تَنَشَّرُ أَعلامٌ لها وَبُنُود
عليها غَمَامٌ مُكْفَهِرٌّ صَبِيرُهُ ... لهُ بارِقاتٌ جَمَّةٌ وَرُعُود[١]
مَواخِرُ فى طَامِى العُبابِ كأَنَّها ... لِعَزْمِكَ بأْس أَو لِكَفِّكَ جُود
إذا زَفَرَت غيظاً تَرَامَت بِمَارِجٍ ... كما شَبَّ مِنْ نارِ الجَحِيمِ وَقُود[٢]

---

(١) الصبير : السحاب المتراكم .
(٢) المارج : الشعلة شديدة اللهب .

فَأَفْواهُهُنَّ الحَامِياتُ صَواعِقٌ   وأَنفاسُهنَّ الزَّافراتُ حَدِيد

لها شُعَلٌ فَوْقَ الغِمارِ كَأَنها   دِمَاءٌ تَلَقَّتها مَلاَحِفُ سُود

تُعانِقُ مَوْجَ البحرِ حتى كَأَنه   سَلِيطٌ لها فيه الذُّبالُ عَتِيد[1]

فليسَ لها إلا الرياحَ أَعنةٌ   وليس لها إلا الحبابَ كَدِيدُ[2]

ونلاحظ فى هذا الوصف الضخامة فى الألفاظ إلى جانب الصور البصرية ، ولقد قادت هذه الفخامةُ وهذا الحبُّ للمبالغة فى المدح والوصف وهذه الحِكَمُ المتفرقةُ فى شعره — قادت المغاربة إلى تشبيهه بالمتنبى . إلا أن بعض النقاد كانوا يرون أن ألفاظه طَنَّانة لا معانى كبيرة تحتها ، وإلى هذا أشار أبو العلاء عندما قال : « ما أشبهه إلا بِرَحى تطحن قروناً » . غير أن ابن خلكان يرى أن تعصُّبَ المعرى للمتنبى هو الذى دفعه إلى هذا القول ، ومهما يكن من أمر فالفرق بين الشاعرين شاسع جدًّا ، فلم تكن لابن هانئ عبقرية المتنبى ولم يكن لديه المعين النفسى والفلسفى الذى اغترف منه أبو الطيب .

وديوان ابن هانئ مرتب حسب حروف الهجاء طبع فى مصر سنة ١٢٧٤ هـ وفى بيروت سنة ١٨٨٤ م .

أحمد بن دراج القسطلى (٣٤٧ — ٤٢١ هـ)

وقد عرف من شعراء الدولة العامرية فى قرطبة ابن دَرّاج القسْطَلى[٤] وكان كاتب المنصور بن أبى عامر وشاعره ، وهو معدود من الفحول وقد شارك ابن هانئ فى لقب متنبى المغرب ، ولابن دراج رسائل وفصول فى النثر لا تختلف كثيراً عن الرسائل والفصول التى وضعت فى العصر العباسى ، وله شعر أبلغ من نثره وقد أجرى الثعالبى ذكره فى يتيمته وهو صاحب الدالية المشهورة فى سليمان بن الحكم :

---

(١) السليط : الزيت . الذبال : فتيل السراج . عتيد : قوى متين .
(٢) الكديد : الأرض الصلبة .
(٣) راجع بعض نثره وشعره فى الذخيرة لابن بسام ، القسم الأول المجلد الأول ص ٤٣ — ٧٨ .

شَهِدَتْ لكَ الأَيامُ أَنكَ عِيدُها   لَكَ حَنَّ مُوحِشُها وآبَ بَعِيدُها

وله رائية فى المنصور بن أبى عامر نقرأ فيها هذه الأبيات الجميلة التى يصف فيها وداعه لزوجه ويذكر ابنه الصغير الذى خلفه وراءه :

ولمّا تَدَانَت للوَداعِ وقدْ هَفَا   بِصَبْرِىَ منها أَنَّةٌ وَزَفِيرُ
تُناشِدُنى عهدَ المودَّةِ والهوَى   وفى المَهْدِ مَبْغُومُ النِّداءِ صَغِيرُ
عَيِىٌّ بمَرْجُوعِ الخِطَابِ وَلَفْظُهُ   بِمَوْقِعِ أَهْواءِ النُّفُوسِ خَبِير
تَبَوَّأَ ممنوعَ القلوبِ وَمَهَّدَتْ   لهُ أَذْرُعٌ مَحْفُوفَةٌ ونُحُور
عَصَيْتُ شَفِيعَ النفسِ فيه وقَادَنى   رَوَاحٌ بِتَدْآبِ السُّرَى وَبُكُور
وَطَارَ جَناحُ البَيْنِ بِى وَهَفَتْ بها   جَوَانِحُ مِنْ ذُعْرِ الفِراقِ تَطِير

* * *

وعرف أيضاً فى هذه الفترة الشاعرُ الرَّمادى ، أبو عمر يوسف بن هارون وهو شاعر قرطبى مجيد عاصر المتنبى وتوفى سنة ٤٠٣ ه كما ذكرنا[١] . ويقول المقرى إنه مشهور عند الخاصة والعامة لسلوكه فى فنون من المنظوم والمنثور مسالك ، حتى كان كثير من شيوخ الأدب فى وقته يقولون : فتح الشعر بكندة ، وختم بكندة ، يعنون امرأ القيس والمتنبى ويوسف بن هرون .

وعرف أيضاً أبو عامر بن شُهيد من شعراء الدلة العامرية وكان وزير الناصر . ولد سنة ٣٨٢ ه وتوفى بقرطبة سنة ٤٢٦ ه ، وله رسالة سماها « التوابع والزوابع »[٢] وهى تشبه « رسالة الغفران » للمعرى فى خيالها وأساليبها . ومحور موضوعها أن الشاعر رافق إلى أرض الجن سميراً له أسماه زهير بن نمير وتنقل بين الأدباء والشعراء القدماء

---

(١) انظر ص ٥١ من هذا الكتاب ، الحاشية رقم (١) .
(٢) التوابع : ج تابع وتابعة : الجنى . والزوابع : ج زوبعة وهى الشيطان أو رئيس الجن .

ورواتهم فكان يطارحهم الشعر ويستمع إلى أخبارهم وتجرى بينه وبينهم مساجلات ومناظرات . وقد تفنن ابن شهيد فى عرض هذه الأخبار بصورة تدعو إلى الإعجاب . وهذه الرسالة جديرة بالاهتمام ، وقد نشرها حديثاً فى بيروت بطرس البستانى معتمداً على ما جاء منها فى الذخيرة[1] .

بعض شعراء ملوك الطوائف :

فى هذا الدور أيضاً أسماء لامعة فى الشعر والأدب نشير إلى أهمها . وقد رأينا أن ظهور ملوك الطوائف لم يكن حدًّا فاصلا لرواج الأدب وازدهاره ، بل ، على العكس ، كان عهداً لاقى فيه الأدباء والشعراء كل رعاية وعطف . ويبدو لنا أن بنى عَبَّاد هم أولى ملوك الطوائف بانتباهنا ، فقد كانوا هم أنفسهم شعراء كما ذكرنا ، وكان بلاطهم منتدى الأدب فى عصرهم ، فهذا المعتضد يجعل يوماً من أيام الأسبوع — الاثنين — للشعراء يفدون به عليه فيطارحهم الشعر ويستمع إليهم ويجيز السابق بينهم ويشحذ هممهم للنظم . وجاء المعتمد فبزّ أباه فى هذا المضمار حتى أصبح بلاطهم مركز الحركة الأدبية فى الأندلس كما رأينا .

ومما يحكى عن المعتمد أنه أول ما تعرف إلى امرأته « اعتماد » الشهيرة بالرُّمَيْكِيَّة كان عن طريق الأدب ، فقد زعموا — كما يقول المقرى — أن المعتمد ركب فى النهر ومعه ابن عمار وزيره ، وقد زَرَدت الريح النهر . فقال ابن عباد لابن عمار : أجز :

صَنَعَ الريحُ من الماءِ زَرَدْ

فأطال ابن عمار الفكرة ، فقالت امرأة من الغسالات :

أَىُّ دِرْعٍ لِقِتَالٍ لوْ جَمَدْ

فتعجب ابن عباد من حسن ما أتت به ، مع عجز ابن عمار ، ونظر إليها فإذا هى صورة حسنة ، فأعجبته فسألها : أذات زوج هى ؟ فقالت : لا ، فتزوجها ، وولدت له أولاده الملوك النجباء[2] .

---

(١) انظر ص ٧٣ من هذا الكتاب ، الحاشية رقم (٣) . (٢) المقرى ، ٢/١١٠٠ — ١١٠١ .

ومن أخبار الرميكية القصة المشهورة فى قولها « ولا يوم الطين » وذلك أنها رأت الناس يمشون فى الطين ، فاشتهت المشى فيه ، فأمر المعتمد ، فسحِقت أشياءُ من الطيب ، وذُرَّت فى ساحة القصر حتى عمته ثم نصِبَت الغرابيل ، وصُب فيها ماء الورد على أخلاط الطيب ، وعجِنت بالأيدى حتى عادت كالطين ، وخاضتها مع جواريها . وغاضبها فى بعض الأيام فأقسمت أنها لم تر منه خيراً قط ، فقال : ولا يوم الطين ؟ فاستحيت واعتذرت . ويتابع المقرى الخبر قائلا : وهذا مصداق قول نبينا صلى الله عليه وسلم فى حق النساء « لو أحسنتَ إلى إحداهن الدهرَ كله ثم رأت منك شيئاً قالت : ما رأيتُ منك خيراً قط » .

ولعل المعتمد يشير إلى هذه الحادثة فى أبياته الرائية حيث قال فى بناته :

يطأْن فى الطينِ والأَقدامُ حافيةٌ   كأَنَّها لم تطأْ مِسْكاً وَكافورا

فقد دخلت على المعتمد بناته وهو فى سجنه بأغمات ، بعد ما حلت به المصيبة ، دخلن عليه وهن فى أطمارهن البالية ، يغالبن البكاء ويصارعن الذل ليرددن على مسامع أبيهن كلمات التهنئة بأول عيد يمر عليهن فى السجن ، فإذا بالأب الملك يحتضن بناته وينشد هذه الأبيات[1] :

فيما مَضى كنتَ بالأَعياد مسرورا   فساءَك العيدُ فى أَغماتَ مَأْسورا

ترى بناتِكَ فى الأَطمارِ جائعةً   يغزلْنَ للناس ما يملِكْنَ قِطْمِيرا

برزْنَ نحوَكَ للتسليم خاشعةً   أَبصارهنَّ حَسِيراتٍ مَكاسيرا

يطأْنَ فى الطينِ والأَقدامُ حافيةٌ   كأَنها لم تطأْ مِسْكاً وكافورا

لاَخَدَّ إلا تَشَكَّى الجَدْبَ ظَاهِرُه   وليس إلا مع الأَنفاسِ مَمْطُورا

---

(١) انظر ديوان المعتمد ص ١٠٠ ، وقد جمعه أحمد أحمد بدوى وحامد عبد المجيد ، القاهرة ١٩٥١ .

أفطَرْتَ فى العيد لا عادَتْ مساءَتُهُ   فكان فِطْرُكَ للأكباد تفطيرا

قد كان دَهْرُكَ إن تأْمرْهُ ممتثلا   فردَّكَ الدَّهرُ مَنْهِيًّا ومأْمُورا

مَنْ باتَ بَعْدَكَ فى مُلكٍ يُسَرُّ بِهِ   فإنما باتَ بالأحلام مَغْرُورا

وهكذا نرى أن المعتمد بن عباد من الملوك الشعراء دام ملكه ثلاثاً وعشرين سنة (٤٦٢ — ٤٨٤) وكان — كما قلنا — قد نكب فى آخر حياته بملكه ونفسه وأبنائه ونفى إلى أغمات فى أفريقية وسجن وقيد بالقيود بعد مجده وعزه فى قصره الزاهى بإشبيلية فأخذ يتسلى عن حظه بنظم الأشعار من جور الزمان بعد أن كانت أشعاره تدور على اللهو ومجالس الأنس . ومن أمثلة شعره الذى يصور حياة الترف والجلال التى عاشها قوله(١) :

ولقد شربتُ الراحَ يسطعُ نُورها   والليلُ قد مدَّ الظلامَ رداءَ

حتى تبدَّى البدرُ فى جَوْزائِه   مَلِكاً تَنَاهَى بهجةً وبَهاءَ

لمَّا أَرادَ تَنَزُّهاً فى غَرْبِهِ   جَعَلَ المِظَلَّةَ فوقَه الجَوْزاءَ

وتَنَاهَضَت زُهْرُ النُّجوم يَحُفُّهُ   لَألاؤُها فاستكملَ الآلاءَ

وتَرَى الكَواكبَ كالمواكبِ حولَه   رُفعت ثُرَيَّاها عليهِ لِوَاءَ

وحكيتُهُ فى الأَرضِ بين مواكبٍ   وكَواعبٍ ، جمعت سَناً وسَنَاءَ(٢)

إن نَشَّرتْ تلك(٣) الدروعَ حنادساً   ملأت لنا هذى(٤) الكئوسَ ضياءَ

وإذا تغنَّت هذه فى مِزْهرٍ(٥)   لم تألُ تلك عن التَّريك(٦) غناءَ

---

(١) ديوان المعتمد ص ٢٨ .

(٢) السنا بالقصر : الضوء . وبالمد : المجد والرفعة .

(٣) تلك : فاعل نشرت ، والإشارة إلى المواكب . والدروع مفعول به .

(٤) هذى : إشارة إلى الكواعب وهى فاعل ملأت . والكئوس مفعول به .

(٥) المزهر : العود الذى يضرب به .

(٦) التريك كما فى اللسان (ترك) : بيضة الحديد للرأس والجمع ترائك وتريك .

أما أشعاره الشاكية التى قالها فى محنته فنجد فيها لوناً خاصاً من الأدب، فيه من الرقة والعاطفة ما يجعلنا نشعر أنها أشعار عزيز ذل . وكانت هذه الأشعار سلوى المعتمد فى أسره ، بها يندب حظه ، ويحدث بآلامه ، ويبكى مصيره ومصير ملكه :

اقنعْ بحظِّكَ فى دُنياك ما كانَا   وعَزِّ نَفسَكَ إن فارقتَ أوطَانَا
فى الله من كل مفقودٍ مضى عِوَضٌ   فأَشعِرِ القلبَ سُلواناً وإيماناً
أَكلما سنَحت ذكرى طربتَ لها   مَجَّت دموعُك فى خَدَّيك طوفانا
أَمَا سمعتَ بسلطانٍ شبيهك قد   بَزَّته سُودُ خُطوبِ الدهر سُلطانا
وَطِّن على الكُره، وارقُب إثرَهُ فَرَجاً   واستغنم الله تغنمْ منه غُفرانا[1]

وفى مكان آخر من ديوانه يقول :

أَنباءُ أَسرِك قد طَبَّقنَ آفاقاً   بل قد عَمَمْن جهاتِ الأَرض إقلاقا
سَرَت من الغرب لا يُطوى لها قدمٌ   حتى أَتت شَرقها تنعاكَ إشراقا
فأَحرق الفجعُ أَكباداً وأَفئدةً   وأَغرقَ الدمعُ آماقاً وأَحداقا
قد ضاقَ صدرُ المعالى إذ نُعيتَ لها   وقيل: إن عليكَ القيدَ قد ضاقا
أَنَّى غُلِبت، وكنت الدَّهر ذا غَلَبٍ   للغالبين ، وللسُّبَّاق سَبَّاقا

---

(١) ديوان المعتمد ص ١١٤ .

قلتُ :الخطوبُ أَذلَّتنى طوارقُها   وكان عَزمىَ للأَعداءِ طَرَّاقا
متى رأَيتَ صُروف الدهرِ تاركةً   إذا انبَرت لذوى الأَخطار أَرماقا[١]

وهكذا نرى أن أسر المتعمد أثار كوامن عواطفه كما أثار فى نفوس الشعراء عواطفهم تألماً وحسرة عليه . فهذا الشاعر الدانى يشهد تلك الساعات الفاصلة فى تاريخ دولة بنى عباد عندما تتقدم جنود ابن تاشفين لتضع القيد فى يد ملك إشبيلية ولتحمله السفن هو وآله ، وتسير بهم فى الوادى الكبير ، فى طريقهم إلى أغمات ، بينما يحتشد الناس على ضفتى النهر يودعون ملكهم وأهله ويذرفون على أيامه سخين الدموع . هذه المشاهد المبكية والخطوب المؤلمة هى التى حركت فى نفس الشاعر الدانى لواعج الحزن والأسى فإذا به يرثى ملكه بداليته المشهورة ،

تبكِى السماءُ بدمع رائحٍ غادى   على البهاليلِ من أَبناء عبَّاد

وفيها يقول :

نسيتُ إلا غَداة النهر كونَهم   فى المنشآت كأَموات بأَلحاد
والناسُ قد ملأُوا العبرين واعتبروا   من لؤلؤ طافياتٍ فوق أَزباد
حُطَّ القناع فلم تُستر مُخَدَّرةٌ   ومُزِّقت أَوجهٌ تمزيقَ أَبراد
حان الوَداع فضجَّت كلُّ صارخة   وصارخ من مُفدَّاةٍ ومن فَادى
سارت سفائنهم والنَّوحُ يتبعُها   كأَنها إبلٌ يحدو بها الحَادى
كم سال فى الماءِ من دمعٍ وكم حملت   تلك القطائع من قِطْعات أَكباد

ويتفجر الشعر رثاء عليه من كل حدب وصوب ، فإذا بالوزير ابن عبدون[٢] يقول فيه رائيته الشهيرة التى مطلعها :

---

(١) ديوان المعتمد ص ١١٠ .
(٢) هو وزير بنى الأفطس فى بطليوس وشاعرهم توفى سنة ٥٢٠ هـ .

الدهرُ يفجع بعدَ العين بالأَثر   فما البكاءُ على الأَشباح والصُوَر

وإذا بشاعره أبي بحر بن عبد الصمد يمضي إلى قبره بعد صلاة العيد مع ملأ من الناس ويخر باكياً معفراً وجهه في تراب جدثه وهو ينشد :

مَلِكَ الملوكِ أَسامعٌ فأُنادِي   أَم قدعَدَتكَ عن السماع عَوَادى
لما خَلَت منك القصورُ فلم تكن   فيها كما قد كنتَ في الأَعياد
قَبَّلتُ في هذا الثرى لكَ خاضعاً   وتَخِذْتُ قبرَكَ موضعَ الإنشاد

وابن عبد الصمد هذا مع الشاعر الداني والشاعر ابن حمديس هم ثلاثة من شعرائه الذين وفوا له ورحلوا إليه بعد ذله وسجنه . وهناك عدد من الشعراء الذين عاصروا المعتمد وقالوا فيه الشعر نجد أخبارهم في النفح والقلائد وغيرهما من كتب الأدب .

النساء الشاعرات (١) :

إذا كانت الشاعرات قد شاركن الشعراء في نظم الشعر كما ذكرنا ، فيمكننا أن نقول إن هذه الظاهرة قد بدت مع ظهور ملوك الطوائف ، ففي زمنهم أخذ الشعر يتسرب إلى دور الحريم في القصور وأخذت النساء من بنات الملوك والأمراء والجوارى على اختلاف طبقاتهن ، يفقهن هذا اللون من الأدب ويحسنّ نظمه .

وقد أورد المقرى شعراً لطائفة كبيرة من الحرائر والجوارى . وأكثرهن عرفن في عهد ملوك الطوائف ، نذكر منهن : أم السعد بنت عصام الحميرى ، وحسانة التميمية ، وأم العلاء بنت يوسف الحجازية ، وأم الكرام بنت المعتصم بن صمادح وجاريته غاية المنى ، والشاعرة الغسانية البجانية نسبة إلى بجانة ، والعروضية مولاة

(١) انظر المقرى ، نفح الطيب ٢/١٠٧٦ – ١١٤٦ (وانظر أيضاً طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد لكتاب نفح الطيب ج ٥ ص ٢٩٩ وما بعدها و ج ٦ ص ١٩ وما بعدها)

أبى المطرف عبد الرحمن بن غلبون الكاتب ، وحفصة بنت حمدون الحجازية ، ونزهون الغرناطية ، وحفصة الركونية ، والعبادية جارية المعتضد ، واعتماد زوج المعتمد الشهيرة بالرميكية السابقة الذكر ، وبثينة بنت المعتمد ، وحمدة بنت زياد المؤدب ، وولادة بنت المستكفى ، ومهجة القرطبية جاريتها ، وغيرهن . وقد مرت أسماء بعضهن أثناء الكلام على شغف الأندلسيين بالشعر[١] ، ولا يتسع المجال هنا لذكر نبذ من أشعارهن ، وسنعود إلى الكلام على ولادة عندما نتحدث عن ابن زيدون الذى سنفرد له باباً خاصاً ، ونكتفى فى هذا المقام بذكر أبيات من شعر حمدة .

حمدة ، ويقال لها حمدونة ، بنت زياد المؤدب من وادى آش ، هى شاعرة الأندلس ، ولقبت بخنساء المغرب على الرغم من أن شعرها ليس فى الرثاء بل فى الغزل . ومن جميل ما قالت هذه الأبيات :

ولما أبى الواشون إلا فِراقنا ... وما لَهمُ عندى وعندك من ثارِ

وشنُّوا على أسماعنا كلَّ غارة ... وقلَّ حُماتى عند ذاك وأنصارى

غزوتُهم من مقلتيكَ وأدمعى ... ومن نَفَسى بالسيفِ والسَّيْلِ والنار

وخرجت حمدة مرة للوادى مع صبية ، فلما نضت عنها ثيابها وعامت قالت :

أباح الدمعُ أسرارى بوادى ... له للحسن آثارٌ بَوادى

فمن نهرٍ يطوفُ بكل روضٍ ... ومن روض يرفُّ بكل وادى

ومن بين الظباء مهاةُ أُنس ... سبت لبى وقد ملكت فؤادى

لها لحظٌ ترقِّده لأَمر ... وذاك الأَمرُ يمنعنى رُقادى

---

(١) انظر ص ٦٣ من هذا الكتاب .

إذا سَدَلتْ ذوائبها عليها رأيت البدرَ فى أُفق السواد
كأن الصبح مات له شقيق فمن حُزْنٍ تَسَربل بالحداد

وهناك رواية تقول إن هذه الأبيات لحمدة العوفية . وقد نسب الأندلسيون إلى حمدة بنت زياد المؤدب الأبيات الجميلة الآتية الشهيرة فى بلاد المشرق وهى :

وقانا لفحةَ الرمضاءِ وادٍ سقاهُ مُضاعف الغيثِ العميم
حللنا دوحَه فحَنَا علينا حُنُوَّ المُرْضِعات على الفطيم
وأَرْشَفَنا على ظَمأٍ زُلالاً أَلذَّ من المُدامة للنديم
يصدُّ الشمسَ أنَّى واجهتنا فيحجبها ويأْذنُ للنسيم
يَرُوع حصاهُ حاليةَ العذارى فتلمسُ جانبَ العِقد النظيم

ويرى بعض المؤرخين ، ومنهم ابن النديم ، أن قائل هذه الأبيات هو الشاعر المنازى ، إلا أن أبا جعفر الأندلسى الغرناطى ، نزيل حلب ، يدفع ذلك فيقول : « . . . وقد تلبس بعضهم أيضاً بشعارها ، وادعى غير هذا من أشعارها ، وهو قولها ، وقانا لفحة الرمضاء ، وأن هذه الأبيات نسبها أهل البلاد (أى بلاد المشرق) للمنازى من شعرائهم ، وركبوا التعصب فى جادة ادعائهم ، وهى أبيات لم يحلها غيرُ لسانها ، ولا رَقَم برديها غير إحسانها . ولقد رأيت المؤرخين من أهل بلادنا ، وهى الأندلس ، أثبتوها لها قبل أن يخرج المنازى إلى الوجود ، ويتصفَ بلفظة الموجود »[١]

(١) المقرى ، ج ٢ ص ١١٤٢ — ١١٤٣ (ومن طبعة محمد محى الدين عبد الحميد ج ٦ ص ٢٤).

ابن حمديس (٤٤٧ – ٥٢٧ ﻫ)

ومن بين الشعراء النابهين فى دور الطوائف ابن حمديس . ولد أبو محمد عبد الجبار بن محمد بن حمديس الأزدى الصقلى فى جزيرة صقلية عام ٤٤٧ ﻫ فى آخر حكم العرب لهذه الجزيرة [١]. وقد امتازت صقلية بطبيعتها الغنية ووديانها الخصبة وأنهارها الجارية ، وأثارت فى نفوس سكانها منذ القديم التغنى بحياتها الريفية .

وقد عالج ابن حمديس نظم الشعر وهو صغير ولكنه بقى خامل الذكر : ولما كان فى ميعة الشباب استولى النورمانديون على وطنه صقلية وشاهد ما حل ببلده من الخراب وبقومه من العذاب فأذكى ذلك ، فيما يبدو ، من شاعريته ولكنه ظلّ دائم الانقباض كثير التشاؤم رقيق الشعور .

وبعد أن حلت النكبة بوطنه رحل إلى الأندلس سنة ٤٧١ ﻫ ولاذ بكنف المعتمد ابن عباد بإشبيلية وأصبح شاعره . ولما استولى ابن تاشفين على إشبيلية ونفى ابن عباد منها إلى قلعة أغمات بمراكش لحق ابن حمديس سيده إلى منفاه وبقى وفيًّا له ينظم الشعر الحزين . ولما توفى ابن عباد سار ابن حمديس إلى قرية المهدية الإفريقية وبقى فيها حقبة من الدهر ، ثم انتقل إلى ميورقة ، وهى جزيرة صغيرة شرقى الأندلس ، فمات بها أعمى بائساً سنة ٥٢٧ ﻫ . ولابن حمديس ديوان شعر طبع فى پالرم سنة ١٨٨٣ م . وفى روما سنة ١٨٩٧ م . وفى بيروت سنة ١٩٦٠م

كان لنشأة ابن حمديس فى جزيرة صقلية ذات الطبيعة الوارفة الظلال أثر فى ظهور فن الوصف فى شعره وعنايته به ، إلا أن الفترة المضطربة التى عاشها الشاعر فى أواخر حكم العرب للجزيرة ، وسط بيئة أعجمية وفتن متصلة ، لم تسمح له بالاستمتاع التام بهذه البيئة وحسن التعبير عن جمالها . ولما رحل إلى الأندلس وإلى المغرب اتصل بالنزعات الأدبية فى تلك البلاد وشارك فيها وعبر عنها ، وكان فى تعبيره هذا يمثل الطور الثالث للشعر الأندلسى الذى أخذ يصور البيئة وما فيها

---

(١) حكم العرب جزيرة صقلية بين عامى ٢١٩ و ٤٦٤ ﻫ .

من حداثة وجدة كما يعبر عن نزعات سابقيه من القدماء والمحدثين[١] .

ونشأة الشاعر ذى الأصل العربى فى موطن أعجمى يحارب العروبة ، ثم انتقاله إلى أرض الأندلس ومصاحبته العرب فيها وفى قفار المغرب ، أدى به إلى ازدياد تعلقه بالعرب وبيئتهم وما يتصل بهم من ألوان التفكير والأساليب ، ولذا أكثر من مدحهم والفخر بهم ووصف حياتهم .

وأول ظاهرة لوصف هذه الحياة تبدو فى تغنيه بالطبيعة البدوية ، فقد وصفها وبالغ فى الوقوف على الأطلال محتذياً فى ذلك معانى القدماء والمحدثين .

وقد أوضح الدكتور سيد نوفل أن الجمع بين معانى القدماء والمحدثين يبدو على أتمه حين يتحدث عن الأطلال حديثاً مؤثراً ، ثم يتبع مذهب أبى نواس فى السخرية منها والهتاف بالخمر فى ظل الطبيعة الوارف . وينطبق هذا كذلك على أوصافه الأخرى للخيل والإبل والغيث والبرق والبيداء والصيد .

ويتابع الدكتور نوفل كلامه قائلا : إن وصف الطبيعة عند ابن حمديس وثيق الصلة بوصف الخمر، والطبيعة بمختلف مظاهرها مسرح للشرب واللهو وهى بجمالها تقود إلى الخمر ، والخمر توضح جمال الطبيعة . . وما علينا إلا أن نقرأ ديوانه لنراه يشرب عند طلوع الفجر فى روضة فواحة الزهر مخضلة ، ويشرب قبل أن ترتشف الشمس ريق الغوادى من ثغور الأقاح ، ويشرب عند المغيب والشمس تلبس من الغيم نقاباً ، ويشرب على إيماض برق كأنه نور مصباح شب فى سواد الليل[٢] .

---

(١) نلاحظ أن الشعر الأندلسى ، بوجه عام ، قد مر بأطوار ثلاثة : الطور الأول ، وهو يمثل شعر التقليد لأدب المشرق ، ويبدأ منذ فجر عصر الأمويين فى الأندلس حتى القرن الخامس الهجرى ، ومن شعرائه ابن عبد ربه وابن هانئ وابن شهيد وابن دراج القسطلى وغيرهم . والطور الثانى ، وهو الحقبة التى امتدت خلال القرن الخامس ، وفيها أخذ الشعراء يصدرون عن حاضرهم ويمثلون بيئتهم ومظاهرها والنفس ومشاعرها مع الأخذ بحظ من التقليد ، ويمثل هذا الطور ابن زيدون وابن عمار والمعتمد بن عباد والأعمى التطيلى ومن إليهم من شعراء ملوك الطوائف الذين يجمعون طرافة البيئة إلى معانى الشعراء السابقين ، وفى نهاية هذا القرن تم انتصار الجديد واتسعت حركة الموشحات . أما الطور الثالث فيضم شعراء القرن السادس وما بعده وفيه أخذ الشعراء يمثلون البيئة وتجتمع لهم الحداثة والجدة ، ويمثل هذا الطور من الشعراء ابن حمديس وابن عبدون وابن خفاجة وابن سهل ولسان الدين بن الخطيب وابن زمرك وغيرهم .

(٢) « شعر الطبيعة فى الأدب العربى » ص ٢٧٠ — ٢٧١ .

وهكذا ينتهى الدكتور نوفل إلى أن ابن حمديس قد لاحق الطبيعة بالخمر فى جميع الأوقات والأحوال الطبيعية وأبان عن فتنة الطبيعة فى مظاهرها المختلفة ، فلها من مظاهر الحسن فى كل آن ما يغرى بها وما يدفع إلى الطرب لمرآها .

وفى الأبيات الآتية التى نقتطفها من إحدى خمرياته يمثل الشاعر مختلف مظاهر الطبيعة الجميلة فى جو من الخمر ، فيقول :

طَرَقَتْ والليلُ محدودُ الجَناحْ   مرحباً بالشمس فى غيرِ صباحْ
غادةٌ تحملُ فى أَجفانها   سَقَماً فيه مَنِيَّاتُ الصِّحاحْ

* * *

فاسْقِنِى عن إذنِ سُلْطانِ الهَوَى   ليس يشفى الروحَ إلا كأْسُ راحْ
وانتظر للحِلْمِ بعدى كَرَّةً   كم فسادٍ كان عُقباه صلاحْ
فالقضيبُ اهتزَّ والبدرُ بَدَا   والكثيبُ ارتجَّ والعنبرُ فاحْ
والثُّريا رَجَحَ الجوُّ بها   كابن ماءٍ ضَمَّ للوَكْرِ جَناحْ
وكأَن الغرب منها ناشِقٌ   باقةً من ياسمينٍ أَو أَقَاحْ
وكأَن الصبحَ ذا الأَنوارِ من   ظُلَمِ الليلِ على الظلماءِ لاحْ
فاشربِ الراحَ ولا تُخلِ يدًا   من يدِ اللهو غُدوًّا ورَوَاحْ
فى حديقٍ غَرَسَ الغيثُ به   عَبِقَ الأَرواحِ موشىَّ البِطَاحْ
تَعقِلِ الطرفَ أَزاهيرٌ به   ثم تُعطيه أَزاهيرَ صُراحْ

أَرضعَ الغيمُ لِباناً بانَهُ فتربَّت فيه قاماتُ المِلاحْ
كلُّ غصنٍ تَغْتَرِى أَعطافَه رِعدةُ النشوانِ من كأْسِ اصطباحْ

وهكذا فقد أوجز الشاعر فى هذه الخمرية جمال الطبيعة المتنوع ، ونلاحظ أن الشاعر يقبل على الطبيعة بثقافته الشعرية فيتأملها ويستخرج من المعانى أروعها ، فإذا بقامات الملاح بعض نباتها وإذا بالنشوة تسرى فى أغصانها وبالفتنة تأسر بصر الشاعر ، فيبدو عالم الطبيعة فى حركة وزينة وطرب .

إلى جانب هذا الوصف الذى تتجلى فيه الطبيعة حية مشخصة تبدو عناية الشاعر بتصوير الطبيعة اللامعة على مثال ابن المعتز فى العناية بالشكل وتجميله ، كقوله :

اشربْ على بركةٍ نَيْلُوفَرٍ محمرَّةِ النُّوَّار خضراءِ
كأَنما أَزهارُها أَخرجت أَلسِنَةَ النارِ من الماءِ

هذه الأوصاف وغيرها ترسم لنا فتنة ابن حمديس بالطبيعة وإقباله على مباهجها ، وهو بذلك يعبر عن بيئته الجميلة التى تنقل فى أفيائها وعما اعتاد عليه شعراء عصره من الإقبال على استجلاء محاسنها والتنزه فى رياضها . وقد قدَّم لنا الشاعر بعض الأوصاف التى تتجلى فيها روح الابتكار والإبداع والتى تبدو من خلالها نفسه الحزينة كقوله فى وصف نهر :

ومُطَّرِدِ الأَجزاءِ يَصْقُل مَتْنَهُ صَباً أَعلنت للعين ما فى ضميرِهِ
جريح بأَطراف الحَصَى كلما جَرَى عليها شَكَا أَوجاعَه بخريرِهِ

وكقوله أيضاً يصف نهراً ينبعث من عين ماء :

وَمُرْوِصدى الروضات يحسب ذائباً على الأَرض منه جملةً تتبعَّضُ

كأنَّ له فى الجسم روحاً إذا جَرَى به نهضهُ والجسمُ بالروح يَنهض
وما هو إلا دمعُ عينٍ كأنَّها لطول بكاءٍ دهرَها لا تُغمِّض
إذا سَرَحَتْ للسقى من كل جانبٍ رأيتَ بقاع الأرض منه ترَوَّض
يقيمُ عليها الإنس والصبحُ مقبلٌ ويرحل عنها الوحشُ والليلُ مُعْرِض

فهذا الوصف ينطق بالإمعان والتأمل فى صور الطبيعة ، وبعزف من مادة نفسه الحزينة .

وفتنة الشاعر بالطبيعة جعلته يدخل أوصافها فى أغراض الشعر الأخرى . فأوسعُ أغراض الشعر عنده المدح ويليه الوصف ، ولكن الطبيعة تنساب فى جملة أغراضه ، فيصف الطبيعة فى الغزل ويصور محاسن الحبيب على مثال محاسن الطبيعة ، ويصفها فى المدح بل أكثر شعره المدحى مصبوغ بصبغة الطبيعة ، ويصورها قوية فى الحماسة والفخر ، وحزينة باكية فى الرثاء .

وابن حمديس أحد أولئك الشعراء الذين جمعوا بين وصف الطبيعة الطبيعية والطبيعة الصناعية كالقصور والبرك والتماثيل والرسوم . فلنسمعه يصف بركة فى قصر ابتناه المنصور بن أعلى الناس ببجاية ، وعلى هذه البركة أشجار من الذهب والفضة وأسُود من المرمر يخرج من أفواهها الماء كما يخرج من أطراف تلك الأشجار فيسمعُ لها خرير وصفير ، قال :

وضَراغم سكنت عرينَ رِئاسةٍ تركتْ خريرَ الماءِ فيه زئيرا
فكأنما غَشَّى النُّضارُ جسومَهَا وأذاب فى أفواهها البِلَّورا
أُسْدٌ كأَنَّ سكونَها متحركٌ فى النفس لو وجَدَت هناك مُثيرا
وتذكَّرت فتكاتِهَا فكأنَّما أَقْعَتْ على أدبارها لتثورا
وتخالها ، والشمس تجلو لونها نارًا ، وأَلسُنَها اللواحسَ نُورا

فكأنما سَلَّتْ سيوفَ جداول ذابت بلا نارٍ فعُدْن غديرا
شجريةٌ ذهبيةٌ نَزَعَتْ إلى سِحْرٍ يُؤَثِّر فى النُّهَى تأْثيرا
قد سُرِّحتْ أَغصانُها فكأَنما قَبَضتْ بهنَّ من الفضاءِ طيورا

ونلاحظ أن هذا الوصف دقيق التفاصيل أنيق اللفظ إلا أنه جامد ضعيف الإيحاء . وهكذا نرى أن أكثر أوصاف الشاعر لوحات جميلة دقيقة التقاسيم واضحة الزخرف ولكنها لا تشع بروح الحياة ، وهو يشبه بها ابن المعتز وابن خفاجة بل يشبه أكثر الشعراء الوصافين فى العربية الذين يعتمدون على الصورة البصرية فى وصفهم أكثر من اعتمادهم على وحى القلب وإشعاع النفس وهزة العاطفة .

والخلاصة أن ابن حمديس شاعر فُتن بالطبيعة وعكف عليها ، عندما كان ينطلق من قيود همومه وأحزانه ، ومتّع بصره بجمالها ، وصوّرها صوراً أمينة عبرت عن جمالها فى كثير من الحذق والصنعة . وقد نفخ فيها من فنه أكثر مما أعطاها من روحه . ونحن إذا أعجبنا بشعره فى وصف الطبيعة فإنما نعجب لما فيه من روائع الفن ، ويبقى ابن حمديس ، فى نظرنا ، شاعراً شاكياً لأن المحنة التى حلت بوطنه الأول صقلية جعلته دائم الأسى ، فأخذ يشكو الزمان ولؤم الناس ويتبرم بالحياة على طريقة أبى العتاهية ؛ ولهذا كان من الطبيعى أن يكون شعر الشكوى أكثر انسجاماً مع نفسيته وحياته التى ذكرنا خلاصة عنها .

ابن خفاجة (٤٥٠ — ٥٣٣ ﻫ) :

وهذا شاعر آخر من شعراء دور ملوك الطوائف تتمثل فيه الجدة والحداثة ، ويعكس بيئة الأندلس وطبيعتها الضاحكة ، وتتجلى فيه الصفة الأندلسية وحبه للطبيعة أكثر من غيره .

ولد أبو إسحق إبراهيم بن أبى الفتح بن خفاجة سنة ٤٥٠ ﻫ فى بلدة شَقَر . وهى مدينة منعزلة فى شرقى الأندلس مشهورة بجمال طبيعتها . وسافر إلى عدوة

المغرب فاشتد شوقه إلى وطنه الجميل ورجع إليه ومات سنة ٥٣٣ هـ فى المدينة التى ولد فيها .

والأخبار التى بين أيدينا ضنينة بتفاصيل حياة الشاعر ، إلا أننا نعلم أنه عاش حياة هادئة ولم يتصل بأحداث السياسة . وفى ديوانه عدد من المدائح ولكنه لم يستذل نفسه لهذا الغرض ، وأكثر مدائحه فى أبى إسحق إبراهيم بن يوسف ابن تاشفين الذى خلف أباه فى دولة المرابطين .

عاش ابن خفاجة طويلا وتجاوز الثمانين ، واستمتع فى شبابه وكهولته بالحياة واقتنى لذاتها مع إخوانه وأصدقائه فى أحضان الطبيعة ومجالس اللهو فيها . وفى آخر أيامه اعترته الوحشة فبكى صباه وتنسك إلى أن وافته المنية .

لقد كان ابن خفاجة شاعر عصره ، استولت عليه روح المرح والمتاع بالحياة فأقبل على الطبيعة يتنزه فى مغانيها ويتملى من مباهجها فتمتلىء نفسه بِشراً ويعبر عنها تعبيراً يفيض حبوراً . ولقد كان لنشأته المترفة ولجمال بلدته أثر فى تغذية خياله وتكوين تأملاته فنظر إلى الطبيعة نظرة طويلة فاحصة ساعدته على دقة التعبير عن معانيه . وقد سمى بشاعر شرقى الأندلس ، كما سمى بالشاعر البستانى ، ولقبه المقرى بصنوبرى الأندلس لعنايته بوصف الطبيعة ولا سيما الجانب الضاحك منها .

فما هى المظاهر الطبيعية التى وصفها وما ميزاته فيها ؟

لقد وصف الشاعر الطبيعة بجميع مظاهرها ومباهجها ، فوصف الطبيعة الصامتة برياضها وأشجارها وأزهارها وأنهارها وجبالها ومفاوزها وسمائها ونجومها وما يتصل بذلك كله من نسيم ورياح وأمطار ، وكان الشعور الغالب على هذا الوصف المرح والبشر إلا ما كان من أمر وصفه للجبل إذ ساده التأمل والنظرة الحزينة . ووصف أيضاً الطبيعة الحية كالفرس والذئب وبعض الطيور ، وهكذا فقد كانت الطبيعة مستولية على حواسه ، ولم يستطع أن ينساها حتى فى أغراضه الأخرى ، فتوثقت الصلة بينه وبينها فأخذ يشعر بالبشر يحيط به عندما يحل فى مغانيها وإذا بها ذات جمال ودلال وبهاء ، فلنسمعه يصفها وقد اختالت زينة وبهجة وبدت تشارك الغادة الفاتنة فى جمالها :

وَكِمامةٍ حَدَرَ الصباحُ قناعَها ... عن صفحةٍ تَنْدَى من الأَزهارِ
فى أَبطحٍ رَضَعت ثغورُ أَقاحه ... أَخلافَ كلِّ غمامة مِدْرار
نَشَرت بحِجْر الأَرض فيه يدُ الصَّبا ... دُررَ الندى ودراهمَ النُّوار
وقد ارتدى غصنُ النقا وتقلَّدت ... حَلْىَ الحَبابِ سوالفُ الأَنهار
فتحللتْ حيث الماءُ صفحةُ ضاحك ... جَذْلٍ وحيث الشطُّ بَدْءُ عِذَار
والريحُ تَنْفض بُكْرةً لِمَمَ الرُّبى ... والطَّلُّ يَنْضَحُ أَوجهَ الأَشْجار
مُتَقَسِّمُ الأَلحاظِ بينَ محاسنٍ ... من رِدْفِ رابيةٍ وخَصْرِ قَرَار
وأَراكةٍ سَجَعَ الهديلُ بفرعها ... والصبحُ يُسفر عن جبين نهار
هزَّت له أَعطافَها ولربما ... خلعتْ عليه مُلاءَةَ النُّوَّار

والشاعر ينظر إلى الطبيعة نظرة محب والأبيات الآتية تمثل نفسيته المحبة التى يتوزعها جمال الطبيعة وجمال الإنسان ، قال فى مقدمة قصيدة يمدح بها أبا الحسن ابن نعيم :

وإنى وإن جئتُ المشيبَ لمولَعٌ ... بطُرَّةِ ظِلٍّ فوقَ وجهِ غَدير
فيا حبذا ماءٌ بِمُنعَرج اللِّوَى ... وما اهتزَّ من أَيكٍ عليه مَطِير
ونفحةُ ريحٍ للربيع ذكيةٌ ... ولمحةُ وجهٍ للشباب نَضِير
ونعسةُ طرفِ العين من سِنَة الكَرَى ... لِرَجْع خريرٍ أَو لشَجْوِ هَدِير

ويمكننا أن نلخص ميزاته فى وصف الطبيعة فى العناصر الآتية :

١ – اتصاله بالطبيعة وإشراك حواسه بها ، فقد خاطب الشاعر الطبيعة

وامتزج بها فى بعض قصائده ، واتصل بها اتصال الصديق بالصديق ولجأ إليها واستمع إلى عظاتها فى رحابها، وقصيدته فى وصف الجبل خير شعره الذى يمثل هذه الخاصة . فقد أثار مرأى الجبل فى نفسه عاطفة إنسانية جعلته يبعث فى هذا الطود المنتصب رعشة الحياة ، فأخذ يستمع إلى عظاته وعبره ، ويترجم له أفكاره وحسه ، وبدا الجبل شيخاً وقوراً متململا من طول بقائه وهو يشاهد مواكب الإنسانية تمروتمضى ويطويها الزمن . (انظر هذه القصيدة فيما يأتى من المنتخبات. ص١٣٩).

هذه القصيدة فى وصف الجبل تمنحنا نفحة جديدة للشعر الأندلسى هى هذه المشاركة فى العواطف التى يشعر بها المتأمل لسحر الطبيعة وما يعتريه من رهبة أو طرب وإعجاب . ولهذا نستطيع أن نقول إن ابن خفاجة قد استطاع فى هذه القصيدة أن يناجى الطبيعة على نسق جديد لم يعهده الشعر العربى القديم ، فأشرك النفس الإنسانية بسر الطبيعة وأدرك ما يسمى عند الفرنجة بحس الطبيعة .

٢ ـ الطبيعة عند ابن خفاجة ضاحكة طروب ، هى مسرح للهو ومقصف للشراب ، ولذا فقد هتف ابن خفاجة بالخمر فى جو الطبيعة المشرق الجميل ، فلنسمعه يصف هذه الحديقة الراقصة لنرى أن الطرب والرقص والغناء وسمات الحسن هى قوام هذا الوصف وأن الخمر ظل ضئيل فى هذا الوصف للطبيعة اللاهية :

وصقيلةِ الأَنوارِ تَلوى عِطْفَها ريحٌ ، تلفُّ فروعَها ، معطارُ
عاطَى بها الصهباءَ أَحْوَى أَحورٌ سحّابُ أَذيال السُّرى سحَّار
والنَّوْر عِقدٌ والغصونُ سوالفٌ والجِذْع زَنْدٌ والخليج سِوار
بحديقةٍ ظَلَّ اللَّمى ظِلاًّ بها وتطلَّعتْ شَنَباً بها الأَنوار
رَقَص القضيبُ بهاوقدشَرِب الثَّرَى وشَدَا الحمامُ وصفَّقَ التيَّار
غنَّاءَأَلْحَفَ عِطفَها الوَرَقُ النَّدِى والتفَّ فى جَنَباتها النُّوَّار

فتطلَّعتْ فى كل موقع لحظةٍ من كلِّ غُصنٍ صفحةٌ وعِذار

ومثل هذا الجو نجده فى وصف هذه الأراكة الحسناء التى ضربت ظلها فوق هذا الجمع الطروب بجوار جدول نثرت عليه الأزهار ودارت حول ضفافه كؤوس خمر عروس فاجتمعت فى هذه الروضة فتنة الطبيعة ونشوة الطرب :

وأَراكة ضَرَبَتْ سَماءً فوقَنا تَنْدَى ، وأَفلاكُ الكؤوس تُداُر
حَفَّتْ بدوحتها مجرَّةُ جدولٍ نَثَرت عليه نجومَها الأَزهارُ
وكأَنها وكأَن جدولَ مائها حسناءُ شُدَّ بخصرها زُنَّار
زَفَّ الزجاجُ بها عروسَ مُدامةٍ تُجْلَى ونُوَّار الغصون نِثار
فى روضةٍ جُنْحُ الدجى ظِلٌّ بها وتجسَّمت نَوْرًا بها الأَنوار
غنَّاءَ ينشر وشيَه البزَّازُ لى فيها ويَفتُقُ مِسْكَهُ العطار
قام الغناء بها وقد نَضَجَ الندى وجهَ الثرى واستيقظ النُّوار
والماء من حَلْى الحَباب مُقَلَّدٌ زَرَّت عليه جيوبَها الأَشجار

وتستهوى الشاعر شجرة نارنج مثمرة فيصفها فإذا بها فى حلة بهية ، وإذا الأوصاف الحسية تندمج بما يبعث فيها من حركة وحياة ، وإذا الطبيعة التى تحيط بها مرحة مغردة ، يخطب فيها الطير ، وليس علينا بعد من عذر إذا لم نمل طرباً فى أفياء هذا الدوح الظليل الرطيب :

أَلا أَفصحَ الطيرُ حتى خَطَبْ وخفَّ له الغصنُ حتى اضطربْ
فمِلْ طَرَباً بين ظلٍّ هَفَا رطيبٍ وماءٍ هناك انْثَعَبْ
وجُلْ فى الحديقة أختِ المُنَى ودِنْ بالمُدامة أُمِّ الطرب

وحاملةٍ من بناتِ القَنَا أَماليدَ تحمل خُضْر العَذَب
تنوبُ مُوَرَّقَةً عن عِذاو وتَضْحَكُ زاهرةً عن شَنب
وتَنْدَى بها فى مَهَبِّ الصَّبا زبرجدَةٌ أَثمرتْ بالذَّهَب
تُفَاوِحُ أَنفاسَها تارةً وطورًا تغازلها من كَثَب
فتبسِمُ فى حالةٍ عن رِضا وتنظر آونةً عن غَضَب

٣ ــ هذه الحياة التى شعت فى الأمثلة السابقة تَسِم أكثر أوصاف الطبيعة عند ابن خفاجة . فهو يشخِّصها ويرى فى جمالها جمال المرأة ويصورها على نحو إنسانى تملؤه الحركة والنشاط . ولهذا التشخيص أمثلة كثيرة فى شعره ، فلنسمعه يصف شجرة منوّرة :

يا رُبَّ مائسةِ المعاطف تَزْدَهِى من كل غُصنٍ خافق بوشاحِ
مهتزةٍ يرتجُّ من أعطافها ما شئتَ من كَفَلٍ يموج رَداح
نفضتْ ذوائِبَها الرياحُ عشيةً فتملَّكتها هِزَّةُ المرتاح
حطَّ الربيع قناعَها عن مَفْرِق شمط كما ترتدُّ كأْسُ الراح
لَفَّاءُ حاك لها الغمام مُلاءَةً لبستْ بها حسناً قميصَ صَباح
نَضَح النَّدى نُوَّارَها فكأَنما مسحت معاطِفَها يمينُ سَماح
ولوى الخليجُ هناك صفحةَ مُعرِضٍ لثمتْ سوالفَها ثغورُ أَقاح

٤ ــ وفتنة الشاعر هى على الأغلب فى الرياض والزهور ولهذا لقب بـ «الجنَّان » ، ويعتمد على التشخيص ــ كما رأينا ــ والتشبيه بمحاسن المرأة فى إظهار محاسن

روضياته ، وقد يقف عند بعض الجزئيات فيها ، ولكن كثيراً ما تظهر روضياته فى إطار من اللهو على شكل نزهات فى رحاب الطبيعة التى يبدع فى تجسيمها كقوله :

سَقياً ليوم قد أَنخْتُ بسرحةٍ رَيَّا تلاعبها الشمال فتلعب
سَكْرَى يُغَنِّيها الحَمَامُ فتنثنى طَرَباً ويسقيها الغمامُ فتشرب
يلهو فَتُرفع للشبيبةِ رايةٌ فيه ويطلُعُ للبَهارَةِ كوكب
والرَّوْضُ وجهٌ أَزهرٌ والظِّل فرعٌ أَسْودٌ والماءُ ثغرٌ أَشنب
فى حيث أَطربنا الحَمام عشيةً فشدا يُغَنِّينا الحمامُ المطرب
واهتزَّ عِطْفُ الغصن فى طَرَبٍ بنا وافترَّ عن ثغر الهلال المَغْرب
فكأَنه والحسنُ مقترنٌ به طَوْقٌ على بُرد الغمامة مُذْهَب
فى فتيةٍ تَسْرِى فينصدعُ الدُّجى عنهاوتَنْزل بالجَديب فيَخْصَبُ
كَرُموا فلا غيثُ السماحةِ مُخْلفٌ يوماً ولا بَرْقُ اللطافة خُلَّبُ
من كلِّ أَزهرَ للنعيم بوجهه ماءٌ يرقرِقُهُ الشبابُ فيَسْكُبُ

على أن روضياته تتشابه فهى محصورة فى إطار واحد تمثله الحديقة بما فيها من أشجار وجداول وأزهار وظلال وارفة وحمائم تتداعى ونسمات عليلة وندامى يشربون ويغنون ويطربون .

٥ — وقد وصف ابن خفاجة أيضاً الطبيعة الحية كالفرس والذئب وله فى وصف الفرس أبيات تتراءى فيها البراعة والجدة فى التصوير فيقول :

ومُطَهَّم شَرِقِ الأَديم كأَنما أَلِفَتْ معاطفُهُ النجيعَ خِضابا
طَرِبٌ إذا غَنَّى الحسامُ ممزِّق ثوبَ العَجَاجَةِ جيئةً وذهابا

قَدَحَتْ يدُ الهيجاءِ منه بارقاً متلهباً يُزْجِى القتامَ سَحابا
ورمى الحِفاظُ به شياطينَ العِدى فانقضَّ فى ليلِ الغُبار شِهابا
بسامُ ثغر الحَلْى تحسِبُ أنه كأْسٌ أثار به المِزاج حَبَابا

٦ – يتبين مما تقدم أن ابن خفاجة يمثل نهضة شعر الطبيعة فى الأندلس ، وقد استطاع أن يصور طبيعتها الجميلة والحياة اللاهية فى أحضانها ، وكان فى وصفه مصوراً بصريًّا بارعاً يعتمد على دقة ملاحظته إلى جانب قوة خياله . وقد يكون قد أغرق فى الصنعة والمحسنات البديعية ومع ذلك استطاع ألا يجعلنا نشعر بثقلها إلا فى بعض أوصافه، على أن الصنعة عنده أداة للتجميل وقد امتزجت بقوة خياله وأناقة ألفاظه وترف صوره فجاءت مقبولة كقوله فى وصف نهر :

لله نهرٌ سالَ فى بَطْحاءِ أَشهى وُرُودًا من لَمَى الحسناءِ
متعطِّفٌ مثلَ السِّوار كأَنه والزهرُ يكنُفُهُ مَجَرٌّ سَماءِ
قد رَقَّ حتى ظُنَّ قُرصاً مُفْرَغاً من فضةٍ فى بُردةٍ خَضْراءِ
وغدتْ تحُفُّ به الغصونُ كأَنها هُدْبٌ تَحُفُّ بمقلةٍ زرقاءِ
والماء أَسْرَعَ جَرْيَهُ مُتَحَدِّرًا مُتَلَوِّياً كالحيةِ الرَّقْطاءِ
والريحُ تعبثُ بالغصونِ وقد جرَى ذهبُ الأَصيل على لجينِ الماءِ

وابن خفاجة من الشعراء الذين اتصلوا بالطبيعة كما أشرنا، ولكن هذا الاتصال لم يبلغ مبلغ الامتزاج الكلى بها إلا فى بعض قصائده ولا سيما قصيدته فى وصف الجبل ، وتبقى الطبيعة عنده صورة لاعتدال القد واهتزاز الخصر وابتسام الثغر ، وهى فى صورها ترضى لذة الحس وقلما تبعث فى النفس لذة الروح . وشأن شاعرنا فيها كشأن باقى أعلام شعراء الطبيعة فى أدبنا العربى ، فهم لم يلجئوا فى وصفها إلى

إدراك حس الطبيعة كما أدركه الشعراء الغربيون وإنما بقيت الطبيعة عندهم متاعاً للعين وفنًّا وصفيًّا تجمله الزخارف والألوان ولا تتشابك فيه العواطف والأحزان إلا نادراً .

* * *

هذه أسماء بارزة فى الشعر الأندلسى أتينا على ذكرها لنبين جانباً هامًّا من صفات هذا الشعر . على أن ثمة شعراء آخرين لا يقلون عن هؤلاء شأناً لم نأت على ذكرهم لضيق المجال فلتراجع أخبارهم فى مظانها . ولكى يتم لنا فهم صفات هذا الشعر لا بد من استعراض خصائص مختلف أغراضه ، فما هى هذه الخصائص التى اتصفت بها أغراض الشعر الأندلسى ؟

الفصل الرابع

أغراض الشعر الأندلسى

نظم شعراء الأندلس الشعر فى مختلف الأغراض . ولم يشذوا ، بوجه عام ، عن القواعد والأساليب التى اتبعها المشارقة فى أشعارهم .

المدح :

فقد حافظ المدح على الأسلوب القديم وكان الشعراء يعنون بالاستهلال وحسن التخلص ، وربما جعلوا صدور مدائحهم وصفاً للخمر أو للطبيعة أو للبلد الذى نشأ فيه الشاعر أو للمرأة التى أحبها ، وقلما شذ بعضهم عن هذا السبيل ، كما وصفوا الفلاة والناقة والجواد ووقفوا على الديار والأطلال ولكنهم لم يطيلوا وصفهم هذا ويستفيضوا به ، ولم يغرقوا فى استعمال الغريب إلا ما كان من ابن هانئ فقد تعمد الغريب وأكثر المغالاة محاولا تقليد المتنبي . وكانت مدائحهم محشوة بالتملق والاستجداء على طريقة المشارقة .

الرثاء :

وكذلك فى الرثاء لم يختلف الأندلسيون عن المشارقة من حيث التفجع على الميت ووصف المصيبة وتعداد المناقب ، فكانت معانيهم وأساليبهم متشابهة . وكانوا يستهلون مراثيهم بالحِكَم كالمشارقة ، إلا أن حكمهم كانت ساذجة لا عمق فيها ، ترتكز على الشكوى من الأيام .

وكان رثاؤهم للممالك الزائلة أكثر روعة أحياناً من رثاء شعراء المشرق ، فقد أشجاهم أن يروا ديارهم تسقط بلداً إثر بلد فى أيدى الغرباء من المكتسحين ، فبكوها بكاءَ من يبكى على فراق وطن أحبه وفتن بجمال طبيعته ورخاء أيامه . فبكى ابن اللبانة دولة بنى عباد . وابن عبدون دولة بنى الأفطس عندما أزالهما

ابن تاشفين ، وبكى أبو البقاء الرندى الأندلس بأسرها بعد أن استردها النصارى ، وقد بدت لوعة صادقة فى هذه القصائد الثلاث ولا سيما فى قصيدة أبى البقاء التى يقول فيها :

لكلِّ شيءٍ إذا ما تَمَّ نُقْصَانُ فلا يُغَرَّ بطيبِ العيشِ إنسانُ
هىَ الأُمورُ كما شاهَدْتَها دُوَلٌ مَنْ سَرَّه زمن ساءَتْه أَزمان
وهذه الدارُ لا تُبْقِى على أَحَدٍ ولا يدوم على حال لها شَان
أَينَ الملوكُ ذوو التيجانِ من يَمَنٍ وأَينَ منهم أَكاليلٌ وتيجان
أَتَى على الكُلِّ أَمرٌ لا مَرَدَّ له حتى قَضَوْا فكأَنَّ القومَ ما كانوا
وصارَ ما كان من مُلْكٍ ومن مَلِكٍ كما حَكَى عن خيالِ الطيفِ وَسْنَان[1]

ويتصل بالرثاء الشكوى والاستعطاف ، وقد امتاز بهذا الغرض الملوك والأمراء لكثرة ما نالهم من المحن والنكبات فذلُّوا بعد عز وهبطوا بعد رفعة ، وقد رأينا نوعاً من هذه الشكوى فى شعر المعتمد بن عباد بعد أن نُكب ونفى إلى أغمات فى إفريقية .

الهجاء :

أما الهجاء فلم تقم له سوق رائجة فى الأندلس ، ولا سيما الهجاء السياسى ، لقلة الأحزاب السياسية . وقد ظهر فى عهد الأمراء هجاء بين المضرية واليمانية ولكن لم يحفظ لنا منه شىء جدير بالاهتمام . وقد قام بعض الشعراء بهجو الفرنجة أثناء الحروب معهم ، وهجو البرابرة عندما استفحل أمرهم ، وكانت الغاية من الهجاء التكسب والمجون ، فلم يكن هناك هجاء سياسى بالمعنى المعروف عند المشارقة كالدفاع عن العرب وذم الشعوبية ، لأن الشعوبية لم يكن لها شأن فى الأندلس . وهذا الهجاء العابث كان مشحوناً بالإقذاع والفحش . وعلى الجملة فإن الشعراء الذين

---

(١) اقرأ تمام القصيدة فى النفح ج ٦ ص ٢٣٢ (طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد) .

مارسوا هذا الغرض لم يبلغوا فيه شأن المشارقة . وأشهر من عُرف بهذا الفن منهم أبو بكر المخزومى الأعمى ، وهو من شعراء المائة الخامسة للهجرة ، وبينه وبين نزهون بنت القلاعى الغرناطية معابثات فاحشة . قال فيها المخزومى :

على وجه نزهونٍ من الحُسْنِ مَسْحَةٌ وتحت الثيابِ العارُ لو كانَ بَادِيا
قواصدُ نزهونٍ توارِكُ غيرِها ومن قَصَدَ البحرَ استقلَّ السواقيا

فأجابته :

إنْ كانَ ما قلتَ حقًّا مِن بعد عهدٍ كريمِ
فصارَ ذِكْرِى ذَميما يُعْزَى إلى كلِّ لُوم
وَصِرتُ أَقبحَ شيءٍ فى صورةِ المَخْزُومى

الحكمة :

وكذلك الأمر فى الحكمة ، فقد ذكرنا أن الشعراء الأندلسيين لم ينصرفوا إلى حياة التأمل ، لذلك بدت حكمتهم ساذجة بعيدة عن العمق . وكذلك الفلسفة لم تنتشر فى تلك الربوع منذ دخول العرب إليها ، بل تأخر ظهور الفلاسفة إلى أواخر القرن الخامس ، فى عصر المرابطين والموحدين ، فقد كان هذا العصر عصر نهضة فى الفلسفة والتأليف ، فيه ظهر ابن باجه وابن رُشْد وابن طفيل صاحب رسالة « حىّ بن يقظان » وابن ميمون من الفلاسفة وابن خاقان وابن بشكوال والإدريسى وابن جُبَيْر وابن بسام من المؤلفين؛ ولولا ظهور ابن حزم قبل رجال هذه الطبقة لقلنا إن هذا العصر احتكر العلم والفلسفة . وسبب تأخر نهضة الفلسفة فى الأندلس، واقتصارها على فئة محدودة من المختصين ما كان للفقهاء من سلطان على ملوك الأندلس فإنهم ضيقوا حرية التفكير ، وكفّروا كل متفلسف وأفتوا بنفيه وإحراق كتبه ، وكانت العامة تجارى أهواء الفقهاء فيضطر السلطان تجاه ثوراتهم إلى استرضائهم بإتلاف كتب الفلاسفة كما فعل الحاجب المنصور ، وبمعاقبة المتهمين

كما فعل صاحب إشبيلية بابن هانئ إذ نصح له بالابتعاد عن المدينة كما ذكرنا .

وقد قلنا إن ابن هانئ كان أكثر الشعراء الأندلسيين اهتماماً بالحكمة فى شعره محاولا بذلك تقليد المتنبي ولكنه بقى مقصراً عنه أشواطاً . وحكمته تدور حول شكوى الدهر والتحذير من الدنيا ، فكانت كحكمة غيره من الشعراء مبتذلة بعيدة عن النضج .

فمن قوله فى قصيدة يرثى بها ولداً لإبراهيم بن جعفر بن على أحد ممدوحيه :

وَهَبَ الدهرُ نفيساً فاسْتَرَدْ ربما جادَ بخيلٌ فَحَسَدْ

كلما أَعطى فَوَفَّى حاجةً بيَدٍ شيئاً تَلَقَّاه بيَد

خابَ مَنْ يَرْجُو زماناً دائماً تُعْرَفُ البأْساءُ منه والنَّكَد

فإذا ما كَدَّر العيشَ نَمَا وإذا ما طَيَّبَ الزَّادَ نَفَد

فلقد أَذْكَرَ مَنْ كان سَهَا ولقد نَبَّهَ مَنْ كانَ رَقَد

وقال فى قصيدة فى الرثاء :

إنا وفى آمالِ أَنفسِنَا طُولٌ وفى أَعمارِنَا قِصَر

لَنَرَى بأَعيننا مصارِعَنَا لو كانت الأَلبابُ تَعْتَبِر

ممَّا دَهانا أَنَّ حاضِرَنا أَجفانُنا والغائبَ الفِكَرُ

وإذا تدَبَّرنا جوارِحَنا فأَكلُّهُنَّ العين والبَصَرُ

لو كان للأَلبابِ مُمْتَحِنٌ ما عُدَّ منها السمعُ والبصرُ

أَىّ الحياة أَلذُّ عِيشَتَها من بعد علمىَ أَننى بَشَرُ

خَرِسَتْ لعمرُ الله أَلسنُنا لما تَكَلَّمَ فوقَنا القَدَرُ

الزهد :

وإذا كانت الحكمة ضئيلة جافة فى الشعر الأندلسى ، فلم يكن الزهد كذلك . وقد كان لسلطة الفقهاء تأثير فى دفع الناس إلى التعصب الدينى والتظاهر بالعبادة والعزوف عن الدنيا ومباهجها ، حتى كثر المتزهدون وأصبحت صناعة الزهد شيئاً مرغوباً . فكان الشعراء ينظمونه بدافع دينى أحياناً وبدافع تقليدى أحياناً أخر . على أن من الشعراء من نظمه وقد شعر حقاً بندمه وأدرك غرور الدنيا فأخذ يذكر ذنوبه طالباً مرضاة الله وعفوه . وهذه ظاهرة طبيعية لكل إنسان انغمس فى الملذات إذ لا بد له من ساعات ندم يخلد فيها إلى نفسه ، ومثال أبى نواس شاهد على ذلك فى توبته الأخيرة .

على أن كثرة الحروب والفتن وتقلب الأحوال أثرت فى نفوس الشعراء فمالوا إلى الطعن بغدر الأيام وغرور الزمن ، وقادهم هذا الموقف إلى لون من الشعر الشاكى الذى انتهى بهم إلى الزهد والتقشف وذكر الله . فلنسمع ابن عبد ربه وهو يصف الدنيا بأنها دار للفجائع والمصائب :

أَلا إنما الدنيا غضارة أَيْكَةٍ إذا اخضرَّ منها جانبٌ جفَّ جانبُ

هى الدار ما الآمال إلا فجائعٌ عليها ، ولا اللذَّاتُ إلا مصائبُ

فكم سَخَّنَتْ بالأَمس عيناً قريرةً وقَرَّتْ عيوناً ، دمعُها اليومَ ساكبُ

فلا تكتحلْ عيناك منها بِعَبرةٍ على ذاهبٍ منها ، فإنك ذاهبُ

ولنسمع ابن حمديس يبكى ذنوبه ، فنجد فى هذا البكاء برماً بالحياة ونظرة خاشعة إلى الله تتمثل فيها سمات الشعر الزهدى بشكل عام :

يا ذنوبى ثَقَّلْتِ واللهِ ظَهْرِى بانَ عُذرى فكيف يُقبل عذرى

كلما تُبْتُ ساعةً عدتُ أُخرى لضروبٍ من سوءِ فعلى وهُجْرى

دبَّ مَوْتُ السكونِ فى حَرَكاتى وخَبَا فى رمادِهِ حرٌّ جَمْرى
يا رفيقاً بعبدِهِ ومحيطاً عِلمُهُ باختلافِ سِرِّى وجَهْرى
مِلْ بقلبى إلى صلاحِ فَسَادى منه واجْبُرْ برأْفةٍ منكَ كَسْرى
وأَجِرْنى بما جَنَاهُ لسانى وتَنَاجَتْ به وساوسُ فِكْرى

التصوف :

ويتصل بالزهد التصوف ، وقد ظهر بين الشعراء الأندلسيين من نظموا شعراً صوفياً رائعاً كابن عربى شيخ المتصوفين . فقد ولد بمرسية سنة ٥٦٠ هـ وانتقل إلى إشبيلية ثم سافر إلى الشرق ومات فى دمشق سنة ٦٣٨ هـ ، وله قصائد وموشحات صوفية سائرة . وكان هناك اتصال بين متصوفة المشارقة ومتصوفة المغاربة من جراء تبادل الرحلات والتنقل بين الغرب والشرق ، فلمسنا لهذه وحدة فى طرائقهم وأساليبهم .

الشعر الحماسى :

وإذا كان الشعر الزهدى قد دعت إليه ظروف الشعراء وواقعهم فلم يكن الأمر كذلك فيما يختص بشعر الحماسة . فقد كان شعراء الأندلس بعيدين عن أن يعيشوا عيشة الأبطال والفرسان ، لذلك اقتصر شعرهم الحماسى على مدح الملوك ووصف معاركهم الحربية وكانوا بذلك شعراء مصورين لا شعراء مغاوير يعبرون عما يجيش فى نفوسهم ، ولهذا فقد كان المدح غاية الشعر الحماسى ولم يرتفع من أجل هذا شأنه عندهم ، وبقى الدافع إليه التقليد لا العاطفة . وقد كنا نأمل أن تنفخ فيها غارات الأعداء روح الحماسة ولكن أكثرهم ، ولا سيما شعراء ملوك الطوائف ، قد فضلوا أن يخلدوا إلى شعر الضعف والشكوى والبكاء ، ولعل نفسية الشاعر الأندلسى الوادعة المستسلمة لأحلام الطبيعة والرخاء تلائم هذا النوع من الشعر أكثر من ملاءمتها للشعر الصاخب القوى الذى امتاز به شعراء المشرق ،

ولا شك أن للظروف الإقليمية أثراً فى هذا الاتجاه النفسى الذى أضعف فيهم روح الحماسة وقلل من حدة البداوة ، فرأينا الفخر قد قل فى شعرهم ، وعندما يظهر نراه يصطبغ فى أكثر الأحيان بصبغة دينية لتعلق الشاعر الأندلسى بإسلامه ولما بينه وبين جيرانه النصارى من العداء . أما صفات البطولة والشجاعة فكانت تأتى على شفاههم متكلفة مصطنعة لفقدان الشعور الصميم بأنهم يتحلون بها كما فى حماسات ابن وهبون من شعراء المعتمد بن عباد ، وقد توفى هذا الشاعر ، كما يظهر ، فى النصف الأول من القرن السادس للهجرة .

الوصف :

أما الشعر الوصفى فقد ظهر فى أكثر أغراض الشعر ، وأظهر الأندلسيون فيه عبقرية نادرة لا سيما عندما تعرضوا إلى وصف الطبيعة وجمال العمران ومجالس الأنس والطرب . نعم لم يظهر الوصف فى الشعر العربى كغرض مستقل وإنما رأيناه خلال المدح والغزل وغيرها من الأغراض ، ولكننا نستطيع أن نقول إن اهتمام الأندلسيين بالوصف كان كبيراً . وعلى الرغم من امتزاجه فى أكثر الأغراض الشعرية فقد استطاع الأندلسيون أن يتفننوا به ويمنحوه بعض الاستقلال ، فهناك شعر وصفى لجميع مظاهر الحياة الحضرية الهانئة من وصف لمجالس اللهو والغناء والرقص والشراب وآلته والصيد وأدواته والنساء وأحوالهن ، وهناك شعر وصفى للطبيعة ولمظاهر العمران والقصور كما سنرى ، وهناك شعر وصفى للحروب والسلاح والسفن ، وغير ذلك مما يتناول الحياة برخائها وحربها ، بطبيعتها الجميلة التى من بها الله ، وبقصورها وساحاتها المرمرية التى زخرفتها يد الإنسان .

ولا عجب فى أن يكون لوصف المعارك نصيب وافر من الشعر الأندلسى فإن الحروب بين المسلمين وأعدائهم الفرنجة لم تنقطع ، ولم تهدأ حرب إلا لتشن أخرى ، لهذا حفلت مدائح الملوك والأمراء بذكر المعارك والجيوش والحراقات ، وقد رأينا نموذجاً من هذا الوصف فى قصيدة ابن هانئ الأندلسى الذى يمدح بها المعز لدين الله الفاطمى ويصف حراقاته .

الغزل ــ الخمر :

وإذا كانت الطبيعة لها المكان الأول بين أغراض الشعر الأندلسى ، فالغزل كان ينساب على شفاه الشعراء ويدعو إليه كل ما فى الأندلس من طبيعة جميلة وحياة حضرية ناعمة ومجالس أنس ورخاء وخمر وغناء ، وقد ذكرنا لكم سابقاً بعض المشاهد عن الحياة اللاهية التى كان يحياها الأندلسيون ، كما أن أسواق النخاسة التى كان يباع فيها الجوارى والغلمان قد شجعت هذه الحياة اللاهية التى وجد الغزل فيها مرتعاً سهلا . ومن الشعراء من أحب حباً صادقاً ومنهم من تمتع بوهم الحب ولها ، وقد استطاع الشاعر الأندلسى أن يرسم حبه ولهوه بأبيات تعد من الشعر الجيد لأنها استطاعت أن ترسم الأجواء وتعبر عن خوالج النفوس . إلا أن أكثر غزلهم كان مقيداً بالتقاليد والتكلف ، ولم يستطيعوا أن يحلقوا فى أجواء جديدة إلا عندما استطاعوا أن يهجروا الأسلوب القديم كذكر البادية والأهوال فى سبيل الوصول إلى الحبيب ويتحدثوا عن حبهم ومجالسهم وخلواتهم فى كثير من الانطلاق . إلا أن هذا الحديث قد قادهم إلى حرية مؤذية أحياناً ، فيها الكثير من الفحش والتهتك ، وقد بلغ الغزل فى زمن طوائف الملوك حالة مزرية فى انحطاط ألفاظه ومعانيه وعبّر بذلك عن حياة العصر المتهتك .

وقد كانت أوصافهم مادية تقليدية فتحدثوا عن سهام الألحاظ وخمر الرضاب وليل الشعر ونرجس العيون وغير ذلك من الأوصاف المألوفة فظهر تقليدهم ولم يجددوا المعانى ، فالمحب ذليل والمعشوقة لا ترحم ، ومن هنا نشأ عندهم ما يسمى بالحب المعذب الذى تفنن الشعراء فى وصفه فرحين بالتذلل للحبيب والخضوع له ، وقلما حدثنا الشاعر عن أفراح الغرام فهو إذاً فى ألم دائم . وقد عقد هنرى به رس[١] فصلا قيماً عن الغزل فى الشعر الأندلسى بيّن فيه معانيه الأساسية وخصائصه ندعوكم إلى الرجوع إليه ، كما ندعوكم إلى الرجوع إلى الفصل الذى يتحدث فيه هذا المؤلف عن المعانى التى ألهمتها الطبيعة والعمران فهو فصل قيم أيضاً . ولعل

(١) انظر كتابه الذى أشرنا إليه سابقاً .

أجمل ما فى الغزل الأندلسى هو هذه النغمة المحزنة التى يبكى فيها الشاعر أيام سعادته بالقرب من الحبيب ويحن إلى أيامه الآفلة التى قضى الدهر أن تكون ذكرى لحب مقيم ، وهذه النغمة هى التى منحت قصيدة ابن زيدون فى صاحبته ولاّدة هذه الشهرة حتى تناقلتها كتب الأدب ، ففى هذه القصيدة التى مطلعها :

أَضحَى التنائى بديلاً من تدانِينا ونابَ عن طِيبِ لُقْيانا تَجافِينا

لحن موسيقى ونجوى غرامية شاكية استطاع ابن زيدون أن يحلق بها فى جو غزلى جميل كما سنرى عند الكلام على هذه القصيدة بشىء من التفصيل .

هذا وقد بدت آثار البيئة على أشعار الأندلسيين الغزلية فشاع عندهم الغزل النصرانى وذكر الكنائس والقساوسة والصلبان كغزل ابن الحداد فى نُوَيْرة النصرانية ، كما شاع عندهم التشبيب بالشعر الأشقر والعيون الزرق لكثرة ما كانوا يصيبون من سَبْى فرنجة الشمال وهم شقر فى الغالب . وكانت تشبيهاتهم مستمدة غالباً من الطبيعة ، كما ذكرنا ، ولكن كثيراً ما كان يظهر عليها التكلف والصنعة ، وخير أشعارهم الغزلية ما كانت مجردة عن هذا التكلف كما فى قصيدة ابن زيدون السابقة الذكر .

* * *

ولنقل أخيراً إن هذا الشعر فى أغراضه المتعددة لا يختلف كثيراً عن الشعر الشرقى بل لعله لم يكن فى مرتبته من حيث المعانى والصور الفكرية ، وقد نلاحظ أنه قد كبِّل بالصنعة فأسفَّ أحياناً ولم يستطع أن يفلت من هذا الإسفاف إلا عندما أطلق الشاعر لقلبه حرية القول غير عابئ بقيود البيان والبديع . على أن للشعر الأندلسى ميزةً هى هذه الرقة الممزوجة بالجزالة ، وقد شعر الأندلسيون بهذه الظاهرة فى أدبهم حين قال ابن بسام : « وذهب كلامهم بين رقة الهواء وجزالة الصخرة الصَّمَّاء » .

وإذا كانت هذه الأغراض الشعرية التى أتينا على ذكرها قد استطاعت أن تصور لنا ، على أنماط مختلفة من الجودة ، بعض صفات الشعر فى الأندلس ؛

فإن وصف الطبيعة ، وهو أبدع أشعارهم ، قد عرف هناك ازدهاره ووجد فى سماء الأندلس شمسه ونهاره . وقد رأينا كيف كانت الطبيعة مثار قرائح الشعراء الأندلسيين أمثال ابن حمديس وابن خفاجة وغيرهما . فجدير بنا أن نقف عند هذا الشعر – شعر الطبيعة – وقفة نجتلى فيها مزاياه ونوضح أسرار جماله وخفاياه .

وسنوجز الكلام ، فى الفصل الآتى ، على مفهوم هذا الشعر ونشأته فى أدبنا العربى ، ثم نعرج على ذكر بواعثه وخصائصه فى أدبنا الأندلسى ، ونورد فى نهاية الحديث بعض المختارات الشعرية لأعلام شعر الطبيعة فى الأندلس .

الفصل الخامس

شعر الطبيعة

هام الإنسان بالطبيعة منذ أن فتح عينيه على محاسنها وتطلع بحب إلى جمال روضها ورونق سمائها . وقد وجد فيها الشاعر والكاتب ، منذ القديم ، مرتعاً لخياله ومقيلا لأفكاره . وكانت وحىَ من استلهمها ، تنشيه باهتزاز أزهارها وانسياب جداولها ، وتلألؤ طَلّها ، وهدوء ظلها ، فيجود بالكَلِم الخالد واللوحة الناطقة .

و « شعر الطبيعة » تعبير جديد فى أدبنا ، جاءنا من الآداب الغربية وكان له فيها أصوله وشعراؤه . وقد أطلقه النقاد الغربيون على الشعر الذى كان من أهم مظاهر الحركة الإبداعية الرومانسية Romantisme فى أواخر القرن الثامن عشر . وقد وجد الشعراء الإبداعيون فى الطبيعة ميداناً فسيحاً لحرية العمل، وتربة خصبة لنمو العواطف الإنسانية ، وموضوعاً أكثر ملاءمة للأسلوب القوى الصريح . والطبيعة كما يفهمها « الرومانسيون » صديقة وفية يحبونها لما تمنحه من جمال لحسهم وهدوء لنفوسهم . فيستسلمون إليها ويشاطرونها المناجاة ويبوحون إليها بعواطفهم وآلامهم ، ويصورونها بقساوتها وجمالها . وكثيراً ما تكون ملجأ نفوسهم التعبة القلقة ، ولذا فهم يفرُّون إليها ناشدين بالقرب منها طهارة الحياة ونعيم السعادة مع مَن يحبون ويعشقون . وقد كان جان جاك روسو من أوائل الكتاب الذين غذوا الأدب الفرنسى بهذا الحس الطبيعى العميق .

على أن هذه الحركة كان لها جذور فى الماضى ، فهناك الكثير من الآثار اليونانية التى تغنت بجمال الطبيعة ، وقد ظفرت الإلياذة والأوديسة بقسط جميل من هذا الفن . وفى الواقع أن شعر الطبيعة بمعناه العام لم يكن مقتصراً على عصر دون آخر ، بل كان قسمةً بين جميع العصور . إلا أنه ساد وعمقت فلسفته وتميز شعراؤه فى الحركة الإبداعية .

شعر الطبيعة فى الأدب العربى :

فما هو شعر الطبيعة فى أدبنا العربى ؟ وعلى أى شكل قاله الشعراء ؟

عرف الشعرُ العربى القديم شعرَ الطبيعة على الشكل الذى أوحت به البيئة البدوية ، وقد تهيأ للشاعر الجاهلى من هذا الفن حظ وافر ، فأخذ يتأمل الطبيعة ويبثها آلامه ويفتن بها ويصورها تارة ببصره وأخرى بقلبه . ويقف على أطلال الديار فتثير شجونه ، وتملك عليه الناقة والبعير والفرس فؤاده ، وتستهويه الصحراء بحيوانها ورمالها وآلها وواحاتها ونجومها وبرقها ومطرها . فالشعر الجاهلى مثل الحياة البدوية من هذه الناحية، وصورها على النمط الذى مثله الشعر الرعوى فى البيئة الغربية[١] ، فقد مثل هذا الشعر الرعوى الطبيعة بحيوانها وطيورها وغاباتها وحقولها ، وبدا فيه الحب للحياة الريفية ، ولكنه لم يصدر فى الجملة عن الملاحظة الذاتية والشعور بل عن التقليد والتخيل[٢] .

وقد نحا شعر الطبيعة فى فجره عند العرب هذا المنحى ، وبقى على الغالب صورة لما تراه العين أكثر من أن يكون مشاركة للعواطف التى توحى بها الطبيعة وانفعالا ذاتيًّا للشعور .

وقد تناول شعر الطبيعة فى العربية ، كما تناول عند الغربيين ، الطبيعة الحية والطبيعة الصامتة ، ويقصد بالطبيعة الحية ما اشتملت عليه من أصناف الحيوان ما عدا الإنسان ، وبالطبيعة الصامتة مظاهرها ووجودها المتجسد فى سهولها وبحارها وسمائها وبواديها وحدائقها وحقولها وما إلى ذلك .

---

(١) الشعر الرعوى la poésie bucolique فن شعرى وثيق الصلة بشعر الطبيعة la poésie de la nature ، وقد نما هذا الفن وازدهر فى عصر النهضة مع الحركة الإنسانية . ولعل الشاعر الإيطالى بترارك ممن ساعد على نموه بشغفه بالطبيعة وإيوائه إلى الجبال والغابات بينما كان معاصروه يعتبرونها مواطن للشياطين . والقصيدة الرعوية مقطوعة غنائية حوارية قصيرة ذات طابع ريفى تمثل مناظر الطبيعة . وقد كان لرعاة اليونان القدماء حظ فى نشأة هذه الأغانى ، وازدهر هذا الفن فى إيطاليا فى عصر النهضة ، وتقدم فى فرنسا فى القرن السادس عشر متأثراً بريفيات القرون الوسطى .

(٢) انظر « شعر الطبيعة فى الأدب العربى » للدكتور سيد نوفل ص ٩ .

وقسم بعضهم الطبيعة الصامتة إلى طبيعة طبيعية وهي ما أشرنا إليه ، وطبيعة صناعية وهي التي عمل الإنسان في تأليفها وتنسيقها كالقصور والبرك والزخارف المرمرية وما شابه ذلك .

والطبيعة الصامتة الطبيعية أكثر ملاءمة لمفهوم كلمة « الطبيعة » ، وأكثر إيحاء للحس الطبيعي . فهي التي تحدث في النفس ذلك الحس الشعوري الذي ينبض بجمالها ، وما أصناف الحيوان فيها ومنشآت اليد البشرية إلا متممات منفصلة عن روح « الطبيعة » بمعناها الحقيقي . وقد يكون وصف العصفور على غصنه أكثر تجاوباً مع شعر الطبيعة من وصفه مجرداً عن الغصن والشجر والدوح والماء .
وليس من صميم الطبيعة ، كفن شعري ، أن ندمج فيها وصف الحمل والذئب والأسد وما شابهها ، إن هذا الوصف أقرب إلى فن الوصف منه إلى شعر الطبيعة الذي نحب أن نجد فيه خصائص مميزة تبدو في هذا الحس الطبيعي والتجاوب الذاتي .

وإذا كان قد درج بعض النقاد على هذا التقسيم فنحن نقبله كأمر واقع ولكننا لا نستطيع إلا أن نعرف شعر الطبيعة بقولنا :
هو الشعر الذي يمثل الطبيعة وبعض ما اشتملت عليه في جو طبيعي يزيده جمالا خيال الشاعر ، وتتمثل فيه نفسه المرهفة وحبه لها واستغراقه بمفاتنها .

وكلما كان شعر الطبيعة معبراً عن هذه المشاركة وهذا الاستغراق ومصوراً جمال الطبيعة وفتنتها في شتى مظاهرها ، كان هذا الشعر مزدهراً ومحققاً غرض موضوعه . والطبيعة في الواقع معنى كُلي يتعاون كل جزء من أجزائها على جعل هذا المعنى كائناً حيًّا خالداً يوحي لقلب الشاعر بالحب والجمال ويبعث في نفسه شتى العواطف الإنسانية السامية .

فكيف وصف العرب الطبيعة إذاً بعد أن قدمنا هذا التعريف ؟
لقد وصف الشاعر العربي منذ القديم الطبيعة وأحبها ولم تكن غريبة عنه ، ولكنها لم تتميز حينذاك كفن شعري قائم بذاته ، وقد كان أكثر شعراء الجاهلية يصوّرون الطبيعة بقسميها الصامت والحي ، وكانوا على الغالب ينظرون إليها نظرة

مصور ومع هذا فقد بدا على وصفهم الشغف بها وبظواهرها ؛ فهذا امرؤ القيس لم يجمد أمام مشاهد الطبيعة فوصف الليل وشبهه بموج البحر ووصف طوله فإذا به لا يتزحزح كأن نجومه شدت بحبال متينة إلى جبل يذبل ، ووصف البرق وجعل لمعانه كلمع اليدين تتحركان بسرعة أو كمصباح راهب ، ووصف الغيث وبدت فتنة الشاعر به ، ثم وقف على الأطلال وبكاها ، وبكاء الأطلال مظهر من مظاهر وصف الطبيعة الذى يتجلى فيه البث والشكوى والتجاوب مع البيئة الطبيعية .

وامرؤ القيس وصف أيضاً الطبيعة الحية فصور فرسه على شكل جدير بالإعجاب ، ووصف الناقة وحمار الوحش والظليم والنعامة وكان وصفه يدل على التفنن والاستقصاء .

ومن هنا يبدو أن وصف الطبيعة عند شعراء الجاهلية كان تعبيراً عن البيئة البدوية ببساطة وصدق .

ولما انتقل العرب من البداوة إلى الحضارة وعرفوا نعيم الحياة وترف القصور وجمال الرياض ، تطور شعر الطبيعة ، ولكنه لم يستطع أيضاً أن يستقل كفن خاص وبقى هو والوصف ممزوجاً بأغراض أخرى كالغزل والمدح والطرد والخمر . وكانت الطبيعة التى وصفها الشعراء آنذاك تختلف عن طبيعة البدوى فى عناصرها ومقوماتها .

وقد كان الحديث عن الطبيعة فى العصور العباسية تعبيراً عن بعض مظاهر هذه الحياة الجديدة اللاهية التى عرفتها هذه العصور ووصفاً لهذه الطبيعة الندية التى فتن بها الشعراء وغير الشعراء .

على أن شعراء العصور العباسية ، على رغم وصفهم لمفاتن الطبيعة بدقة وإعجاب ، لم يكونوا ليستطيعوا الاندماج بها والتعبير عن خفايا شعورهم نحوها . لذلك نزعوا إلى الوصف المادى والعبث اللفظى متأثرين بتيار التأنق والصنعة الذى ساد آنذاك ثم اشتدت وطأته فى عصور الانحطاط حتى قضى على الروح العفوية فى الشعر .

نقول هذا ونحن نعلم أن بعض الفحول فى هذه الفترة قد استطاعوا أن يضيفوا

إلى أوصافهم المادية للطبيعة حساً وذوقاً جعلهم يأتلفون معها ويستغرقون فى نشوة جمالها ويبادلونها العاطفة بعاطفة والحب بحب .

فهذا أبو تمام والبحترى وابن الرومى يقدمون لنا عن الطبيعة صوراً ذات نشاط وحياة ومباهج فاتنة . فلنسمع ابن الرومى يصف غروب الشمس وصفاً تتراءى فيه المشاركة الوجدانية على شكل لم يسبق إليه فيقول :

وقد رنَّقتْ شمسُ الأَصيل ونَفَّضَت
على الأُفُقِ الغربيِّ وَرْساً مُزَعْزَعا[1]
وَوَدَّعَت الدنيا لتقضىَ نَحْبها وشوَّل باقى عمرِها فَتَشَعْشَعا[2]
ولاحَظَت النُّوارَ وهى مريضةٌ
وقد وضعتْ خدًّا إلى الأَرض أَضْرَعا[3]
كمالاحظتْ عوَّادَه عينُ مُدْنَفٍ تَوَجَّعَ من أَوْصابِه ما تَوَجَّعا[4]
وظَلَّتْ عيونُ الروض تخضلُّ بالنَّدَى
كما اغرورقَتْ عينُ الشجىِّ لِتَدْمَعا
يُراعِينها صُوراً إليها رَوَانِياً ويَلْحَظْنَ أَلحاظاً من الشجوخُشَّعا[5]
وبيَّنَ إغضاءُ الفِراق عليهما كأَنهما خِلَّا صفاءٍ تودَّعا

(١) الورس : نبات أصفر . مزعزعاً : متحركاً .
(٢) شول : نقص حتى كاد ينتهى .
(٣) أضرع صفة مشبهة بمعنى ضارع : ذليل .
(٤) المدنف : المريض .
(٥) الصور : ج صوراء وهى المائلة العنق .

وقد ضَرَبَت فى خُضْرة الروضِ صفرةٌ
من الشمس فاخضرَّ اخضرارًا مُشَعْشَعا
وأَذْكَى نسيمَ الرَّوضِ ريعانُ ظِلهِ
وغنَّى مغنّى الطيرِ فيه وسَجَّعا[١]

وهذا ابن المعتز نراه تستهويه الصورة فيأتى شعره فى الطبيعة آيةً على إرهاف حاسة البصر وحسن استقباله للألوان والأصباغ ودقة إخراجه للصور والأشكال كقوله يصور احتجاب الشمس وراء السحب :

كأَنَّ الشمسَ يومَ الغيم لحظ مريضٌ مُدنفٌ من خَلْفِ سِتْرِ

وقوله يصف الهلال وصفاً فيه بهاء الصورة وترفها :

انظرْ إلى حُسْنِ هلالٍ بَدَا يَهْتِكُ من أَنواره الحِنْدِسا
كَمِنْجَلٍ صِيغَ من فِضةٍ يَحْصد من زَهْر الدُّجَى نَرْجِسا

ويستوقفنا فى القرن الرابع الهجرى شاعر عبقرى هو أبو بكر محمد بن أحمد الصنوبرى وقد اجتمعت لديه أكثر مقومات شاعر الطبيعة وكان من هذه الكوكبة من شعراء الوصف الذين عاصروا المتنبى فطغت عليهم شهرته العظيمة . لقد كان الصنوبرى شاعر الروض والزهر وقد صدر فى شعره عن شعوره الصادق نحو الطبيعة .

تلك هى أسماء فى سماء الشعر العربى ترسم لنا الشكل الذى قيل فيه شعر الطبيعة فى المشرق أتينا بها كمدخل لبحثنا ، فما هى حال شعر الطبيعة فى الأندلس ، وما هى الدواعى التى جعلت هذا الشعر يزدهر فى تلك الأرض الأندلسية الحبيبة .

---

(١) أذكى : عطر ونشر الرائحة الجميلة . ريعان الشباب : نضرته ؛ وريعان الظل : امتداده وكونه وارفاً .

بواعث شعر الطبيعة فى الأندلس وخصائصه الهامة

منح الله الأندلس طبيعة فاتنة فكانت أغنى بقاع المسلمين منظراً وأوفرها جمالا . ترتفع فيها الجبال الخضراء وتمتد فى بطاحها السهول الواسعة وتجرى فيها الجداول والأنهار وتغرد على أفنان أشجارها العنادل والأطيار وتنساب الماشية والأنعام فى مراعيها الجميلة ويعمل الفلاحون فى حقولها الخضراء ويعطر النسيم جوّها المعتدل وبساتينها المشرقة . وقد تحدّث عن جمالها كلٌّ من حلها . وأفاض المقرى فى وصف طبيعتها الفتانة وجنانها البهيجة وانتهى إلى أن « محاسن الأندلس لا تستوفى بعبارة ، ومجارى فضلها لا يشق غباره » .

وقد كان من أثر جمال الأندلس أن شغفت بها القلوب وهامت بها النفوس ، فتعلق بها الأندلسيون جميعاً وأقبلوا يسرّحون النظر فى خمائلها ويستمتعون بمفاتنها ما شاء لهم الاستمتاع ، وأخذ الشعراء والكتاب ينظمون كلمهم درراً فى وصف رياضها ومباهج جنانها بعد أن فتحت فى نفوسهم قول الشعر وجعلتهم يرون فيها – كما يقول ابن خفاجة – جنة الخلد بمائها وظلها وأنهارها وأشجارها :

يا أَهلَ أَندلسٍ لله دَرُّكُمُ ماءٌ وظلٌّ وأَنهارٌ وأَشجارُ

ما جنةُ الخُلْد إلا فى دِيارِكُمُ ولو تخيرتُ هذا كنتُ أَختار

لاتختَشُوابعدَهاأَن تدخلواسَقَرًا فليس تُدخَلُ بعدَ الجنةِ النار

وقد ملكت معانى هذا الجمال نفوسهم واستحثت قرائح الشعراء فيهم وغذتها أفضل غذاء ، وكان يكفى أن تهب على ساكن هذه الجنة نفحة من نسيم عليل ليصيح مع شاعرها ابن خفاجة :

إن للجنةِ فى الأَندلس مُجْتَلَى حُسنٍ وَرَيَّا نَفَسِ

فَسَنَا صُبْحَتِهَا من شَنَبٍ ودُجَى ظُلْمَتِهَا مِنْ لَعَسِ
فإذا ما هَبَّتِ الريحُ صَبا صِحْتُ :واشَوْقِى إلى الأندلس !

ولم يكن جمال الطبيعة فى الأندلس هو وحده الذى ساعد على ازدهار شعر الطبيعة فيها ، بل إن الحياة اللاهية نفسها التى أشرنا إليها والتى عاشها الشعراء كانت سبيلا لهذا الازدهار ، إذ كانت الطبيعة مسرح حياة الشاعر اللاهية ، وفى أحضانها استسلم للهوه وحبه وخمره ، وعكف يصور هذا اللهو وهذا الحب وهذه الخمر فى إطار الطبيعة مقدماً لنا لوحات فيها العبير والأصباغ والألوان .

فما هى تلك الخصائص التى امتاز بها شعر الطبيعة فى الأندلس ؟

١ — هو شعر يمثل تعلق الشعراء الأندلسيين ببيئتهم وتفضيلها على غيرها من البيئات ، بعد أن كان هواهم متعلقاً بصور الجزيرة العربية . وقد رأينا كيف أن ابن خفاجة يتعلق بالأندلس ويراها جنة الخلد ، ويرى أن كل ما فيها جميل مطرب ، ولابن زيدون وابن حمديس ولغيرهما من الشعراء مثل هذا التعلق . وهذا الحب كما رأينا فيما تقدم .

٢ — هو شعر يصف طبيعة الأندلس الطبيعية والصناعية ، فشعراء الطبيعة يصفونها كما أبدعها الله فى الحقول والرياض والأنهار والجبال والسماء والنجوم ، ويصفونها كما صورها الفن مجلوة فى القصور والمساجد والبرك والأحواض فيكمل تذوقهم لجمال الطبيعة وتتضح ألوانها وأشكالها أمام نواظرهم فيزدادون لها حبًّا وبها تعلقاً ؛ وهم كذلك قد أتوا على أوصاف جديدة للطبيعة الحية كما فعل ابن خفاجة فى وصف الفرس والذئب .

٣ — وهو شعر يصف الأقاليم الطبيعية المختلفة لبلاد الأندلس ، فكان لبعض الأقاليم شعراؤها الذين اهتموا بوصف ديارهم . فابن زيدون يتغنى بقرطبة وزهرائها . وابن سفر المرينى يصف إشبيلية ، وأبو الحسن بن نزار يتعلق بوادى أشات فيصوره تصويراً ينمُّ عن براعة بما يتركه فى النفس من طراوة الندى والظل والشجر فيقول :

وادي الأَشيات يهيج وَجْدِي كلما ... أَذكرت ما أَفضت بك النعماءُ

لله ظِلُّك والهجيرُ مُسلَّطٌ ... قد بَرَّدَتْ لَفحاتِهِ الأَنداءُ

والشمسُ ترغبُ أَن تفوز بلحظةٍ ... منه فتَطْرِفُ طَرْفَها الأَفياءُ

والنهرُ يبسِمُ بالحَبَابِ كأَنه ... سَلْخٌ نَضَتْهُ حَيَّةٌ رَقْطاءُ

فلذاكَ تَحْذَرُهُ العيونُ ، فَمَيْلُها ... أَبدًا على جَنَباتِهِ إِيماءُ

وهكذا كان شعراء الأندلس يعبرون عن مشاهد طبيعية رأوها وعاشوا فى رحابها وأحسوا بجمالها .

٤ – الطبيعة عندهم طروب تبعث جو الطرب ، ووصفها يمثل الجوانب الضاحكة الندية منها ، وأكثر شعرهم فى الطبيعة وصف لمتنزهاتهم ومجالس أنسهم ولهوهم فى أحضانها كما بدا لنا من الأمثلة التى جئنا على ذكرها فيما تقدم .

٥ – وصف الطبيعة عندهم متصل بالغزل والخمر ، وهو طريق إليهما ، ولذا فقد رأينا شعراء الأندلس لا يذكرون الطبيعة إلا فى رحاب الحب بل لايذكرون الحب إلا فى رحاب الطبيعة ، وهم بهذا يمنحون غزلهم لوناً بهيجاً من الجمال تقدمه الطبيعة التى تضم خلواتهم وتفسح لهم مجال اللهو والشراب ، والأمثلة كثيرة فى شعر ابن زيدون وابن حمديس وابن خفاجة وغيرهم على امتزاج الطبيعة بالغزل والخمر وما يقتضيه هذا الامتزاج من لهو وطرب . فغزل الأندلسيين إذن يهتم ، إلى جانب وصف المحبوب ، بالمكان الذى ضم هذا المحبوب وهو غالباً الطبيعة ، بينما كان الغزل بالمشرق يهتم ، على الغالب ، بالوصف المادى وذكر الحوار واللقاء كما كان يفعل عمر بن أبى ربيعة وشعراء مدرسته ومن جاء بعده .

٦ – المرأة صورة من محاسن الطبيعة ، والطبيعة تجد فى المرأة ظلها وجمالها ، ولذا كانت الحبيبة روضاً وجنة وشمساً ، وقد قال المقرى عن شعراء الأندلس « إنهم إذا تغزلوا صاغوا من الورد خدوداً ومن النرجس عيوناً ومن الآس أصداغاً

ومن السفرجل نهوداً ومن قصب السكر قدوداً ومن قلوب اللوز وسُرَر التفاح مباسم ومن ابنة العنب رُضاباً »[١]. وهكذا كانت العلاقة شديدة بين جمال المرأة وبين الطبيعة فلا تذكر المرأة إلا وتذكر معها الطبيعة .

٧ – وشعرهم يعنى بتشخيص الطبيعة وتصويرها على نحو إنسانى تملؤه الحركة والنشاط كما فى شعر ابن زيدون وابن خفاجة وغيرهما وكما فعل لسان الدين بن الخطيب فى موشحته التى عارض بها موشحة ابن سهل والتى مطلعها :

جَادَكَ الغيثُ إذا الغيث هَمَى يا زمانَ الوصلِ بالأَندلسِ
لم يكنْ وصْلُكَ إلا حُلما فى الكرَى أو خِلْسةَ المُخْتَلِسِ

فى هذه الموشحة يجلل الحيا الروض فتبسم ثغور الزهور ، ويتناجى الماء والحصا فيغار الورد ويحمر حنقاً، ويتنبه الآس فيسترق السمع ليفهم سر المناجاة .
والشعر الأندلسى يقدم لنا لوحات أخرى تنم عن امتزاج الشاعر بالطبيعة وصدق عاطفته نحوها وتشخيصه لها حتى أصبحت لسان نجواه وخفقة قلبه .

٨ – وشعر الطبيعة عندهم لا يظهر كغرض مستقل إلا نادراً فى بعض المقطوعات والقصائد ، وقد امتزج فى أكثر الأغراض التى طرقها الشعراء الأندلسيون ، وكان الغزل كما رأينا أكثر هذه الأغراض امتزاجاً بالطبيعة ، إلا أن هذه الثنائية نراها أيضاً فى المدح والرثاء والعتاب والفخر ، فهذا ابن زيدون يصف خلائق أبى الوليد بن جهور بالروض الضاحك . فيقول :

للجَهْوَرِىِّ أَبِى الوليدِ خَلائقٌ كالرَّوْضِ أَضْحَكَهُ الغمامُ الباكى

وكذلك يمدح المعتمد على نعمه فيراها جنة يضل فيها القريض :

أَورثَتْنِى نُعْماكَ جنةَ عَدْنٍ جَالَ فى وصفها فَضَلَّ القريضُ

---

(١) المقرى ١/٣٢٣ .

ثم يعاتب ابن زيدون صاحبه أبا حفص بن بُرْد ويطلب منه أن يكون مثله دائم الوفاء فينظر إلى الطبيعة فيرى فى الآس وديمومة اخضراره ما يريد أن يعبر عنه :

لا يكنْ عهدُك وَرْدا   إن عهدى لكَ آسُ

وهكذا فذكر الطبيعة يمنح هذه الأعراض صفة أندلسية تتجلى فى اقتناص المعانى من طبيعة الأندلس .

٩ — وقد كان لطبيعة الأندلس وما احتضنت من غزل ولهو وغناء أثر فى اختراع قالب شعرى جديد طبعته الأندلس بطابعها ألا وهو « الموشح » ذلك الفن الشعرى المستحدث الذى غنى طبيعة الأندلس ولهوها وعاش فى نعيم ظلالها وعَبَق ريحانها .

* * *

هذه جملة المميزات لشعر الطبيعة فى الأندلس ، وقد استطاع شعراؤها أن يصفوها ، فى كثير من الحالات ، من خلال نفوسهم ولكنهم نظروا إليها ، على الغالب ، نظرة مصور فبدت لعيونهم كثيرة الأصباغ والألوان وزينوها بصناعة لفظية وخيال بصرى أنيق . ولم يستطيعوا أن يتجردوا من ماضى شعر الطبيعة وإن كانوا قد طبعوه أحياناً بطابعهم وأخضعوه لمقومات بيئتهم. ولئن استطاع بعضهم فى عدد من القصائد أن يصف خلجات نفسه نحوها ، لقد قصروا بصورة عامة عن الاتحاد بها اتحاداً تامـًّا على طريقة المفهوم « الرومانتيكى » عند شعراء الغرب .

وهكذا بقى شاعر الطبيعة الأندلسى ، على رغم حسه العميق وحبه للطبيعة ، يصوّرها ويزخرفها ببصره ويجسّمها ويجمّلها بخياله ، فأجاد الصناعة ولم ينفخ فيها دائماً الروح .

* * *

والخلاصة أن وصف الطبيعة فى الأندلس كان ، على الغالب الأعم ، شغفاً

بمحاسنها وتصويراً حسيًّا لمباهجها ، تموج به، بين حين وآخر ، خفقةٌ من حياة ودفقةٌ من عاطفة صادقة .

وإننا لواجدون فى المنتخبات الشعرية الآتية بعض هذه الخصائص التى أتينا على ذكرها .

* * *

منتخبات
من شعر الطبيعة فى الأندلس

من شعر ابن حمديس :

قال ابن حمديس يصف الخمر فى ظلال الطبيعة :

نحن فى جنةٍ نباكِرُ منها ساحِلَىْ جدولٍ كَسَيْفٍ مجردْ

صقلتْ متنَهُ مداوسُ شمسٍ من خلال الغصون صقلاً مُجَدَّد[1]

ومُدامٍ تطير فى الصحن سُكْرًا فتحَلُّ العقودُ منها وتُعْقَد

جِسْمها بالبقاءِ فى الدَّنِّ يَبْلى وقُواها مع الليالى تَجَدَّدْ[2]

وإذا الماءُ غاصَ فى النار منها أُخرِجَ الدرُّ من حبابٍ منضَّدْ

يا لها من عصير أَوَّلِ كرمٍ سَكِرَ الدرُّ منه قِدْماً وعربد

جنة مَجَّت الحَيا إِذ سقاها مُصلحٌ من غمامِهِ غيرُ مُفْسِد

قد لبسنا غلائلَ الظلِّ فيها مُعْلَماتٍ من الشُّعاع بِعَسْجَد[3]

---

(١) المداوس : مفردها مدوس ومدواس وهى المصقلة

(٢) الدن : جمعها دنان وهى راقود الخمر .

(٣) معلمات : مخططات .

ورأينا نارِنْجَها من غصونٍ هزَّت الريحُ خصرَها فهي مُيَّدْ
ككُرات محمرَّةٍ من عقيقٍ تَذَّرِيها صوالجٌ من زبرجد
وكأنَّ الأنوارَ فيها ذُبالٌ بسَليطٍ من النَّدى تتوقد[١]
وكأن النسيم بالفَرْجِ يُفْشِي بين روضاتها سرائرَ خُرَّد[٢]
حيث نُسْقى من السرور كؤوساً ونُغَنَّى من الطيور ونُنْشَدْ
ذو صفيرٍ مُرَجَّع أَو هديلٍ أَسَمِعْتم عن الغَرِيض ومَعْبَدْ ؟
شاديات تُمسى الغصون وتُضْحي رُكَّعاً للصَّبا بهنَّ وسُجَّدْ
كان ذا والزمان سمحُ السجايا ببوادٍ من الأَمانى وعُوَّدْ
والصِّبا فى معاطِفِي وكأَنى غُصُنٌ فى يد الصَّبا يتأَوَّدْ[٣]

قال ابن حمديس يصف الليل والثريا والسُّها وطلوع الفجر وشروق الشمس ، فى مقطوعة مطلعها :

وليلٍ رَسَبْنا فى عُبابِ ظَلامه إلى أَن طَفَا للصبح فى أُفْقه نجم
كأَن الثريا فيه سبْعُ جواهرٍ فواصلها جَزْعٌ به فُصِّلَ النَّظم[٤]
وتحسَبها من عَسْكر الشُّهْبِ سُرْبَةً
عمائمهم بيضٌ وخيلهُم دُهْمُ[٥]

---

(١) الذبال : مفردها ذبالة وهى الفتيلة . السليط : الزيت .
(٢) فرج الوادى : بطنه . الخرد مفردها خريدة وهى الحيية الطويلة السكوت .
(٣) يتأود : يتمايل .
(٤) الجزع : خرز فيه سواد وبياض واحدته جزعة .
(٥) السربة : القطعة من خيل وقطا وظباء .

كأَن السهى مُضنًى أَتاه بنعشِهِ
بنوه وظنُّوا أَن موتَتَهُ حَتْمُ[١]

كأَن انصداعَ الفجر نارٌ يُرى لها ... وراءَ حجابِ حالكٍ نَفَسٌ يَسْمو
وتحسَبه طفلاً من الروم طرَّقَتْ ... به من بناتِ الزِّنج نائبةً أُمُّ
أَأَعْلِمَ في أَحشائها أَن عُمْرَهُ ... - لدى وَضْعِهِ - يومٌ؟ فَشَيَّبَهُ الهَمُّ
ودَرَّتْ لنا شمسُ النهار مذيبةً ... على الأَرض روحاً في السماء له جسمُ

نزح ابن حمديس عن صقلية إلى إفريقية سنة ٤٧١ ﻫ وهو فى سن الحداثة وصحب العرب هناك ، فقال هذه الأبيات التى تصور تشوقه للطبيعة وهوانها وتصف ترحاله وتغربه فى فيافيها :

إنى لأَبسُطُ للقَبول إذا سَرَتْ ... خدِّى وأَلقاها بتقبيل اليدِ[٢]
وأَضُمُّ أَجنابى على أَنفاسِها ... كيما تبرِّد حرَّ قَلبٍ مُكمَدِ
مسحتْ كراقيةٍ علىَّ بكفها ... ونِقابُها نِدٌّ من الزهر الندِى[٣]
وعَرَفْتُ فى الأَرواح مسراها كما ... عرف المريضُ طبيبه فى العُوَّدِ
ما لى أُطيلُ إلى الديار تغرباً ... أَفبالتَّغربِ كان طالعُ مَوْلدى
أَبدًا أُبدِّدُ بالنوى عزمى إلى ... أَملٍ بأَطراف البلاد مُبَدَّدِ[٤]

---

(١) السها : نجم خفى من بنات نعش الصغرى .
(٢) القبول : ريح الصبا وتقابلها الدبور .
(٣) الراقية : التى تقوم بالرقية . ند : المثل والنظير .
(٤) النوى : البعد .

كم من فلاة جُبتها بنجيبةٍ عن منْسمٍ دامٍ وخَطْم مَزبدِ[1]
أَبْقى الجزيلُ لها جميلَ ثنائه في العِيس مَوْصولاً بِقَطْع الفَدْفَدِ[2]
ضربت مع الإِعناق أعناقَ الفَلا بحسامِ ماءٍ في حَشاها مُغْمَدِ[3]

قال ابن حمديس من قصيدة يصف فيها مظاهر الطبيعة :

نَثَر الجوُّ على الأَرض بَرَدْ أَيُّ دُرٍّ لنُحورٍ لو جَمَدْ
لؤلؤٌ أَصدافُه السحبُ التي أَنجز البارق منها ما وَعَدْ
آرَق الأَجفانَ رعدٌ صوتُهُ كهدير القَرْم في الشوْل حَفَدْ[4]
بات يجتاح بإِبكار الحيَا بلداً يرويه من بعدِ بَلَدْ
وكأَن البرق فيها حاذف بِضرامٍ كلما شُبَّ خَمَدْ
تارة يبدو ويَخْفى تارةً كحسامٍ كلما سُلَّ غُمِدْ
يَذْعَرُ الأَبصار محمرًّا كما قَلَّبَ الحملاقَ في الليل الأَسدْ[5]
وعليلُ النبت ظمآنُ الثرى عَرَّجَ الرائدُ عنه فَزَهدْ
خلَع الخِصبُ عليه حُلَلاً لبديع الرَّقْم فيهن جَدَدْ[6]
وسقاه الرِّيُّ من وَكَّافةٍ فتح البرقُ بها الليلَ وَسَدْ[7]

---

(١) النجيبة : الناقة . المنسم : طرف خف الناقة . الخطم : مقدم فم الدابة .
(٢) العيس : الإبل . الفدفد : الفلاة .
(٣) الإعناق : السير الواسع الفسيح .
(٤) القرم : من الجمال ما لم يمسه حبل . حفد : أسرع .
(٥) حملاق العين : باطن أجفانها .
(٦) الرقم : الوشى .
(٧) الوكافة : سحابة كثيرة المطر .

ذاتِ قَطْرٍ داخلٍ جَوْفَ الثرى
كحياةِ الرُّوحِ فى موت الجسد
فَتَثَنَّى الغصنُ سكرًا بالنَّدى وتغنَّى ساجعُ الطير غَرِدْ
وكأَن الصبحَ كفٌّ حَلَّلَتْ من ظلام الليل بالنُّور عُقَدْ
وكأَن الشمسَ تجرِى ذهباً طائرًا فى صيدِهِ من كلِّ يد

قال ابن حمديس يصف غديراً شقه نهر :

وزرقاءَ فى لونِ السماء تَنَبَّهَتْ لِتحْبُكَها ريحٌ تهبُّ مع الفجرِ
يَشُقُّ حشاها جدولٌ مَتكفِّلٌ بِسَقْى رياضٍ أُلبستْ حُلَلَ الزهر
كماطَعَن المقدامُ فى الحرب دارعاً بعَضْبٍ فَشَقَّ الخصرَ منه إلى الخصر
يُريك رؤوساً منه فى جسم حَيَّةٍ سَعَتْ من حياةٍ فى حدائقه الخضْر
فلا روضةٌ إلا استعارتْ لشُكْرِهِ لسانَ صَباً تسرى مطيَّبة النَّشر

من شعر ابن خفاجة

وصف الجبل :

قال ابن خفاجة يصف الجبل وهى من درر قصائده التى تمثل امتزاج الشاعر بالطبيعة :

بعيشِكَ هل تَدْرِى أَهُوجُ الجنائب
تَخُبُّ برحلى أَم ظُهورُ النجائب ؟[١]

---

(١) هوج الجنائب : رياح الجنوب الهوجاء . النجائب : مفردها نجيبة وهى الناقة الكريمة .

فما لُحْتُ فى أُولى المشارق كوكباً
فأَشْرفتُ حتى جئتُ أُخرى المغارب
وحيدًا تهادانى الفَيافى فأَجتلى وجوهَ المنايا فى قِناع الغياهب[١]
ولا جارَ إلا من حُسامٍ مُصمِّمٍ ولا دارَ إلا من قُتُودِ الركائب[٢]
ولا أُنْسَ إلا أَن أُضاحك ساعة
ثغورَ الأَمانى فى وجوهِ المطالب
وليلٍ إذا ماقلتُ قد بادَ فانقضى
تكشَّفَ عن وعدٍ من الظنِّ كاذب
سحبتُ الدَّياجى فيه سودَ ذوائبٍ
لأَعتنقَ الآمالَ بيضَ ترائب[٣]
فمزَّقتُ جيبَ الليل عن شَخْص أَطلسٍ
تطلَّعَ وضَّاحِ المَضاحِكِ قاطب[٤]
رأَيت به قِطعاً من الفَجْر أَغْبَشاً تأَمَّل عن نجم توقَّدَ ثاقب[٥]

---

(١) تهادانى الفيافى : تهدينى واحدة إلى أخرى . أجتلى : أنظر . الغياهب جمع غيهب : الظلمات .
(٢) جار : حام وناصر . المصمم : الماضى . القتود جمع قتد : أخشاب الرحل . الركائب جمع ركوبة : النوق .
(٣) الدياجى جمع دجى : الظلمات . الترائب جمع تريبة وهى العظمة فى الصدر .
(٤) الجيب : ما يلى العنق من الثوب . عن شخص أطلس : أى عن شخص أفق أطلس والأطلس الذى فى لونه غبرة إلى سواد ، وهو وضاح المضاحك لأن الصبح بدأ يطلع فيه ، وهو قاطب لأن بقية من الظلام لا تزال فيه .
(٥) قطعاً : جانباً . تأمل : هنا انكشف ويقصد بالنجم فى البيت الزهرة أو عطارد لأنهما يظهران فى الأفق على التناوب عند مطلع الفجر .

* * *

وأَرعنَ طمَّاح الذؤابةِ باذخٍ يُطاول أَعنان السماءِ بغاربِ[١]

يسُدُّ مهبَّ الريحِ عن كل وُجهةٍ ويَزحَمُ ليلاً شُهْبَهُ بالمناكب

وقورٌ على ظهر الفلاةِ كأَنه طَوالَ الليالى مُفكرٌ فى العواقب

يلوثُ عليه الغيم سودَ عمائمٍ لهامن وميضِ البرقِ حمرُ ذوائب[٢]

أَصَخْتُ إليه وهو أَخرسُ صامتٌ

فحدَّثنى ليل السُّرى بالعجائب[٣]

وقال أَلا كَمْ كنتُ ملجأَ قاتلٍ ومواطنَ أَوَّاهٍ تَبَتَّلَ تائب[٤]

وكم مرَّ بى من مُدْلجٍ ومُؤوِّبٍ وقال بظلِّى من مطىٍّ وراكب[٥]

ولاطَمَ ، من نُكْبِ الرياح ، معاطفى

وزاحَمَ ، من خُضْرِ البحار ، غَواربى[٦]

فما كان إلا أَن طَوَتهم يدُ الردى وطارت بهم ريحُ النَّوى والنوائب

فما خَفْقُ أَيكى غيرُ رجْفة أَضلعٍ ولا نوحُ وُرْقى غيرُ صرخةِ نادب[٧]

---

(١) الأرعن : الجبل الشديد النتوء . الغارب : الظهر .

(٢) يلوث : يعصب ويلف .

(٣) أصخت : أصغيت .

(٤) الأواه : هنا التائب الذى يتأوه من ذنوبه . تبتل : تنسك وانقطع إلى العبادة .

(٥) المدلج : السائر فى الليل . المؤوب : الراجع . قال : نام القيلولة .

(٦) النكب : جمع نكباء وهى الريح الشديدة .

(٧) الأيك جمع أيكة : الشجر الكثيف الملتف . الورق . جمع ورقاء وهى الحمامة .

وما غَيَّضَ السلوانُ دمعى وإنما نزفت دُموعى فى فِراقِ الصَّواحب [١]
فحتى متى أَبقى ويظعنُ صاحبٌ أُوَدِّع منه راحلاً غيرَ آيب
وحتى متى أَرْعَى الكواكبَ ساهرًا
فمِنْ طالع ، أُخرى الليالى ، وغارب
فَرُحماكَ يامولاى دعوةَ ضارعٍ يمدُّ إلى نُعماك راحةَ راغب [٢]
فأَسْمَعَنى من وعظِهِ كلَّ عِبْرةٍ يُتَرْجمها عنه لسانُ التجاربِ
فسَلَّى بما أَبكى وسَرَّى بما شَجَا
وكان ، على عهدِ السُّرى ، خَيرَ صاحب [٣]
وقلت ،وقد نكَّبتُ عنه لِطِيَّةٍ : سلامٌ فإنا مِنْ مُقيم وذاهبِ [٤]

وصف الليل :

قال ابن خفاجة فى إحدى قصائده :

وليلٍ كما مدَّ الغراب جَناحَه وسالَ على وجه السِّجِل مدادُ
به من وميض البرق ،والليلُ فحمةٌ شرارٌ ترامَى والغمامُ زِناد
سريتُ به أُحْيِيه ،لاحيَّةُ السُّرى تموت ولا مَيْتُ الصباح يعادُ [٥]

(١) غيض : غور ، جعله ينضب .
(٢) البيت من كلام الجبل ومولاه هو الله .
(٣) سرى : بدد الحزن وأبعد الهموم . شجا : أحزن .
(٤) الطية : الحاجة والقصد ووجهة المسافر ، وهنا بمعنى السفر .
(٥) يعاد : يزار .

يقلب مني العزمُ إنسانَ مُقْلةٍ   لها الأُفْق جفْنٌ والظلام سواد
بخَرقٍ لقلبِ البرق خفقةُ روعةٍ   به ، ولجفن النجم فيه سهاد[١]
سحيقٍ ولا غيرَ الرياح ركائبٌ   هناك ولا غيرَ الغمام مَزادُ[٢]
كأَني وأَحشاءُ البلادِ تُجِنُّني   سريرةُ حبٍّ والظلامُ فؤاد[٣]
أَجوب جيوب البيدِ والصبحُ صارمٌ   له الليلُ غِمْدٌ والمَجَرُّ نِجاد
وفي مُصطَلى الآفاقِ جَمْر كواكبٍ
عَلاها من الفَجْر المُطلِّ رَماد
ولمَّا تَعَرَّى من دُجى الليل طِحْلِبٌ
وأَعْرَضَ من ماءِ الصباح ثِماد[٤]
حننتُ وقد ناحَ الحمامُ صبابةً   وشُقَّ من الليل البهيم حِداد
على حينَ شطَّت بالحبائبِ نِيَّةٌ   وحالت فيافٍ بيننا وبلاد[٥]

وصف متنزه :

قال ابن خفاجة :

ومَجَرِّ ذيلِ غمامةٍ قد نمَّقت   وَشْيَ الربيع به يدُ الأَنواء[٦]

---

(١) الخرق : القفر .
(٢) سحيق : بعيد . المزاد : واحدتها مزادة ، وهى جلود يضم بعضها إلى بعض ويوضع فيها الماء .
(٣) تجنني : تسترني .
(٤) تعرى : انشق . الثماد : الماء القليل .
(٥) شطت : بعدت . النية : الرحلة البعيدة . الفيافى : القفار واحدتها فيفاء .
(٦) نمقت : زينت . الوشي : النقش بالألوان .

أَلقيتُ أَرحُلَنا هناك بقبَّةٍ مضروبةٍ من سَرْحةٍ غَنْاء[١]

وقسمتُ طَرْف العينِ بينَ رَباوةٍ مخضرةٍ وقَرارةٍ زرقاء[٢]

وشَرِبْتُها عذراءَ تحسَب أَنها معصورةٌ من وَجْنَتَىْ عذراء[٣]

حمراءُ صافيةٌ تطيب بنفسها وغناءُها وخلائقِ النُّدَماء

خُذْها كماطَلَعَتْ عليك عَرارةٌ مُفترَّةٌ عن لؤلؤ الأَنداء[٤]

قال ابن خفاجة يصف سرحة على نهر :

وسَرحةٍ خاضَ منها ظلُّها نهرًا أَوْفَتْ[٥] عليه فلم تَنقُص ولم تَزدِ

كما تدانيتَ من ثغرلمرتشِف ثم انثنيتَ فلم تَصْدُر ولم تَردِ

كأَن أَفنانها طيباً ، حِمَى مَلِكٍ أَغْضَى وأَعطَى فلم يُوعِد ولم يعدِ[٦]

وقال يصف سحابة تمشى على الظلماء :

وغمامة لم يستقلَّ بها السُّرى فمشت على الظلماءِ مَشْىَ مقيَّد

حَمَلَتْ بها ريحُ القَبول سحابةً سحَّابةَ الأَذيال تُلْمَس باليد

فى ليلة قد بات يلحس تحتها حِبرًا لسانُ البارق المتوقِّد[٧]

---

(١) السرحة : الشجرة الطويلة . الغناء : الكثيرة الأغصان .
(٢) الرباوة : المرتفع . القرارة : المكان المطمئن .
(٣) شربتها عذراء : أى خمرة بكراً غير ممزوجة .
(٤) العرارة ، واحدة العرار : بهار ، أى نبت طيب الرائحة ناعم أصفر . مفترة : مبتسمة .
(٥) أوفت : أشرفت.
(٦) أغضى : سكت .
(٧) شبه شدة الظلام بالحبر يلحسه لسان البرق .

نَسَجَ الضريبُ بها الظلامَ حمامةً فابيضَّ كلُّ غرابِ ليل أَسود [١]
شابت وراءَ قِناعها لِمَمُ الرُّبى واشمطَّ مَفْرِقُ كلِّ عَضْبٍ أَمْلد [٢]

حديث كالنسيم :

قال ابن خفاجة فى إحدى قصائده :

وليلٍ تعاطَيْنا المدامَ وبيننا حديثٌ كما هبَّ النسيمُ على الوَرْد
نعاوِدُه والكأْسُ يَعْبَقُ نفحةً وأَطيبُ منه ما نعُيد وما نُبْدِى
ونَقْلى أَقاحُ الثغر أَو سَوْسنُ الطُّلى
ونرجسةُ الأَجفانِ أَو وردة الخد [٣]
إلى أَن سرت فى جسمه الكأْسُ والكرى
ومالا بعطفيه فمالَ على عَضْدى
فأَقبلتُ أَستهدى لما بين أَضلعى من الحرِّ ما بين الضلوع مِن البَرد

* * *

وأكثر مطالع مدائح ابن خفاجة أبيات فى وصف الطبيعة يمازجها الغزل . وإليك ، بعد مقدمة غزلية ، هذه الأبيات التى يصف بها الطبيعة من قصيدة يمدح بها الأمير أبا يحيى بن إبراهيم :

ومجرِّ ذيل غمامةٍ لبستْ به . وشىَ الحَباب معاطفُ الأَنهار

---

(١) الضريب : الثلج .
(٢) أراد بالعضب الغصن . الأملد : الناعم .
(٣) النقل : ما يتنقل به على الشراب من فستق وتفاح ونحوهما .

خَفَقَتْ ظِلالُ الأَيكِ فيه ذوائباً   وارتجَّ رِدفاً مائجُ التَّيار
ولوَى القضيبُ هناك جيدًا أتلعاً   قَدْ قَبَّلتْهُ مباسمُ النُّوار
باكَرْتُه والغيمُ قِطْعَةُ عنبرٍ   مشبوبةٌ والبرق لفحةُ نار
والرِّيحُ تَلْطِمُ فيه أَرداف الرُّبى   لَعِباً وتلثمُ أَوجُهَ الأَزهار
ومنابرُ الأَشجارِ قد قامت بها   خطباءُ مُفْصِحةٌ من الأَطيار

وكان ابن خفاجة يمهد لمدائحه بغزل رقيق فيه صنعة العبقرى ، ثم يقف عند مظهر من مظاهر الطبيعة فيصف غمامها أو رياضها إلى أن يقوده المطاف إلى الممدوح ، وقصيدته الرائية فى مدح أبى الحسن بن الربيع صاحب قرطبة تتبع هذه الخطة فلنسمعه وقد اتخذ من الطبيعة طريقاً لمدح الممدوح قال :

وغمامةٍ نَشَرتْ جناحَ حَمامةٍ   والبرقُ قد نَسَجَ الظلامَ نَهَارا
متألقٌ صدَعَ الدجى وسَقَى الثرى   فابيضَّ ذا نُورًا وذا أَنْوارا
فى أَجرعٍ خَلَفَ الربيع به ابنَه   كرَماً فأَخصب ربوةً وقَرارا [١]
هفتِ الصَّبا منه بمسرى ديمةٍ   هطلاءَ قرَّ بِها العَجاج وقارا
وكفَتْ فسالتْ فضةً ولربما   طبَعت بكل قرارةٍ دينارا
أَرضٌ هبطتُ بها سماءً طلقةً   وخبطتُ من سَدَفٍ بها أَنوارا
عاطيتُ ذكرَ أَبى الحسين بها السُّرى
ريحانة يَشْتَمُّها معطارا

---

(١) لعله أراد بابن الربيع المطر ، وذلك بدليل قوله فأخصب .

وسلافَةً خَفَّتْ بنا طرباً لها واسترقصت من فِتية ومَهارى
عبِثت بها سِنة الكرى فتمايَدَت في ملتقى أَسحارها أَشجارا

قال ابن خفاجة يصف الطبيعة في جو من الخمر :

اُحْس المُدامة والنسيم عليلُ والظل خفَّاقُ الرواق ظليلُ [١]
والنَّوْر طَرفٌ قد تنَبَّه دامعٌ والماءُ مُبْتَسِمٌ يروقُ صقيل
وتطلَّعتْ من برق كل غمامةٍ في كل أُفق راية ورعيل [٢]
حتى تَهادى كل خوطةِ أَيكةٍ وَيًّا وغصَّت تَلْعةٌ ومسيل [٣]
عَطَفَ الأَراكةَ فانثنت شكرًا له
طَرَباً ورَجَّع في الغصون هَديل [٤]
فالروضُ مهتزّ المعاطف نِعمةً نشوانٌ يعطِفه الصَّبا فيميل
ريَّان فضَّضَهُ الندى ثم انجلى عنه فَذَهَّبَ صفحتيه أَصيل
وارتدَّ ينظر في نقاب غمامةٍ طَرْفٌ يمرِّضُهُ النعاسُ كليل [٥]
ساجٍ كما يرنو إلى عُوَّاده شاكٍ ويلتمح العزيزَ ذليل

(١) الرواق : مقدم البيت ، وقد شبه الظل ببيت مضروب يخفق هواء رواقه .
(٢) الرعيل : الجماعة من الخيل ، شبه السحب بجماعات الخيل وكتائبها في الحرب ، وشبه البروق المنبعثة منها بالرايات الحمر المنشرة فوق رؤوسهم .
(٣) كل خوطة : كل غصن . الأيكة : الشجر الملتف . التلعة : مجرى الماء من الجبل إلى الوادي .
(٤) عطف الأراكة : أي عطف النسيم الأراكة .
(٥) طرف : أي طرف كل شارب منا . فبعد أن كان ينظر إلى الأزهار في النهار ارتد ينظر في غمامة كأنها النقاب ، وهذا الطرف كليل من السكر .

قال ابن خفاجة يحن إلى حبه فى ظلال الطبيعة :

لكَ اللهُ من برقٍ تراءى فسلَّما
وصافح رسماً ، بالعُذيب ، ومَعْلَما[1]

إذا ما تجاذَبْنا الحديثَ على السُّرى
بكيتُ على حُكْمِ الهوى وتبسَّما

ولم أَعتنِق برقَ الغمام ، وإنما
وضعتُ على قلبى يدىَّ تألُّما

وما شاقنى إلاَّ حفيفُ أراكة
وسجعُ حَمام بالغُمَيم ترنَّما[2]

وسرحةُ وادٍ هزَّها الشوقُ لا الصَّبا
وقد صدحَ العُصْفور فجراً ، فَهَيْنَما[3]

أطفتُ بها أشكو إليها وتشتكى
وقد ترجمَ المُكَّاءُ عنها ، فأفهما[4]

تحنّ ودمع الشوق يسجُم والندى
وقرَّ بعينى أن تحنَّ ويسجُما

وحسبكَ من صبٍّ بكى وحمامةٍ
فلم يدرِ شوقاً أيّما الصبُّ منهما

ولما تراءتْ لى أثافىُّ منزلٍ
أَرَتْنى مُحيًّا ذلك الربعِ أَهْيما[5]

ترنَّح بى لَذْعٌ من الشوق موجعٌ
نسيتُ له الصبرَ الجميلَ تألُّما

---

(١) العذيب : موضع . معلم الشيء : معهده ، ومنه معالم الطريق عكس مجاهلها .
(٢) الغميم : واد فى بلاد العرب .
(٣) السرحة : الشجرة العظيمة .
(٤) المكاء : طائر سمى هكذا لأنه يمكو أى يصفر .
(٥) الأثافى : حجارة الموقد . الأهيم : المظلم .

فأَسلمتُ قلباً باتَ يهفو به الهوى   وقلتُ لدمع العين أَنجِدْ فأَتْهما

وخلَّيتُ دمعى والجفونَ هنيهةً   فأَفصحَ سِرٌّ ما فَغَرْتُ به فما

وعُجت المطايا حيث هاج بىَ الهوى

فحييتُ ما بين الكثيب إلى الحِمى[1]

وقبلتُ رسمَ الدار حبًّا لأَهلها   ومن لم يَجِدْ إلا صعيدًا تيمَّما

وحنَّت ركابى والهَوى يبعثُ الهوى

فلم أَرَ فى تَيماءَ إلا متيما[2]

فها أَنا والظلماءُ والعِيسُ صحبةٌ

ترامى بنا أَيدى النَّوَى كلَّ مُرتمى

أُراعى نجومَ الليل حبًّا لبدْرِهِ   ولستُ كما ظَنَّ الخلىُّ مُنجما

وما راعنى إلا تبسُّمُ شيبةٍ   نَكَرتُ لها وجهَ الفتاة تجهُّما

فعِفتُ غُراباً يصدع الشملَ أَبيضاً

وكان على عهد الشبيبة أَسْحما[3]

فآهٍ طويلاً ثم آهٍ لِكَبْرَةٍ   بَكَيْتُ على عهد الشباب بها دَما

قال ابن خفاجة يصف فرساً كريماً ويذكر الطبيعة :

تخيرتُه من رهط أَعوجَ سابحاً   أَغرَّ كريمَ الوالدين نجيبا[4]

---

(١) عجت المطايا : عطفتها .

(٢) تيماء : موضع فى بلاد العرب .

(٣) عفت : زجرت . شبه شيبه بغراب أبيض يفرق الشمل ، وكان فى شبابه أسود .

(٤) رهط : جماعة . أعوج : فرس كريم تنسب إليه الخيول العتاق . السابح : السريع النجيب : النفيس فى نوعه .

خفيفاً ولم يحلُم بسوط. كأنما يفوت عدُوًّا أو يؤم حبيبا[١]
سرى وانتمى برقٌ بذى الأَثْل ليلةً فبات بها هذا لذاك نسيبا[٢]
وحنّ إلى سَفْر فطار إلى السُّرى يخوضُ خليجاً أو يجوب كثيبا
يؤم بها أرضاً علىَّ كريمةً ومرتبعاً فيها إلىّ حبيبا
ونهرًا كما ابيضَّ المقبَّلُ سَلْسلاً وجزعاً كما اخضرَّ العِذارُ خصيباً[٣]
ورب نسيمٍ مرَّ بى وهو عاطر رقيقُ الحواشى لا يُحَسُّ دبيبا
وجدتُ به من ذلك الماءِ بَلَّةً ومن نَوْر هاتيك الأَباطح طِيبا
فصافحتُ ريْعانَ النسيم تشوقاً إليها ولازمت القضيبَ رطيبا
وقد قَلَّدَ النُّوَّارُ جيدًا لربوةٍ هناك ونحرًا للفضاءِ رحيبا
وأَفصحتِ الورقاءُ فى كل تلعة نشيدًا وقد رقَّ النسيمُ نسيبا
وكان على عهد الشباب تغنياً يَشُوقُ أخا وَجْدٍ فعاد نحيبا
دعا لغروبِ الدمع والدارُ غربةٌ فلم أرَ إلا داعياً ومجيبا[٤]

قال ابن خفاجة من شعره الوجدانى الغزل :

قل للقبيحِ الفعالِ :يا حَسَنا! ملأَتَ جَفنىَّ ظُلمةً وَسَنا[٥]
قاسَمَنى طرفُكَ الضنى أَفَلا قاسِمِ جفنىَّ ذلك الوَسَنا ؟

---

(١) يفوت : يسبق ، ويغلب عدوه .
(٢) ذى الأثل : موضع فيه شجر الأثل ، وهو شجر عظيم صلب تصنع منه الجفان والقصاع .
(٣) المقبل : الثغر . السلسل : العذب . الجزع : من الوادى حيث يقطع .
(٤) غروب الدمع : مسيل الدمع ، واحدها غرب .
(٥) السنا : الضياء .

إنى وإن كنتُ هضبةً جَلَدًا أهتزّ للحسن ، لوعةً ، غُصُنا[١]
قسوتُ بأْساً ولنتُ مكرمةً لم أَلتزِم حالةً ولا سَنَنا[٢]
لستُ أُحِب الجمود فى رجُلٍ تحسِبُه من جموده وثنا
لم يَكْحَل السهدُ جفنَه كلَفاً ولا طوى جسمَه الغرامُ ضنى
فمن عصا داعىَ الهوى فقَسا وكان جِلدًا من الصفا خَشِنا
فإننى والعفافُ من شِيَمى آبى الدنايا وأَعشقُ الحَسَنا
طَوْرًا منيبٌ وتارةٌ غَزِلٌ أَبكى الخطايا وأَندب الدِّمنا[٣]
إذا اعترت خشيةٌ شكا فبكى أو انتحت راحة دنا فجنى
كأَننى غصن بانةٍ خضلٌ تثنيه ريح الصَّبا هُنا وهُنا[٤]

أشعار متفرقة :

قال ابن هانئ الأندلسى يصف أيام الربيع :

أَلؤلؤٌ دمعُ هذا الغيثِ أَم نُقَطُ ما كان أَحسنه لو كان يُلتقطُ[٥]
أَهدى الربيعُ إلينا روضةً أُنُفاً كما تنفَّس عن كافوره السَّفَطُ
غمائمٌ فى نواحى الجو عالقةٌ حُفْل تحدَّرَ منها وابل سبِطُ[٦]

(١) الجلد : بسكون اللام : القوى الشديد . فتح اللام فيه للضرورة .
(٢) السنن : الطريقة .
(٣) المنيب : من أناب إلى الله : رجع إليه وتاب .
(٤) الخضل : الرطب الندى .
(٥) الروضة الأنف : الجديدة التى لم يرعها أحد . السفط : السلة أو وعاء يحفظ فيه النساء الطيب .
(٦) وابل سبط : شديد متدارك .

بين السحاب وبين الريح ملحمةٌ معامعٌ وظبىً فى الجو تخترط.[١]

كأنه ساخطٌ يرضى على عجَلٍ فما يدوم رضًى منه ولا سَخَطُ.

كأن تهتانها فى كلّ ناحيةٍ مدٌّ من البحر يعلو ثم ينهبط.

وللجديدين من طولٍ ومن قِصَرٍ حبلان منقبضٌ عنا ومنبسط.[٢]

والأَرض تبسُط فى الثرى وَرقاً كما تنَشَّر فى حافاتها البُسط.

والريح تبعث أنفاساً معطَّرةً مثلَ العبير بماء الورد مختلِط.

فى هذا الوصف يعمد ابن هانئ ، على عادته ، إلى طرافة التشبيهات ويقدم لنا صورة حية للطبيعة بما فيها من عوارض الغيث ومعركة السحاب والريح ، وشعره فى وصف الطبيعة لا يجعل منه شاعراً فذًّا فى هذا الغرض لأن عبقريته تبدو فى الأغراض التقليدية كالمدح والوصف والحكمة . وهو فى جميع هذه الأغراض يبحث عن المعانى التى تساعده على تصوير ما يريد من الأخيلة فى أسلوب يعتمد المبالغة والصنعة والكلمات الطنانة .

قال بعض الأندلسيين يصف بركة عليها عدة فوارات :

غَضِبَتْ مجاريها فأظهر غيظُها ما فى حشاها من خَفِىٍّ مُضْمَر

وكأن نبعَ الماءِ من جَنباتها والعينُ تنظر منه أَحسنَ منظَر

قُضُبٌ من البلّور أثمر فرعُها لما انتهت باللؤلؤ المتحدِّر

---

(١) تخترط : تسل وتجرد من أغمادها ، والظبى جمع ظبة وهى طرف السيف .

(٢) يريد أن الليل والنهار يطول أحدهما فيقصر الآخر كأنهما حبلان أحدهما منقبض والآخر منبسط .

قال ابن صارة الأندلسى يصف ماء بالرقة والصفاء :

والنهر قد رقَّتْ غِلالةُ خصره وعليه من صِبْغ الأَصيل طِراز
تترقرق الأَمواج فيه كأَنها عُكَنُ الخصور تَهُزُّها الأَعجاز

قال بعض أدباء الأندلس :

والنهرُ مكسوٌّ غِلالةَ فضةٍ فإِذا جرى سيلاً فثوب نُضارِ
وإِذا استقام رأَيت صفحة مُنصلٍ وإِذا استدار رأَيت عطفَ سوارِ

قال أبو القاسم بن العطار أحد أدباء إشبيلية يصف نهراً :

عبرنا سماءَ النهر والجو مُشْرِقٌ وليس لنا إِلا الحَبابَ نجومُ
وقد أَلبَسَتْه الأَيكُ بردَ ظلالها وللشمس فى تلك البرود رقُوم

وله :

لله بهجةُ مَنزَهٍ ضَرَبتْ به فوقَ الغدير رُواقَها الأَنسامُ
فمع الأَصيل النهرُ درعٌ سابغ ومع الضحى يلتاحُ منه حُسام

وله :

ما كالعشيَّةِ فى رُواءِ جمالها وبلوغ نفسى منتهى آمالها
ما شئتُ شمس الأَرض مشرقةُ السَّنى
والشمسُ قد شدَّتْ مطىَّ رحالها
فى حيث تنساب المياه أَراقماً وتعيرك الأَفياء بُرْدَ ظلالها

وله :

لله حُسْنُ حديقةٍ بَسَطَت لنا ... منها النفوسَ سوالفٌ ومعاطفُ
تختال فى حُلل الربيع وحَلْيِهِ ... ومن الربيع قلائد ومطارفُ

قال الأديب أبو عمر أحمد بن فرح الحيانى :

للروض حُسنٌ فَقِفْ عليه ... واصرف عِنان الهوى إليه
أَما ترى نرجساً نضيرًا ... يرنو إليه بمقلتيه

قال الأديب الأسعد بن بليطة :

لو كنت شاهِدَنا عشيةَ أَمْسِنا ... والمُزْنُ يبكينا بعينَىْ مذنب
والشمسُ قد مَدَّتْ أديم شعاعها ... فى الأَرض تَجنَحَ غيرَ أَن لم تغرب

قال الحاجب ذو الرياستين أبو مروان عبد الملك بن رزين :

وروضٍ كساه الطَّلّ وشياً مجدّدا ... فأَضحى مقيماً للنفوس ومُقْعِدا
إذا صافحَتْه الريحُ خِلْتَ غصونَه ... رواقصَ فى خُضْرٍ من العَصْفِ مُيَّدا
إذا ما انسكابَ الماءِ عايَنْتَ خِلْتَه ... وقد كَسَرَتْه راحةُ الرِّيح مِبْرِدا
وإن سَكَنَتْ عنه حسِبتَ صفاءَه ... حُساماً صقيلاً صافى المتْن جُرِّدا
وَغَنَّتْ به وُرْقُ الحمائم بيننا ... غناءً يُنَسِّيك الغَرِيضَ ومَعْبدا
فلا تجفُوَنَّ الدهرَ ما دام مُسْعِدًا ... وَمُدَّ إلى ما قدْ حَباك به يدا
وَخُذْها مُداماً من غَزالٍ كأَنه ... إذا ما سَقَى ، بدرٌ تَحَمَّل فرْقَدا

قال على بن أحمد أحد شعراء بلنسية :

قُمْ فاسقنى والرياضُ لابسةٌ ... وَشْياً من النَّوْر حَاكَه القَطْرُ

والشمسُ قد عَصْفَرت غلائلَها ... والأَرض تندَى ثيابُها الخُضْر

فى مجلسٍ كالسماءِ لاح به ... مِنْ وجهِ مَنْ قد هَوِيتُه بَدْرُ

والنهرُ مثلُ المجرِّ حفَّ به ... من النَّدامَى كواكبٌ زُهْر

قال سعيد بن محمد بن العاص المروانى :

والبدر فى جو السماءِ قد انطوى ... طَرَفاه حتى عاد مثلَ الزَّوْرقِ

فتَراه من تحتِ المَحاقِ كأَنه ... غَرِقَ الكثيرُ وبعضُه لم يَغْرَقِ

قال عمر بن يوسف الحنطى :

أَوَميضُ برقٍ أَم سيوفٌ تُبْرِقُ ... فى عارض أَكنافُه تتأَلقُ

دَعْه إِذا ارتدَّتْ إِليك وجوهُها ... أَضحتْ وجوهُ الأَرض منها تُشْرِق

ترمِى بأَجفانِ الوميض كما انثنت ... أَجفانُ عاشقةٍ إِلى مَنْ يعشق

قال عثمان بن إبراهيم بن النضر :

أَلا يا حمامَ الأَيك مالكَ باكياً ... وغُصنكَ نَضْرٌ والجَنابُ مَرِيعُ

تَغَنَّ ولا تَنْشِجْ فإِلْفُكَ حاضرٌ ... قريبٌ وإِلفى غائبٌ وَشَسُوعُ

بَكَيْتُ بلا دمعٍ وترفُضُ مُقلتى ... شآبيبَ منها فى المصِيف ربيعُ

وقلبُكَ خِلْوٌ من تباريحِ لوعتى ... وقلبى بلوعاتِ الفِراق صريع

قال أحمد بن محمد بن عبد ربه :

ويهتاج قلبي كلما كان ساكناً دعاءُ حمام لم يَبِتْ بِوُكُون
وإن ارتياحي من بُكاءِ حمامةٍ كذي شَجَنٍ داويتَه بِشُجون
كأَن حَمامَ الأَيكِ لما تجاوبت حزينٌ بَكَى من رحمةٍ لحزين

قال ابن وِهبون من شعراء شرقي الأندلس يصف النيلوفر وهو ضرب من الرياحين ينبت في المياه الراكدة :

وبركةٍ تَزْهُو بِنَيْلُوفر نسيمهُ يشبه رُوح الحبيبِ
حتى إذا الليلُ دنا وقتُهُ ومالت الشمسُ لعين المغيب
أَطبقَ جفنَيْهِ على إلْفِهِ وغاصَ في الماء حِذارَ الرقيب

قال ابن سهل الأشبيلي في جمال الطبيعة :

الأَرض قد لبست رداءً أَخضرا والطَّلُّ ينثُرُ في رُباها جوهرا
هاجت ، فَخِلْتُ الزهرَ كافوراً بها وحسِبتُ فيها التربَ مِسْكاً أَذفرا
وكأَن سوسنَها يصافحُ وردَها ثغرٌ يقبِّلُ منه خدًّا أَحمرا
والنهرُ ما بينَ الرياضِ تخالُهُ سيفاً تعلَّقَ في نجادٍ أَخضرا
وَجَرَتْ بصفحتها الرُّبا فحسبتُها كفًّا يُنَمِّق في الصحيفة أَسطرا
وكأَنه إذ لاحَ ناصعُ فِضَّةٍ جعلتْهُ كفُّ الشمسِ تبراً أَصفرا
والطيرُ قد قامتْ به خُطباؤه لم تتخذْ إلا الأَراكةَ مِنْبرا

وقال ابن سهل يصف مشهد الأصيل :

انظر إلى لونِ الأَصيلِ كأَنه لاَ شكَّ لونُ مودّعٍ لِفراقِ

والشمسُ تنظرُ نحوَهُ مصفرّةً قدْخمَّشَتْ خدًّا من الإِشفاقِ

لاقتْ بحُمْرَتِها الخليجَ فألَّفا خَجَلَ الصِّبا ومدامعَ العُشَّاقِ

سقطتْ أَوانَ غروبها محمرةً كالخمرِ خَرَّتْ من أَناملِ ساقِ



الباب الثالث

ابن زيدون
(٣٩٤ - ٤٦٣ هـ)



الفصل الأول

ابن زيدون : عصره ونشأته ، حبه لولادة

البيئة التاريخية والسياسية :

بلغت الدولة الأموية فى الأندلس أوج مجدها زمن خلافة عبد الرحمن الثالث (٣٠٠ – ٣٥٠ ه) وابنه الحكم الثانى من بعده . ثم كان حُكْمُ الحاجب المنصور الذى استبد بالخلافة امتداداً لهذا العهد الذهبى الذى عرفته بلاد الأندلس . وكانت وفاة الحاجب المنصور سنة ٣٩٢ ه / ١٠٠٢ م ثم جاء من بعده ابنه عبد الملك المظفر فتابع سياسة العامريين الاستبدادية ولكن الأندلس استطاعت أن تحافظ على عهد ازدهارها خلال الأعوام الستة التى حكم فيها والتى مات فى نهايتها مسموماً عام ٣٩٩ ه .

ومنذ هذا التاريخ يبدأ عهد الاضطراب أو كما يسميه المؤرخون العرب « عهد الفتنة » . وقد ظلت نار هذه الفتنة مشتعلة حتى سنة ٤٢٢ ه . وهى السنة التى مات فيها آخر خليفة أموى هشام الثالث الملقب بالمعتمد بالله . وقد كانت قرطبة خلال هذه السنين مسرحاً لاضطرابات دامية لعب فيها البرابرة دوراً هاماً لميلهم إلى العامريين . وتوالى فى هذه الفترة عدد من الخلفاء ، كان كل واحد منهم يشن العداء على الآخر فيجد أنصاراً يؤازرونه من البربر أو من الإسبانيين على السواء . وقد لاقت قرطبة من جراء هذه الفتنة ضرراً كبيراً فنهبت وخُرِّبَ أجمل قصورها[1] .

وهكذا لا يكاد يطل القرن الخامس للهجرة حتى رأينا شمس الخلافة الأموية

---

(١) إليكم من تعاقب من الخلفاء فى أثناء الفتنة :

محمد المهدى (٣٩٩ – ٤٠٠ ه)

سليمان المستعين بالله (٣٩٩ – ٤٠٧ ه)

عبد الرحمن المرتضى (٤٠٨ – ٤٠٩ ه)

عبد الرحمن المستظهر بالله (٤١٤ ه)

محمد المستكفى بالله (٤١٤ – ٤١٦ ه)

هشام الثالث المعتمد بالله (٤١٨ – ٤٢٢ ه) .

فى الأندلس تخبو شيئاً فشيئاً ، ورأينا إزاء هذه الاضطرابات وهذا الضعف يتقوض ذلك البناء الضخم الذى شاده العرب فى قرطبة ورأينا تلك الدولة الأموية فى الأندلس تتجزأ فى دويلات صغيرة عرفت بدول طوائف الملوك ، فأخذ كل أمير فى إقليم بل كل حاكم فى مدينة يستردّ حريته ويستقلّ فى إقليمه أو مدينته ويكوّن دولة لها استقلالها ونظامها ، فكان فى قرطبة بنو جهور ، وفى إشبيلية بنو عباد ، وفى طليطلة بنو ذى النون ، وفى بطليوس بنو الأفطس ، وفى سرقسطة بنو هود ، إلى آخر ما هنالك من الطوائف التى كان يناهض بعضها بعضاً .

على أن هذه المناهضة لم تحل دون الازدهار الأدبى ، فقد عرفت دول ملوك الطوائف عهداً زاهراً للآداب وبلغ النشاط الأدبى أقصاه . وكنت ترى قصرَ كل ملك منتدى لأهل الشعر والأدب ، وقد تنافس هؤلاء الملوك فى اجتلاب الشعراء والكتاب والمغنين إلى قصورهم ليباهوا بهم من حولهم من الملوك والسلاطين . وكان منهم أدباء وشعراء كالمظفر وابنه المتوكل ملكى بطليوس ، والمعتضد وابنه المعتمد ملكى إشبيلية .

* * *

فى غمرة هذا النشاط الأدبى ، وفى فورة هذه الفتن المضطربة نشأ شاعرنا ابن زيدون وأتمّ حياته فى فجر عهد ملوك الطوائف ، واتصل فى جملة ما اتصل بملوك دولتين كبيرتين من دول الطوائف هما الدولة الجَهْورية والدولة العبّادية .

أما الدولة الجهورية فقد نشأت فى أعقاب الفتنة سنة ٤٢٢ هـ عند ما صار الأمر فى قرطبة إلى طبقة الخواص فقام عميدها أبو الحزم بن جَهْور واستولى على الأحكام فى قرطبة وتأسست فيها حكومة شورية عرفت بالدولة الجهورية حكمت من سنة ٤٢٢ إلى ٤٦١ هـ .

أما الدولة العبّادية فهى دولة عربية من بنى لخم قامت فى إشبيلية ونزح إليها شاعرنا ابن زيدون — كما سنرى — وحكمت من سنة ٤١٤ إلى ٤٨٤ هـ . وهى من أبهج الدول فى الفضل والكرم وحب الأدب ، وقد تفيأ شاعرنا ابن زيدون فى عهد ملكيها المعتضد والمتعمد ظلالَ النعيم والهناء .

فمن هو ابن زيدون الذى نشأ فى هذا الجو المضطرب ؟

مولد ابن زيدون ؛ نشأته وثقافته :

ولد ابن زيدون بمدينة قرطبة سنة ٣٩٤ ﻫ / ١٠٠٣ م ، وهو أبو الوليد أحمد ابن عبد الله بن زيدون المخزومى الأندلسى القرطبي ، وهو ، كما نرى من نسبه ، عربيّ صريح ينتمى إلى قبيلة مخزوم القرشية التى ذكرها المقرى بين القبائل التى رحلت إلى الأندلس وذكر منها ابن زيدون .

كان أبوه قاضياً فى قرطبة وجيهاً ثريًّا غزير العلم والأدب ، ويذكر المؤرخون أنه توفى بإلبيرة ، بالقرب من غرناطة ، وهو متوجه إليها لتفقد بعض ضياعه . وحمل إلى قرطبة فدفن بها ، فرثاه صديقه الشاعر القرطبي أبو بكر بن عبادة بن ماء السماء فقال :

أَىُّ رُكنٍ من الرياسة هِيضا وجَمُومٍ من المكارم غِيضا[1]
حَمَلوه من بلدةٍ نَحْوَ أُخرى كى يوافُوا به ثراه الأَرِيضا[2]
مثلَ حَمْلِ السحابِ ماءً طبيباً ليداوِى به مكاناً مَرِيضا[3]

ولم يذكر ابن زيدون أباه فى ديوانه إلا مرة واحدة حيث يقول فى قصيدته الطائية التى يخاطب بها بعد فراره من السجن أستاذه الأديب أبا بكر بن مسلم مستنهضاً همته للشفاعة :

عليكَ أَبا بكرٍ بَكَرْتُ بهمة لها الخَطَرُ العالى وإن نالها حَطُّ
أَبِى بعدَ ماهِيلَ الترابُ على أَبِى وَرَهْطِى فَذَّاحِين لم يَبْقَ لى رَهْطُ[4]

(١) جموم كصبور : البئر الكثيرة الماء .
(٢) الأريض : الزكى المعجب للعين .
(٣) انظر نفح الطيب (طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد) ج ٥ ص ١٦٨ .
(٤) الديوان ص ١٣ — ١٥ .

وكانت وفاة والده سنة ٤٠٥ هـ ، وولادته سنة ٣٠٤ هـ [١] .

أما أمه فقد ذكرها ابن زيدون مرتين فى آثاره ، الأولى عند ما زارته فى السجن فبكت فقال قصيدته :

ألم يأنِ أنْ يبكي الغمامُ على مِثلي ويطلبَ ثأري البرقُ منْصلتَ النَّصْلِ [٢]

والثانية فى رسالته إلى أستاذه أبى بكر بن مسلم التى يقول فيها :

« وقد هجرتُ الأرضَ التى هى ظئرى ، والدارَ التى كانت مَهْدى ، وَغِبْتُ عن أُمٍّ أنا واحدُها ، تمتدُّ أنفاسها شوقاً إلىَّ ، وَتَغُضُّ أجفانَها حُزناً علىَّ . . . [٣] »

ويظهر أنه كان يحبها حبًّا جمًّا ، ولا تفيدنا المصادر عن تاريخ وفاتها ولكننا نعلم أنها ما زالت حيةً عند خروجه من السجن سنة ٤٣٣ هـ .

هذا ولا نعلم شيئاً عن زوجته ولا عن تاريخ زواجه ، ولكننا نعلم أن له ابناً يدعى أبا بكر وَزَر للمعتمد بعد وفاة ابن زيدون سنة ٤٦٣ هـ ، وقتل يومَ سقطت إشبيلية بيد المرابطين سنة ٤٨٤ هـ .

ونشأة الشاعر فى قرطبة ساعدته على الانكباب على العلم والتحصيل فقد كانت هذه المدينة موئل العلوم والآداب فى الأندلس ، ولا شك أنه قد بدأ يتلقى العلم على يد أبيه الذى وصله بالعلماء والفقهاء والأدباء من أصحابه ، ولكن الذى تلقاه عن أبيه لا يكاد يكون شيئاً مذكوراً ، فقد كان ابن زيدون فى الحادية عشرة من عمره عند وفاة والده ، وهذا الموت المبكر لم يمنع شاعرنا من متابعة علومه . ويصفه من ترجم له بأنه كان كثير الميل لعلوم العرب وفنون اللغة فحفظ كثيراً من آثار الأدباء

---

(١) انظر نفح الطيب (طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد) ج ٥ ص ١٦٨ .

(٢) الديوان ص ١١٢ .

(٣) الذخيرة ، المجلد الأول ، ص ٣٥٣ .

وأخبارهم وأمثال العرب وحوادثهم ومسائل اللغة، وكانت له أيضاً ثقافة فلسفية تدلنا عليها ما ورد له فى رسالته الهزلية من بعض مصطلحات الفلاسفة وأسمائهم كأفلاطون وأرسطاطاليس وبقراط وجابر بن حيان وغيرهم . وإننا لنرى فى رسالته الهزلية والجدية فيضاً من المعارف التاريخية والثقافية الإسلامية وعدداً كبيراً من الأمثال والأشعار ، ولا شك أن هذه الثقافة قد تلقاها فى حلقات العلم والأدب فى قرطبة على يد مشاهير علمائها . ويذكر المستشرق (كور) فى رسالته عن ابن زيدون أستاذين له . هما أبو بكر بن مسلم بن أحمد وكان نحوياً أديباً متقدماً فى علم العربية واللغة ورواية الشعر وكتب الأدب ، والقاضى أبو بكر بن ذكوان[1] .

وقد ذكر ابن زيدون هذين الأستاذين أكثر من مرة فى آثاره ، فهو يذكر أبا بكر بن مسلم فى قصيدته الطائية التى أشرنا إليها[2] ، ويوجه إليه رسالة أشرنا إليها أيضاً عند الحديث عن أمه نجدها فى الذخيرة[3] ، وقد رثى أيضاً القاضى أبا بكر بن ذكوان فى قصيدة مطلعها :

اعْجَبْ لحال السَّرْوِ كيفَ تُحال ... والدولة العَلْياءِ كيفَ تُدالُ

لاتَفْسَحَنْ للنفس فى شَأْوِ المُنَى ... إن اغترارَكَ بالمُنَى لَضَلالُ

فثقافة الشاعر إذن ثقافة واسعة ، ولعله قد استقى معارفه من أكثر الكتب العلمية والأدبية الشائعة فى عصره .

ولم تكن قرطبة مسرحاً للعلم فقط بل كانت مسرحاً للهو والطرب ، وكان أهلها

---

(١) يرى الدكتور شوقى ضيف أن أبا بكر بن ذكوان هذا كان قاضى أبى الحزم بن جهور ولم يكن أستاذ ابن زيدون بل كان صديقه ورفيقه فى التلمذة والدراسة وتوفى سنة ٤٣٥ ھ وقد خلطوا بينه وبين أبى العباس أحمد بن محمد بن ذكوان قاضى القضاة بقرطبة الذى امتدت حياته إلى سنة ٤١٣ ، ويظن الدكتور شوقى ضيف أن ابن زيدون لزم أبا العباس بن ذكوان هذا . وكان صديقاً لأبيه ، وأفاد من علمه وأدبه ، انظر كتابه عن ابن زيدون ص ١٦ .

(٢) الديوان ص ١٣ .

(٣) المجلد الأول ص ٣٥٠ .

(٤) الديوان ص ١٥٣ .

فى رخاء من العيش ميالين إلى هذا اللهو وهذا الطرب ، ولم تبعدهم الحوادث السياسية والفتن الداخلية عن الانهماك فى لهوهم ، بل لعل هذه الدسائس كانت تحاك فى مجالس اللهو هذه ، ونستطيع أن نقول إن ابن زيدون قد مثل أهل قرطبة فى شخصه أحسن تمثيل ، فقد وصفته المصادر التاريخية بأنه خفيفُ الروح كثير الدُّعابة ، ميالٌ إلى المجون إلى جانب طموحه السياسى ، لهذا فقد نال شهرة واسعة فى مجالس قرطبة الأدبية والاجتماعية والسياسية .

وقد كان للنساء دورٌ فى هذه المجالس ، وكان لبعض هؤلاء النساء منتديات أدبية يخالطها الشعراء والأدباء ، فأثر هذا الوسط فى نفس شاعرنا ، وكان ابن زيدون من بين هؤلاء الشعراء الذين ظهر على نظمهم آثار هذه الحياة الاجتماعية وممن نالوا حظوة فى مجالس النساء هذه ولا سيما فى مجلس ولاّدة التى سنتحدث عنها . فلهذا يمكننا أن ننظر إلى شاعرنا من وجهين : إنه شاعر متأثر بالجمال مشغوف بمجالس اللهو وهذا ما سيقودنا إلى الحديث عن علاقاته مع ولاّدة ، ثم هو شاعر سياسى طموح وهذا ما ستجلوه لنا علاقاته مع الجهوريين وما ناله من سجن ، ثم انتقاله إلى بنى عباد وحظوته عند ملوكهم وما رافق هذه الحياة المضطربة من شعرِ مدح وشعرِ شكوى وشعرِ غزل .

ابن زيدون وولادة :

شغف ابن زيدون بولادة ملبياً بذلك دواعىَ قلبه ، فمن هى هذه المرأة وما هى أطوار هذا الحب الذى فتن قلبَ الشاعر العربى وجعله ينطق بالشعر الخالد .

ولاّدة هذه هى بنت المستكفى بالله الخليفة الذى جاء قبل المعتمد بالله آخر خلفاء بنى أمية فى الأندلس ، وقد كانت بيعته سنة ٤١٤ هـ ، ولم يدم حكمه إلا سنتين فى فترة مضطربة . وكان ماجناً كما يحدثنا عنه ابن بسام فيقول : « لم يجلس فى الإمارة مدة الفتنة أسقط منه ولا أنقص »[1] وقد ترك بنتاً لم يذكر المؤرخون سنة

(١) الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ص ٣٨٧ .

ولادتها، ولكنهم ذكروا وفاتها فقال المقرى إن وفاتها كانت سنة ٤٨٠ أو سنة ٤٨٤ هـ[١] وقالوا إنها عمرت طويلاً، فإذا حددنا سنة ولادتها حوالى سنة ٤٠٠ يكون عمرها عند وفاة والدها يقارب الستة عشر عاماً أو العشرين أو أكثر من هذين الرقمين بقليل ولا شك أن هذا مجرد افتراض وهو افتراض لا يبعد كثيراً عن الحقيقة كما نراه من الأرقام، ويبدو أن أبا ولادة قد اهتم بتثقيفها فأخضع لها المعلمين والمؤدبين. ولم تلبث أن تفتحت مواهبها. وكأنها كانت تنتظر موت أبيها (سنة ٤١٦هـ) حتى تطلق لنفسها العنان وتجاهر بحياتها الحرة. وقد خصها المقرى بفصل خاص تحدث عنها وعن جمالها. وأورد لها شيئاً من الشعر. وقال ابن بسام فى ذخيرته[٢] إنها كانت واحدة أقرانها يتهالك الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها، وكان مجلسها فى قرطبة منتدى لأحرار المصر، ولعله لم يبتذل حجابها إلا بعد وفاة أبيها، كما يبدو من كلام ابن نباتة شارح رسالة ابن زيدون الهزلية إذ يقول «ابتذل حجابها بعد نكبة أبيها وقتله وتغلب ملوك الطوائف[٣]». وإذا صح ما روى عنها وعن غيرها من بنات الملوك والأمراء من أخبار اللهو والعبث ومجالس الأنس فإن الحرية التى كانت تتمتع بها المرأة العربية فى الأندلس تفوق ما ألفه المشرق، وقد ذكر ابن بسام فى ذخيرته أن ولادة على علو نصابها وكرم أنسابها وطهارة أثوابها اطرحت التحصيل وأوجدت إلى القول فيها السبيل بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها. كتبت فيما زعموا على أحد عاتقى ثوبها مطرزاً بالذهب:

أَنا واللهِ أَصلح للمعالى وأَمشى مِشْيتى وأَتيه تيها

وكتبت على الآخر:

وأُمْكِن عاشقى من صحن خدى وأُعطى قُبْلَتِى من يشتهيها[٤]

(١) المقرى ج ٢ ص ١٠٩٨.
(٢) القسم الأول، المجلد الأول ص ٣٧٦ – ٣٨٧.
(٣) سرح العيون ص ٧.
(٤) الذخيرة ص ٣٧٦.

وهكذا كان لها أن تعبث ، وكان لها جمالها وشعرها تغنيه ويغنى لها فى مجلسها الأدبى الذى كان يضطرم فيه الهوى والفن والشعر .

ولم تكن ولادة فريدة فى الحرية والجرأة فى التعبير عن عواطف الحب أو اللهو بل كان يشاركها فى هذه الظاهرة كثيرات من حرائر ذلك العصر . وقد ذكر الرواة لحفصة بنت الحاج ، من أشراف غرناطة ، شعراً لا يقل مجاهرة عن شعر ولادة قالت :

ثنائِى على تلك الثنايا لأَننى   أَقولُ على عِلْمٍ وأَنطِق عن خُبْرِ
وأُنصفها لا أَكذِبُ الله إننى   رشفت بها ريقاً أَرق من الخمر [١]

وهكذا نرى أن ولادة مع ميلها للأدب ونظمها للشعر كانت مولعة بالحب مستسلمة للعبث ولكنها لم تتزوج طوال حياتها ، وقد أولع بها ابن زيدون وأولعت به وربط المؤرخون ذكرها بذكره .

لا شك فى أن ابن زيدون كان من جملة الشعراء الذين يقصدون منتداها الأدبى ، وهو فى ميعة الشباب ، وفى هذا المنتدى تمكنت بينهما أواصر الصداقة ووقع فى أشراك حبها . على أننا لا نعلم متى كان اللقاء الأول الذى تطارحا فيه الغرام . وها هو ذا ابن بسام يصفه لنا على لسان ابن زيدون :

قال أبو الوليد كنتُ فى أيام الشباب وغرة التصابى هائماً بغادة تسمى ولادة فلما قدم اللقاء وساعد القضاء كتبت إلىّ :

ترقَّبْ إذا جَنَّ الظلامُ زيارتى   فإِنى رأَيتُ الليلَ أَكْتَمَ للسرِّ
وبى منكَ ما لو كان بالبدرِ ما بَدَا   وبالشمس لم تَطْلُعْ وبالبدرِ لم يَسْرِ

وذهب إلى الموعد المضروب . ويقص علينا ابن بسام وصف هذه الخلوة على لسان شاعره بل وصف هذه الغادة التى أحبها ، فتنساب على شفتيه الأوصاف

---

(١) المقرى ١٠٩٧/٢ .

التقليدية ويقول : « فلما طوى النهار كافورَه ونشر عنبره(١) ، أقبلت بقدٍّ كالقضيب ، وردف كالكثيب ، وقد أطبقت نرجس المقل ، على ورد الخجل ، فملنا إلى روض مُدبَّج(٢) وظل سَجْسج(٣) ، وقد قامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره ، ودُرُّ الطل منثور ، وجيب الراح مزرور ، فلما شببنا نارها ، وأدركت فينا ثارها ، باح كلٌّ منا بحبه ، وشكا إليه ما بقلبه ، وبتنا بليلة نجنى أقحوان الثغور . . . »(٤)

هل كان هذا هو اللقاء الأول ، ألم يسبق هذا اللقاء خلوات وأحاديث صريحة غير تلك التى كانا يتبادلانها فى مجلسها الأدبى ؟ على أننا لا نزعم أن هذا المنتدى كانت تجرى فيه أحاديث الأدب الرفيع فقط ، ولعل حرية القول والعبث كانا فيه على جانب كبير . ونرى أن هذه الكلمات التى نقلها لنا ابن بسام ليس فيها وصف حار أو صدق عاطفة ، بل هى كلمات يطغى عليها فن الكاتب النثرى وتأنقه اللفظى الذى يسود أساليب العصر ، ومهما يكن من أمر فهو لقاء ماجن وحب متهتك . ويضيف ابن زيدون بعد ما وصف من اللقاء قوله :

« فلما انفصلنا صباحاً أنشدتها ارتياحاً :

وَدَّعَ الصبرَ محبٌّ ودَّعَكْ ذائعٌ من سِرِّهِ ما استَوْدَعَكْ
يقرعُ السِّنَّ على أَنْ لم يكن زادَ فى تلك الخُطا إذ شيَّعَك
يا أَخا البدرِ سَناءً وسَنىً حَفِظَ الله زماناً أَطْلَعَكْ
إن يَطُلْ بعدَك لَيْلِى فَلَكَمْ بِتُّ أَشكُو قِصَرَ الليلِ مَعَكْ »

وقد نسب صاحب القلائد وصاحب الذخيرة هذه الأبيات لابن زيدون ، إلا إلا أن المقرى نسبها لولادة ، فقال : « وَوَفت بما وَعدَتْ ، ولما أراد الانصراف

---

(١) كافوره : بياضه ، عنبره : سواده ، وهنا استعارتان .
(٢) مدبج : مزين بالأزهار .
(٣) سجسج : الهواء المعتدل اللطيف .
(٤) الذخيرة ، المجلد الأول ص ٣٧٧ .

ودّعته بهذه الأبيات » .

ونفضل نحن نسبتها لابن زيدون ، إذ أن صاحب القلائد وصاحب الذخيرة هما أقرب عهداً بالشاعر من المقرى ، والديوان الذى بين أيدينا ينسبها لابن زيدون أيضاً .

وقد كانت حدائق قرطبة وبساتينها مرتعاً لحبهما ، وفى خمائلها أخذا يتساقيان كؤوس الهوى ويعبان من شذى النعيم تغمرهما ظلال الحب ودفؤه .

على أن أيام هذا الحب المتبادل لم تدم طويلاً على ما يظهر ، ويذكر بعض من أرّخ لابن زيدون أن جفوة حصلت بين الشاعر وصاحبته ، فكتبت إليه :

أَلا هَلْ لنا من بعد هذا التفرُّقِ ... سبيلٌ فيشكو كلُّ صَبٍّ بما لَقِى

وقد كنتُ أَوقاتَ التزاور فى الشتا ... أَبيتُ على جَمرٍ من الشوق مُحْرِقِ

فكيف وقد أَمسيتُ فى حال قطعةٍ ... لقد عَجَّلَ المقدورُ ما كنتُ أَتَّقى

تمرُّ الليالى لا أَرى البَيْنَ ينقضى ... ولا الصبرَ من رِقِّ التشوُّق مُعْتِقى

سَقَى اللهُ أَرضاً قَدْ غدت لك منزلاً ... بكل سَكوبٍ هاطِلِ الوَبْلِ مُغدِقِ

فأجابها بقوله :

لَحَا اللهُ يوماً لستُ فيه بمُلتَقٍ ... مُحَيَّاكِ من أَجْلِ النوَى والتفرُّقِ

وكيف يَطيبُ العيشُ دون مَسَرَّةٍ؟ ... وأَىُّ سرور لِلكئيبِ المُؤَرَّقِ[1]؟

ويبدو أن هذه الجفوة لم تطل ويعود العاشقان إلى سابق عهدهما يتشاكيان الصبابة والهوى ، ولكن ولادة لم تلبث أن تتبدل ، فتظهر من الجفا ما تظهر وتذيق صاحبها عذاب الهجر بينما يبدى لها من التلطف والتذلل ما ينم لنا عن وَجْده وحبه .

ونحاول أن نجد سبباً لهذا الازورار فلا نعثر إلا على ماينقله لنا ابن بسام

---

(١) النفح ٢/١٠٩٨ .

من أن ابن زيدون أشار إلى جاريتها أن تعيد له صوتاً غنته فظنت أنه يغازلها من دونها فغضبت غضباً شديداً وكتبت إليه :

لو كنتَ تُنصِفُ في الهوى ما بيننا لم تَهْوَ جاريتي ولم تَتَخَيَّرِ
وتركْتَ غُصْنًا مُثمِرًا بجماله وجنحْتَ للغُصْنِ الذى لم يُثْمر
ولقد علمتَ بأنني بدرُ السما لكنْ وَلِعْتَ لِشقْوتى بالمُشْترى

وهكذا تلعب الغيرة فى قلب المرأة وتكون سبباً من أسباب جفاء ولادة لعاشقها الشاعر الذى أخذ يبكى ويئن . ونحن لا نظن أن هذا السبب هو ، وحده ، الذى أدى إلى الجفاء ثم إلى القطيعة ، وقد يكون انضمام ابن زيدون لحركة الجهاورة قد ترك فى نفسها أثراً سيئاً وهى بنت خليفة أموى فجاءت الغيرة تذكى فى نفسها شتى الوساوس .

ومهما يكن من أمر فقد حصلت القطيعة ، وكانت ولادة هى البادئة ، وسمحت لعاشق جديد ، ليس بالشاعر المرهف هذه المرة وإنما هو الوزير الخطير ، أن يتقرب منها ، هو الوزير أبو عامر بن عبدوس ، ولسنا ندرى ما إذا كان ابن عبدوس ينتظر هذه الجفوة ليتقرب من الغادة التى أخذت أصداء حلاوتها ورنات أشعارها تتجاوبها أندية قرطبة اللاهية ، ولكن المقرى يجعل لقاءها لابن عبدوس وتحولها إليه على غير ميعاد فيقول : « ولما مرت بالوزير أبى عامر بن عبدوس وأمام داره بركة تتولد عن كثرة الأمطار ، وربما استمدت بشىء مما هنالك من الأقذار ، وقد نشر أبو عامر كميه ، ونظر فى عطفيه ، وحشر أعوانه إليه . فقالت له :

أنت الخصيبُ وهذه مِصْرُ فتدفَّقَا ، فكلاكما بحرُ

فتركته لا يحير حرفاً ، ولا يرد طرفاً[١] » .

وهكذا كانت الضربة الصاعقة التى أصابت قلب الوزير فجعلته يتبعها بعد

---

(١) النفح ١٠٩٩/٢ .

أن صادته بحبائلها وبادلته بالعشق عشقاً وبالغرام غراماً .

ويشتد الأمر على ابن زيدون ، ويتألم أشد الألم ، ويتضرع لها ويتوسل ولكنها لا تلين ، فلا يجد بدًّا من أن يتوعد ابن عبدوس نفسه ويتهدده فيكتب له قصيدة نقرأ فى مطلعها هذه الأبيات (١) :

أَثَرْتَ هِزَبْرَ الشَّرى إذ ربضْ ونبَّهتَهُ إذ هدا فاغتمضْ

ومازلتَ تبسُطُ مسترسلاً إليه يدَ البغى لما انقبضْ

حذارِ حذارِ فإن الكريمَ إذا سِيمَ خَسفاً أَبَى فامتعضْ

فإن سكونَ الشجاعِ النَّهُو سِ ليس بمانعه أن يَعَضْ

وإن الكواكب لا تُسْتَزَل وإن المقادير لا تُعترض (٢)

أُعيذكَ من أن ترى مِنْزَعى إذا وترى بالمنايا انقبض

ولكن ابن عبدوس لم يصغ إلى تعريضه ووعيده ، وكذلك ولادة لم ترقَّ لآلام حبه . ويعلم ابن زيدون أن منافسه يستخدم فى مراسلاته سيدة تزينه فى عينى صاحبته وتصف لها غناه وجماله ، فيستغل هذا الأمر ليكتب إلى ولادة رسالته الهزلية يسخر فيها على لسانها من ابن عبدوس ويتهكم عليه ويعبث به ويهجوه علها تفصم حبل وصالها مع خصمه . ولكن ولادة لم تفعل بل تغضب غضباً شديداً وتهجوه ببيتين هجاء مقذعاً فاحشاً . ويعظم الخلاف بينهما وتحتدم العداوة بينه وبين منافسه ابن عبدوس . وستكون هذه العداوة من جملة الأسباب التى أدت إلى سجن الشاعر .

ويستمر شاعرنا فى الأنين والشكوى ، وهنا يبدو لنا إخلاصه لحبيبته ، ويتمثل لنا حبه وألمه ، كما تتكشف لنا نفسية معشوقته المتهتكة ، وكيف أنها لم تكن فى

---

(١) الديوان ٢٣٧ .

(٢) النهوس : العضوض ، الشجاع : الذكر من الحيات .

حبها الأول إلا لاهية عابثة كما هى تلهو الآن وتتساقى كؤوس الهوى مترعة مع ابن عبدوس .

ويكتب لها ابن زيدون كثيراً من القصائد ذاكراً حبه ، متشوقاً لأيامه السعيدة ولكن ولادة تصم الأذن وتغلق القلب .

ولا بد لى هنا من ملاحظة ، هى أن أكثر غزل الشاعر بولادة قد قاله بعد أن ساءت العلاقة بينهما ، فهو شعر شكوى وألم وذكرى ، فأين هو ذلك الشعر الضاحك الذى وصف أيام غرامهما السعيد ، وما السر فى هذا الصمت عن وصف ذلك الحب ؟ هل بخلت قريحة الشاعر فى أيامه الهانئة ، أو أن حبه كان فى البدء حباً متهتكاً تافهاً ، ثم انقلب إلى حب حقيقى عند ما ألهب البعاد قلبه فانبجس بالشكوى ووصف غرامه المعذب ؟ هذا ممكن . على أن فترة حبهما الهانئ كانت قصيرة ، ولم يحدثنا الشعراء كثيراً فى أدبنا العربى عن أفراح الغرام ، وأكثر غزلنا وصف لتباريح الهوى وعذاب الشوق وقسوة المحبوبة .

هذا وقد كانت معانى شاعرنا فى قصائده الغزلية هذه تحوم حول إثبات حبه وإخلاصه لولادة ، فليس لها إلا أن ترق وتعطف وتعود لأيام الحب الأول . إنها أصغت لكلام الحساد والوشاة ولم يرتكب ما يسمح لها بهذه القطيعة ، وهو ما يزال يذكرها دائماً لأنه فى حنين دائم . حول هذه المعانى وأضرابها كانت تدور أكثر قصائده الغزلية وكانت على شكل مقطوعات إلا أننا نجد بعض القصائد الكبيرة كقصيدته الشهيرة التى ارسلها إليها بعد خروجه من السجن ، ويقال إنه بعث بها إليها من إشبيلية ، ومطلعها :

أَضحى التنائى بديلاً من تدانينا ... وناب عن طِيب لُقيانا تجافينا

وكهذه القصيدة التى يقول فى مطلعها[١] :

لئن قَصَّرَ اليأْسُ منكِ الأَمل ... وحَال تَجَنِّيكِ دُونَ الحيَلْ

---

(١) الديوان ١٩٥ .

وراقَكِ سحرُ العِدا المُفتَرَى وَغَرَّكِ زورُهُمُ المُفْتَعَلْ
فإن ذِمامَ الهوَى لن أَزالَ أُبَقِّيه حِفْظاً كما لم أَزَلْ

ففيها تتمثل حرقة الشاعر وانكساره ورجاؤه لحب جديد يجنى فيه سعادة النعيم الآفل .

الفصل الثانى

ابن زيدون فى بلاط بنى جَهْوَر وبنى عبَّاد

الشاعر فى بلاط أبى الحزم وسجنه :

لامرية فى أن ابن زيدون كان من أكابر الرجال الذين لم يكونوا فى معزل عن حوادث الفتنة . وقد كان ، كما يبدو من مدائحه لبنى جهور ، من مناصريهم . وليس بعيداً أن يكون ما أظهره من العطف على حركتهم هو الذى حدا بأبى الحزم ابن جهور إلى تقريبه واستخدامه ، إلى جانب ما توسّم فيه من الصفات الممتازة والأدب الرفيع . وقد نقل ابن بسام فى الذخيرة عن ابن حيان فى وصف من كان اصطنع ابن جهور من رجال دولته فقال : « ونوّه بفتى الآداب وعمدة الظرف ، والشاعر البديع الوصف ، أبى الوليد أحمد بن زيدون ذى الأبوة السنية بقرطبة ، والرياسة والدراية ، وحلاوة المنظوم ، والسلاطة ، وقوة العارضة ، والافتنان فى المعرفة وقدّمه للنظر على أهل الذمة ، لبعض الأمور المعترضة ، وقصره بعدُ على مكانه من الخاصة والسفارة بينه وبين الرؤساء فأحسن التصرف فى ذلك ، وغلب على قلوب الملوك »[1] .

ويقول المؤرخون بعد ذلك إن أبا الحزم بن جهور قد تغير على ابن زيدون فسجنه ، وقد قال ابن بسام فى صدد سجنه ما يلى : « وكان علِقه من عبد الله بن أحمد المكوى ، أحد حكام قرطبة ، ظفر أحجن ، أداه إلى السجن ، فألقى نفسه يومئذ على أبى الوليد بن جهور فى حياة والده أبى الحزم فشفع له وانتشله من نكبته وصيره من صنائعه[2] » .

ونحن لا ندرى الدوافع الحقيقية إلى هذا السجن ، وهناك من يرى أن ابن

(١) الذخيرة ج ٢ ص ٢٩٠ .
(٢) ديوان ابن زيدون ٤٠٩ .

عبدوس نسب إليه أنه يحاول القيام بثورة على أبى الحزم بن جهور ، فسيق من أجل هذا إلى المحاكمة ، وكان القاضى الذى تولى محاكمته هو أبو محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن المكوى ، الذى ولىَ قضاء قرطبة فى المحرم سنة ٤٣٢ والذى أشار إليه ابن بسام فيما قدمناه ، فعند ما عرضت قضيته عليه أمر بسجنه على الفور لموجدة قديمة بينه وبين الشاعر . فإذا افترضنا أن هذه المحاكمة قد جرت فى السنة التى ولى ابن المكوى قضاء قرطبة يكون الشاعر قد دخل السجن وعمره ثمانية وثلاثون عاماً .

على أن قصة محاكمته تأخذ شكلا آخر عندما يرويها ابن بسام فى ذخيرته ، ويرى أن السبب المباشر لسجنه التهمة التى ألصقت به ، وتتلخص فى أن ابن زيدون قد حاول استغلال إرث أحد الأسياد بعد وفاته ، فكان أن قيد إلى المحاكمة ، فحكم عليه القاضى ابن المكوى بالسجن ، إلا أن خبر هذه التهمة يدفعها ابن زيدون عن نفسه فى رسالة أرسلها إلى أستاذه أبى بكر بن مسلم ، وهو مختف بقرطبة بعد هربه من السجن[١] ، ويثبت فيها أن هذا السيد كان لا يملك شيئاً حتى يستطيع أن يكسب إرثه . وقد أشار المستشرق (كور) إلى هذه التهمة عند الحديث عن سجنه ، وقال إنه سجن بعد المحاكمة ، ولكنه لم يفهم النص فهماً دقيقاً[٢] .

ومهما يكن من أمر فسجن الشاعر كان نتيجة لما حاكه حساده حوله من مؤامرات ، وكان فى طليعة هؤلاء الحساد منافسه ابن عبدوس فاستطاع أن يوغر صدر الأمير ابن جهور عليه . وقد يكون هؤلاء الحساد قد أثاروا أيضاً ضده قضية حبه لولادة .

وهكذا يقضى الشاعر ما ينوف عن خمسمائة يوم سجيناً حائراً يستعطف ابن جهور ويناشده العفو دون فائدة ، محاولاً أن يجد تعزية فى ذكرى حبيبته التى كان ينظم الأشعار فى استعطافها وعتابها ويذكر أيام حبهما .

وقد نظم الشاعر أثناء سجنه عدة قصائد جميلة تغلب عليها رنة الاستعطاف

---

(١) الذخيرة ج ١ ص ٣٤٤ .
(٢) كور ، كتابه عن ابن زيدون بالفرنسية ، ص ٥١ .

والحنين والعتاب منها هذه القصيدة التى نقرأ فيها هذه الأبيات فنعلم أن بياض الشيب قد وخط عارضيه قبل أن يخلع برد الشباب وقبل أن يبلغ ثلاثين ربيعاً ، فيقول [١] :

مَنْ يسأَلِ الناسَ عن حالى فشَاهِدُها ... مَحْضُ العِيانِ الذى يُغنى عن الخَبَرِ

لم تَطو بُرْدَ شَبابى كَبْرةٌ وأَرَى ... برقَ المشيبِ اعتَلى فى عارِضِ الشَّعَرِ

قبلَ الثلاثينَ إذ عهدُ الصِّبا كَثَبٌ ... وللشبيبةِ غُصْنٌ غيرُ مُهتَصَرِ

ها إنها لوعةٌ فى الصدر قادِحَةٌ ... نارَ الأَسى ومَشيبى طائرُ الشَّرَرِ

ومنها هذه القصيدة الشهيرة الفياضة بالألم واللوعة والحزن ، التى بعث بها إلى صديقه الوزير الكاتب أبى حفص بن برد والتى جاء ذكرها فى قلائد العقيان ومطلعها :

ما عَلَى ظنِّىَ بَاسُ ... يَجْرَحُ الدهرُ ويَاسُو [٢]

ولعله أيضاً قد نظم فى هذه الفترة هذه القصيدة الرقيقة القصيرة التى نقرأ فيها هذه الأبيات فيخيل لنا أنها قيلت فى السجن وابن زيدون لا يستطيع أن يطير إلى محبوبته ولادة :

وأَعْجَبُ كيفَ يغلِبُنِى عدوٌّ ... رضاكِ عليه من أَمْضَى سلاحِ

ولما أَن جَلَتكِ لىَ اختلاساً ... أَكفُّ الدهر للحَيْنِ المُتاحِ

رأَيتُ الشمسَ تطلُعُ من نِقَابٍ ... وغُصْنَ البانِ يَرْفُلُ فى وِشاحِ

فلو أَسْطيعُ طِرْتُ إليكِ شوقاً ... وكيفَ يطيرُ مَقصُوصُ الجَناحِ ؟ [٣]

---

(١) الديوان ص ٩٢ .
(٢) الديوان ص ١ .
(٣) الديوان ص ٢٦١ .

ومن سجنه أرسل ابن زيدون رسالته الجدية إلى ابن جهور يستعطفه فيها وأرسل معها قصيدة يمدحه بها ويستعطفه أيضاً ومطلعها [١] :

الهَوَى فى طلوعِ تلك النجومِ والمُنَى فى هبوبِ ذاك النسيمِ

وقد ذكر فى هذه القصيدة أنه مكث فى السجن خمسمائة يوم فقال :

أَفصبرٌ مئين خمساً من الأَيا مِ ، ناهيك من عذابٍ أَليمِ

وعلى هذا تكون هذه الرسالة قد أرسلت إلى أبى الحزم فى أواخر أيام سجن الشاعر :

لم يلق ابن زيدون من ابن جهور على رغم استعطافه له إلا الجفاء ، فلم يعف عنه وذهبت توسلاته عبثاً ، عندئذ عزم على الفرار ، ونزعم مع المستشرق كور[٢] أن أبا الوليد بن جهور قد ساعد الشاعر على الهرب ، نقد كان صديقه وكان يزوره فى سجنه . وقد أشار ابن بسام إلى ذلك عند ما قال : إن أبا الوليد قد انتشل الشاعر من نكبته .

وهكذا يفر الشاعر من سجنه فى غضون سنة ٤٣٣ ه ، بعد أن أخفقت وسائله وتوسلاته فى استعطاف أميره أبى الحزم ، ويقصد إشبيلية للمرة الأولى فيجد الشاعر فيها صدراً رحباً حيث أدناه المعتضد منه وقرّبه إليه وغمره بعطفه . ولكن نفس الشاعر كانت تجذبه إلى قرطبة ، موطن صباه ومسرح هواه ، فكتب إلى حبيبته قصيدته النونية الخالدة التى استهلها بقوله :

أَضحى التنائِى بديلاًمن تدانينا وطاب عن طيب لُقْيانا تجافينا

وختمها بقوله :

أَوْلِى وفاءً ، وإن لم تبذلى صلةً فالطيف يُقنِعُنا والذكر يكفينا

---

(١) الديوان ص ٤٩

(٢) كور : ابن زيدون ص ٦٨ .

وفى الجواب متاع إن شفعْتِ به بيضَ الأَيادى التى مازلتِ توليِنا
عليكِ منا سلامُ اللهِ ما بقيت صبابةٌ بكِ نخفيها فتخفينا

ولم يطق البقاء بعيداً عن هواه فعاد إلى قرطبة واستخفى بضاحيتها الزهراء وأخذ يراسل أصدقاءه مستشفعاً بهم لدى أبى الحزم ، فكتب رسالته الرائعة إلى أستاذه أبى بكر بن مسلم [1] وفيها أبان سبب هربه بعد أن أعيته وسائل الاستعطاف وعاتب أستاذه لتقاعسه فى إخراجه من السجن ، ثم اتبعها بقصيدته الطائية البارعة الوحيدة فى الديوان ، وكنا قد أشرنا إليها [2]. ولم يكتف الشاعر بهذا بل واصل مساعيه عند ولى العهد أبى الوليد .

بقى ابن زيدون مختفياً فى الزهراء ، وفى هذه الفترة كتب إلى حبيبته قصيدته العاطفية التى استهلها بقوله :

إنى ذكرتكِ بالزهراءِ مُشتاقا والأُفقُ طَلقٌ ومرأَى الأَرض قد راقا
وللنسيم اعتلالٌ فى أَصائله كأَنه رَقَّ لى فاعتل إشفاقاً [3]

وفى صدد هذه القصيدة يقول ابن خاقان [4] : « . . . فلما حلّ بذلك القرب ، وانحلّ عقد صبره بعد الكرب ، كرّ إلى الزهراء ليتوارى فى نواحيها ، ويتسلى برؤية ما فيها ، فوافاها والربيع قد خلع عليها بُرده ، ونثر سوسنه ووردَه ، وأترع جداولها ، وأنطق بلابلها . . . فتشوّق إلى ولاّدة وحن ، وخاف تلك النوائب والمحن ، فكتب إليها يصف فرط قلقه ، وضيق أمده وطلَقه ، ويعاتبها على إغفال تعهده ، ويصف حسن محضره بها ومشهده » ، ثم يذكر ابن خاقان جميع القصيدة وهى فى خمسة عشر بيتاً .

---

(١) الذخيرة ج ١ ص ٣٤٤ .
(٢) انظر ص ١٦٣ من هذا الكتاب .
(٣) الديوان ص ٢٥٧ .
(٤) قلائد العقيان ص ٨٢ .

وقد يكون الشاعر قد أهدى أبا الحزم بن جهور فى هذه الفترة بعض قصائد المدح والاستعطاف ، ولكن يصعب علينا تحديد تاريخها .

ويحظى ابن زيدون فى النهاية بعفو أبى الحزم وكان لابنه أبى الوليد الفضل الأول فى ذلك ، فتتوثق المودة بين الشاعر وأبى الوليد فيمدحه ويمدح أبا الحزم أيضاً. ثم لم يلبث أبو الحزم أن توفى فى السادس من محرم سنة ٤٣٥ فيرثيه بقصيدة مطلعها :

أَلم ترَ أَنَّ الشمسَ قد ضَمَّها القبر   وأَنْ قد كفانا فَقْدَها القمرُ البدر[١]

وليس فى هذه القصيدة ما يدل على أنها تنبض بالعاطفة الصادقة . فالمطلع كما نلاحظ تقليدى يمهد السبيل فيه لمدح ابن المتوفى أبى الوليد الذى أحبه ولم ينس فضله فى سبيل خلاصه من السجن . والقارئ لهذه القصيدة يرى أن معانيها تتردد فى قصائد أخرى كتلك التى قالها فى رثاء المعتضد بن عباد [٢] وكأن الشاعر قد أراد من رثاء أبى الحزم تمكين مكانته عند ابنه أبى الوليد على طريقة (مات الملك عاش الملك !) ، فالشاعر يبكى الفقيد ولكنه يتطلع دائماً إلى البدر الذى حل محل الشمس التى ضمها القبر ، ثم يأتى بالأوصاف التقليدية التى لا تلمح فيها خلجات قلب شاعر متأثر .

الشاعر فى بلاط أبى الوليد :

بعد وفاة أبى الحزم سنة ٤٣٥هـ تقلد زمام الأمور ابنه أبو الوليد ،وهنا نرى نجم ابن زيدون يتألق ويعلو ، فيقربه أبو الوليد منه ويعينه للنظر على أهل الذمة ، فينظم الشاعر قصيدة جميلة تعبر عن بهجته ورجائه فيه يفتتحها بهذا المطلع :

ما للمُدام تديرها عيناكِ   فَيميلُ فى سُكر الصِّبا عِطْفاكِ [٣]

---

(١) الديوان ص ١٥٠ .
(٢) الديوان ص ١٤٠ و ١٥٠ و ١٧٤ .
(٣) الديوان ص ٩ .

إلى أن يقول :

قلدنىَ الرأْى الجميل فإنه   حَسْبى ليوْمَىْ زينةٍ وعِراك

وفى هذه القصيدة تتجلى فرحة الشاعر بأميره وقد ارتقى أريكة السيادة والحكم فيصيح بأعلى صوته :

بُشراكِ يا دنيا وبشرانا معاً   هذا الوزير أَبو الوليد فتاك

يا أَيها القمرُ الذى لسنائه   وسَنَاه تعشو السبْعُ فى الأَفلاك[1]

فَرَحُ الرياسة إذ ملَكت عِنانَها   فَرَحُ العروس بصحة الإملاك[2]

وينظم ابن زيدون فى هذه الفترة أيضاً قصيدة أخرى فى مدح مليكه أبى الوليد مطلعها[3] :

أَجَلْ إنَ لَيْلَى حيث أَحياؤها الأَسْدُ   مهاةٌ حَمَتْها فى مراتعها أُسْدُ

ونرى الشاعر فيها يتدفق مدحاً لآل جهور ويعرّض بمطلب لعله الوزارة التى رفعه إليها مليكه أبو الوليد فيما بعد ، فيقول :

فديتُك إنى قائل فمعرِّضٌ   بأَوْطار نفسٍ منكَ لم تقضِها بعدُ

مُنًى كالشَّجَا دونَ اللهاة تَعَرَّضَتْ   فلم يلكُ للمصدورِ من نَفْثِها بُدُّ[4]

أَمثلىَ غُفْلٌ خاملُ الذكرِ ضائعٌ   ضَياعَ الحسامِ العَضْبِ أَصدأَه الغمدُ[5]

---

(١) السناء بالمد : الرفعة والشرف ، وبالقصر : الضوء . تعشو : تقصد ، عشا النار وإلى النار : رآها ليلا فقصدها راجياً هدى أو قرى .

(٢) الإملاك : الزواج .

(٣) الديوان ص ١٧٧ ، وقد جاء فيه أنها قيلت فى مدح أبى الحزم بن جهور ، وهو خطأ .

(٤) الشجا : ما يعترض فى اللهاة أو الحلق .

(٥) العضب : القاطع .

بدأتَ بنُعمَى غَضَّةٍ إن تُوالِها فَحُسنُ الألَى فى أنْ يواليَها سَرْدُ [١]
لعَمْرُكَ ما للمالِ أَسعى فإنما يرى المالَ أَسنى حظِّه الطَّبِعُ الوغْدُ
ولكنْ لحالٍ إن لَبِسْتُ جمالَها كَسَوْتُكَ ثوبَ النُّصْحِ أعلامُه الحمدُ

وهكذا يضفى الشاعر عليه مدائحه ، ويخلع عليه قصائده التى نسمع خلال أبياتها رنة الإخلاص ، وتشيع فى تضاعيفها نبضات الحب للملك خلصه من السجن ثم رفعه إلى مراتب الوزارة والأمر والنهى ، فلا عجب أن نراه يصوغ ألفاظه درراً فى مدائحه فيقول :

مَلِكٌ لَذَّ جَنَى العيش به حيثُ وِرْدُ الأَمنِ للصادى عَلَلْ
يا بنى جهورِ الدنيا بكم حَلِيَتْ أيامُها بعد العَطَلْ
نحن من نعمائكم فى زَهرةٍ جددت عهدَ الربيع المقتبَلْ
زَهَرَتْ أَخلاقُكم فابتسمتْ كابتسام الورد عن لؤلؤِ طَلْ [٢]

وعندما نكب بنو ذكوان سنة ٤٤٠ هـ ، وهى الأسرة التى ينتسب إليها أستاذه القاضى أبو بكر بن ذكران أرسل الشاعر إلى أبى الوليد مدحة [٣] نستشم من خلالها قلق الشاعر وعدم اطمئنانه لمستقبله . فهل بدأ يخشى أن يصيبه من الابن ما أصابه من الأب ؟ وما معنى هذا التضرع الذى نقرؤه خلال هذا البيت من القصيدة المذكورة ؟ :

لا تستجز وضعَ قدرى بعد رفعكَه فالله لا يرفعُ القدر الذى تَضَعُ

ويبدو ، كما يشير بعض المؤرخين ، أن ابن زيدون قد أخذ منذ هذا التاريخ

---

(١) الألى : النعمة وجمعها آلاء . سرد : تتابع .
(٢) الديوان ص ٦٢ — ٦٥ .
(٣) الديوان ص ١٣٠ .

يحذر سيده وتعتوره الوساوس ، إذ رآه يصغي إلى أقوال الوشاة الراغبين بتنحيته عن مركزه .

وأكبر الظن أن سبب جفاء أبي الوليد لابن زيدون ما كان من أمر نكبة بني ذكوان . أصدقاء الشاعر ، عند ما حاول بعض منهم الوثوب على السلطان بقرطبة . فكان أن أحاطت بالشاعر الشبه ، فحاول أن ينفيها عن نفسه بالقصيدة المشار إليها .

وفي هذه الفترة يحدث أن يرسله أبو الوليد سفيراً إلى حضرة إدريس الحسني بمالقة فيطيل الثواء هنالك ويتقرب من إدريس ، فيعتب عليه أبو الوليد ويصرفه عن السفارة بينه وبين أمراء الأندلس . وهكذا تنقطع أيام الشاعر عن قرطبة ، ولا يعود إليها خشية من أبي الوليد بن جهور الذي أرسل إليه يتهدده بعد أن تابع خصومه في إيغار صدر أبي الوليد عليه ، فيقصد بلنسية ويستقبله أميرها أبو عبد الله ابن عبد العزيز استقبالا حسناً ، ولكنه لا يقيم فيها طويلا ، وقد أسف على فراق أبي عبد الله في قصيدة نقرأ فيها هذه الأبيات :

راحت فَصَحَّ بها السقيم ريح معطَّرةُ النسيمْ
مقبولةٌ هبَّت قَبُو لاً فهي تَعْبَقُ في الشَّميمْ
أَفضيضُ مسكٍ أو بَلَنْ سِيَةٌ لَرَيَّاها نَميمْ
بلدٌ حبيبٌ أُفْقُهُ لفتًى يَحُلُّ به كريم

* * *

مهما ذممتُ فما زما ني في ذِمامك بالذميمْ
زمن كمأْلوف الرضَا ع يشُوق ذكراه الفَطيمْ
الله يعلم أَن حُبـ ـبك من فؤادي في الصميمْ
ولئن تحمَّلَ عنك لي جسمٌ فعنْ قلبٍ مقيمْ(١)

---

(١) الديوان ص ٣٥ .

وقد أم أيضاً طرطوشة ، أثناء وجوده بأقصى شرقي الأندلس ، وهي مدينة قائمة على البحر الأبيض من أعمال بلنسية ، وفيها قال هذين البيتين متشوقاً إلى وطنه :

غريبٌ بأقصى الشرق يشكر للصَّبا ... تحمُّلَها منه السلامَ إلى الغَرْب[١]
وما ضرَّ أنفاسَ الصَّبا في احتمالها ... سلامَ هَوًى يهديه جسمٌ إلى قلب

ثم يقصد بطليوس في الغرب فيلاقي من أميرها من الاحتفاء ما لاقاه من أمير بلنسية ، وكان قدومه إليها في عيد الأضحى سنة ٤٤١ هـ فيهاجه أن يرى نفسه وحيداً فتذكَّر معاهده في قرطبة . وأخذ يعدّدها معهداً معهداً ، ويتحسر على أيامه الخوالي في قصيدة نظمها في هذه المدينة ، مطلعها :

خليليَّ لا فِطْرٌ يَسُرُّ ولا أضحى ... فما حالُ من أمسى مَشُوقاً كما أضحى

والقصيدة تنم عن شوق الشاعر وأساه ، وتصوّر ما أثارته الذكرى في نفسه من الحب والحنين لمدينة ترعرع فيها حبه ، وقضى فيها أيام شبابه وسعادته وشقائه . وقد نظم أيضاً في هذه المدينة قصيدة أخرى تصور صبابته وشوقه وهي أرجوزة مطلعها :

يا دمع صُبْ ما شئْتَ أَن تَصُوبا ... ويا فؤادي آنَ أَنْ تذوبا[٢]

وقد لاقى ابن زيدون من المظفر صاحب بطليوس كل إكرام مما جعل لسانه ينطق بشكره ، وقد كتب إليه أيضاً قصيدة ورسالة نجدهما في ديوانه[٣] :
وهكذا لم يستطع هذا التنقل والرحيل أن ينسيه حبه أو يشغله عن هواه ، فظل في حنين دائم وتلهف مقيم .
ولكن ابن زيدون كان يتطلع إلى بلاط أوسع مما رأى ليرضي طموحه ،

---

(١) الديوان ص ٥٤ .
(٢) الديوان ص ١٩ .
(٣) ص ١٢٢ و ص ٣٤٦ .

فصحت عزيمته على الرحيل مرة ثانية إلى المعتضد بن عباد بإشبيلية ، الملك الذى كان الأدباء يجدون فى كنفه عطفاً ورعاية . وفى سنة ٤٤١ هـ ، رحل إليه بعد أن تأكد برسائل أرسلها إلى المقربين من المعتضد وإلى المعتضد نفسه أنه سينزل على الرحب والسعة .

ابن زيدون فى بلاط بنى عباد :

ها هو ذا ابن زيدون فى إشبيلية مرة أخرى يرعاه المعتضد ويحتفى به احتفالاً رائعاً . وقد ولاه الوزارة ولقبه بذى الوزارتين وأسبغ عليه الخلع ، وقلده أمور دولته واستكتبه « فكانت الكتب تنفذ من إنشاء أبى الوليد إلى شرق الأندلس فيقال تأتى كتب من إشبيلية هى بالمنظوم أشبه منها بالمنثور[1] » . وقال ابن زيدون فى أميره أحسن المدائح نجدها منشورة فى ديوانه ومنها قصيدته التى قالها فى عيد الأضحى سنة ٤٤٥ ، ولعلها من خير مدائحه ومطلعها :

أَمَا فى نسيمِ الريح عَرْفٌ مُعرِّفُ
لنا هَل لِذاتِ الوَقف بالجِزْع مَوْقف[2]

ولا يقتصر الشاعر فى هذه القصيدة على مدح المعتضد بل يبتدئها بمطلع غزلى رأى فيه ابن خاقان فى قلائده أنه حنين لولادة ، ونحن إذا ما تدبرنا هذا المطلع الغزلى لم نجد فيه ما يجعلنا نعتقد بأنه قيل فى ولادة . وهو فى جملته غزل تقليدى تفتتح به عادة قصائد المدح على الرغم مما يشيع فيه من أصداء خافتة لشاعر عرف العشق واكتوى بناره .

وقد بقى ابن زيدون وزير المعتضد وشاعره المفضل إلى أن توفى سنة ٤٦١ هـ ؛ فلما تولى الملك ابنه المعتمد (وكان له من العمر ثلاثون عاماً) حظى بالمكانة نفسها التى كان يتمتع بها عند أبيه ، ولا عجب فى ذلك فقد رأينا المعتمد شاعراً محبًّا للأدباء ؛

(١) الذخيرة ١ ص ٢٩٠ .
(٢) الديوان ص ٢٣ ، الجزع : منعطف الوادى . الوقف : السوار من العاج وغيره .

وكان بلاطه قبلة كل أديب وموئل كل فنان عبقرى . وقد حاول أعداء ابن زيدون بعد وفاة المعتضد الإيقاع به ولكن المعتمد لم يصغ لأقوال هؤلاء الأعداء ، فبقى أثيراً عنده ، وقد حفظ الشاعر لمليكه هذا الموقف النبيل فمدحه بقصيدة عرّض فيها بحساده ونعتهم بالبغاة ومطلعها :

الدهرُ–إن أملى–فصيحٌ أعجمُ يُعْطى اعتبارى ماجهلتُ فأَعلمُ
إن الذى قَدَر الحوادثَ قَدْرَها سَوّى لديه الشهدَ منها العلقمُ

ولابن زيدون مدائح كثيرة جليلة غير هذه ، وله معه مداعبات ومساجلات نجدها فى ديوانه .

وهكذا فقد كانت حياة ابن زيدون فى عهد المعتمد مفعمة بالمسرة والهناءة . ولم يكن ليشجيها إلا أطياف حب قديم مقيم . وكانت إشبيلية تضمه بشعرها وغنائها ولهوها وخمرها وتبسط أمامه لهو الحياة وعز السلطان . ويكفى أنه كان فى بلاط المعتمد وقد اجتمعت فيه مباهج الدنيا ولذاتها .

ولكن هذه الحظوة العظيمة التى تمتع بها ابن زيدون عند المعتمد لم تستطع أن تنسيه قرطبة أو أن تحد من شوقه إليها ، ولعل الشاعر كان يغرى مليكه بالاستيلاء عليها . وحدث سنة ٤٦٢ هـ أن المأمون بن ذى النون ملك طليطلة ، قد هاجم قرطبة يريد احتلالها فاستنجد ملكها أبو الوليد ابن جهور بالمعتمد فأرسل جيشاً يقوده أحد أبنائه ، فما كان من جيش المأمون إلا أن ينسحب بينما نزل جيش بنى عباد فى ضاحية المدينة وأخذ يتصل بأهل قرطبة حتى ثار هؤلاء على ابن جهور واستولى الجيش الإشبيلى على قرطبة ونادى أهلها بالمعتمد ملكاً عليها .

وهكذا يعود ابن زيدون مع مليكه إلى قرطبة قرير العين برؤية أهله ووطنه فيرتفع حظه ويزداد إقبال الدنيا عليه ويبلغ من الحظوة عند المعتمد ما يجعل وزيريه ابن مرتين وابن عمار يكيدان له ويسعيان فى إبعاده . وتساعدهما الظروف ، فتحدث فتنة فى إشبيلية ويضطر ابن عباد لإرسال جيش كثيف بقيادة ابنه سراج

---

(١) الديوان ص ١٨٨ .

الدولة بن عباد . إلا أن ابن مرتين وابن عمار يسولان للمعتمد أن يرسل معه ابن زيدون ، ففى إرساله نجاح لمهمة سراج الدولة وحقن للدماء لما له من المحبة فى قلوب أهل إشبيلية . وفى الواقع لم يكن يقصد الوزيران من وراء ذلك إلا إبعاد ابن زيدون ليصفو لهما الجو وينفردا بالمعتمد بعد أن ساءتهما الشعبية الكبيرة التى يتمتع بها الشاعر فى قرطبة .

وهكذا يغادر ابن زيدون قرطبة على الرغم من مرضه برفقة سراج الدولة والجيش قاصدين إشبيلية وذلك فى الثالث عشر من ذى الحجة سنة ٤٦٢ ، ويترك ابنه أبا بكر بن زيدون خلفاً له فى الوزارة ، ولكن ابن مرتين وابن عمار ما زالا يسعيان لدى المعتمد حتى أصدر أمره إلى أبى بكر بن زيدون بأن يلحق بأبيه إلى إشبيلية ، فكأن ابنه قد لحقه ليشهد موته ، ويعتنى بتشييعه ودفنه فيها . وفى الواقع فقد كانت هذه الرحلة سبباً فى تعجيل موته ، إذ ساءت حالته الصحية يوماً بعد يوم ، فهلك بعيداً عن المدينة التى أحبها ، فى الخامس عشر من رجب سنة ٤٦٣ للهجرة ، وكان لنبأ موته رنة أسى فى قرطبة ، وحزن عليه أهلها حزناً كبيراً . وصمت ذلك الصوت الذى غنى حياته ، بآلامها وحبها وعزها ، شعراً خالداً .

الفصل الثالث

آثار ابن زيدون وأدبه

الديوان :

لابن زيدون ديوان نشره فى القاهرة سنة ١٩٣٢ الأستاذان كامل كيلانى وعبد الرحمن خليفة[١] . وإننا لنجد فى نهاية هذه الطبعة قسماً من رسائل الشاعر مع طائفة من الأبحاث عن حياة ابن زيدون وشعره بقلم طائفة من الأدباء القدماء والمعاصرين .

ومع أن الأستاذين كيلانى وخليفة قد بذلا جهداً مشكوراً فى طبع هذا الديوان وكان لهما فضل السبق فى أولية نشره ، إلا أنهما لم يتبعا فى عملهما أساوب النشر العلمى الحديث ، فلم يصفا المخطوطات التى اعتمدا عليها ، ولم يذكرا مختلف الروايات فى الهوامش ، ولم يثبتا الفهارس المختلفة التى تيسر سبيل البحث والمراجعة . وقد اعتمدا فى نشر هذا الديوان ، كما علمنا ، على النسختين الخطيتين رقم ٤٩٦ أدب ورقم ٥٥٥ أدب ، المحفوظتين بدار الكتب المصرية بالقاهرة[٢] .

والديوان ، كباقى دواوين الشعر العربى ، ليس فيه ما يدل على الدافع والظروف التى قيلت فيها القصائد إلا بعض الإشارات العابرة فى تقديم بعضها . وقد

---

(١) طبع هذا الديوان أيضاً فى بيروت سنة ١٩٥١ . والطبعة ناقصة ، وهى بإشراف مكتبة صادر . وفى سنة ١٩٥٧ قام الأستاذ على عبد العظيم مدير إدارة المخطوطات بدار الكتب المصرية بالقاهرة بطبع ديوان ابن زيدون طبعة علمية مع رسائله النثرية . وقد شرح قصائده ونصوصه وحققها وعلق عليها ووضع له مقدمة طويلة عن حياة الشاعر وشعره ونثره ، ويؤسفنا أننا لم نطلع على هذه الطبعة إلا بعد إعداد بحثنا وكان اعتمادنا فيما دوناه على طبعة الأستاذين كيلانى وخليفة .

(٢) أشار المستشرق بروكلمان إلى هاتين المخطوطتين فى كتابه « تاريخ الآداب العربية » الملحق الأول ص ٤٨٠ ، وأشار أيضاً إلى مخطوطة للقصيدة الشهيرة محفوظة فى أكسفورد . ولديوان ابن زيدون ، عدا المخطوطتين السابقتين ، نسختان خطيتان محفوظتان أيضاً بالقاهرة : إحداهما النسخة رقم ٧٦ شعر تيمور بالمكتبة التيمورية ، والأخرى النسخة رقم ٤٤٣ أدب بمكتبة الأزهر .

توالت القصائد أيضاً دون نظام ، ولم يراع فيها الترتيب التاريخي ، وهذا عيب من عيوب دواويننا الشعرية يجعل دراسة شعر الشاعر والغوص على أسرار عبقريته محاطاً بكثير من الصعوبات .

ويلاحظ أن الأغراض الأساسية التى عالجها الشاعر هى الغزل والمديح والاستعطاف ، ولعمرى إنها لموضوعات تتجاوب مع قصة حياته . ونرى أن المديح يشغل معظم صفحات الديوان ويليه الغزل ثم الأغراض الثانوية الأخرى .

الرسالة الهزلية :

طبعت هذه الرسالة لأول مرة مع ترجمة لاتينية سنة ١٧٥٥ م فى مدينة ليبسك من قبل المستشرق رايسك ، وطبعها المستشرق هيرت مرة ثانية فى إيينا سنة ١٧٧٠ م . وقد شرحها ابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م وطبعت فى القاهرة سنة ١٢٧٨ هـ تحت عنوان « سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون » ، ولهذا الشرح عدة مخطوطات موزعة فى المكتبات الأوربية .

وقد ذكرنا أن ابن زيدون كتب هذه الرسالة على لسان ولادة لمنافسه ابن عبدوس يهزأ به ، وقد جاءت رسالة طريفة جمعت بين أفانين التهكم وضروب المعرفة ، وساق فيها طائفة من الأمثال والأبيات المنثورة من الشعر ، وذكر فيها الكثير من الأحداث والأعلام وأسماء الرجال .

الرسالة الجدية :

لهذه الرسالة عدة مخطوطات أيضاً موزعة فى المكتبات الأوربية وفى مكتبات القاهرة والموصل . وقد شرحها الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ ، فى كتاب سماه « تمام المتون فى شرح رسالة ابن زيدون » ، ولها شرح ثان طبعه مصطفى عنانى بالقاهرة سنة ١٩٠٦م فى كتاب سماه « إظهار المكنون من الرسالة الجدية لابن زيدون» وطبعت أيضاً بالقاهرة سنة ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٩ م بعنوان « الدر المخزون فى شرح رسالة ابن زيدون » كما طبعت فى بغداد سنة ١٣٢٧ هـ .

وقد مرّ بنا أن ابن زيدون قد كتب هذه الرسالة وهو فى السجن ، يستعطف بها أبا الحزم بن جهور ليعيد إليه حريته ، وهى لا تقل جمالا عن سابقتها ، نلمح خلال سطورها الانفعال والقلق .

والرسالة مفعمة كسابقتها بذكر الأحداث والأعلام التاريخية ، وهى تزخر بالأمثال ونثر الشعر القـــديم واقتباسات من القرآن الكريم وتضمينات من الحديث .

خصائص الرسالتين الأسلوبية :

هاتان الرسالتان قويتا الصلة بحياة الشاعر ، فالرسالة الهزلية تتصل بحياته العاطفية وما اشتملت عليه من حب ومنافسة ، والرسالة الجدية تتصل بحياته السياسية وما رافقها من سجن واستعطاف .

ونلاحظ أن الرسالة الأولى قد استطاعت أن تبلغ ما تريد من السخرية بمنافسه ابن عبدوس على رغم تكلفها والتزام السجع والصناعة فيها ، وقد تصل السخرية فيها أحياناً إلى حد سلاطة اللسان فتبعد عما يقتضيه التهكم من رقة ودقيق تورية ، ولهذا فهى تتصف بالانفعال القوى الصريح المعبر عن سخط الشاعر وألمه من منافسه الذى لعب بقلب من أحبّ ولعبت هى به .

أما الرسالة الجدية فنزعم أنها لم تستطع أن تبلغ هدفها فى استعطاف أبى الحزم ابن جهور ، لما فى أسلوبها من تكلف وغريب ، ولما احتوته من الأسماء التاريخية والإشارات الأدبية التى تلهى القارئ وتجعله ينصرف إلى استقصاء معانيها وفهم مقاصدها وحلّ رموزها . أضف إلى ذلك أن موضوع الاستعطاف يقتضى دقة فى العاطفة وتلهفاً حارًّا يرسم المستعطف فى عذاب وضيق ، ولعمرى إن هذه الصفة لا تظهر جلية فى هذه الرسالة ، وإنما الذى يسيطر عليها الصنعة والمعرفة التى تتجلى خلال عباراتها ، فتأتى الرسالة متناً مشحوناً بالأمثال والوقائع والأشعار ، لا صرخةً تنبض بالحسرة والتلهف والألم الدفين .

والرسالتان تعكسان خصائص أسلوب ابن زيدون فى النثر ، فهو لا يلتزم السجع

دائماً . وهو لا يلتزمه فى الرسالة الجدية بينما نراه يلتزمه تقريباً فى الرسالة الهزلية ، ويبدو إنشاؤه فيهما قليلاً ضيئلاً إذا ما قيس إلى ما يذكره من أمثال العرب وأسماء رجال التاريخ والوقائع الشهيرة .

ثم هو يكثر من الجمل المترادفة على معنى واحد ، ويظهر جلياً على أسلوبه خصائص أسلوب أهل عصره الذين جروا على طريقة ابن العميد والصاحب بن عباد والهمذانى والخوارزمى ، فنراه يعمد إلى نثر الأبيات الشهيرة من الشعر وتضمينها فى كتابته ، والاستشهاد بعدد كبير منها دون الإشارة إلى قائلها ، ثم إلى الاقتباس من القرآن الكريم والحديث بلفظهما أو ببعض التغيير ، وتضمين الحكم والأمثال بنصها أو بتحوير فيها .

وعلى الجملة فأسلوب ابن زيدون فى نثره قوى جزل كشعره ، وقد قلنا إنه لا يتقيد بالسجع ، ولكنه لا يترك الموازنة ، فجمله متشابهة فى النغمة ، متناسقة فى الطول . وقد حظيت هاتان الرسالتان بشهرة كبيرة فى الأدب العربى لبراعة أسلوبهما ولما احتوتا من أفانين القول وحوادث التاريخ وأسماء رجاله ، ولما ضمتاه من الشعر الجيد والأمثال المناسبة . وإذا كنا لا نشعر عند قراءتهما بما نشعر عند تلاوة شعره من هزة وطرب ، فنحن لا نستطيع إلا أن نعجب بهذا النثر لما يبدو فيه من علم وسعة اطلاع وجزالة ، ويبقى ابن زيدون شاعراً أكثر منه ناثراً .

أغراض ابن زيدون الشعرية :

طرق ابن زيدون أكثر أغراض الشعر العربى المعروفة لعهده ، وأجاد أكثر ما أجاد فى فنون الغزل والمدح والاستعطاف ، وقد كان شعره صدى لحياته ، فجاء غزله معبراً عن تجربته الغرامية ، وجاء مدحه متجاوباً مع حياته السياسية ، معبراً عن عزها واضطرابها ، وكان استعطافه يعتور الغزل حيناً فإذا به استعطاف عاشق ذليل ، ويعتور المدح حيناً آخر فإذا به استعطاف أمير ذلّ يتطلع إلى المجد الذى استلب منه .

ويعدّ ابن زيدون من شعراء عهد التحرر ، وهو الطور الذى أخذ فيه الشعراء

يصدرون عن نفوسهم ويمثلون البيئة ومظاهرها دون أن يتخلوا مع هذا عن التقليد . وقد اتسم شعره بحب طبيعة الأندلس وبخاصة قرطبة ، فجاء وصفه لها ممزوجاً بقصة حبه التى أثرت فى نفسه تأثيراً كبيراً .

فما هى أهم خصائص هذه الأغراض الشعرية ؟

الغزل :

شعر ابن زيدون الغزلى يكاد يكون النغمة التى تظهر فيها أصالة الشاعر ، فهو شعر انبجس من صميم قلبه ، وعبر عن حبه وآلامه ، ولئن كان شعر الحب عند ابن زيدون أقل من شعر المدح ، لقد كان يفوقه إخلاصاً وجودة ، لأنه كان صدّى لانفعالاته وتعبيراً عن خفقات قلبه . ونكاد ، بعد أن علمنا قصة حياة الشاعر ، نستطيع أن نميز أطوار هذا الشعر ، فقد علمنا حبه لولادة ثم هجرها له ثم يأسه منها وحنينه الدائم لها . وقد جاء شعره ممثلاً لهذه الأطوار ، ولكنه بقى على الغالب ممثلاً لطور يأسه وحنينه الدائم وذكراه الحية لهذا الحب . فقد لعب دور الهجر فى قلبه لعباً قاسياً شديداً وفجّر فيه شعر الحرقة واللاوعة وشعر الذكرى والحنين ، أما أيام هناءته وسعادته فقد كانت قصيرة ، ولذا لا نجد له إلا قليلاً من المقطوعات التى عبرت عن هذه الهناءة ، فى ألفاظ بسيطة وتراكيب لينة ومعان لم تلهبها تجربة الحب الصادق ولوعة الفراق والهجر كقوله :

هلْ لداعيكَ مجيبُ ؟ أَم لشاكيكَ طبيبُ ؟
يا قريباً حين ينأى حاضرًا حين يغيبُ !
كيف يسلوكَ مُحِبٌّ زانه منكَ حبيبُ ؟
إنما أنتَ نسيمٌ تتلقاهُ القلوبُ [١]

---

(١) الديوان ص ٢٧٣ .

وكقوله :

متى أَبثُّكَ ما بى يا راحتى وعذابى
متى ينوبُ لسانى فى شرحِهِ ، عن كتابى
الله يعلمُ أنى أَصبحتُ فيك لما بى
فلا يطيبُ منامى ولا يسوغُ شرابى [١]

وكقوله :

يا ليلُ طُل ، لا أَشتكى – إلا بوصل – قِصَرَك
لو بات عندى قَمَرِى ما بتُّ أَرعَى قمركْ
يا ليل خَبِّرْ ، إننى أَلتذُّ عنه خبَرَكْ
باللهِ قل لى :هلْ وَفَى ؟ فقال : «لا ،بل غَدرَكْ» [٢]

فمثل هذه الأبيات ، يحببها إلى النفس رقتها وما تعكسه من قلق يغمره الرضى ، ولكنها لا تلهب النفس لأنها لا تصور حبًّا عميقاً مقيماً .

هذا التصوير علينا أن ننشده فى الأشعار التى قالها أيام الهجر واليأس والذكرى ونجد شاعرنا قد اقتصر فى أول أيام الفراق على شكوى جياشة باللوعة والحسرة ، ونلمح هذه الشكوى خلال ألحان يردد فيها أمثال هذه الأبيات فيقول :

كم ذا أُريدُ ولا أُرادْ يا سُوءَ ما لَقِيَ الفؤادْ!
أُصفِى الوداد مُدَلَّلاً ، لم يَصْفُ لى منه الودادْ
يَقْضِى علَىَّ دلالُهُ – فى كلِّ حينٍ – أو يكادْ

---

(١) الديوان ص ٢٦٤ .
(٢) الديوان ص ٢٧٢ .

كيف السلوُّ عن الذى مثواهُ ،من قلبى ،السَّوَادْ؟
مَلَكَ القلوبَ ، بحُسْنِهِ فلها إذا أَمرَ انقيادْ
يا هاجرى كمْ أَستفيـ دُ الصبرَ عنكَ فلا أُفادْ
هلاّ رَثَيْتَ لمن يَبيـ تُ وَحَشْوُمُقلَتِهِ السُّهادْ؟
إن أَجْنِ ذنباً فى الهوى خطأً فقد يَكْبُو الجوادْ
كان الرِّضى ، وأُعِيذُهُ ، أَن يُعْقِبَ الكونَ الفسادْ [١]

ثم يشتد على شاعرنا ظلام الهجر والبعاد فإذا به يئن فى شعره ويستصرخ محبوبته فى لحن كله ارتجاف وذكرى . ويدخل السجن ، وهو على هذه الحال ، وتعتلج فى جوانحه تباريح الهوى ، ويأخذ منذ هذا التاريخ يرسل الشعر مناجاة وذوب نفس معذبة .

هذه النفس المعذبة المحبة لم تنس غرامها ، بل لعلها كانت تجد فى النسيان لتلك النشوة الحبيبة التى يشعر بها المحب المخلص ، ولهذا ما كانت لترغب فى النسيان بل ما كانت لترغب فى الاستسلام إلى اليأس :

كنا نرى اليأْسَ تسلينا عوارضُهُ وقد يئسنا فما لليأس يُغْرِينا
بنتم وبِنَّا فما ابتلتْ جوانحُنا شوقاً إليكم وما جَفَّتْ مآقينا
نكادُ حينَ تناجيكُمْ ضمائرُنا يَقضِى علينا الأَسَى لولاتأَسِّينا

وعلى هذا اللحن من الغزل الرقيق صاغ ابن زيدون أكثر شعره الخالد ولا سيما فى قصيدته النونية الشهيرة التى أشرنا إليها ، وفى قصيدته القافية التى جعل الطبيعة فيها مسرحاً لنجواه الغرامية فقال فى مطلعها :

---

(١) الديوان ص ٢٦٤ .

إنى ذكرتكِ بالزَّهراء مشتاقا والأُفقُ طلقٌ ومرأى الأَرض قد راقا
وللنسيم اعتلالٌ فى أَصائله كأَنه رقَّ لى فاعتل إشفاقا
والروض عن مائه الفضىِّ مبتسمٌ كما شققتَ عن اللباتِ أَطواقا

هذا الشعر الغزلى لم يكن كله جديداً . فقد عزف ابن زيدون فى معانيه وصياغته على قيثارة القدماء ، إلا أنه استطاع أن يمنحه لوناً خاصًّا عند ما جعله شعراً للحنين وللذكرى ، ولهذا فالميزة الأولى لغزل ابن زيدون هى فى هذه القفزة التى كان يقفزها إلى الماضى فيصور لنا بالمقارنة سعادة الحب الآفل وعذاب الهجر المقيم ، ثم يمنحنا لحناً للمناجاة يشيع منه الإخلاص ويصوّر حبًّا لا يفنى فى قلب عاشق يحيا بالذكرى ويبقى للحب .

المدح :

مدْح ابن زيدون متصل بحياته السياسية أشد الصلة ، ولذا إذا تقصّينا مدائحه استطعنا أن نرسم جانباً هامًّا من هذه الحياة . فقد اتصل ابن زيدون أول ما اتصل بأبى الحزم بن جهور ، ثم لم يلبث هذا الأمير أن قذف به إلى السجن ، كما رأينا ، فأخذ الشاعر يرسل إليه مدائحه مستعطفاً مسترحماً كما يرسل إلى ابنه أبى الوليد ، وهذه المدائح تتصف بصفة الاستعطاف ويبدو فيها الشاعر شاكياً يريد أن يدفع عنه التهمة التى أودت به إلى السجن كما فى قصيدته التى أرسلها إليه فى نهاية الرسالة الجدية ، وفيها نقرأ هذه الأبيات :

أَيُّهذا الوزيرُ ها أَنا أَشكو والعصا بدءُ قرْعها للحليم[1]
ماعَنَانا أَن يأْنفَ السابقُ المَرْ بَطَ فى العِتق منه والتَّطْهيم[2]

---

(١) فى هذا البيت تضمين للمثل العربى : « إن العصا قرعت لذى الحلم » ، وهو يضرب للذكى إذا نبهته انتبه .

(٢) السابق : الفرس . العتق فى الخيل : الكرم ، والتطهيم : الجمال فيها .

وبقاءُ الحسام فى الجَفْنِ يَثْنِى منه بَعْدَ المَضَاءِ والتصْمِيمِ
أَفَصَبْرٌ مئينَ خمساً من الأَيا م ؟ ناهيكَ مِن عذابٍ أَليمِ !
ومُعَنًّى من الضَّنَى بِهَنَاتٍ نَكَأَتْ بالكُلومِ قَرْحَ الكُلُومِ [١]
سَقَمٌ لا أُعَادُ فيه وفى العَا ئدِ أُنْسٌ يَفِى بِبُرْءِ السَّقِيمِ
نارُ بَغْى سَرَى إلى جنةِ الأَمْ نِ لَظَاهَا ،فأَصبحت كالصَّرِيمِ [٢]
بأَبِى أَنتَ! إِنْ تشأْ تَكُ بَرْدًا وسلاماً كَنَارِ إِبراهيمِ

ويضرب الشاعر على هذا الوتر فى أكثر مدائحه لأبى الحزم ، ولكنه يمزجها بتعداد مآثره وصفاته فى شىء من الفتور ، وطبيعى ألا نرى الشاعر مندفعاً فى مدح أميره وهو الذى ألقى به إلى السجن .

أما مدائحه فى أبى الوليد بن جهور فهى تنم عن إخلاص الشاعر وحبه له ، وليس هذا عجيباً فنحن نعلم فضل أبى الوليد على الشاعر فى خلاصه من السجن، ونعلم الحظوة الكبرى التى نالها بالقرب منه ، بعد وفاة أبى الحزم .

ثم تأتى بعد ذلك مدائحه التى قالها فى إشبيلية وأهداها خاصة للمعتضد والمعتمد ، فى هذا الدور من حياة ابن زيدون ترتفع مدائحه إلى ذروة كمالها الفنى وتعبر عن صادق عواطفه نحو هذين الملكين اللذين أحسنا رعايته وبوّآه أرفع المناصب .

وللشاعر مدائح أخرى قالها فى بعض ملوك الطوائف ووزرائهم عند ما زارهم أثناء تجواله فى طرطوشه أو بطليوس أو بلنسية وقبل أن يستقر فى بلاط بنى عباد ، وهى مدائح يبدو عليها النضج والإخلاص ، وله أيضاً مدائح أخرى فى بعض أصدقائه وأساتذته .

---

(١) هنات : الشدائد ، الكلوم : الجروح .
(٢) كالصريم : كالليل فى السواد بعد الاحتراق .

هؤلاء هم أشهر ممدوحيه فما هى الصفات العامة التى سيطرت على مدح الشاعر ؟

لم يكن مدح ابن زيدون طلباً للمال وإنما كان طلباً للجاه ، كما كان فى بعض المواقف تعبيراً عن عاطفته ، وقد جرى فيه على ما ألفه الأقدمون من ركوب البحور الطويلة واللجوء إلى النظم الرصين الجزل . واستهل على الغالب مدائحه بالغزل ثم أخذ يعدد محامد الممدوح ومآثره متبعاً الطريقة التقليدية ، ولذا نجده مترسماً فى مدحه أساليب القدماء لا يحيد عنهم كثيراً ، ولا تبدو عبقرية الشاعر إلا فى القصائد التى أملتها العاطفة ، ومن هنا كانت مدائحه فى المعتضد والمعتمد وبعض مدائحه فى أبى الوليد أفضل شعره فى هذا الغرض .

الاستعطاف والشكوى :

وشعر الاستعطاف والشكوى على قلته يُعدّ من الأغراض التى أجاد بها شاعرنا وصدَرَ بها عن عاطفته ، وهذا الشعر مبثوث خلال غزله ومدحه ، كما قلنا ، وقلما انفرد فى قصائد خاصة ، إلا ما نجده فى تلك القصيدة الخالدة التى أرسلها إلى صديقه أبى حفص بن برد والتى كانت درةً فى نسجها ونغمتها الصافية الهادئة المتألمة .

بقية الأغراض :

يبقى ابن زيدون فى أغراضه الأخرى ، كالرثاء مثلاً ، ضيق النفس فاتر العاطفة ، ورثاؤه قاله على الغالب فى بعض ممدوحيه أو من يلوذ بهم فجاء بكاءً على الراحل ولكنه وسيلة لمدح المقيم كما فعل فى رثاء أبى الحزم بن جهور [١] ، أو فى رثاء أم المعتضد وابنته ، أو فى رثاء المعتضد نفسه [٢] .

على أنه ينبغى أن نشير فى النهاية إلى عدد من المقطوعات قالها فى مناسبات مختلفة كالتهانى والإخوانيات . وقد نظم أيضاً عدداً من المقطوعات الخفيفة فى

---

(١) الديوان ص ١٥٠ .

(٢) انظر الديوان ص ٧٥ و ١٤٠ و ١٧٤ .

الألغار والأحاجى أجابه عليها المعتمد محاوراً وفاكّاً لمعمياتها ، ولكنه فى جميع هذه الأغراض الثانوية لم يصدر عن حسه ولم يستلهم شاعريته .

خصائصه الفنية :

إن الخاصة الأولى التى ميزت شعر ابن زيدون هى أن هذا الشعر شديد الصلة بحياة الشاعر . فقد رأينا ابن زيدون محبّاً لولادة مشغوفاً بها ، ورأيناه أيضاً خلال هذا الحب يتقلب فى مناصب الحكم والوزارات ويندس فى حمأة السياسات ، ثم يُلقى به فى السجن ، ثم تعود إليه الحرية ويواصل لعب دوره فى قصور الأمراء مقرباً منهم معززاً فى ظلال عطفهم ورعايتهم ، أو بعيداً عنهم طريداً .فجاء شعره صورة لهذه الحياة التى يتوزعها الحب والسلطان . فيمكننا إذاً أن ننظر إلى شاعرنا من وجهين : فهو يبدو لنا شاعراً ذاتيّاً من ناحية ، ويبدو لنا شاعر بلاط من ناحية أخرى ففى أى الوجهين تتجلى عبقرية ابن زيدون ، وهل تتجلى فى الوجهين معاً ؟ وهل خضع للشروط التى يجب أن يتصف بها هذا الشاعران اللذان اجتمعا فى نفسه ؟

أما الشاعر الذاتى فيتجلى فى غزله ولهوه واستعطافه وشكواه . ولئن كانت الحياة التى عاشها قد فرضت عليه هذا اللون من الشعر فإن تجاربه النفسية قد عدّلتْها ومنحتها صورتها الجديدة . فى هذه الأغراض لم ينظم شاعرنا الشعر لإرضاء شخصٍ آخر غير نفسه ، ولئن كان يرغب من وراء غزله إرضاء تلك التى يحبها ويود استعطافها ، فذلك لأنه يرى فيها صدى لانفعالاته وسبباً لبقائه فى هذه الدنيا . إنه محب ، ونحن نعلم حبه لولادة . هذا الحب الذى تراءى لنا لاهياً عابثاً فى مطلعه ، ثم لم يلبث أن انقلب إلى جذوة نار تأكل قلب الشاعر عندما شعر بالازورار واللعب والاستهزاء يصيبه منها . وهنا بدأت تجربة الإخلاص ، لأنه بدأ يشعر خلالها بلذة قد تعوّض عليه ما فاته من حب ضائع . إنه بقى يذكرها طول حياته . حين لم تحتفظ ودّه . وتغيرت عليه ، وأنزلت فى قلبها منافسه . هذه الذكرى الدائمة الطويلة تمنح هذا الشعر الذاتى لوناً يحببه إلى نفوسنا ، ففيه الصدق ، وفيه شيء آخر ليس بالأنين الممض الذى اعتدنا سماعه من شعراء الغزل العذرى ،

إنه بكاء ولكننا لا نسمع النحيب ، ولا تعترينا الكآبة . إنه شوق ولهفة ، إنه شعر يرسم أجواء الماضى . . . فخاصة غزل ابن زيدون فى أنه يرسم لك ذلك الجو الضاحك الآفل ، فتتحسر عليه وتتلهف .

ومن يسمع الأبيات الآتية يدرك معنا أنها تعبر عن هذه الحسرة وهذه اللهفة خير تعبير على رغم سذاجة المعانى التى تضمنتها ، يقول :

أَضحى التنائى بديلاً من تدانينا ونابَ عن طِيب لُقيانا تَجافينا

منْ مُبْلِغ المُلبِسِينا بانتزاحِهِمُ حزناً مع الدهر لا يَبْلى ويُبلينا

أَنَّ الزمانَ الذى مازالَ يُضحِكنا أُنساً بِقُرْبِهِمُ قدْ عادَ يُبكينا

غِيظَ العِدا مِن تَساقِينا الهوى فَدَعَوْا بأَن نَغَصَّ فقال الدهرُ آمينا

* * *

ياساريَ البرقِ غادِ القَصْرَ واسْقِ به مَنْ كان صِرفَ الهَوَى والوُدِّ يَسْقِينا

ويا نسيمَ الصَّبَا بَلِّغ تَحِيَّتَنا مَنْ لَوْ على القُرْبِ حَيًّا كانَ يُحْيِينا

* * *

ياجنةَ الخُلد أُبْدِلْنا بِسِدْرَتِها والكوْثَرِ العَذْبِ زَقُّوقاً وَغِسْلِينا

كأَننا لم نَبِت والوَصْلُ ثالثُنا والسعْدُ قد غَضَّ مِنْ أَجفانِ واشِينا

سِرَّانِ فى خاطِرِ الظلماءِ يَكتمُنَا حتى يكادَ لسانُ الصبحِ يُفشِينا

* * *

هذه أبيات تقع فى نفوسنا موقعاً حسناً ، فما هى هذه الأمور التى جعلتها مع باقى القصيدة تستهوينا ؟ أهى المعانى ونحن نراها بسيطة ساذجة أكثرها مطروق ، أم هذه الديباجة السهلة ، البعيدة عن التكلف والصنعة ، أم هذه الموسيقى التى

تنساب خلال هذه الأبيات ، أم ما تحييه في نفوسنا من عواطف تتجاوب مع عواطف الشاعر ؟ والحق أن هذه القصيدة تكوّن عالماً شعرياً ، وإذا كان الشاعر لا يبلغ ذروة الشعر إلا عند ما يحقق ما يسمى بـ « التجاوب الموسيقي » ، فهذه القصيدة حققت هذا التجاوب ، لأنها رمتنا بلين ورفق في الجو الذى يتلهف له الشاعر ودوت موسيقاها في أجزاء نفوسنا ، وأملت علينا عاطفته ، وأسكرتنا بنشوته . وترانا ، بعد أن استطاعت هذه القصيدة تحقيق رسالة الشعر ، عاجزين عن تجزئة عناصرها الفنية التي اشتركت في إحداث هذه اللذة البديعية في نفوسنا ، فالعالم الشعرى لا يمكن تجزئته ، ولهذا كان بعض نقادنا حينما يحاولون في نقدهم هذه التجزئة يبتعدون عن فهم أسرار الجمال الشعرى ويحصرون أنفسهم في دراسات بلاغية ضيقة .

لا شك في أن هذه القصيدة خير ما قاله ابن زيدون ، ولكن هل يقترب باقي شعره الذاتي من جمال هذه القصيدة ؟ يمكننا الإجابة عن ذلك بالنفي إذا استثنينا قصيدته التي مطلعها « إني ذكرتك بالزهراء مشتاقاً » وقصيدة أخرى أرسلها إلى صديقه أبي حفص بن برد شاكياً سوء حظه وبعض المقطوعات والمطالع الغزلية . أما باقي شعره الذاتي فلا يبلغ هذه الإجادة المحلقة كما لا ينحدر إلى الإسفاف ، ولكنه يبقى صدى لتجاربه القلبية العنيفة ولما انتابه من ألم في سجنه وتقلبٌ في أيامه فشكا الدهر ساخطاً حيناً ، مستعطفاً حيناً آخر . على أنه من الخير لنا ألا نبحث عن عبقرية ابن زيدون إلا في شعره الذاتي الذى عبر فيه عن هواجس قلبه وعما جاش فيه من لواعج الحب والألم ، ففي هذا الشعر خضع لشرطه الأوحد ألا وهو الإصغاء لحديث النفس وهمسات الفؤاد . ثم جاءته الألفاظ والأوزان والصور دون كد ، عفو البديهة والخاطر .

أما الوجه الثانى الذى تقنع به ابن زيدون فهو وجه شاعر البلاط . فقد دفعه إلى هذا الموقف طموحه وظروفه فاتخذ له العدة اللازمة ورأيناه يخضع لصفات شاعر القصر . بل لعله تدرّب عليها منذ نشأته ، فهو إلى جانب ميله الطبيعي إلى هذه الحياة المترفة . يتمتع بثقافة شعرية ونثرية تجعل منه شاعراً ناثراً يستطيع

أن يشغل هذا المقام ، ولعل خطة الشعراء المداحين الشرقيين كالمتنبي مثلاً والمكانةَ التي تمتعوا بها كانت تغريه دائماً بالسير على مناهجها وشروطها ، لذلك ذابت شخصيته فى مدح الملوك الذين تقرّبَ منهم طمعاً بالجاه لا طمعاً بالمال فأخذ يعدد فضائلهم على طريقة المداحين التقليديين فى المشرق والمغرب ، ورأيناه يطلب عونَ بلاغته ولغته وفنه فيأتيه طائعاً منقاداً ولكن العاطفة كانت تعوزه على الغالب . ومع هذا لا يمكننا أن نقول إنه قد هوى فقد استطاع أن يقوم بمهمة شاعر القصر خير قيام ، إذ لا شأن للعاطفة فى هذا المضمار وإنما الشأن للبلاغة والمقدرة الفنية . وقد كان شاعرنا مالكاً زمامهما . ومن الخطأ أن نبحث عن أصالة ابن زيدون فى إنتاجه الذى قاله بين أيدى الملوك فعبقرية شاعرنا لا تبدو واضحة إلا فى شعره الذاتى ، ومهما تنوعت المدائح وصور هذا الشعر الرسمى فإننا نراها بعيدةً عن الجدة والطرافة راسفةً فى قيود التقليد لا تختلف عن نمط الأبيات الآتية فى مدح ابن جهور ، وهى أبيات لا نزعم أنها تخلد الشاعر على الرغم من متانة أسلوبه فيها وقوة أسره للكلام :

أَشَارِحَ مَعْنَى المجد وَهْوَ مُعَمَّسٌ   وعامِرَ مغْنَى الحمدِ وَهْوَ خَرابُ[١]

مُحَيَّاكَ بَدْرٌ والبدورُ أَهِلَّةٌ   وَيُمْنَاكَ بحرٌ والبحورُ ثِغابُ[٢]

رأَيتُكَ جَارَاكَ الوَرَى فَغَلَبْتَهُمْ   كذلك جَرْىُ المُذكياتِ غِلَابُ[٣]

فقرَّتْ بها من أوليائِكَ أَعْيُنٌ   وَذَلَّتْ لها مِنْ حاسِدِيكَ رِقابُ

* * *

وبعد ، فشعر ابن زيدون يعكس بيئته ويمثل ميلها إلى اللهو والمجون وشرب

---

(١) الديوان ص ٤٥ ، معمس : خفى مبهم .
(٢) ثغاب : جمع ثغب وهو الغدير .
(٣) المذكيات : الخيل التى بلغت تمام السن ونهاية الشباب ، وفى المثل : « جرى المذكيات غلاب » أى تغالب الجرى غلاباً .

الخمر ومجالسة النساء ، ولولا هذه البيئة لما استطاع – وهو الوزير – أن يجاهر بحبه هذه المجاهرة ، بل لعله استمد هذه الشجاعة من صراحة معشوقته التى صورت بيئتها ، هى أيضاً ، خير تصوير كما رأينا .

ولم يشذ شاعرنا عن عادات شعراء الأندلس فى تأثرهم بالطبيعة فقد كانت الطبيعة مسرح حبه ، فإذا خلا إليها ذكّرته رياضُها بنعيم ذلك الحب فى ظلالها ، وكثيراً ما استمد معانيه وأخيلته الغزلية منها كما فى هذه الأبيات :

يومٌ ، كأيامِ لذاتٍ لنا انْصَرَمَتْ بتْنَا لها حين نامَ الدهرُ سُراقا

نلهو بما يستميلُ العينَ من زَهَرٍ جالَ النَّدَى فيه حتى مالَ أعناقا

كأَن أَعينَهُ إذ عاينتْ أَرَقى بَكَتْ لِما بِى فجالَ الدمعُ رقْراقا

فالطبيعة تثير فى نفس شاعرنا معانى الهوى وتحرك لواعجه وتصل بينه وبين الحبيبة :

الهوى فى طلوع تلك النجوم والمُنَى فى هبوبِ ذاك النسيم

وإذا اضطرم الشوق فى نفسه طلب إلى سارى البرق أن يباكر قصرها فيسقى فيه من كان يسقيه الهوى الخالص ، وفى هذه المخاطبة تشخيص للطبيعة وامتزاج بها. إنه ليمتزج بها عندما يخال اعتلال النسيم شكواه فيقول :

ولطالما اعتلَّ النسيم فخلته شكواى رقَّت فاقتضت شكواكِ

وهكذا فالطبيعة والشاعر إلفان لا يفترقان ، والحب عنده أساس لتعلقه بالطبيعة ، فيجعل الشاعر لحن المناجاة سبيلاً إلى تشخيصها والارتماء فى رحابها ، وهو بهذا يقترب من بعض شعراء الرومانسية الذين صوّروا حبهم فى أحضان الطبيعة ورشفوا فى خمائلها الحب والحنان .

* * *

أما أسلوبه فهو : على الجملة ، متين رصين فى مدائحه . رشيق فى غزله .

وقد تحرر أحياناً من قيود القصيدة الجاهلية ، إلا أنه لم يستطع التخلى عن مطالعه الغزلية فى المدائح ، وقد يدخل أحياناً فى الموضوع مباشرة . هذا فى القصائد التى يستمد وحيها من قلبه والتى تدخل فى نطاق الشعر الذاتى الغنائى .

وعلى الرغم من قلة اختراعه للمعانى ، فقد وفق فى بعض معانيه الغزلية فألبسها ثوباً قشيباً استمده من معين قلبه وخلجات عواطفه ، فبدت كأنها جديدة . ولكنه لم ينج ، مع هذا ، من تكرار بعض المعانى فقاده هذا الأمر إلى الاستطراد .

ولعل أجمل ظاهرة فنية فى شعره هى الموسيقا . فتناغم الألفاظ وانسجام جرسها جعلا لشعره وقعاً جميلاً وعذوبة فى السمع . ولعلّ صدق العاطفة وطبيعة الأندلس الجميلة وحفيف أشجارها وتغريد بلابلها قد اشتركت فى إرهاف حسه الذوقى . وهذه الموسيقا الشعرية ، إلى جانب غيرها من المميزات . حملت بعض الأندلسيين على تلقيبة ببحترى المغرب ورأينا بعض الأدباء المعاصرين يرون هذا الرأى — على الرغم مما بين الشاعرين من فوارق — ونحن لا نشك بموسيقا ابن زيدون ، إلا أننا نرى أن بين الشاعرين فرقاً كبيراً من حيث قوة الشاعرية . ولئن اجتمعا بموسيقا الشعر فى بعض القصائد إنهما ليفترقان فى نواح أخرى . ومما لا شك فيه أنّ ابن زيدون قد فُتن بطريقة البحترى ولكنه . على الرغم من ذلك ، قد أكسبها شخصيته وصَدَرَ فى عامة صُوَره عن نفسه وعبّر عن شعوره . وهو فى نظرنا صورةٌ صحيحة للشاعر الأندلسى بتحليقه وكبوته . بحريته وعبوديته .

منزلته :

أجمع النقاد على أن ابن زيدون شاعر من الطبقة الأولى من شعراء الأندلس ، فقد كان قويّ أسر الكلام ، جيد التعبير الأدبى . يشتد ويلين فى ديباجته الشعرية حسبما يقتضيه القول ويدعو إليه الغرض .

وقد أعجب الأدباء والكتاب . منذ القديم . بروعة نظمه ورونق أساليبه ، ووجدوا لشعره موسيقا فيها الخفة والرشاقة فشبهوه بالبحترى . قال ابن بسام : « يقول

بعض أدبائنا : إن ابن زيدون بحترىُّ زماننا ، وَصَدَقوا لأنه حَذا حذْوَ الوليد فى بعض قصائده » .

وقد رأينا أن لشعر ابن زيدون جرساً وانسياباً يذكرنا بجرس شعر البحترى وانسيابه ، وعذوبة موسيقاه .

وشعر ابن زيدون يدلّ ، فوق ذلك ، على أنه طُبعَ بالطوابع العربية الأصيلة . وكان نتيجة لثقافة عربية متينة وتمرُّسٍ بشعر الأقدمين وتآليفهم ، ولذا جرى على الشائع المعروف من أساليبهم ، إلا أن شاعرنا استطاع أن يُلبس أقواله شخصيته ويصدر فيها عن عصره ووحيه .

قال الدكتور شوقى ضيف : « وكان ابن زيدون يحسن ضرب الخواطر والمعانى القديمة أو الموروثة فى عُملة أندلسية جديدة ، فيها الفن وبهجة الشعر ، وما يُفصح عن أصالته وشخصيته. . . وابن زيدون من خير النماذج التى تكشف لنا المَنْزَعيَنْ ، فهو لا يخرج فى شعره عن القواعد الموروثة ، وفى الوقت نفسه ينبض شعره بحياة عصره وما كان فيه من حضارة وترف باذخ وإغراق فى الحس والخمر واللذة . فاتصاله بالماضى لم يحل بينه وبين تصوير الحاضر الذى عاش فيه »[1].

وإذا أردنا أن نصور هذه الحياة المنفعلة التى عاشها ، كان علينا أن نبحث عنها فى شعر حبه وشكواه ، ففى هذا الشعر استطاع ابن زيدون أن يرسم لنا الهوى فى عمق وعذاب وحرقة ، واستطاع أيضاً أن يدغدغنا فى لحن من المناجاة والذكرى ، تاركاً فى نفوسنا أصداء مرتجفة مبهمة . وقصيدته النونية التى أشرنا إليها خير مثال لهذا الشعر الذى اعتصر فيه فؤاده ، وأودعه أسرار ألحانه الشجية .

وليكن ختام بحثنا هذه الأقوال التى تصوّر نواحى شعره وفنه وتفصح عن منزلته :

قال ابن بسام فى كتابه « الذخيرة » :

« كان أبو الوليد — ابن زيدون — غايةَ منثورٍ ومنظوم وخاتمة شعراء مخزوم .

---

(١) شوقى ضيف ، ابن زيدون ، ص ٤٠ .

أحد من جر الأيام جرًّا ، وفاق الأنام طرًّا ، وصرّف السلطان نفعاً وضُرًّا ، ووَسِعَ البيان نظماً ونثراً . إلى أدب ليس للبحر تدفقه ، ولا للبدر تألقه ، وشعر ليس للسحر بيانه ، ولا للنجوم الزهر اقترانه ، وحظٌّ من النثر غريبِ المباني ، شعريّ الألفاظ والمعاني » .

وقال الأستاذ كامل الكيلانى فى بحث عن حياة ابن زيدون وأدبه نشره فى مقدمة الديوان :

« ميزة ابن زيدون التى تكاد تفرده من شعراء العربية هى الفن . فهو شاعر فنى قبل أن يكون فيلسوفاً أو حكيماً أو غواصاً على المعانى أو وَصّافاً . الفن وحده هو الذى أكسب ابن زيدون زعامة الشعر فى عصره ، وأغرى فحول الشعراء فى زمنه وبعد زمنه بمحاكاته والانضواء تحت رايته » .

وقال :

« إنك لتقرأ أكثر غزله فيخيل إليك لسهولته أنك تحلق فى أجواء العباس بن الأحنف والشريف الرضى والمجنون ، ثم تقرأ إخوانياته فيخيل إليك لاسترساله وافتنانه فى ضروب القول ، أنك تقرأ ابن الرومى وهو يخاطب أبا القاسم التوزى بهمزيته المشهورة ، ثم تقرأ رسائله فيخيل إليك أنك تقرأ رسائل الجاحظ فى براعة الاستخفاف والتهكم ، أو رسائل المعرى فى سعة الإحاطة وكثرة الاستشهاد ، والولوع بالأمثال » .

وقال الدكتور أحمد ضيف فى كتابه « بلاغة العرب فى الأندلس » :

« وكل قصائد ابن زيدون التى أرسلها يستعطف بها ابن جهور هى أثر ذلك الشقاء الذى لقيه فى سجنه ، وصورة من صور البؤس الذى حرّك شعوره وفتق من لسانه ، وأثار فى نفسه عواطفه الشعرية المظلمة المملوءة همًّا وغمًّا . ولكن أسلوبه فى الشكوى والاستعطاف واحد فى نظمه ونثره ، وما أشبه قصائده فى ذلك وما فيها من المعانى برسالته الجدية ، وكأنما كان فكره سجيناً مثله من شدة تألمه فى السجن ، فإنه لم يخرج عن عادته فى ضرب الأمثال والفخر بنفسه ، وأنه أفضل إنسان وأكرم من دبّ على وجه الأرض .

غير أن كلامه مع ذلك عذب المذاق ، رقيق الحاشية ، جذّاب خلاّب .

تظهر عليه سيما الابتكار والصدق فى التعبير ، فإنه ليس من الخيالات الشعرية الصرفة ، بل به كثير من الحقائق التى كان يمليها عليه شعوره » .

وقال :

« وأقرب عبارته وصولاً إلى القلوب بكاؤه على الماضى ، والتلذذ بذكره وما كان فيه من النعيم . . . ولقد كان ينظر إلى أيامه الماضية فيحن إليها حنيناً مؤلماً ، فإذا قرأت شعره فى ذلك رأيت نفسك كأنك واقف على أطلال سعادته البالية ، فبكى وبكيت معه » .

وقال :

« إذا كان لابن زيدون ميزة فى شعره الغزلى فليس ذلك فى ابتكار المعانى التى لم يسبق إليها ، وإنما هى فى طريقة تصويرها بعبارات تملك النفوس وتستولى على القلوب وكأن الإنسان لم يقرأ مثلها ولم يسمع بما يشبهها لجودة الافتنان فى التعبير والأسلوب . ولقد يسمع الإنسان أنينه فى شعره ، ويرى أنّته الحزينة من خلال كلامه ، وكأنه يرى تلك الحيرة وذلك القلق النفسى اللذين يملآن نفوس العشاق ويمنعان عنهم راحة الحياة ولذاتها ».

وقال فى نثر ابن زيدون :

« لقد عرف ابن زيدون كيف يأتى فى كتاباته بالتناسق فى المعانى والألفاظ ، بل عرف أن يأتى بهذا التناسق فى التأليف والجمع ، وكيف يتصيد كلام غيره ويرصفه رصفاً جميلا ، كما أمكنه أن يرسم لنفسه منهجاً جمع فيه كل معلوماته ، واختار منها ما يناسب حاجته وموضوعه . فكانت رسائله أنيقة جميلة ، وكان كالمهندس الماهر الذى يعرف كيف يجمع بين الحجر والحجر ، والمصور الفنان الذى يؤلف بين اللون واللون » .

الفصل الرابع

مختارات من آثار ابن زيدون

١ ــ الغزل

ذكرى وحنين :

أَضْحَى التنائى بَدِيلاً مِن تَدَانِينا ... وناب عن طِيب لُقيانا تَجَافِينا[1]

أَلاَّ وقد حانَ صُبحُ البَينِ صَبَّحَنا ... حَيْنٌ فقامَ بنا للحَيْن نَاعِينا[2]

مَنْ مُبْلغُ المُلبسينا بانتزاحِهِمُ ... حُزْناً مع الدهرِ لا يَبْلَى ويُبْلينا

أَنَّ الزَّمانَ الذى مازال يُضْحِكنا ... أُنْساً بقربِهِمُ قد عادَ يُبْكينا

غِيظَ العِدا مِن تَسَاقِينا الهوى فدعَوا ... بأَن نَغَصَّ فقالَ الدهرُ آمينا[3]

فانحل ما كانَ معقودًا بأَنفسنا ... وانْبَتَّ ما كانَ مَوْصُولاً بأَيدينا

وقدْ نَكونُ وما يُخْشى تفرُّقُنا ... فاليومَ نحن وما يُرْجَى تلاقينا

ياليت شِعْرى ولم نُعتِبْ أَعَادِيكُمْ ... هل نال حَظًّا من العُتْبَى أَعادِينا[4]

لم نعتقدْ بعدَكُمْ إلا الوفاءَ لكمْ ... رأْياً ولم نتقلدْ غيرَهُ دِينا

ماحقُّنا أَن تُقِرُّوا عَيْن ذى حَسَدٍ ... بنا ولا أَن تَسُرُّوا كاشِحاً فِينا[5]

---

(١) التنائى : البعد وعكسه التدانى . التجافى : المقاطعة .

(٢) ألا : لغة فى هلا وهى كلمة تحضيض مركبة من هل ولا . الحين : الموت .

(٣) غص بالماء : شرق به .

(٤) نعتب : نرضى ، من العتبى وهى الرضا .

(٥) الكاشح : العدو .

* * *

كُنَّا نرَى اليأْسَ تُسلينا عوارضُهُ ... وقد يئسنا فما لليأْس يَغْرينا

بِنْتُمْ وبِنَّا فما ابتلت جوانحُنَا ... شَوْقاً إليكم ولا جَفَّتْ مَآقينا[1]

نكادُ ،حين تُناجيكم ضمائرُنا ، ... يقضى علينا الأَسَى لولا تَأَسِّينا[2]

حالتْ لِفَقدِكُمُ أَيامُنا فغدتْ ... سُودًا وكانت بِكمْ بِيضاً ليالينا[3]

إِذْ جانِبُ العَيْشِ طَلقٌ من تألُّفِنا ... ومَرْبعُ اللهو صافٍ من تصافينا

وإِذ هَصَرْنا غصونَ الوصلِ دانيةً ... قطوفُها فجَنَيْنا منه ما شِينا[4]

لِيُسْق عهدُكُمُ عهدُ السُّرُور فما ... كنتُمْ لأَرْواحِنَا إِلا رياحينا

لا تحسَبُوا نَأْيَكُمْ عنا يُغيِّرنا ... إِن طالما غيَّرَ النأْىُ المحبينا

واللهِ ما طلبتْ أَهواؤنا بَدَلاً ... منكم ولا انصرفتْ عنكم أَمانينا

* * *

ياساريَ البرقِ غادِ القصْرَ واسق بهِ ... مَن كان صِرْفَ الهوى والوُدِّ يَسْقينا[5]

واسأَلْ هنالك هل عَنَّى تذَكُّرُنا ... إِلفاً تَذَكُّرُهُ أَمسى يُعَنِّينا[6]

---

(١) بنتم : بعدتم . الجوانح : جمع جانحة وهى الضلع ، والمراد بالجوانح ما بداخلها من القلب والحشا . المآق : العيون .

(٢) الأسى : الحزن . التأسى : التصبر والتعزى .

(٣) حالت : استحالت أى تحولت من حال إلى حال .

(٤) هصرنا : أملنا ، وهنا شبه الوصل بشجرة فالاستعارة مكنية . القطوف : الثمار التى تجنى وتقطف . شينا : مخففة من شئنا .

(٥) غاد : باكر .

(٦) عنى : شغل .

ويا نسيمَ الصَّبا بَلِّغ تحِيَّتنا مَنْ لوْعلى القرب حَيًّا كان يُحيينا
فهلْ أرى الدهرَ يَقْضِينا مُساعَفةً منه وإن لم يكن غِبًّا تَقاضِينا[١]

* * *

ربيبُ مُلكٍ كأَنَّ اللهَ أنشأَهُ مِسْكاً وقدَّرَ إنشاءَ الوَرَى طِينا
أَو صاغهُ وَرِقاً مَحْضاً وتوَّجَهُ مِنْ ناصع التِّبْرِ إبداعاً وتحْسينا[٢]
إذا تأَوَّدَ آدَتْهُ رفاهيةً تُومُ العقود وأَدْمَتْه البُرَى لِينا[٣]
كانت له الشمسُ ظِئْراً في أَكِلَّتهِ بلْ مَا تَجَلَّى لَها إلا أَحَايينا[٤]
كأَنما أثبِتَتْ في صَحْنِ وَجْنتِهِ زُهْرُ الكواكبِ تعْوِيذًا وتزيينا[٥]
ماضرَّ أن لم نكن أكفاءَه شَرَفاً وفي المَوَدَّةِ كافٍ مِنْ تكافينا

* * *

يا روضةً طالما أَجْنَتْ لواحِظَنا وَرْدًا جَلاهُ الصِّبا غَضًّا ونِسْرينا[٦]
ويا حياةً تَمَلَّيْنا بِزَهْرَتِها مُنًى ضروباً ولذاتٍ أَفانينا[٧]

---

(١) غباً : الغب فى الزيارة الإقلال .

(٢) الورق : الفضة .

(٣) تأود : تثنى . آدته : أثقلته . توم : لآلئ ، مفردها تومة وهى حبة من فضة ، وجمعها توم بفتح الواو وإسكانها . البرى : الخلاليل ، ومفردها البرة وهى حلقة الخلخال .

(٤) الظئر : المرضعة . أكلة : جمع كلة وهى ستر رقيق يوضع فوق الفراش .

(٥) التعويذ : الرقية .

(٦) النسرين : نوع من الورد أبيض عطرى الرائحة .

(٧) تملينا : تمتعنا ونعمنا .

وِيا نعيماً خَطرْنا من غضارته ... فى وَشْىِ نُعْمى سَحَبْنا ذيلَه حينا[1]
لسنا نُسَمِّيكِ إجلالاً وتكْرِمةً ... وَقَدْرُكِ المعْتَلِى عن ذاكَ يُغْنينا
إذا انفردْتِ وماشُورِكتِ فى صفةٍ ... فَحسْبنا الوصفُ إيضاحاً وتبْيِينا

* * *

ياجنَّة الخلدِ أُبْدِلْنا بِسِدْرَتِها ... والكوثر العذبِ زَقُّوما وَغِسْلينا[2]
كأننا لم نبِتْ والوصلُ ثالثُنا ... والسعدُ قد غَضَّ مِنْ أجفانِ واشينا
سِرَّانِ فى خاطرِ الظلماءِ يَكْتُمنا ... حتى يكادَ لسانُ الصبحِ يُفشينا
لاغروفى أَنْ ذَكَرْنا الحزَنَ حين نَهت ... عنهُ النُّهى وَتَرَكْنَا الصَّبْرَ ناسِينا[3]
إنَّا قرأْنا الأَسى يومَ النَّوى سُوَرًا ... مَكْتوبةً وأَخذنَا الصبرَ تلْقِينا
أمَّا هواكِ فلم نَعْدِلْ بمنهله ... شِرْباً وإن كان يُروينا فَيُظْمينا[4]
لم نَجْفُ أُفْقَ جمالٍ أنتِ كوكبُهُ ... سالينَ عنه ولم نَهْجُرْه قَالينا
ولا اختِيارًا تَجَنَّبناه عن كَثَبٍ ... لكنْ عَدَتْنا على كُرْهٍ عَوادينا[5]
نَأْسَى عليكِ إذا حُثَّتْ مشعشعةً ... فينا الشمُولُ وَغَنَّانا مُغَنِّينا[6]
لاأكؤُس الراحِ تُبدِى من شمائلنا ... سِيما ارتياحٍ ولا الأَوتارُ تُلهينا

---

(١) الغضارة النعمة وخفض العيش . الوشى : ثوب من الحرير منقوش .

(٢) السدرة : شجرة النبق وهى كبيرة عظيمة الظل ، الإشارة هنا إلى « سدرة المنتهى » . الكوثر : نهر فى الجنة . الزقوم والغسلين : من أطعمة أهل جهنم .

(٣) النهى : جمع نهية وهى العقل .

(٤) قالين : كارهين .

(٥) كثب : قرب . عدتنا : صرفتنا . العوادى : صروف الدهر .

(٦) الشمول : الخمر ، ومشعشعة : ممزوجة بالماء .

دُومِى على العهدِ مادُمْنا محافِظَةً فالحرُّ مَنْ دَان إنصافاً كمادِينا [١]
فمااستعَضْناخليلاًمنكِيَحْبِسُنا ولا اسْتفدْنا حَبيباً عنكِ يَثْنينا
ولو صَبَا نحونا من عُلْوِ مَطْلِعِهِ بدرُالدجى لم يكنْ حاشاكِ يُصبينا [٢]
أَولِى وفاءً وإنْ لم تبذُلِى صلةً فالطيفُ يُقْنِعنا والذِّكرُ يَكْفينا [٣]
وفى الجوابِ مَتاعٌ إن شَفعْتِ بهِ بيض الأَيادى التى مازلتِ تولينا
عليكِ منى سلامُ اللهِ مابَقيَتْ صَبابةٌ منكِ نُخفيها فتُخفينا [٤]

دراسة القصيدة

المناسبة :

جاء فى الديوان أن ابن زيدون « كتب هذه القصيدة الفذة يتحسر فيها على انقضاء أيام الوصال ويشكو فيها ما يحسه من الوجد المبرّح والألم القاسى ، وقد بعث بها إلى حبيبته ولادة بنت المستكفى أديبة الأندلس الفذة ، يستعطفها ويتلهف على أيام الوصال السابقة » . وقد نظم الشاعر هذه القصيدة فى الفترة التى تلت فراره من السجن ، أى بعد سنة ٤٣٣ هـ ، عندما رحل إلى إشبيلية للمرة الأولى . وتتراءى لنا خلال أبياتها عبقرية الشاعر الفذة ونضجه الشعرى بعد أن مرّ بتجربة السجن وآلامه وعذاب البعاد وأتراحه . فجاءت عصارة نفس متألمة ، مقيمة على الحب ، لا تسلو ولا تنسى .

ولا جدل فى أن هذه القصيدة قد جمعت بين أفانين شتى من الإجادة

---

(١) دان : جزى
(٢) صبا : مال . يصبينا : يستهوينا .
(٣) أولى : أنعمى .
(٤) نخفيها فتخفينا : نسترها فتظهرنا ، أخفيت الشىء وخفيته بمعنى سترته وبمعنى أظهرته وهى من الأضداد .

وعبَّرت عن عاطفة الشاعر الصادقة ونالت من الشهرة ما جعل كثيرين من الشعراء يعارضونها . فعارضها صفى الدين الحلى والصفدى وأخيراً شوقى فى قصيدته التى يحنّ فيها إلى وطنه ومطلعها :

يا نائح الطلح أشباهٌ عوادينا   نشجى لواديك أمْ نأسى لوادينا

وقد قال عنها الفتح بن خاقان فى قلائد العقيان : « إنها قصيدة ضَرَبتْ فى الإبداع بسهم ، وطَلَعَتْ فى كل خاطرٍ ووَهم ، ونزعت مَنْزِعاً قصَّر عنه حبيبٌ وابن الجهْم » .

أقسام القصيدة ومعانيها :

تكاد تكون هذه القصيدة وحدة شعرية لا يخرج فيها الشاعر عن دائرة قلبه المحطم ، ولكن يمكننا أن نتبين بعض الفواصل فى هذا الكيان الشعرى المتماسك .

١ ـ من البيت (١ ـ ١٩) وصفٌ لحال الحاضر ووصف للماضى ، ويتخلل هذا القسم أبيات تؤكد الوفاء والحب المقيم والتجلد على الواقع الأليم (الأبيات ٩ ، ١٣ ، ١٨ ، ١٩) .

٢ ـ المناجاة وإشراك الطبيعة فى إحساسه (٢٠ ـ ٢٣) .

٣ ـ وصف المحبوبة (٢٤ ـ ٣٤) .

٤ ـ عودة إلى المناجاة مع مقارنة الحاضر المقيم بالماضى الآفل وتأكيد للوفاء ينتهى إلى الاستعطاف والاستسلام لهدوء ذليل (٣٥ ـ ٥٠) .

١ ـ يفتتح الشاعر قصيدته دون تمهيد ، ويقذف بنا فى جو آلامه بوثبة عاطفية تصور لنا حاله وما آل إليه . لقد أصبح قربه بعداً ، وأصبح الهجر والموت سواءً فى نظره . ويود أن يُعلمَ ذاك الذى ألبسه حزناً دائماً ببعده عن حبيبته ، يود أن يُعلمه أن ضحكه قد حال إلى بكاء . وأن الدهر قد استجاب لدعوة أعدائه وحقق لهم ما أرادوا من إيقاع بين حبيبين ، فلم يعودا يرجوان التلاقى بعد أن كانا لا يخشيان الفراق .

ثم ينتقل الشاعر إلى عرض ما يكنه من وفاء لولادة ويبثها آلامه ولوعته ، ويبين في بيت جميل أن الحزن — لولا تأسيه — يكاد يقضي عليه . ويعود إلى وصف أيام هنائه وأنسه ويقارنها بحالته الراهنة مستعيناً بالصناعات العفوية التي يمليها الفن قدر ما يمليها القلب ، فأيامه الحاضرة سود بينما كانت لياليه معها بيضاء ينال من روضته ما يشتهي ويجني من ثمرها ما يريد ، ولكن هذه الحسرة ما كانت لتملي علية السخط والثورة ، بل يؤكد ، في ذل ، أن النأى لا يغيره ولن ينسى ذلك العهد الرطيب ، مهما خبت جذوةُ الحب في قلوب المحبين النائين فقد كنتم الرياحين لأرواحنا وما زلتم تلك الرياحين .

٢ — هذه الحسرة النائحة تقوده إلى المناجاة فيطلب من الطبيعة أن تشاركه في إحساسه ، ويخاطب ساري البرق أن يباكر قصرها فيجود أهله بغيثه اعترافاً منه له على ما أعطاه من حب ومودة ، ويحمّل النسيم تحيتَه إلى تلك التي يُحيِّيه سلامها ، ويذكر خلال ذلك صوراً جميلة لماض راحل وعهد حائل .

٣ — وذكر القصر يقوده إلى مَنْ يسكنه ، إلى هذا المحبوب الذي ليس كسائر البشر ، فهو صنيع الملوك وطينة من المسك ، وجسم من اللجين يكلله تاج من التبر هو ذاك الشعر الذهبي الذي كان يتوج رأس محبوبته . وأنت تلمح خلال هذا الوصف عبير القصور الملكية ، ورفاهية الحسان ، ونعيم السلطان ، فجمال المحبوب هنا ليس من الجمال الذي تضمه الشوارع ، وإنما جمال أرستقراطي تلمح خلاله ليونة النعيم وغضارته وتأود القد المرهف ورخاصته ، حتى ليدميه مس العقود والمجوهرات .

٤ — وفي غمرة هذا الوصف يتلهف على ماضيه ويعود إلى المناجاة بلحن حزين فيندب تلك الجنة التي أبعد عنها ويحنّ إلى ذلك الكوثر العذب الذي أبدل به ماءً آجناً وغِسلينا . وكم هي جميلة تلك القفزة في الماضي يقفزها الشاعر ليحدثنا عن تلك العزلة التي كان يتمتع بها العاشقان وقد حالفهما السعد فكانا سرَّيْن مطوِيَّيْن في خاطر الظلماء لا يفضحهما إلا لسان الصبح . نعم قد تكون الصورة قديمة في بعض تفاصيلها كاستعارته اللسان للصبح ، إلا أنني أراها جديدة كل

الجدة فى تركيبها وصدقها فقد استطاع الشاعر أن يعبر عن شخصين ماديين بكلمة معنوية جسدت الكتمان خير تجسيد ، ورسمت خلوة من خلوات الحب ، وآلف بين الصنعة والعاطفة خير تآلف .

وتأتى بعد ذلك أبيات فى المناجاة (البيت ٣٩ — حتى النهاية) ليس فيها ما يستدعى الوقوف ، ويبدو فيها أن الشاعر يلهث . على أن الخاتمة منطقية فيها نوع من الهدوء وكثير من الاستسلام ، وفيها تأكيد دائم على الوفاء يطلبه ممن أحب كما يطلبه من نفسه ، بل لعله لا يستطيع التخلى عن هذا الوفاء فى الحب لأنه سبب من أسباب بقائه . فليقنع بالقليل إذن ، وليودّعها وفى نفسه ذلةٌ وانكسار وفى الجو الذى خلّقه ارتجاف وحسرةٌ ورنين .

العاطفة والأسلوب :

إن الميزة التى تبدو فى أسلوب ابن زيدون هى « الفن » فهو شاعر فنى قبل أن يكون حكيماً أو فيلسوفاً أو غواصاً على المعانى أو وصافاً ، وهذه الخصائص الفنية تتجلى على أصدق صورة فى هذه القصيدة ، فألفاظها حلوة عذبة تتلقفها الأذن فى لينٍ ويسْر وتحدث فى النفس فى تأليفها وتنسيقها تناغماً وجَرْساً يعكس عاطفة الشاعر ويعبر عنها خير تعبير ، ونرى أن أكثر الكلمات تتساند ويستدعى بعضها بعضاً ، ولئن كان الشاعر يلجأ إلى الطباق فى العاطفة فإنه يلجأ إليه فى اللفظ أيضاً ، لذلك رأينا هذه المزاوجة فى المعانى والألفاظ ، وعلى هذه المزاوجة والمقابلة يقوم الكثير من جمال هذه القصيدة . ويكثر الشاعر من الألفاظ والأوزان التى تدل على المشاركة ليبين أن العاطفة هى فى تجاوب مستمر ، فلا انفصام وإنما رجفة متصلة ، بين ماض حبيب وحاضر مؤلم . ومما يزيد فى هذه الرجفة طولا هو هذه القافية الممدودة . وهذه (النونات الطويلة) التى تضيف إلى جرس القطعة أنيناً موسيقيًّا حزيناً .

وأكثر معانى القصيدة ينظر إلى معانى المشرقيين ، ويدل على تعلّق الأندلسيين بالمشرق ، على أن معانى الغزل لم تتحرر من التقليد فى الشرق والغرب ، وما فتئ

الشاعر يصف لنا ذل الغرام وقساوة المحبوبة ، غير أن واقعية التجربة الغرامية التى عاشها ابن زيدون سترت عنه الكثير من العيوب ، وجعلت القصيدة تستقى وحيها من نبضات قلب الشاعر ، وقد استطاع أن يؤلف بين هذه النبضات وبين الفن الذى تمليه عليه ثقافته وبيئته وعبوديته أحياناً . ومن هذه المعانى التقليدية مخاطبته للنسيم والدعاء بالسقيا ، إلا أن الشاعر استطاع أن يمنح عبارته فيها رنة الإخلاص ، فأحيا الطبيعة وجعلها إنساناً يشارك الشاعر آلامه ويشفق على المحبين المتباعدين .

ونجد أن أكثر أبيات القصيدة مشتمل على فنون البيان والبديع ، ولكنها ما كانت لتأتى متكلفة ، بل أحياناً ثبّتت المعنى وأعطته نوعاً من التجسيم كقوله :

أَنَّ الزمان الذى مازال يُضحكنا أُنساً بقربكم قد عاد يُبكينا

ففيه استعارة وطباق . وكقوله أيضاً :

وإذ هصرنا غصون الوصل دانيةً قطوفها فجنينا منه ماشينا

ففيه استعارة جميلة :

وفى استعماله « الوصل ثالثنا » كنايةٌ جميلة عن عزلتهما وخلوتهما عند ما يقول :

كأننا لم نَبِتْ والوصلُ ثالثنا والسعد قد غضَّ من أجفان واشينا

سِرَّانِ فى خاطر الظلماء يكتمُنا حتى يكادَ لسانُ الصبح يفْشينا

وإننا نجد نفحة قرآنية فى هذا البيت :

ياجنة الخلدِ أبدلنا بسِدْرَتها والكوثر العذب زَقُّوماً وغِسْلينا

وهذا النداء فى « يا سارى البرق » وفى « يا روضة » و « يا حياة » و « يا نعيماً » يزيد فى لحن المناجاة .

على أن هناك أبياتاً ثقيلة على السمع ضعيفة الجرس كقوله :

مَنْ مُبْلِغُ الملْبِسِينا بانتزاحِهِمُ حُزناً مع الدهرِ لا يَبْلى ويُبلينا
أَنَّ الزمانَ الذى ما زال يُضحكنا أُنساً بقربهم قد عاد يبكينا

فاستعماله « الملبسين حزناً » ثقيل على الأذن ، واستعماله لكلمة « حاشاك » فى البيت الآتى حَشْوٌ بغيض :

ولو صَبَا نحونا من عُلْوِ مطلعه بدرُ الدُّجى لم يكن حاشاكِ يصبينا

أضف إلى ذلك ابتذال المعنى فى هذا البيت السابق . على أن القصيدة لا تضيرها هذه الهنات وهى ، بعد هذا كله ، فياضة بالألم ، حلوة الوقع فى السمع ، موسيقية الجرس ، مفعمة بالحياة ، تترك فى النفس صدى حزيناً .

ذكرى ولادة :

قال ابن زيدون هذه القصيدة بعد خروجه من السجن وقبل العفو عنه يتشوق إلى حبيبته ويناجيها ويتلهف على لقائها :

إنى ذَكَرْتكِ بالزهْراءِ مُشْتاقا والأُفْقُ طلقٌ ومَرْأَى الأَرضِ قدْ رَاقا[1]
وللنسيمِ اعتلالٌ فى أَصائِلِهِ كأَنه رقَّ لى فاعتلَّ إشفاقا
والرَّوْضُ عن مائِهِ الفِضِّى مُبْتَسِمٌ كما شَققت عن اللَّباتِ أَطْواقا[2]
يومٌ كأَيامِ لذاتٍ لنا انْصَرَمَتْ بِتْنا لها حينَ نامَ الدهرُ سُرّاقا
نلهو بما يَسْتميلُ العين من زهرٍ جَالَ النَّدَى فيه حتى مالَ أَعناقا
كأَنَّ أَعينَهُ إِذ عاينتْ أَرَقى بَكَتْ لِمَا بى فجالَ الدمْعُ رَقْراقا

---

(١) راق : بمعنى أعجب .

(٢) اللبات : جمع لبة وهى موضع القلادة من الصدر . والأطواق : جمع طوق وهو ما يحيط بالعنق من الثوب ، والطوق أيضاً من الحلى .

وَرْدٌ تَـأَلَّقَ فى ضَاحِي مَنَابِتِه فازْدَادمنهالضُّحَىفىالعينإشراقا[1]
سَرَى يُنافِحُهُ نيلوفرٌ عَبِقٌ وَسْنَانُ نَبَّه منه الصبحُ أَحْداقا[2]
كلٌّ يَهيجُ لنا ذكْرَى تَشَوُّقنا إليكِ ،لم يَعْدُعنهاالصدرُأَنْضاقا
لا سَكَّنَ الله قلباً عَنَّ ذِكْرُكُم فلم يَطِرْ بِجَناحِ الشوق خَفَّاقا
لوشاءَحَمْلىنسيمُ الصبححين سرى وافاكُم بفتى أَضناهُ ما لاقَى
لوكان وَفَّى المُنَى فى جَمْعِنا بِكُمُ لكانَمِنْ أَكرمِ الأَيامِ أَخْلاقا
يا عِلْقِيَ الأَخْطَرَ الأَسْنى الحبيبِ إلى نفسى إذا ماقْتَنَى الأَحباب أَعْلاقا[3]
كانَالتجارِى بمحضِ الود مُذ زمنٍ ميدانَ أُنْسٍ جَرَيْنا فيه أَطْلاقا[4]
فالآن أَحْمَدَ ما كُنَّا لعهدِكُمُ سَلوْتُمُ وَبَقِينا نحنُ عُشَّاقا

التعليق :

تصوّر هذه القصيدة فتنة الطبيعة وما يثيره جمالها من صور الحبيب وجماله فى جوّ من الذكرى . ويقول الدكتور سيد نوفل عنها : إنها قصيدة « تموج فيها عاطفتان : عاطفة الماضى الجميل تكسبه الطبيعة الحلوة مزيداً من الحسن ، وعاطفة الحاضر المحروم يكسو الطبيعة ثوباً من القتامة والكآبة . والشاعر إذا تحدث عن الماضى ابتسمت الطبيعة فى طلاقة الأفق وصفاء وجه الأرض وابتسام الروض وطرب الزهر وتألق الورد وإشراق الضحى ، وإذا تحدّث عن الحاضر تمثل له فى اعتلال

---

(١) ضاحى المنابت : المنابت البارزة للشمس ، المرتفعة .
(٢) نيلوفر : نبات ينبت فى المياه الراكدة ويورق على سطحها وله زهر يتفتح فى النهار وينام فى الليل .
(٣) العلق : الشيء النفيس الذى يعلق . الأخطر : ذو الشأن والقيمة .
(٤) التجارى : التسابق . أطلاق : جمع طلق وهو الشوط فى السباق .

النسيم وإشفاقه ، وبكاء الزهر ، وجولان دمعه الرقراق ، ونعاس النيلوفر ؛ وبذلك يبدو اشتباك الطبيعة مع عواطف الشاعر التى يذكيها جو الذكرى باعثاً فى النفوس لحناً من الأسى والإشفاق والصدى العميق » . (شعر الطبيعة فى الأدب العربى ص ٢٦٧) .

وقال مخاطباً ولادة :

يانازحاً وضميرُ القلب مثواهُ   أَنستكَ دنياكَ عبدًا أَنت دنياهُ
أَلهتكَ عنه فُكاهاتٌ تلذُّ بها   فليس يَجْرِى ببال منك ذِكراهُ
علَّ الليالىَ تُبقينى إلى أَمل   الدهرُ يعلمُ والأَيامُ معناهُ

مدام العيون :

قال ابن زيدون الأبيات الآتية يحن بها إلى ولادة ، وهى فى مطلع قصيدة مدح بها أبا الوليد بن جهور عند ما اعتلى عرش قرطبة بعد وفاة أبيه أبى الحزم بن جهور سنة ٤٣٥ للهجرة :

ما لِلْمُدام تُدِيرُها عيناكِ   فيميلُ فى سُكْرِ الصِّبا عِطفاكِ
هلاَّ مَزَجْتِ لعاشِقِيكِ سُلافَها   ببَرُود ظَلْمِكِ أَو بَعْذب لَمَاكِ[١]
بل ما عليكِ وقد مَحَضْتُ لَكِ الهوَى   فى أَن أَفوزَ بحُظْوة المِسْواكِ[٢]
ناهيكِ ظُلْماً أَن أَضرَّ بى الصدى   بَرْحاً ونال البرءَ عُودُ أَراكِ[٣]
واهاً لِعَطْفِكِ والزمانُ كأَنما   صُبِغَتْ غضارتُهُ بِبُرْدِ صِباكِ[٤]

---

(١) الظلم : الريق وماء الأسنان . وبرود : بارد . اللمى : سمرة فى الشفة .
(٢) محضت : أخلصت . المسواك : جمعه مساويك وهو عود تطهر وتنظف به الأسنان .
(٣) الصدى : العطش . البرح : الشدة والمشقة .
(٤) الغضارة : البهجة .

والليلُ مهما طالَ قَصَّر طولَهُ هاتى ، وقد غَفَلَ الرقيبُ ، وهاك
ولطالما اعتلَّ النسيمُ فخلتُه شكواىَ رقَّت فاقتضتْ شكواك
إن تأْلَفى سِنَةَ النؤوم خَلِيَّةً فلطالما نافَرْتِ فىَّ كَرَاك[١]
أَو تَحْتبِى بالهجر فى نادى القِلَى فَلَكَمْ حَلَلْتِ إلى الوصال حُباك[٢]
أَمَّا مُنَى نفسى فأَنتِ جميعها يا ليتنى أَصبحتُ بعضَ مُناك
يدنو بِوصلِكِ حينَ شَطَّ مزارُهُ وَهْمٌ أَكادُ به أُقَبِّلُ فاك[٣]
ولئن تجنَّبتُ الرشادَ بِغَدْرَةٍ لم يَهوِ بى فى الغَى غيرُ هَواك

لهفة محب :

نظم الشاعر هذه المقطوعة بعد أن هجرته حبيبته ، وفيها يتلهف لو تعود إلى الوصل ، قال :

إليكِ من الأَنام غَدَا ارتياحى وأَنتِ على الزمان مَدَى اقتراحى
وما اعترضَتْ همومُ النفس إلا ومن ذِكْراكِ رَيْحانى وراحى
فديتُكِ إنَّ صَبْرى عنكِ صَبْرى ، لدى عَطَشى ، عَلى الماءِ القَرَاحِ[٤]
ولى أَمَلٌ لَوِ الواشونَ كفُّوا لأَطْلَعَ غرسُهُ ثمرَ النَّجَاح
وأَعْجَبُ كيفَ يَغْلِبُنى عدوٌّ رِضَاك عليهِ من أَمْضَى سلاحْ[٥]

---

(١) نافر هنا بمعنى عادى . الكرى : النوم
(٢) احتبى : اشتمل بالثوب ، من الحبوة وتجمع على حبى . القلى البغض الشديد .
(٣) شط : بعد .
(٤) القراح : الصافى .
(٥) يريد بالعدو منافسه ابن عبدوس .

ولمَّا أَن جَلَتْكِ لى اختلاساً أكفُّ الدهرِ للحَيْنِ المُتاح[١]

رأيت الشمسَ تطلُعُ من نِقاب وغُصنَ البانِ يَرْفُلُ فى وِشاح[٢]

فلو أَسطِيعُ طِرْتُ إليكِ شَوْقاً وكَيفَ يطيرُ مقصوصُ الجناح

على حالَىْ وصالٍ واجتنابٍ وفى يومَىْ دُنُوٍّ وانْتِزاح

وحسبى أَنْ تُطالِعَكِ الأَمانى بأُفقِكِ فى مساءٍ أَو صباح

وأَنْ تُهدِى السلامَ إلىَّ غِبًّا ولَوْ فى بعضِ أَنفاسِ الرِّياح[٣]

فؤادى من أَسًى بِكِ ، غيرُ خالٍ وقلبى عن هوى لكِ غيرُ صاح

وداع :

فى هذه المقطوعة لحن حزين يعبر الشاعر فيه عن يأسه بعد أن هجرته صاحبته وأصبح فى شقاوة اليأس وفراغ الدنيا ، يقول :

لئن قَصَّرَ اليأْسُ منكِ الأَملْ وَحَالَ تَجَنِّيكِ دونَ الحِيَلْ

وناجاكِ ، بالإفكِ فىَّ الحسودُ فأَعطيْتِهِ ـ جَهْرَةً ـ ما سَأَلْ[٤]

وراقلكِ سِحْرُ العِدى المُفْتَرَى وغرَّكِ زُورُهُمُ المُفْتَعَل

فإِن ذِمامَ الهوى لن أَزَالَ أُبَقِّيهِ حِفْظاً كَمَا لم أَزَلْ

فديتُكِ إنْ تَعْجَلى بالجَفَا فقد يَهَبُ الرَّيثَ بعضُ العَجَلْ[٥]

---

(١) الحين : الهلاك .
(٢) الوشاح : حزام يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها .
(٣) غباً : حيناً بعد حين .
(٤) الإفك : الكذب .
(٥) فى هذا البيت تضمين للمثل المشهور : « رب عجلة تهب ريثاً » والريث : البطء .

علامَ اطَّبَتْكِ دواعى القِلى؟ وفيمَ ثَنَتْكِ نواهى العَذَل؟[١]
أَلَمْ أَلزمِ الصبرَ كيما أَخِفَّ أَلَمْ أُكْثِرِ الهجرَ كَىْ لا أُمَلْ
أَلَم أَرْضَ منكِ بغير الرِّضا وأُبدِى السرورَ بما لم أَنَل
أَلَم أَغتفرْ موبقاتِ الذنو بِ عَمْدًا أَتيتِ بها أَم زَلَل؟[٢]
وما ساءَ ظَنِّىَ فى أَنْ يسىءَ بِىَ الفعلَ حُسْنُكِ حتى فَعَلْ
على حين أَصبحتِ حَسْبَ الضمير ولم تَبغِ منكِ الأَمانى بَدَلْ
سعيتِ لتكديرِ عهدٍ صَفَا وحاولتِ نَقْضَ ودادٍ كَمَلْ
فما عُوفِيَتْ مِقَتِى من أَذًى ولا أُعْفِيَت ثِقَتى من خَجَلْ[٣]
ومهما هَزَزْتُ إِليك العِتا بَ اهَرْتِ بين ضُرُوبِ العِلَلْ[٤]
كأَنكِ ناظرتِ أَهلَ الكلامِ وأُوتيتِ فهماً بعِلْمِ الجَدَل[٥]
ولو شئتِ راجعتِ حُرَّ الفَعَالِ وعُدْتِ لتلكَ السجايا الأُوَل
فلم يكُ حَظِّىَ مِنْكِ الأَخَسَّ ولا عُدَّ سَهْمِىَ فيكِ الأَقَل
عليكِ السلامُ سلامُ الوَدَاعِ وَدَاعِ هَوًى مات قَبْلَ الأَجَل
وما باختيارٍ تَسَلَّيْتُ عنكِ ولكننى مُكْرَهٌ لا بَطَل[٦]

---

(١) اطبتك : استمالتك .
(٢) موبقات : مهلكات .
(٣) المقه : الحب .
(٤) ظاهر : طابق .
(٥) أهل الكلام : علماء الكلام والتوحيد .
(٦) تضمين للمثل المشهور : « مكره أخاك لابطل » يضرب لمن يحمل على ما ليس من شأنه ولا فى حدود استطاعته .

ولم يَدْرِ قلبىَ كيفَ النزوعُ   إلى أَنْ رأى سيرةً فامْتثل
وليتَ الذى قادَ عفوًا إليكِ   أَبِىَّ الهوى فى عِنَانِ الغَزَل
يُحِيلُ عُذُوبةَ ذاك اللِّمَى   ويَشْفِى منَ السُّقْم تِلكَ المُقَل

وقال :

أَنَّى أُضيِّعُ عهدَكْ ؟   أَم كيفَ أَخلِفُ وَعْدَكْ
وقد رَأَتْكِ الأَمانى   رِضىً ، فلم تتعَدَّكْ
يا ليتَ ما لَكَ عِندى   من الهوى لىَ عِنْدكْ !
فطال ليلُكَ بَعْدِى   كطول ليلىَ بعدَكْ
سَلْنى حياتى أَهَبْهَا   فلستُ أَمْلِكُ رَدَّكْ
الدهرُ عَبْدِىَ ، لمَّا   أصبحتُ فى الحُبِّ عَبْدَكْ

وقال :

أَرْخَصْتِنى مِنْ بَعْدِ ما أَغليْتِنى   وحَطَطْتِنى ولطالما أَعْلَيْتِنى
بادَرْتنى بالعَزْل عن خِطَطِ الرِّضا   ولقدْ مَحَضْتُ النُّصْحَ إِذْوَلَّيْتنى
هَلاَّ ، وقد أَعْلَقْتِنى شَرَكَ الهوَى ،   عَلَّلْتِنى بالوَصْل أَو سَلَّيْتِنِى
الصبرُ شَهْدٌ عندما جَرَّعْتِنى   والنارُ بَرْدٌ عندما أَصْلَيْتِنى
كنتِ المنى فأَذَقْتنى غُصَص الأَذى   يا لَيْتَنىِ ما فُهْتُ فِيكِ :بِلَيْتَنى

لا أهل ولا وطن[١] :

وقال ابن زيدون هذه الأبيات وهى من أشجى مقطوعاته فى مناجاة حبيبته والشوق إلى مواطنيه وقد قالها نائياً عن أهله ، بعيداً عن قرطبة :

هلْ تذْكُرُونَ غريبًا عادَهُ شَجَنُ ... مِنْ ذِكْرِكُمْ وَجَفَا أَجْفَانَهُ الوَسَنُ[٢]
يُخْفِى لَوَاعِجَهُ والشَّوْقُ يَفْضَحُهُ ... فَقَدْ تَسَاوَى لَدَيْهِ السِّرُّ والعَلَنُ
ياوَيْلَتَاهُ ! أَيَبْقَى فى جَوَانِحِهِ ... فُؤادُهُ ،وَهْوَ بالأَطْلالِ مُرْتَهِنُ ؟
وأَرَّقَ العَيْنَ والظَّلْماءُ عَاكِفَةٌ ، ... وَرْقَاءُ ،قَدْ شَفَّها ،إِذْ شَفَّنى حَزَنُ[٣]
فَبِتُّ أَشْكُو وتَشْكُو فَوْقَ أَيْكَتِها ... وَبَاتَ يَهْفُو ارْتِيَاحًا بَيْنَنَا الغُصُنُ[٤]

* * *

يَاهلْ أُجَالِسُ أَقْواماً أُحِبُّهُمُ؟ ... كُنَّا وكَانوا على عهْد فَقَدْ ظَعَنُوا[٥]
أَوْ تَحْفَظُونَ عُهودًا لا أُضَيِّعُهَا ... إِنَّ الكِرامَ بِحِفْظِ العَهْدِ تُمْتَحَنُ[٦]

ومنها :

إِنْ كانَ عَادَكُمُ عِيدٌ فَرُبَّ فَتًى ... بالشَّوْقِ قَدْ عَادَهُ مِنْ ذِكْرِكُمْ حَزَنُ
وأَفْرَدَتْهُ اللَّيالى مِنْ أَحِبَّتِهِ ... فَبَاتَ يُنْشِدُها ،مماجَنَى الزَّمَنُ :
« بِمَ التَّعَلُّلُ؟ لا أَهْلٌ ، ولا وَطَنٌ ... ولا نديمٌ ،ولا كاسٌ ،ولا سَكَنُ ! »[٧]

---

(١) لم ترد هذه القصيدة بالديوان ، وقد أثبتناها عن المعجب .
(٢) الشجن : الحزن ، الوسن : النوم .
(٣) ورقاء : حمامة ، شفها الحزن : أضعفها وأنحلها .
(٤) الأيكة : الشجرة الضخمة أو الأجمة بجوار الماء ، يهفو : يتحرك ويتمايل .
(٥) ظعنوا : رحلوا .
(٦) تمتحن : تختبر .
(٧) اقتبس الشاعر البيت من مطلع قصيدة للمتنبى . السكن : ما يسكن إليه الإنسان من أهل ومال وغير ذلك ، ويطلق فى الغالب على الزوجة أو الحبيبة .

٢ – الشكوى والاستعطاف

لوعة فى السجن :

نظم ابن زيدون هذه القصيدة الفياضة بالألم واللوعة والحزن ، وهو فى السجن ، وبعث بها إلى صديقه الوزير الكاتب أبى حفص بن بُرد :

ما عَلَى ظَنِّىَ بَاسُ يَجْرَحُ الدهرُ ويأسُو[١]
ربما أَشْرَفَ بالمَرْءِ على الآمالِ ياسُ
ولقدْ يُنْجيكَ إغفالٌ ويُرْدِيكَ احتراسُ
والمحاذيرُ سِهامٌ والمقاديرُ قِياسُ[٢]
ولَكَمْ أَجْدَى قُعُودٌ ولَكَمْ أَكْدَى التماسُ[٣]
وكذا الدَّهْرُ ، إذا ما عَزَّ ناسٌ ذلَّ ناسُ
وبنو الأَيام أَخْيَافٌ : سَراةٌ وخِساسُ[٤]
نَلْبَسُ الدنيا ، ولكنْ متعةٌ ذاك اللِّبَاسُ
يا أَبا حَفْصٍ وما ساواكَ فى فَهْمٍ إياسُ[٥]

(١) ياسو : يأسو يداوى .
(٢) قياس : هنا جمع قوس .
(٣) أجدى : أغنى وأفاد ، أكدى : أخفق .
(٤) أخياف : مختلفون ، قال بعضهم : « الناس أخياف وشتى فى الشيم » .
(٥) هو إياس بن معاوية من قضاة العراق فى عصر بنى أمية وكان يضرب به المثل فى الذكاء والفهم ، وعناه أبو تمام فى قصيدته التى يمدح بها أحمد بن المعتصم :

إقدام عمرو فى سماحه حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

مِن سَنَا وأْيكَ لى فى غَسَقِ الخَطْبِ اقتباسُ[١]
ووِدَادى لَكَ نصٌّ لم يخالِفْهُ القِيَاسُ
أَنا حيرانُ وللأَمْـ ـرِ وضوحٌ والتباسُ
ما تَرَى فى مَعْشرٍ حَا لُوا عن العهدِ وخَاسوا[٢]
ورأَونى سَـامِرِيًّـا يُتَّقَى منه المِساسُ[٣]
أَذْؤُبٌ هامَتْ بلَحْمى فانتهـاشٌ وانْتِهاسُ[٤]
كلُّهُمْ يسأَلُ عَنْ حا لى وللذئبِ اعْتِسَاسُ[٥]
إن قَسَا الدهرُ فَلِلْمَا ءِ مِنَ الصَّخرِ انْبِجَاسُ[٦]
ولئن أَمسيتُ محبو سًا فللغيثِ احتباسُ
يَلْبُدُ الوَرْدُ السَّبَنْتَى وله بَعْدُ افتراسُ[٧]
فتأَمَّلْ كيفَ يَغْشَى مقلةَ المجدِ النُّعاسُ[٨]
ويُفَتُّ المِسْكُ فى التُّرْ بِ فَيُوطَا ويُداسُ[٨]
لا يكنْ عَهْدُكَ وَرْدًا إنَّ عهدى لكَ آسُ

---

(١) سنا : ضوء . غسق : ظلمة .

(٢) خاسوا : خانوا .

(٣) السامرى : كان من قوم موسى ، فعبد العجل وتحاماه الناس ، وقصته مشهورة فى القرآن الكريم .

(٤) الانتهاس : العض .

(٥) الاعتساس : طلب الصيد بالليل .

(٦) انبجس : نبع .

(٧) يلبد : يلصق بالأرض ، الورد : الأسد . السبنتى : الجرىء .

(٨) لا يكن عهدك سريع الذبول كالورد فإن عهدى كالآس لا يذبل .

وأَدِرْ ذكْرِىَ[1] كأساً ما امْتَطَتْ كفَّكَ كاسُ
واغْتَنِمْ صَفْوَ الليالى إنما العيشُ اختلاسُ
وعَسَى أَن يَسْمُحَ الدَّهـ ـرُ فقد طَالَ الشَّماسُ[1]

ألم وشكوى :

نظم ابن زيدون فى فاتحة سجنه هذه القصيدة يعاتب فيها أبا الحزم بن جهور ويدفع عن نفسه التهمة متضرعاً فى إباء، مستعطفاً فى حرقة . وإنك لتشعر خلال هذه الأبيات بألم الشاعر الذى أعيته المحنة ، ولكنه بقى متجلداً ، مدركاً لمزاياه ، غير مسترسل فى مدح ابن جهور إلا من خلال نفسه التى أمضّها السجن وآذاها ، قال :

أَلم يَأْنِ أَنْ يبكى الغمامُ على مِثْلى ويطلُب ثأْرى البرقُ منصلتَ النَّصل[2]
وَهَلا أَقامت أَنجمُ الليلِ مأْتماً لتندبَ فى الآفاق ماضاعَ من نُبْلى
ولو أَنْصَفَتْنى وَهْىَ أَشكالُ هِمَّتى لأَلْقَتْ بأَيدى الذُّلِّ لمَّا رَأَتْ ذُلِّى
ولافْتَرَقَتْ سَبْعُ الثُّرَيَّا وغاظَها بِمَجْمَعِها ما فَرَّقَ الدهرُ من شَمْلى
لَعَمْرُ الليالى إنْ يكُنْ طال نَزْعُها لقد قَرْطَسَتْ بالنَّبل فى موضع النُّبْل[3]
تحلَّتْ بآدابى ، وإن مآربى لسانحةٌ فى عَرْضِ أُمنيَّةٍ عُطْل
أُخَصُّ لفهمى بالقِلَى وكأَنما يَبيتُ لِذى الفَهْمِ الزمانُ على ذَحْل[4]

---

(١) الشماس : التمرد والنفور . سمح الرجل وأسمح : اتصف بالجود والسهولة واليسر .
(٢) منصلت : ماض قاطع .
(٣) النزع : الرمى بالسهام والنبال . قرطست : أصابت .
(٤) الذحل : الثأر .

وأُجْفَى على نَظْمِى لِكُلِّ قِلادَةٍ ... مفصَّلةِ السِّمْطين بالمنطق الفَصْل

ولو أنني أَسطيع كى أُرضى العِدا ... شريْتُ ببعض الحلم حظًّا من الجهل

أَمقتولةَ الأَجفانِ مَالَكِ والهًا ... أَلم تُرِكِ الأَيامُ نجماً هَوَى قَبْلى [1]

أَقِلِّى بُكَاءً لستِ أَول حُرَّةٍ ... طوت بالأسَى كَشْحاً على مَضَض الثُّكل [2]

وفى أُمِّ موسى عِبْرَةٌ إِذ رَمَتْ به ... إلى اليمِّ فى التابوت فاعتبرى واسْلى [3]

ولله فينا عِلمُ غَيْبٍ وحَسْبُنا ... به عند جَوْرِ الدهر من حَكَمٍ عَدْل [4]

وإن رجائى فى الهُمام ابن جَهْوَرٍ ... لَمُسْتَحكم الأسباب مُسْتَحصِدُ الحبل [5]

كريمٌ عَريقٌ فى الكِرام وقلَّما ... يُرى الفرْعُ إلا مُستمِداًّ من الأَصل

نَهوضٌ بأَعباءِ المُروءَةِ والتُّقَى ... سَحُوبٌ لأَذيال السيادةِ والفَضْل

إذا أَشْكَلَ الخَطبُ المُلِمُّ فإنه ... وآراءَه كالخَطِّ يُوضَعُ بالشَّكْل

يَرِفُّ على التأْميل لأْلاءُ بِشْره ... كما رَفَّ لأْلاءُ الحُسام على الصَّقْل [6]

محاسنُ ما للحُسْن للبدر عِلَّةٌ ... سوى أَنها باتَتْ تُمِلُّ فيَسْتَملى [7]

---

(١) الخطاب هنا لأمه ، وقد زارته فى السجن فبكت .

(٢) الكشح : الخاصرة ، وطوى كشحاً عن فلان أعرض عنه وقطعه .

(٣) يشير بهذا إلى قوله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك » ، فألقته فالتقطته امرأة فرعون ، والشاعر يطلب أن تعتبر بهذه القصة وتصبر .

(٤) عدل : عادل .

(٥) مستحصد : قوى متين .

(٦) يرف : يتلألأ ويبرق .

(٧) تمل مضارع أمل ، يقال أملاه القول وأمله ألقاه عليه ليكتبه ، والمعنى : هذه محاسن للمدوح الشبيه بالبدر لا عيب فيها سوى أنها باتت تملى على الشاعر وهو يكتب ويستكتبها فتمليه .

وَتَغنَى عن المدح اكتفاءً بِسَرْوِها … غِنَى المقلةِ الكحلاءِ عن زينةِ الكُحْل [١]

أَبا الحزم إنى فى عتابِكَ مائلٌ … على جانبٍ تأْوِى إليه العُلا سَهْل

حمائمُ شكْوَى صَبَّحَتْكَ هَوادِلاً … تناديكَ من أفنانِ آدابىَ الهُدْل [٢]

جَوادٌ إذا اسْتنَّ الجيادُ إلى مَدَى … تَمَطَّرُ فاستولى على أَمَدِ الخَصْل [٣]

ثَوَى صافِناً فى مَرْبَطِ الهَوْنِ يَشْتكى … بِتَصْهاله ما نَالَهُ من أَذَى الشَّكْل [٤]

أَفى العَدْلِ أَنْ وافتكَ تَتْرَى رسائلى … فلم تترُكَنْ وضْعاً لها فى يدَىْ عَدْل

أُعِدُّكَ للجُلَّى وآمل أَن أُرى … بنُعماك موسوماً وما أَنا بالغُفْل

وماذاكَ وعْدُ النفسِ لى منك بالمُنَى … كأَنى به قد شِمْتُ بارقةَ المحْل

أَئِنْ زَعَم الواشون ما ليس مَزْعماً … تُعَذِّرُ فى نَصْرِى وتَعْذِرُ فى خَذْلى [٥]

وأَصْدَى إلى إسعافكَ السائغِ الجنَى … وأَضْحى إلى إنصافكَ السابغِ الظِّل

ولو أننى واقعتُ عَمْدًا خَطيئةً … لما كان بِدْعاً مِنْ سَجاياكَ أَنْ تُملى [٦]

فلم استَثِرْ حربَ الفِجار ولم أُطِعْ … مُسَيْلمةً إذ قال : إنى من الرُّسْل [٧]

مثلىَ قد تهفو به نشوةُ الصِّبا … ومثلكَ مَنْ يعفو وما لكَ مِنْ مِثْل

---

(١) السرو : الشرف .

(٢) الهوادل : جمع هادلة ، والهديل : صوت الحمام . والهدل : جمع أهدل وهو صفة الأفنان من تهدلت أى تدلت .

(٣) استن الجياد : مضت مسرعة فى السباق ، تمطر : أنصت . استولى على أمد الخصل : كناية من إحراز قصب السبق .

(٤) الصافن من الجياد : الذى قام على ثلاث قوائم ولوى الرابعة . الشكل : شد قوائم الدابة بالشكال .

(٥) تعذر الأولى : تفقد العذر ، وتعذر الثانية : تجد العذر .

(٦) واقعت : دانيت . تملى : تمهل ولا تتعجل العقوبة .

(٧) كانت هذه الحرب فى الجاهلية بين قريش وقيس وانتهكت فيها الثانية حرمة الأشهر الحرم .

وإنى لتنهانى نُهاىَ عن التى أَشاد بهاالواشى ويَعْقِلنى عَقْلى [1]
أَأَنقُضُ فيك المدح من بعدِ قُوَّةٍ فلا أَقتدِى إلا بناقضةِ الغَزْل [2]
ذممتُ إذاًعهدَ الحياة ولا يَزَلْ ممِرًّا على الأَيام طَعْمُهُما المَحْلى [3]
وما كنتُ بالمُهدِى إلى السُّؤدَدِ الخَنا ولا بالمسىءِ القولَ فى الحسَن الفِعْل
ومالىَ لا أُثْنى بآلاءِ مُنْعم إذا الروضُ أثنى بالنسيم على الطَّل
هى النعل زلَّت بى فهل أَنتُ مُكْذِب لقيل الأَعادى إنها زَلَّةُ الحَسْل [4]
أَلا إنَّ ظَنى بين فعليكَ واقفٌ وقوفَ الهوى بين القطيعةِ والوَصْل
فإن تُمْنَ لى منكَ الأَمانى فَشيمة لذاك الفعال القَصْدِ والخُلُق الرَّسْل [5]
وإلا جَنَيْتُ الأُنس من وَحْشَة النَّوى وهول السُّرى بين المطيةِ والرَّحل [6]
سَيُعْنَى بما ضَيَّعْتَ منى حافِظٌ وَيُلْقَى لما أَرْخَصْتَ من خَطَرى مُغلى
وأَينَ جوابٌ منكَ تَرْضَى به العُلا إذَا سأَلْتنى عنكَ أَلسنةُ الحَفْل

لا يهنأ الشامت :

وقال أيضاً هذه الأبيات ، من قصيدة كتبها إلى أبى الحزم بن جهور فى السجن ، يعبر فيها عن ألمه وقلقه وعذابه ويشيد بشعره ويحاول أن يتأسى بصروف الأيام . قال بعد مقدمة غزلية تحدث فيها عن أرقة وسهاده لهجر حبيبته :

---

(١) يعقلنى : يحبسنى ويمنعنى .
(٢) يشير إلى الآية الكريمة « ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً » .
(٣) ممراً من أمر الطعام صيره مراً .
(٤) الحسل : الخسة والدناءة ، وبكسر الحاء : ولد الضب .
(٥) الرسل : السهل والطلق .
(٦) يشير إلى أنه سيرحل إن أطلقه ولم ينله أمنيته .

مَنْ يسأَلِ الناسَ عن حالى فشاهدُها مَحْضُ العِيانِ الذى يُغْنى عن الخَبَر
لم تَطْوِ بُرْدَ شبابى كَبْرَةٌ وأَرَى برقَ المشيب اعتلى فى عارِضِ الشَّعَر[١]
قبلَ الثلاثين إذ عهدُ الصِّبا كَثَبٌ وللشبيبةِ غُصْنٌ غيرُ مُهْتَصَر[٢]
ها إنها لَوْعةٌ فى الصدر قادِحةٌ نارَ الأَسى ومَشيبى طائرُ الشَّرَر
لا يَهْنَأُ الشامتَ المرتاحَ خاطرُهُ أَنى مُعَنَّى الأَمانى ضائعُ الخَطَر
هل الرياحُ بنجمِ الأَرضِ عاصفة أَم الكسوفُ لغيرِ الشمسِ والقمر[٣]
إن طالَ فى السجن إيداعى فلا عَجَبٌ قد يُودَعُ الجَفْنَ حَدُّ الصارمِ الذَّكَر
وإن يُثَبِّطْ أَبا الحزمِ الرِّضا قَدَرٌ عن كَشفِ ضُرى فلا عَتْبٌ على القَدر
ما للذنوبِ ، التى جانى كبائرها غيرى ، يُحَمِّلنى أَوزارَها وَزَرى ؟[٤]
مَنْ لم أَزل من تأَنِّيه على ثقةٍ ولم أَزل من تجَنِّيه على حَذَر
ذُو الشِّيمة الرَّسْلِ إن هِيجَتْ حفيظَتُه والجانبِ السَهْلِ والمُسْتَعتَبِ اليسَر[٥]
وزيرُ سِلْمٍ كفاه يُمْنُ طائِره شؤمَ الحروب ورأْىٌ مُحصَدُ المِرَر[٦]
أَغنت قريحته مغْنَى تجاربِهِ ونابتِ اللمحةُ العَجْلَى عن الفِكَر

---

(١) العارض : صفة الخد .
(٢) كثب : قريب .مهتصر: مائل
(٣) نجم الأرض ما نجم على وجهها من النبات ولم يقم على ساق ، وهذا البيت تعليل للبيت السابق أى لا تفرح أيها الشامت فالريح لا تعصف إلا بماله ساق من النبات والكسوف لا يكون لغير الشمس والقمر .
(٤) الوزر : الملجأ ويقصد أبا الحزم .
(٥) الشيمة الرسل : السمحة . المستعتب : مصدر ميمى بمعنى الاستعتاب وهو الاسترضاء اليسر : السهل .
(٦) المرر : جمع مرة وهى قوة الخلق وشدته ، ومحصد : قوى متين .

قد كنتُ أَحْسَبُنِى والنجمَ فى قَرَنٍ ففيمَ أَصبحتُ منحطًّا إلى العَفَرِ [١]

أَحينَ رفَّ على الآفاقِ من أدبى غرسٌ له مِنْ جَناهُ يانعُ الثمرِ [٢]

وسيلةٌ سَببٌ إلا تكن نسباً فهو الوداد صفا من غير ما كَدَرِ

وبائن مِنْ ثناءٍ حُسْنُه مَثَلٌ وَشْيُ المحاسنِ منه مُعْلَمُ الطُّرَرِ [٣]

يُستودَعُ الصُّحْفَ لا تخفَى نوافجُه إلا خَفاءَ نسيمِ المسْكِ فى الصُّرَرِ [٤]

لى فى اعتمادِكَ بالتأْميل سابقةٌ وهِجْرَةٌ فى الهوى أَوْلَى من الهِجَرِ

ففيمَ غَضَّتْ همومى من عُلا هِمَمِى وَحَاصَ بى مَطْلبى عن وجْهةِ الظَّفَرِ [٥]

هل من سبيل ، فماءُ العتْبِ لى أَسِنٌ ، إلى العذوبةِ من عُتباك والخَصَرِ [٦]

نذرتُ شكرَكَ لا أَنْسى الوفاءَ به إن أَسْفَرَتْ لىَ عنها أَوجُهُ البُشَرِ [٧]

لا تَلْهُ عنى فلمْ أَسأَلْك مُعْتَسِفاً رَدَّ الصبا بعد إِيفاءٍ على الكِبَرِ [٨]

هَبْنِى جَهِلتُ فكان الصنعُ سيِّئةً لا عذرَ منها سوى أَنِّى من البشرِ

إن السيادةَ بالإِغضاءِ لابسةٌ بهاءَها ، وبهاءُ الحُسْنِ فى الخَفَرِ

---

(١) العفر . التراب .

(٢) رف النبات : اهتز .

(٣) الطرر : جوانب الثوب ، ومعلم الطرر : المميز بعلامات دالة .

(٤) النوافج : جمع نافجة وهى وعاء المسك . الصرر : جمع صرة وهى الكيس .

(٥) حاص . مال .

(٦) العتبى : الرضا . الخصر : البرودة . يقول : هل من سبيل إلى رضاك الذى يشبه الماء العذب الخصر فإن ماء العتب أصبح آسنا كدرا .

(٧) الضمير فى « عنها » عائد إلى العتبى ، والبشر : جمع بشرى .

(٨) أى لم يعتسف فى السؤال ولم يطلب مستحيلا ، فلم يسأله أن يرد إليه الصبا وقد أوفى على المشيب .

فاشفَعْ أَكنْ مثلَ ممطورٍ ببَلْدَتِهِ   جذلانَ بالوطن المأْلوفِ والوَطَر
والْبَسْ من النعمةِ الخضراءِ أَيْكَتَها   ظلاًّ حراماً على الآفاتِ والغِير
نعيم جنَّةِ دُنيا إن هي انصرمَتْ   نَعِمْتَ بالخُلْد في الجنات والنَّهر

* * *

أَينَ أَيامنا ؟

قال ابن زيدون هذه الأبيات من قصيدة كتبها إلى صديقه أبي القاسم بن رفق يعاتبه ويذكر فيها أيامه الماضية معه ويصف خلالها بعض مشاهد الطبيعة :

عِذَرى ، إن عَذَلْتَ في خلع عُذْرى ،
غُصُنٌ أَثمرتْ ذُرَاه ببدر[1]

هَزَّ منه الصبا فَقَوَّمَ شَطْرًا   وتجافَى عن الوِشاحِ بشطر
رَشَأٌ أَقْصَد الجوانحَ قصدًا   عن جفونٍ كحِلْنَ عمدًا بسحر[2]
كُسِيَ الحسنَ فهو يفتنُّ فيهِ   ساحباً ذيلَ بردِهِ المسْبَكِرِّ[3]
تحت ظلٍّ من الغَرارة فينا   ن وَرَوْقٍ من الشبيبة نضْر[4]
أَبرزَ الجيدَ في غلائلَ بيضٍ   وجَلاَ الخدَّ في مجاسِدَ حُمر
وتَثَنَّتْ بعِطْفِهِ إذ تهادَى   خَطْرَةٌ تمزِجُ الدلال بِكِبْر

(١) عذر : أى معاذير . عذُر : جمع عذار وهو الحياء ، وخلع العذار أى ترك الحياء .
(٢) أقصد : طعن
(٣) المسبكر : المسترسل .
(٤) روق الشباب : أوله .

زارنى بعدَ هجعةٍ والثريا راحةٌ تقدِرُ الظلامَ بِشِبْرِ[١]
والدُّجا من نجومِهِ فى عقودٍ يتلألأْنَ من سِماكٍ ونَسْرِ
تحسَبُ الأُفقَ بينها لازَوَرْداً نُثِرت فوقَه دنانيرُ تِبْرِ
فرشفتُ الرضاب أعذبَ رَشْفٍ وَهَصرتُ القضيبَ ألطفَ هَصر
ونَعِمنا بلفٍّ جسمٍ بجسمٍ للتصافى ، وقرعِ ثَغْرٍ بثغر
يا لها ليلةً تجَلَّى دُجاها من سَنَا وَجْنَتَيْهِ عن ضوءِ فجر
قصَّر الوصلُ عُمْرها ، وَبِوُدِّى أن يطولَ القصيرُ منها بِعُمْرِى

* * *

مَنْ عَذيرى من ريبِ دهرٍ خؤونٍ كلَّ يوم أُراعُ منه بغدر
كلما قلتُ : حاكَ فيه مَلامى نَهَسَتْنِى منه عقاربُ تَسرى[٢]
وَتَرَتْنِى خطوبُه فى صَفِىٍّ فاضلٍ نابهٍ ، من الدهر ، وتْرِ[٣]
بانَ عنِّى ، وكانَ روضةَ عينى ، فغدا اليومَ وهو روضةُ فكرى
فَكِهٌ يُبْهِجُ الخليلَ بوجهٍ تَرِدُ العينُ منه يَنبوعَ بِشْر
لوذعىٌّ إنْ يَبْلُهُ الخُبْرُ يوماً أَخجلَ الوردَ عن خلائقَ زُهْر
وإذا غازَلَتْهُ مقلَةُ طَرْفٍ كادَ من رقةٍ يذوبُ فَيَجْرِى

* * *

(١) تقدر : تقيس .
(٢) حاك : رسخ أو أثر فيه . نهستنى : عضتنى .
(٣) وترتنى : أصابتنى بظلم أو مكروه . وتر : فرد فذ .

يا أَبا القاسم الذى كان رِدْئى وظهيرى على الزمان وذُخرى[1]

يا أَحقَّ الورَى بمحُوضِ إِخلا صى وأَولاهُمُ بغايةِ شكرى

طَرَقَ الدهرُ ساحتى من تنائيـ ـكَ بجهم من الحوادثِ نُكْر

* * *

ليتَ شعرى! والنفسُ تعلم أَن ليـ ـسَ بمُجْدٍ على الفتى «ليتَ شعرى»

هل لِحَالى زمانِنا من رجوع ؟ أَم لماضى زماننا من مَكَرِّ ؟

* * *

أَين أَيامُنا وأَين ليالٍ كرياض لَبِسْن أفوافَ زهْر

وزمانٌ كأَنما دبَّ فيه وَسَنٌ أَو هَفَا بهِ فَرْطُ سُكر

حين نَغْدُو إِلى جداولَ زرْقٍ يتغلغلْن فى حدائق خُضْرِ

فى هضابٍ مجلُوَّةِ الحسن حُمْر وبَوَادٍ مصقولةِ النَّبْتِ عُفْرِ

نتعاطَى الشَّمُولَ مُذْهبةَ السِّرْ بالِ والجوُّ فى مطارفِ غُبْرِ[2]

فى فُتُوٍّ تَوَشَّحُوا بالمعالى وَتردَّوْا بكلِّ مَجْدٍ وفخر[3]

وُضَّحٌ تنجلى الغياهبُ منهم عن وجوهٍ مثلِ المصابيح غُرِّ

كلُّ خِرْق يكادُ ينهلُّ ظَرفاً زانَ مَرآته بأَكرمِ خُبْرِ[4]

---

(١) الردء : الناصر ، العون .

(٢) مطارف : جمع مطرف – بضم الميم وكسرها – رداء مربع من خز ذو أعلام .

(٣) فتو : جمع فتى .

(٤) الخرق : من الفتيان الظريف فى سماحة ونجدة . مرآته : منظره الجميل .

وسجايا كأنهن كؤوسٌ أَو رياضٌ قدَ جادَها صَوْبُ قَطْرِ
يتلقَّى القَبُولَ منى قُبُولٌ كلما راح نفحُها ارتاح صدرى
فهو يَسْرِى مُحَمَّلاً من سجايا كَ نسيما يُزهَى بأَفوحِ عِطْرِ

* * *

٣ — المدح

ملك أطاع الله :

قال ابن زيدون هذه الأبيات يمدح أبا الحزم بن جهور ويعرّض بالوشاة بعد مطلع غزلى :

مَالى وللأَيام ؟ لجَّ مع الصِّبَا عدوانُها فكسا العِذارَ مَشيبا
محَقَتْ هلالَ السِّنِّ قبلَ تمامه وذَوَى بها غُصْن الشباب رطيبا
لأَلَمَّ بى ما لَوْ أَلَمَّ بِشَاهِقٍ لانْهالَ جانبُهُ فصار كثيبا
فلئن تَسُمْنِى الحادثات فقد أَرى للجَفْنِ فى العَضْبِ الطَّرير نُدوبا[١]
ولئن عجِبْتُ لِأَنْ أُضامَ وجهْوَرٌ نِعْمَ النصيرُ لقد رأَيتُ عجيبا
مَنْ لا تُعَدِّى النائباتُ لجارهِ زَحفاً ولا تمشى الضَّرَاء دبيباً[٢]
مَلِكٌ أَطاع اللهَ منه مُوَفقٌ ما زال أَواباً إليه منيبا

(١) تسمنى : تجشمنى مكروهاً . الجفن : الغمد . العضب الطرير : السيف القاطع . الندوب : جمع ندب وهو الجرح وهنا أثر الصدأ الذى يعلو السيف لطول مكثه فى الغمد .
(٢) تعدى : تسرع فى العدو . يمشى الضراء : يمشى مستخفياً .

يأْتى رضاه مُعادياً ومُواليا ويكونُ فيه مُعاقِباً ومُثيبا
متَمرسٌ بالدهر يَقْعُدُ صَرْفُهُ إنْ قامَ فى نادى الخطوب خطيبا
بَسَّامُ ثغرِالبِشرإن عَقَد الحُبا فرأيتَ وَضَّاحا هناك مَهيبا[١]
مَلأَ النواظرَ صامتاً ولربما ملأَ المسامعَ سامعاً ومجيبا
عِقْد تألَّفَ فى نظام رياسة نَسَقَ اللآلئ مُنجباً ونَجيباً
يغشَى التجارِب كهلهمُ مُسْتَغنِياً بقريحة هى حَسْبُهُ تجريبا
وإذا دعوت وَليدهم لعظيمةٍ لباكَ رَقْرَاقَ السماح أَديبا
هِمَمٌ تنافِسُها النجومُ وقد تَلاَ فى سُؤدَدٍ منها العقيبُ عَقيبا
ومحاسنٌ تَنْدى رقائقُ ذِكرها فتكادُ تُوهمك المديحَ نسيبا
كالآسِ أخضرَ نَضْرةً والوردِ أَحْـمَرَ بهجةً ،والمِسْك أَذْفرَ طِيبا[٢]
وإذا تَفنَّنَ فى اللسان ثناؤه فافتنَّ لم يكن المرادُ غريبا
غَالَى بما فيه فَغَيْرُ مُواقِعٍ سَرَفاً ولا مُتوقِّعٍ تكذيبا[٣]
كان الوشاةُ وقد مُنيتُ بإفكهم، أَسباطَ يعقوبٍ وكنت الذيبا[٤]
وإذا المُنى بِقَبُولِكَ الغَضِّ الجنى هُزَّتْ ذوائبُها فلا تثريبا

---

(١) الحبا : جمع حبوة ، وعقد الحبا : جلس ضاماً رجليه إلى بطنه .

(٢) أذفر : ذكى طيب الريح .

(٣) مواقع : مدان . المتوقع : المنتظر ، يقول : مهما بالغ مادحه بما فيه من الصفات فلم يكن مدانياً إفراطاً ولا متخوفاً تكذيباً .

(٤) يريد أنه برىء مما ابتلى به من كذبهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

أَناسيفكَ الصَّدئُ الذي مهما تشأ نُعِدِ الصِقال إليه والتَّذْريبا[١]
كم ضاق بي من مذهبٍ في مَطْلَبٍ فَتَنَيْتَهُ فُسُحَ المجال رحيبا
وَزَهَاجنابُ الشكر حين مَطَرْتَه بسحائبِ النُّعْمَى فَرُدَّ خصيبا

* * *

فرحة الشاعر :

كتب الشاعر هذه القصيدة يمدح بها صديقه أبا الوليد بن جهور بعد أن اعتلى عرش قرطبة بعد وفاة أبيه ، وفيها تتجلى فرحة الشاعر بمليكه واستبشاره بولايته ، قال بعد مطلع غزلي يحن به إلى ولادة » *

للجهوريِّ أَبي الوليد خلائقٌ كالرَّوْضِ أَضحكَهُ الغمامُ الباكي
مَلِكٌ يسوسُ الدهرَ منه مُهَذَّبٌ تدبيرُهُ للمُلْكِ خيرُ مِلاك[٢]
جارَى أَباه بعد ما فاتَ المَدَى فتلاهُ بين الفَوْت والإِدراك
شمسُ النهارِ وبدرُه ونجومُهُ أَبناؤه مِن فَرْقَدٍ وَسِماك[٣]
يستوضِحُ السارونَ زُهْرَ كواكبٍ منهم تُنِير غياهِبَ الأَحْلاك
بُشراكِ يا دنيا وبشرانا معاً هذا الوزيرُ أَبو الوليدِ فَتاك
تُلْفِي السيادةَ ثَمَّ إن أَضْلَلْتِها ومتى فَقَدت السَّرْوَ فهو هناك[٤]
وإذا سمعتِ بواحدٍ جُمِعتْ له فِرَقُ المحاسن في الأَنام فَذَاكِ

---

(١) التذريب : التحديد .
(٢) ملاك الأمر : قوامه .
(٣) الفرقد والسماك : نجمان نيران .
(٤) تلفى : تجدى ، والخطاب للدنيا . ثم : هناك . السرو : الشرف .
* انظر منتخبات الغزل ص ٢١٨ من هذا الكتاب .

صمصام بادِرَةٍ وطَوْدُ سَكِينةٍ   وجوادُ غايات وجِذْل حِكاك[١]

طَلْقٌ يُفَنِّدُ فى السَّماح وجاهلٌ   مَنْ يستشفُّ النارَ بالمِحراك[٢]

صَنَعُ الضميرِ إذا أحال بمُهْرَقٍ   يمناه فى مَهلٍ وفى إيشاك[٣]

نظَمَ البلاغةَ فى خلال سطوره   نَظْمَ اللآلى التُّوم فى الأسلاك[٤]

نادى مساعِيَهُ الزمانُ منافساً   أحرزتِ كلَّ فضيلةٍ فكَفاك[٥]

ما الوَرْدُ فى مَجْناه سامَرَهُ النَّدى   مُتَحلِّياً إلا ببَعْضِ حُلاك

كَلاَّ ولا المِسكُ النَّمومُ أريجُهُ   متعطرًا إلا بِوَسْمِ ثَناك

اللهوُ ذِكرُكِ لا غِناءُ مُرَجِّعٍ   يَفْتَنُّ فى الإطلاق والإمساك[٦]

طارت إليكِ بأوليائكِ هِزَّةٌ   تهفو لها أسفاً قلوبُ عِداك

يأيُّها القمرُ الذى لِسَنائه   وسَنَاهُ تعشو السَّبْع فى الأفلاك[٧]

فرِحُ الرِّياسةِ إذ مَلَكْتَ عِنَانَها   فرَحُ العروس بِصِحَّةِ الإملاك[٨]

مَن قال إنك لستَ أوحَدَ فى النُّهَى   والصالحاتِ فدَانَ بالإشراك

---

(١) صمصام بادرة : سيف حدة . الجذل : عود الشجرة ، وجذل الحكاك : جذل ينصب لتحتك به الإبل الجربى .

(٢) يقول إنه باش الوجه سمح والكرم طبيعة فيه وليس يزيده تفنيد الجاهلين إلا تمادياً فى الكرم كالنار يزيدها المحراك اشتعالا .

(٣) صنع الضمير : صناع حاذق . المهرق : الصحيفة . إيشاك : إسراع .

(٤) توم اللآلى : الكبيرة منها .

(٥) النموم : الساطع . الثنا : الثناء .

(٦) مرجع : مردد . الإطلاق والإمساك : الإنطلاق بالصوت ثم النزول به .

(٧) السناء بالمد : الرفعة والشرف ، والسنا بالقصر : الضوء . تعشو : تقصد .

(٨) الإملاك : الزواج .

قَلَّدْنِىَ الرأْىَ الجميل فإنه حَسْبِى ليومَىْ زينةٍ وَعِراك
وإذا تحدَّثَتِ الحوادثُ بالرَّنا شَزْرًا إلى فقل لها : إياك[1]
والدَّجْنُ للشمس المنيرةِ حاجبٌ والجَفْنُ مَثْوَى الصارمِ الفتَّاك
دامتْ حياتُكَ مااستُدِمْتَ فَلَم تزل تحْيا بِكَ الأَخطارُ بعدَ هلاك

* * *

ملتمس الوزارة :

قال ابن زيدون هذه القصيدة فى مدح أبى الوليد بن جهور (لا فى مدح أبى الحزم بن جهور كما جاء فى الديوان) ، وفيها نجد الشاعر يعرّض بمطلب لعله منصب الوزارة بعد أن أبدى ابتهاجه فى القصيدة السابقة باعتلاء أبى الوليد عرش قرطبة ، وهو يفتحها بمطلع غزلى تقليدى ثم يسترسل فى مدح مليكه وتعداد مناقبه فى جو من النشوة يدل على إقبال الدنيا عليه . قال بعد المقدمة الغزلية ومطلعها :

أَجَلْ إن لَيْلَى حيثُ أَحياؤها الأَسْدُ مهاةٌ حَمَتْها فى مراتعها أُسْدُ

* * *

هو الدهرُ مهما أَحسنَ الفعلَ مرةً فمن خطأٍ ، لكنْ إساءَتُهُ عَمْدُ
حذارك أَن تغترَّ منه بجانبٍ ففى كل وادٍ من نوائبه سعد[2]
ولولا السراةُ الصِّيدُ من آل جَهْورٍ لأَعْوَزَمن يُعْدِى عليه متى يَعْدو[3]

---

(١) الرنا : النظر .
(٢) يقال : « بكل واد سعد » أو « بكل واد بنو سعد » هو مثل يضرب فى الشر ويريدون به أن فى كل جهة كفاءها من الشر والأذى .
(٣) أعدى فلاناً على فلان : نصره وأعانه وقواه .

ملوكٌ لبسنا الدهرَ فى جَنَبَاتِهم رقيقَ الحواشى مثلَ مافُوِّفَ البُرْد[١]

بحيث مَقيلُ الأَمْنِ ضافٍ ظِلالُه وفى منهلِ العَيْشِ العذوبةُ والبَرْد[٢]

هم النفر البيضُ الذين وُجُوهُهُمْ تروقُ فتستشفِى بها الأَعينُ الرُّمْدُ

كرامٌ يمُدُّ الراغبون أَكفَّهم إلى أَبحرٍ منهم لها باللُّهَا مَدُّ[٣]

فلا يُنْعَ منهم هالكٌ ، فهو خالدٌ بآثاره إِن الثناءَ هو الخُلْد

أَليس أَبو الحزم الذى غِبَّ سَعْيِهِ تبصَّر غاوينا فبانَ له الرُّشْد

أَغرُّ تَمَهَّدْنا به الخفضَ بعدما أُقِضَّ علينا مَضجَعٌ ونبا مَهْدُ

فشمَّرَ حتى انجابَ عارِضُ فتنةٍ تأَلَّقَ منها البرق واصطخبَ الرعد[٤]

هو الأَثرُ المحمودُ إن عاد ذكره تطلَّعَتِ العلياءُ واستشرفَ المجد

تولى فلولا أَن تَلاه محمدٌ لأَوطأَ خَدَّ الحُرِّ أَخمصَهُ العبْدُ[٥]

مليكٌ يسوسُ المُلْكَ منه مُقَلَّدٌ رَوَى عن أَبيه فيه ماسَنَّهُ الجَدُّ

سجيتُه الحُسنَى وشيمتُهُ الرِّضا وسيرتُه المثلى ومذهبُهُ القَصْد

هُمامٌ إذا زان النَّدِيَّ بحبْوَةٍ ترجَّحَ فى أَثنائها الحسب العَدُّ[٦]

زعيمٌ لأَبناءِ السيادةِ بارعٌ عليهم به تُثْنَى الخناصر إن عُدُّوا

(١) فوف : رقق . البرد : الثوب .
(٢) مقيل : مكان القيلولة ، وهو هنا بمعنى منزل . ضاف : سابغ .
(٣) اللها جمع لهوة : العطايا .
(٤) يشير إلى قيام أبى الحزم بشؤون قرطبة بعد الفتنة الطويلة آخر عصر بنى أمية .
(٥) يقول لولا أن أبا الوليد محمد بن جهور قد خلف أبا الحزم لساءت العاقبة وسادت دولة العبيد على دولة الأحرار فأذلوهم وداسوا خدودهم بأرجلهم .
(٦) العد : الكثير .

بعيد منال الحال دانى جَنَى النَّدى ... إذا ذُكِرَتْ أخلاقُهُ خَجِل الوَرْدُ

مُمِرٌّ لمن عاداه إذ أولياؤُهُ ... يَلَذُّ لهم كالماءِ شِيبَ به الشَّهد[1]

إذا اعترف الجانى عفا عَفْوَ قادر ... عَلاَ قدرُهُ عن أن يَلِجَ به حِقْد

له عَزْمةٌ مطويَّةٌ فى سَكِينةٍ ... كما لاَنَ متنُ السيفِ واخشوشنَ الحدُّ

ذراعٌ، لما يأتى به الدهرُ، واسعٌ ... وباعٌ، إلى ما يُحْرِزُ الفخرَ ممتدُّ

هو الملك المشفوع بالنُّسكِ مُلْكُهُ ... فللهِ ما يَخْفَى ولله ما يَبْدُو

إلى الله أَوَّابٌ ولله خائفٌ ... وبالله معتدٌّ وفى الله مُشْتَدُّ

فديتُكَ إنى قائلٌ فمعرِّضٌ ... بأوطارِ نَفْسٍ منك لم تَقْضِها بعد[2]

مُنًى كالشَّجا دون اللَّهاة تعرَّضَت ... فلم يكُ للمصدورِ من نَفْثِها بُدُّ

أَمِثْلِىَ غُفْلٌ خاملُ الذِّكْرِ ضائعٌ ... ضَياعَ الحسام العَضْب[3] أصدأه الغِمد

أنا السيفُ لا ينبو مع الهَزِّ غَرْبُهُ[4] ... إذا ما نبا السيفُ الذى تَطْبعُ الهند

بدأْتَ بنُعمى غَضَّةٍ إن تُوالِها ... فَحُسْنُ الأَلَى[5] فى أن يواليها سَرْدُ

لعمَرك ما للمال أَسعى فإنما ... يرى المالَ أسنى حَظِّهِ الطَّبعُ الوَغْد

ولكن لحال إن لَبِسْتُ جمالَها ... كسوتُكَ ثوبَ النُّصْحِ أعلامُه الحمدُ[6]

أَتتك القوافى ساهداتٍ بما صَفا ... من الغيبِ فاقبلْها فما غَرَّكَ الشهْد

---

(١) ممر : من المرارة .
(٢) الشجا : ما يعترض فى اللهاة أو الحلق .
(٣) العضب : القاطع .
(٤) الغرب : الحد . تطبع : تصنع .
(٥) الألى : النعمة . سرد : تتابع .
(٦) يشير فى هذا البيت إلى الوزارة التى يرغب بها .

مدح وتهنئة :

ها هو ذا ابن زيدون فى إشبيلية يتفيأ ظلال النعيم بقرب مليكها المعتضد بعد أن جعله وزيره وأغدق عليه نعمه وإحسانه . فليلهج لسان الشاعر بالشكر له ولينثر فوق تاجه درر شعره . وهذه القصيدة إحدى مدائحه الرائعة قالها يهنئه بحلول عيد الأضحى سنة ٤٤٥ ، وقد ذكر ابن بسام طرفاً منها فى ذخيرته ونقد بعض أبياتها ، وذكر أيضاً ابن خاقان طائفة منها فى قلائده . وإننا لنشعر ونحن نتلو أبياتها بذلك النسج المتماسك وتلك الديباجة الفخمة التى تنم عن قوة أسره للكلام وحسن اطلاعه على شعر الفحول . وقد رأى ابن خاقان فى مطلعها الغزلى حنيناً لولادة وعهدها ونحن نرى كما أشرنا أنه مطلع تقليدى ليس فيه ما يربطه بولادة ، فلنستمع إلى الشاعر ولنتدبر معاً هذه الجزالة وهذه القوة :

أَمَا فى نسيم الريح عَرْفٌ مُعَرِّفُ ... لناهل لذَاتِ الوَقْفِ بالجِزْعِ موقفُ [١]

فنقضِىَ أَوطارَ المُنى مِن زيارةٍ ... لنا كَلَفٌ منها بما نَتَكَلَّفُ [٢]

ضمانٌ علينا أَن تُزَارَ ودونَها ... رقاقُ الظُّبَا والسَّمْهَرِىُّ المثقَّفُ [٣]

وقومٌ عِدًى يُبْدُون من صفحاتِهِمْ ... وأَزْهَرُهَا من ظُلمة الحِقْدِ أَكْلَفُ [٤]

غيارَى يَعدُّون الغَرَامَ جَرِيرةً ... بها ، والهَوَى ظُلماً يَغِيظُ ويُؤْسِف

يَودُّون لو يَثْنِى الوعيدُ زَماعَنَا ... وهيهات ريحُ الشوقِ من ذاكَ أَعْصِفُ

يسيرٌ لدى المشتاقِ فى جانب الهوى ... نَوَى غُرْبَةٍ أَو مَجْهَلٌ مُتَعَسِّف

---

(١) العرف : الشذى والرائحة الطيبة . الوقف : السواد . الجزع : منعطف الوادى .
(٢) كلف : ولع .
(٣) الظبا : جمع ظبة وهى حد السيف . السمهري : الرمح . المثقف : المقوم .
(٤) يبدون من صفحاتهم : كناية عن العداوة . أزهر : مشرق .
(٥) الزماع : العزم على الزيارة .

هل الرَّوْعُ إلا غمرةٌ ثم تنجلى أَم الهَوْلُ إلا غمةٌ ثم تُكْشف

وفى السِّيرَاءِ الرَّقْمِ وَسْطَ قبابِهِمْ بعيدُ مَناطِ القُرْطِ أَحْورُ أَوْطَف[١]

تَبَايَنَ خلْقَاهُ ، فعَبْلٌ منعَّمٌ تأَوَّدَ فى أعلاهُ لَدْنٌ مهفهف[٢]

فللعانِكِ المرتجِّ ما حازَ مئزرٌ وللغُصُنِ المهتزِّ ما ضمَّ مطْرَف[٣]

حبيبٌ إليه أَن نُسَرَّ بوصْلِهِ إذا نحنُ زُرْنَاهُ وَنَهْنَا ونُسْعَف

وايلَةَ وافينا الكثيبَ لموعِدٍ سُرَى الأَيْمِ لمْ يُعْلَمْ لمَسْرَاهُ مَزْحَف[٤]

تهادَى أَناةَ الخَطْوِ مُرْتَاعَةَ الحَشَا كماريعِ يَعْفُورُ الفَلاَ المُتَشَرِّف[٥]

فما الشمسُ رَقَّ الغيمُ دون إياتِها سوى ما أَرى ذاك الجبينُ المُنَصَّف[٦]

فديتُكِ أَنَّى زرتِ نورُكِ فاضحٌ وعِطْرُكِ نَمَّامٌ وَحلْيُكِ مُرْجِف[٧]

هبيكِ اعتَرَرْتِ الحيَّ واشيكِ هاجعٌ وفَرْعُكِ غِرْبِيبٌ وليلُكِ أَغْطف[٨]

فأَنَّى اعتسفتِ الهولَ خطوكِ مُدْمَجٌ ورِدْفُكِ رَجْراجٌ وخصرُكِ مُخْطَف[٩]

لجاجٌ تمادِى الحبِّ فى المعشرِ العِدا وأُمُّ الهوى الأُفْقَ الذى فيه نُشْنَف[١٠]

---

(١) السيراء : ثوب مخطط . الرقم : المرقوم أى المعلم . أوطف : طويل شعر أهداب العين .

(٢) عبل : أى ردف ضخم .

(٣) العانك : من الرمال ما تعقد وارتفع .

(٤) الأيم : الحية وذكر الأفعى .

(٥) يعفور : ظبى . المتشرف : المستطلع من مكان عال .

(٦) إياة الشمس : حسنها وضوءها . المنصف : الذى عليه النصيف وهو الخمار .

(٧) مرجف : من أرجف إذا تحرك واضطرب .

(٨) اعترت الحى : جئته وجزت به على غير علم . فرعك غربيب : شعرك شديد السواد . أغطف : حالك السواد .

(٩) مدمج : داخل بعضه فى بعض . مخطف : ضامر .

(١٠) أم الهوى : قصد الهوى . نشنف : نبغض .

وأَن نَتَلَقَّى السخطَ عانين بالرِّضى لِغَيْرانَ أَجْفَى ما يُرى حين يَلْطُف

كفانا من الوصل التحيةُ خِلْسةً فيومىءُ طَرفٌ أَو بنانٌ مُطرَّفُ[1]

خليلَيَّ مهلاً لا تلوما فإننى فؤادى أَليفُ البثِّ والجسمُ مُدْنَفُ[2]

وأَعنفُ ما يلقَى المحبُّ لجاجةً على نفسهِ فى الحبِّ حين يُعَنَّف

وإنى ليستهوِينىَ البرقُ صَبْوَةً إلى برقِ ثغرٍ إن بدا كادَ يَخْطَفُ

وما وَلَعى بالراح إلا تَوَهُّمٌ لِظَلْمٍ به كالراح لو يُتَرَشَّفُ[3]

وتُذْكِرُنى العِقدَ المُرِنَّ جُمانُهُ مُرِنَّاتُ وُرْقٍ فى ذُرَى الأَيْكِ تَهتِفُ[4]

فما قبلَ من أَهوى طوى البدرَ هَودجٌ ولا صانَ ريمَ القفرِ خدرٌ مُسَجَّفُ[5]

ولا قبلَ عبَّادٍ حوى البحرَ مجلسٌ ولا حمل الطَّوْدَ المُعظَّمَ رَفْرف[6]

هو المَلِكُ الجَعْدُ الذى فى ظلاله تكفُّ صروف الحادثاتِ وَتُصْرَفُ[7]

هُمَامٌ يزين الدهرَ منه وأَهلَهُ مليكٌ فقيهٌ كاتبٌ متفلسفُ

يتيه بمرقاهُ سريرٌ ومنبرٌ ويَحْمَدُ مسعاهُ حُسامٌ ومصحف

رَوِيَّتُهُ فى الحادثاتِ الإِدِّ لحظةٌ وتوقيعُهُ الجالى دُجَى الخطبِ أَحْرُفُ[8]

---

(١) مطرف : مصبوغ بالحناء .

(٢) مدنف : مريض من الوجد .

(٣) الظلم : الريق وماء الأسنان .

(٤) الجمان : حب اللؤلؤ . الورق : جمع ورقاء وهى الحمامة .

(٥) ريم : ظبى . مسجف : عليه ستور .

(٦) الرفرف : كل ما أعد للجلوس وهنا العرش .

(٧) الجعد : شديد الأسر .

(٨) الإد : العظيم . يريد أن توقيعاته موجزة أى بليغة .

يَذِلُّ له الجبارُ خيفةَ بأْسه   ويعنو إليهِ الأَبلجُ المتغطرف[1]

حِذَارَكَ إذ تبغِى عليه من الردَى   ودونَكَ فاستوفِ المُنَى حين تُنصِف

ستعتامُهُمْ فى البَرِّ والبحر بالتَّوَى   كتائبُ تُزْجَى أَو سفائنُ تُجْدَف[2]

أَغرُّ متى نَدْرُس دواوين مجدِهِ   يَرُقْنا غريبٌ مجملٌ أَو مُصنَّف[3]

إذا نحن قرَّظناه قَصَّرَ مُطْنِبٌ   ولم يتجاوزْ غايةَ القصدِ مُسْرِف

وأَرْوَعُ لا الباغى أَخاه مُبلَّغٌ   مُناه ولا الراجى نداه مُسَوَّف

مُمَرُّ القُوَى لا يملأُ الخطبُ صدرهُ   وليس لأَمرٍ فائتٍ يتلهف[4]

له ظِلُّ نُعمى يذكر الهِمُّ عنده   ظِلاَلَ الصِّبا بل ذاك أَنْدى وأَوْرف[5]

جحيمٌ لعاصِيه يُشَبُّ وَقُودُه   وجنة عدنٍ للمطيعين تُزْلَف[6]

مَحاسِنُ غَرْبُ الذم عنها مُفَلَّلٌ   كَهَامٌ وشملُ المجدِ فيها مُؤلَّف[7]

تَنَاهَتْ فَعِقْدُ المجدِ منها مُفَصَّلٌ   سَنَاءً وبُرْدُ الفَخْرِ فيها مُفَوَّف[8]

طَلاَقَةُ وجهٍ فى مضاءٍ كَمِثْلِ ما   يَرُوقُ فِرِنْدُ السيفِ والحَدُّ مُرْهف[9]

---

(١) الأبلج المتغطرف : السيد الشريف .

(٢) ستعتامهم : ستختارهم . التوى : الهلاك .

(٣) المجمل : المحتاج إلى التفسير والبيان . المصنف : المميز بعضه من بعض . وفى هذا البيت تصنع ولعله يريد ذكر « الغريب المصنف » وهو كتاب لأبى عبيد القاسم بن سلام .

(٤) ممر القوى : أصله شديد الفتل ، فهو وصف من أوصاف الحبل ، ويريد به أنه مستحكم القوى .

(٥) الهم : الشيخ الكبير .

(٦) تزلف : تقرب .

(٧) غرب الذم : حده . كهام : كليل .

(٨) المفصل : من الفاصلة وهى الخرزة تفصل بين الخرزتين فى العقد . مفوف : رقيق .

(٩) فرند السيف : جوهره ولمعانه .

على السيفِ من تلك الشهامة مِيسَمٌ ... وفى الروض من تلك الطلاقة زُخْرُف
سجايا لمن والاه كالأَرْى يُجتنَى ... تعودُ لمن عاداه كالشَّرْى يُنْقَف[١]
يراقب منه، اللهَ (معتضدٌ) به ... يدَ الدهر، يقسو فى رضاه ويرأَف[٢]
فقلْ للملوك الحاسديه متى ادَّعى ... سباقَ العتيقِ الفائتِ الشأْوِ مُقْرِف[٣]
أَليس بنو عبّادٍ القِبْلةَ التى ... عليها لآمالِ البريةِ مَعْكَف
ملوكٌ يُرى أَحياؤهم فخرَ دهرِهِمْ ... ويَخْلُفُ موتاهم ثناءٌ مُخَلَّف
بهم باهتِ الأَرضُ السماءَ فأَوجهٌ ... شُمُوسٌ وأَيدٍ من حَيا المزْنِ أَوْكَف[٤]
أَشارحَ معنى المجدِ وهو مُعَمَّس ... ومُجْزِلَ حظَّ الحمد وهو مُسَفْسِفْ[٥]
لعمرُ العِدا المستدرِجيكَ بزعمهم ... إلى غِرَّةٍ كادت لها الشمس تُكسف[٦]
لَكَالُوكَ صاعَ الغدرِ لؤمَ سَجيَّةٍ ... وَكِيلَ لهم صاعُ الجزاءِ المطَفَّف[٧]
لقد حاولوا العظمى التى لا شَوَى لها ... فأَعجلَهم عقْدٌ من الهَمِّ مُحْصف[٨]
ولما رأَيتَ الغدرَ هبَّ نسيمُه ... تلقَّاه إعصارٌ لبطشِكِ حَرْجَفُ[٩]

---

(١) الأرى : العسل . الشرى : الحنظل . ينقف : يشق لأخذ ما فى داخله

(٢) يد الدهر : مدى الدهر . يريد أنه يرأف ويعنف دائماً فى سبيل مرضاة الله وحده .

(٣) العتيق : النجيب . الشأو : الغاية ، والفائت الشأو : السابق . مقرف : هجين .

(٤) أوكف : أغزر .

(٥) معمس : مبهم . مسفسف : هابط ونازل .

(٦) غرة : غفلة . لعمر العدا : يقسم بحياتهم متهكماً للإشارة إلى إخفاقهم فيما حاولوا ، وهنا يبدأ فى التكلم عن حروب المعتضد وانتصاراته .

(٧) فى الأصل المطفف : المنقوص المبخوس وقد يستعمل بمعنى الوافى التام وهو المراد هنا .

(٨) لا شوى لها : لا تصيب الأطراف بل تصيب المقاتل . فأعجلهم عقد : أى رأى وتدبير من عزمك . محصف : محكم سديد .

(٩) الحرجف : البارد وصف بها الإعصار .

أَظَنَّ الأَعادى أَنَّ حزمَكَ نائمٌ لقد تَعِدُ الفَسْلَ الظنونُ فَتُخْلِفُ[١]

دواعِى نفاقٍ أَنذرتْكَ بأَنه سيَشْرَى ويذوَى العضو من حيث يشأَفُ[٢]

تحمَّلتَ عِبءَ الدهرِ عنهم وكلُّهم بنعماكَ موصولُ التَّنَعُّمِ مُتْرَفُ

فإِن يكفروا النُّعمى فتلك ديارُهُمْ بسيفِكَ قاعٌ صَفصفُ الرَّسْمِ تُنْسَفُ

وَبُشْرَاكَ عيدٌ بالسرورِ مُظَلَّلٌ وبالحظ فى نَيْلِ المنى مُتَكَنَّفُ[٣]

بشيرٌ بأَعيادٍ تُوافِيكَ بعدَهُ كما يَنْسَقُ النظمَ الموالى ويرصفُ

تُجَرِّدُ فيه سيفَ دولتك الذى دماءُ العِدَا دَأْباً بغَرْبَيْهِ تُظْلَفُ[٤]

هو الصارمُ العَضْبُ الذى العزمُ حَدُّهُ وَحِلْيَتُهُ بَذْلُ النَّدى والتَّعَفُّفُ

همامٌ سَمَا للمُلْكِ إِذْ هو يافعٌ وتَمَّتْ لَهُ آياتُهُ وهو مُخْلِفُ[٥]

كريمٌ يعدُّ الحمدَ أَنفَسَ قِنْيَةٍ فيُولَعُ بالفعل الجميلِ ويُشْغَفُ[٦]

غَدَا بخميسٍ يُقْسِمُ الغيمُ إنه لأَحفلُ منه مكفهرًّا وأَكْثَفُ[٧]

هو الغيم من زُرْقِ الأَسِنَّةِ برقُهُ وللطبل رعدٌ فى نواحيه يَقْصِفُ

ولما قضينا ما عَنانا أَداؤه وكلٌّ بما يرضيكَ داعٍ فَمُلْحِفُ[٨]

---

(١) الفسل : الدنىء الرذل .

(٢) يشرى العضو : يظهر عليه ورم وقروح تحتاج إلى الكى . يشأف : تكوى شأفته أى قرحته لتذهب بالكى .

(٣) متكنف : مشمول .

(٤) بغربيه : بحديه . تظلف : تهدر .

(٥) الغلام اليافع : الذى شارف الاحتلام . المخلف : الذى اختلف نظر الناس فيه فبعضهم يقول قد احتلم وأدرك وبعضهم يقول غير مدرك .

(٦) قنية : مكسب .

(٧) خميس : جيش . مكفهراً : مسوداً .

(٨) أداؤه : أى أداء الصلاة فى العيد . ملحف : ملح .

قرنَّا بحمد الله حمدَكَ إنه لأَوكدُ ما يُحظى لديه ويُزْلِفُ
وَعُدْنا إلى القصر الذى هو كعبةٌ يُغادِيهِ منا ناظرٌ أَو مُطَوِّف
فإذ نحن طالعناه والأُفقُ لابسٌ عجاجتَهُ والأَرض بالخيل تَرْجُفُ[1]
رأَيناكَ فى أَعلى المُصَلَّى كأَنما تَطَلَّعَ من محراب داودَ يوسف
ولما حضرنا الإِذْنَ والدهرُ خادمٌ تُشيرُ فيُمْضى والقضاءُ مُصَرِّف
وصلنا فقبلنا النَّدَى منك فى يد بها يُتْلَفُ المالُ الجسيمُ ويُخْلَف
لقد جدْتَ حتى ما بنفسٍ خصاصةٌ وأَمَّنْتَ حتى ما بنفس تَخَوُّفُ[2]
ولولاكَ لم يسهُلْ من الدهر جانبٌ ولا ذَلَّ منقادٌ ولا لَانَ مِعْطَف[3]
لك الخيرُ أَنَّى لى بشكرِكَ نَهْضَةٌ وكيفَ أُؤدى فرضَ ما أَنتَ مُسْلِف[4]
أَفدتَ بهيمَ الحالِ منىَ غُرَّةً يقابلها طرفُ الجَموح فيَطْرُفْ
وَبَوَّأْتَهُ دنياكَ دارَ مُقامةٍ بحيث دَنَا ظِلٌّ وذُلِّلَ مَقْطَف
وكم نعمةٍ أُلْبِسْتُها سُنْدسيةٍ أُسَرْبَلُها فى كلِّ حين وأُلْحَفُ[6]
مواهبُ فياضِ اليدين كأَنما من المُزْنِ تُمْرَى أَو من البحر تُغْرَفُ[7]
فإن أَكُ عَبْدًا قد تَملَّكْتَ رِقَّهُ فأَرفعُ أَحوالى وأَسْنى وأَشْرَف

---

(١) العجاجة : الغبار فى الحرب .
(٢) خصاصة : فقر .
(٣) المعطف : السيف .
(٤) نهضة : قدرة . مسلف : مقدم .
(٥) بهيم : أسود . يقول: أكسبت سواد الحال منى غرة بيضاء يواجهها طرف الطموح الذى يمد بصره إلى الشيء فيطرف أى من قولهم فلان مطروف العين أى محملق ذاهل .
(٦) أسربلها : ألبسها .
(٧) تمرى : تدر وتسكب .

٤ ــ الرثاء

توفى أبو الحزم سنة ٤٣٥ للهجرة وتولى من بعده ابنه أبو الوليد ، فنظم الشاعر هذه القصيدة التى يرثى بها الفقيد ويعزى الابن ويمدحه . ويبدو أن ابن زيدون قد أعجب بصياغة هذه القصيدة فردد كثيراً من معانيها فى مرثياته الهامة ؛ ولذا كانت قصيدته التى رثى بها أم أبى الوليد تنظر إلى هذه المرثية وهى على وزنها ورويها ، وقصيدته التى رثى بها المعتضد وعزى المعتمد هى أيضاً على وزنهما ورويهما وفيها يكرر الشاعر كثيراً من أبيات القصيدة السابقة . ونلاحظ أن الشاعر يتخذ رثاء الملوك ومن يلوذ بهم وسيلة لمدح من سيخلفهم . وهو فى هذا الغرض فاتر العاطفة على رغم جودة سبكه ومتانة صوغه قال :

أَلم ترَ أَنَّ الشمس قد ضَمَّها القبرُ … وأَنْ قد كفانا فَقْدَها القمرُ البدْرُ

وأَنَّ الحَيَا إنْ كان أَقْلَعَ صَوْبُهُ … فقد فاضَ للآمال فى إثْره البحرُ[١]

إساءَةُ دَهْرٍ أَحْسَنَ الفعلَ بعدها … وذنبُ زمانٍ جاءَ يَتْبَعُهُ العُذْر

فلا يَتَهَنَّ الكاشحون فما دَجَا … لنا الليلُ إلا ريثما طَلَعَ الفجر[٢]

وإن يكُ ولَّى جَهْوَرٌ فمحمد … خليفتُهُ العَدْلُ الرِّضا وابنُهُ البَر

فتى يجمع المجدَ المفرَّقَ هَمُّهُ … ويُنْظَمُ فى أَخلاقه السُّؤدَدُ النَّثْر

أَهابتْ إليه بالقلوب محبَّةٌ … هى السحرُ للأَهواءِ بل دونها السحر

سَرَتْ حيث لا تسرى من الأَنفس المنى … ودبَّتْ دبيباً ليس تُحْسِنُهُ الخمر

لَبِسْنا لديه الأَمْن تندَى ظلالُهُ … وزهَرَةَ عيشٍ مثلَ ما أَينعَ الزهر

---

(١) الحيا : المطر . صوبه : انصبابه .

(٢) الكاشحون : الأعداء .

وعادت لنا عاداتُ دنيا كأَنها ... بها وَسَنٌ أَو هزَّ أَعطافَها سكر
مليكٌ له منا النصيحةُ والهوى ... ومنه الأَيادى البيضُ والنِّعم الخُضْر
فقل للحَيَارَى قد بدا عَلَمُ الهُدى ... وللطامع المغرورِ قد قُضِىَ الأَمر
أَبا الحزم قد ذابتْ عليك من الأَسى ... قلوبٌ مُناها الصبرُ لو ساعَدَ الصبر
دع الدهرَ يفجعْ بالذخائر أَهلَه ... فما لنفيسٍ مُذْ طواكَ الرَّدى قَدْر
تهونُ الرزايا بعدُ وَهْى جليلةٌ ... ويُعْرَفُ مذ فارقْتَنَا الحادثُ النُّكرُ
فقدناكَ فِقْدَانَ السحابة ،لم يزل ... لها أَثرٌ يُثْنِى به السهل والوعر
مساعيكَ حَلْىٌ لليالى مُرَصَّعٌ ... وذِكْرُكَ فى أَردانِ أَيامها عِطْر[١]
فلا تَبْعُدَنْ إِن المنيةَ غايةٌ ... إِليها التناهى طالَ أَو قَصُرَ العُمْر
عزاءً فَدَتْكَ النفسُ عنه فإِن ثَوَى ... فإِنك لا الوانى ولا الضَّرِعُ الغَمْر[٢]
وما الرزءُ فى أَن يُودَعَ التُّرْبَ هَالكٌ ... بل الرزءُ كلُّ الرزءِ أَن يَهْلِكَ الأَجر
أَمَامَكَ مِنْ حفظِ الإِلَه طليعةٌ ... وحولَكَ من آلائه عسكرٌ مَجْر[٣]
وما بكَ من فقرٍ إِلى نصرِ ناصرٍ ... كَفَتْكَ من الله الكلاءَةُ والنصر[٤]
لكَ الخيرُ إِنى واثقٌ بكَ شاكرٌ ... لِمَثْنى أَياديكَ التى كُفْرُها الكفرُ[٥]

---

(١) أردان : أكمام .
(٢) الضرع : الضعيف . الغمر : من لم يجرب الأمور .
(٣) المجر : الكثير .
(٤) الكلاءة : الرعاية والحفظ .
(٥) مثنى : مضاعف .

تحامَى العِدا لما اعتلَقْتُك جانبي   وقال المناوى :شَبَّ عن طَوْقه عمرو[1]
يلين كلامٌ كان يَخْشُنُ منهمُ   ويَفْتَرُّ نحوى ذلك النَّظَرُ الشَّزْر[2]
فصدِّقْ ظنونًا لِي وَفِّ فإننى   لَأَهْلُ اليدِ البيضاءِ منْكَ ولا فخر
مَنْ يَكُ للدنيا وللوَفْرِ سَعْيُهُ   فتَقْرِيبُكَ الدنيا وإقبالُك الوَفْر[3]

(١) اعتاق فلاناً وبه : هويه وأحبه .

(٢) النظر الشزر : النظر الغاضب وما فيه إعراض .

(٣) الوفر : المال .

٥ ـ الرسالة الهزلية

أَما بعد أَيها المُصابُ بعقله ، المُوَرَّطُ بجهله . البَيِّن سَقَطُه[١] ، الفاحشُ غلطُه ، العاثرُ فى ذَيْل اغتراره ، الأَعمى عن شمس نهاره ، الساقطُ سقوطَ الذباب على الشراب ، المتهافتُ تهافتَ الفَرَاش فى الشِّهاب[٢] ، فإن العُجْبَ أَكذَبُ[٣] ، ومعرفةَ المرءِ نفسَه أَصْوَبُ . وإنك راسلتنى مُسْتَهْدِياً ، مِنْ صِلَتى ، ما صَفِرَتْ[٤] منه أَيدى أَمثالك ، مُتَصَدِّياً من خُلَّتى لِمَا قُرِعَتْ دونه صنوفُ أَشكالك ، مُرْسلاً خليلَتكَ مُرْتادة[٥] ، مستعملاً عشيقتَكَ قَوَّادَة ، كاذباً نفسَكَ أَنك ستنزِلُ عنها إلَّى ، وتَخْلُفُ ، بَعْدَها ، علىَّ :

ولستَ بأَوَّلِ ذى همةٍ دَعَتْهُ لِمَا ليسَ بالنَّائلِ[٦]

ولا شكَّ أَنَّها قَلَتْكَ إذْ لم تَضَنَّ بكَ ، وَمَلَّتْكَ إذْ لم

---

(١) سقط القول : خطؤه .

(٢) الشهاب : الشعلة من النار .

(٣) أى المعجب يكذب نفسه لأنه يتخيل فى نفسه ما لا صحة له .

(٤) صفرت : خلت .

(٥) الخليلة هنا التى كان يرسلها ابن عبدوس إلى ولادة .

(٦) البيت للمتنبي . والنائل : ما ينال .

تَغَرْ عليك ، فإنها أَعْذَرَتْ[١] فى السَّفارةِ لَكَ ، وما قَصَّرتْ فى النيابة عنكَ ، زاعمةً أَن المروءة لفظٌ أَنت معناه ، والإنسانيةَ اسمٌ أَنتَ جسمُهُ وَهُيُولَاه[٢] ، قاطعةً[٣] أَنكَ انفردتَ بالجَمَالِ ، واستأْثرتَ بالكمال ، واستعليتَ فى مراتب الجَلال ، واستوليتَ على محاسنِ الخِلال ، حتى خَيَّلْتَ أَن يُوسُفَ عليه السلام حاسَنَكَ[٤] فغضضتَ منه ، وأَن امرأَة العزيز[٥] رأَتكَ فَسَلَتْ عنه ، وأَن قَارُونَ[٦] أَصابَ بعضَ ما كَنَزتَ ، والنَّطِفَ[٧] عَثَرَ على فَضْلِ ماركَزْتَ[٨] ، وكِسْرَى[٩] حَمَلَ غاشِيَتَكَ[١٠] ، وقَيْصَرَ[١١] رَعَى ماشِيَتَكَ ، والإسكندرَ قتلَ دَارَا[١٢] فى طاعتِكَ ، وأَرْدَشِيرَ[١٣] جاهَدَ ملوكَ

(١) أعذرت : أتت بما صارت به معذورة ، أى أن صاحبته بلغت الجهد فى السفارة وهى وساطتها فى الصلح .

(٢) هيولاه : مادته وحقيقته .

(٣) قاطعة : موقنة .

(٤) حاسنك : باراك فى الحسن .

(٥) امرأة العزيز مشهورة فى قصة يوسف وأنها أحبته .

(٦) قارون : من قوم موسى ، اشتهر بالكنوز والغنى .

(٧) النطف : رجل من تميم نهب أموالا لكسرى فى الجاهلية فأثرى ، فضرب به المثل بما أصاب من ثروة .

(٨) من الركز : وهو المال الدفين .

(٩) من ملوك الفرس .

(١٠) الغاشية : حديدة فوق مؤخرة الرحل .

(١١) ملك الروم .

(١٢) ملك الفرس الذى انتصر عليه الإسكندر .

(١٣) أردشير من ملوك الفرس ومثله الضحاك .

الطوائف بخروجهم عن جماعتكَ ، والضَّحَّاك استدعى مُسالمتَكَ ، وَجَذِيمةَ[١] الأَبرَش تمنَّى منادمتَكَ ، وَشِيرينَ[٢] قد نافستْ بُورانَ فيكَ ، وَبِلْقِيسَ[٣] غايرتْ الزَّبَّاءَ عليكَ ، وأَن مالكَ بنَ نُوَيْرَةَ[٤] إنما أَردفَ لك ، وَعُرْوَةَ[٥] بنَ جعفرٍ إنما رَحَلَ إليكَ ، وكُلَيْبَ[٦] بنَ رَبيعةَ إنما حَمَى المَرْعَى بعَزَّتِكَ ، وَجَسَّاساً[٧] إنما قَتَلَهُ بأَنَفَتِكَ ، وَمُهَلْهِلاً[٨] إنما طَلَبَ ثأْرَهُ بهمَّتِكَ ، والسَّمَوْءَلَ[٩] إنما وَفَى عن عهدِكَ ، والأَحنفَ[١٠] إنما احْتَبَى فى بُرْدَتك ، وَحَاتماً إنما جادَ بِوَفْرِكَ ، ولَقِيَ الأَضيافَ بِبِشْرِكَ ، وَزَيْدَ[١١] بنَ مُهَلْهَلَ إنما رَكِبَ بفخذَيْكَ ، والسُّلَيْكَ[١٢] بنَ السُّلَكَةِ إنما عَدَا على رِجْلَيْكَ ،

---

(١) من ملوك العرب فى الجاهلية .

(٢) شيرين زوجة كسرى ، وبوران : ابنته .

(٣) بلقيس : ملكة سبأ والزباء ملكة تدمر .

(٤) من شجعان العرب فى الجاهلية والإسلام قتل فى حروب الردة ، الرادفة أن يكون للشريف تابع يجلس عن يمينه .

(٥) كان يعرف بعروة الرحال لرحلته إلى الملوك .

(٦) هو رئيس الحيين من بكر وتغلب .

(٧) جساس : صهر كليب وقاتله .

(٨) مهلهل أخو كليب وصاحب ثأره ، وقد أثار بطلب هذا الثأر حرب البسوس المشهورة .

(٩) اشتهر السموءل بالوفاء فضرب به المثل .

(١٠) هو الأحنف بن قيس وقد اشتهر بحلمه .

(١١) هو زيد الخيل : من فرسان الجاهلية وقد أدرك الإسلام وأسلم .

(١٢) عداء مشهور فى الجاهلية .

وعامِرَ[١] بنَ مالِكٍ إنما لاعَبَ الأَسِنَّةَ بيَدَيْكَ ، وقَيْسَ[٢] بنَ زُهَيْرٍ إنما اسْتَعَانَ بدهائكَ ، وإياس[٣] بنَ معاويةَ إنما استضاءَ بمِصْباح ذكائك وسَحْبَانَ[٤] إنما تكلَّم بلسانك ، وعَمْرَو ابن الأَهْتَم إنما سَحَرَ ببَيَانِكَ ، وأَن الصُّلْحَ[٦] بين بَكْر وتَغْلِبَ تَمَّ برسالتكَ ، والحَمَالاَتِ[٧] بينَ عَبْسٍ وَذُبْيَانَ أُسْنِدَتْ إلى كَفَالَتِكَ ، وأَن احتيالَ هَرِمٍ[٨] ، لِعَلْقَمَةَ وعامرٍ حتى رَضِيَا ، كان ذاك عن إشارتِكَ ، وجوابَهُ لِعُمَرَ[٩] ، وقد سأَلَهُ عن أَيِّهِما كانَ يُنَفِّرُ ، وَقَعَ عن إرادتِكَ ، وأَنَّ الحَجَّاجَ تقلَّدَ وِلايةَ العراقِ بِجَدِّكَ ، وقُتَيْبَةَ[١٠] فَتَحَ ما وراءَ النَّهْر بِسَعْدِكَ ، والمُهَلَّبَ[١١] أَوْهَنَ شَوْكَةَ الأَزارِقَةِ بِأَيْدِكَ ،

---

(١) عامر الملقب بملاعب الأسنة من شجعان العرب فى الجاهلية .

(٢) قيس : سيد عبس وداهيتها فى حروبها .

(٣) قاضى البصرة فى أواخر العصر الأموى واشتهر بذكائه .

(٤) سحبان من بلغاء العرب مات فى عصر معاوية .

(٥) من سادات تميم وخطبائها فى الجاهلية والإسلام .

(٦) هو صلح حرب البسوس .

(٧) الحمالات : الديات .

(٨) هو هرم بن قطبة كان أحد من يحتكم إليهم العرب لرجحان عقله ، واحتكم إليه علقمة وابن عمه عامر ، وهما جميعاً من بنى عامر بن صعصعة ، فاحتال لهما حتى لا يحكم لأحدهما على الآخر فتقع حرب بين عشيرتيهما .

(٩) هو عمر بن الخطاب ، وقد سأله بعد إسلامه أيهما تنفر الآن لو احتكما إليك ؟ فقال لو قلت الآن كلمة لنشبت الحرب بين الحيين ، وتنفر : تغلب فى المنافرة .

(١٠) بطل حروب الشرق فى عهد الوليد بن عبد الملك .

(١١) المهلب : أشهر قواد الأمويين فى حروب الخوارج .

وَفرَّقَ ذاتَ بينهِمْ بِكَيْدِكَ ، وأَنَّ هِرْمِسَ[١] أَعطَى بِلِينُوسَ[٢] ما أَخَذَ مِنْكَ ، وأَفلاطونَ أَوردَ على أَرِسْطَطَالِيسَ ما نَقَلَ عنكَ[٣] ، وَبَطْلَيْمُوسَ[٤] سَوَّى الأُصْطُرْلَابَ بتدبيرِكَ ، وَصَوَّرَ الكُرَةَ على تقديرِكَ ، وَبِقْرَاطَ[٥] عَلِمَ العِلَلَ والأَمراضَ بلُطْفِ حِسِّكَ ، وَجَالِينُوسَ[٦] عَرَفَ طَبَائِعَ الحَشَائِشِ بدقَّةِ حَدْسِكَ ، وَكِلاهُما قَلَّدَكَ فى العِلاجِ ، وسأَلكَ عن المِزاجِ ، واسْتَوْصَفَكَ تَرْكِيبَ الأَعضاءِ ، واستشارَكَ فى الدَّاءِ والدَّوَاءِ ، وأَنكَ نَهَجْتَ لأَبى مَعْشَرٍ[٧] طريقَ القَضَاءِ ، وأَظْهرتَ جابرَ بنَ حَيَّانَ[٨] على سِرِّ الكِيمياءِ . وأَعْطَيْتَ النَّظَّامَ[٩] أَصْلاً أَدْرَكَ به الحقائقَ ، وجعلتَ للكِنْدِىِّ[١٠] رَسْماً استخرجَ به الدقائقَ ، وأَنَّ صِناعةَ الأَلحانِ اختراعُكَ ، وتأْليفَ الأَوتارِ والأَنقارِ

---

(١) هرمس : من أنبياء الصابئة .

(٢) بلينوس : خليفة هرمس .

(٣) أفلاطون أستاذ أرسطاليس ، وهما فيلسوفان يونانيان مشهوران .

(٤) بطليموس : فيلسوف يونانى اشتهر بالفلك والهندسة والجغرافيا ، والاصطرلاب : ميزان الشمس ، وبه يعرف مقدار الساعات .

(٥) من أطباء اليونان .

(٦) عالم وطبيب يونانى .

(٧) أبو معشر : منجم عباسى مشهور ، والقضاء هنا : القدر ، وطريقاه : الخير والشر .

(٨) من أعلام العرب فى الكيمياء .

(٩) النظام : من أئمة المعتزلة وهو أستاذ الجاحظ .

(١٠) الكندى : أول فلاسفة العرب .

تَوليدُكَ وابتداعُكَ ، وأَن عبدَ الحميدِ بنَ يَحيي [١] بَارِى أَقلامِكَ . وسهلَ بنَ هارُونَ [٢] مُدَوِّنُ كلامِكَ ، وعمرَو بنَ بَحْرٍ [٣] مُسْتَمْلِيكَ ، ومالِكَ بنَ أَنَسٍ [٤] مُسْتَفْتِيكَ ، وأَنكَ الذى أَقامَ البراهينَ ، وَوَضَعَ القوانين ، وحَدَّ الماهِيَّةَ [٥] وبيَّنَ الكيفيَّةَ والكميَّةَ ، وناظَرَ فى الجَوْهرِ والعَرَضِ ، ومَيزَ الصِّحَةَ [٦] من المرضِ ، وفَكَّ المُعَمَّى ، وفَصَلَ بين الاسم والمُسَمَّى ، وضَرَبَ وقَسَّم ، وعَدَّلَ وقَوَّمَ ، وَصنَّفَ الأَسماءَ والأَفعالَ ، وبوَّبَ الظَّرْفَ والحَالَ ، وَبَنَى وأَعْرَبَ ، وَنَفَى وَتَعَجَّبَ ، وَوَصَلَ وَقَطَعَ ، وَثَنَّى وَجَمَعَ ، وأَظْهَرَ وأَضمرَ ، واستَفْهَمَ وَأَخْبَرَ ، وأَهملَ وقيَّدَ ، وأَرْسَلَ وأَسْنَدَ [٧] ، وبحثَ ونَظَرَ ، وتصفَّحَ الأَدْيانَ ، وَرَجَّحَ بينَ مَذْهَبَىْ مَانِى وَغَيْلاَنَ [٨] ، وأَشارَ

---

(١) عبد الحميد : كاتب مروان بن محمد وهو أبلغ الكتاب المتقدمين .

(٢) سهل بن هرون : بليغ مشهور وهو أستاذ الجاحظ .

(٣) هو الجاحظ .

(٤) هو مالك صاحب المذهب المشهور الذى دانت به الأندلس وبلاد المغرب .

(٥) يريد أنه حد الحدود والتعريفات ، وهو تهكم واضح .

(٦) المعمى : الملغز من اللغز .

(٧) إشارة إلى المسند فى الحديث ، والمرسل وهو ما لم يذكر فيه أول السند .

(٨) مانى : صاحب نحلة دينية عند الفرس تسمى المانوية ، وكان ذلك قبل الإسلام ، وهو يقول بأن هناك إلهين : إله النور وإله الظلام . وغيلان أول من تكلم فى القدر بين المسلمين فى العصر الأموى وهو دمشق .

بِذَبْحِ الجَعْدِ[1] ، وقَتْلِ بَشَّارِ بنِ بُرْدٍ ، وأَنَّكَ لو شئتَ خَرَقْتَ العاداتِ ، وخالفتَ المعهوداتِ ، فَأَحَلْتَ البِحَارَ عَذْبَةً ، وأَعَدْتَ السِّلاَمَ[2] رَطْبَةً ، ونَقَلْتَ غَدًا فصار أَمْساً ، وَزِدْتَ فى العناصرِ فكانتْ خَمْساً ، وأَنَّكَ المَقُولُ فيهِ : كلُّ الصَّيْدِ فى جَوْفِ الفَرَا [3] ، وَ :

لَيْسَ عَلَى اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ العالَمَ فى واحِدِ [4]

والمَعْنِىُّ بقول أَبى تمام :

فلوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لم تَزِدْها عَلَى ما فيكَ مِنْ كَرَمِ الطِّباع

والمُرَادُ بقولِ أَبى الطَّيِّب :

ذُكِرَ الأَنامُ لنا فكانَ قَصِيدةً كُنْتَ البديعَ الفَرْدَ مِنْ أَبياتها

فَكَدَمْتَ فى غيرِ مَكْدَمٍ [5] ، واسْتَسْمَنْتَ ذا وَرَم ، وَنَفَخْتَ فى غيرِ ضَرَمٍ [6] ، ولم تَجِدْ لِرُمْحٍ مَهزًّا ، ولا لِشَفْرَةٍ مَحَزًّا[7] ، بلْ رَضِيتَ من الغَنِيمَةِ بالإِيَابِ [8] ، وتَمَنَّيْتَ الرجوعَ بِخُفَّىْ

---

(١) الجعد : مولى لبنى الحكم ، تكلم فى القدر وغيره ، وتجاوز الحدود فقتله خالد القسرى فى العراق فى أثناء ولايته هناك .

(٢) السلام : الحجارة الصلبة .

(٣) مثل يضرب فى الشىء الذى يزيد غيره ويفضله .

(٤) هذا البيت لأبى نواس من قصيدة يمدح بها الفضل بن يحيى وزير هرون الرشيد .

(٥) عضضت فى غير موضع للعض ، وهذا المثل يضرب لمن يطلب شيئاً يعجز عنه .

(٦) نفخت فى غير ضرم : أى نفخت فى رماد لا فى نار .

(٧) المحز : مكان الحز أى القطع .

(٨) مثل يضرب لمن قنع بسلامة نفسه فى مطلبه .

حُنَيْنٍ [١] ، لأَنى قلتُ : « لقدْ هَانَ مَنْ بالتْ عليهِ الثَّعَالِبُ [٢]
وأَنشدتُ :

على أَنها الأَيامُ قدصِرْنَ كُلُّهَا عجائبَ حتى ليسَ فِيهاعَجَائبُ [٣]

وَنَخَرْتُ [٤] وبَسَرْتُ [٥] ، وَعَبَسْتُ [٦] وَكَفَرْتُ . وأَبْدَأْتُ وأَعَدْتُ [٧] ، وأَبْرَقْتُ وأَرْعَدْتُ [٨] ، « وَهَمَمْتُ [٩] ولم أَفعلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِى » ، ولولا أَنَّ للجوارِ ذِمةً ، وللضِّيافةِ حُرْمةً ، لكانَ الجوابُ فى قَذَالِ الدُّمُسْتُقِ [١٠] ، والنَّعْلُ حَاضِرَةٌ إِنْ عَادَتِ العَقْرَبُ ، والعقوبةُ ممكنةٌ إِن أَصَرَّ المُذْنِبُ .

وَهَبْها لم تُلاَحِظْكَ بِعَيْنٍ كَلِيلَةٍ عن عيوبِكَ ، مِلْؤُها حَبِيبها ، حَسَنٌ فيها مَنْ تَوَدُّ ، وكانت أَنْ حَلَّتْكَ بِحُلاكَ ، وَوَسَمَتْكَ بِسِيمَاكَ ، ولم تُعِرْكَ شَهادةً ، ولا تَكَلَّفَتْ لكَ زِيادةً ،

---

(١) مثل يضرب لمن يرجع بالخيبة .

(٢) شطر بيت هو : « أرب يبول الثعلبان برأسه * لقد هان من بالت عليه الثعالب » قاله رجل من بنى سليم كان يعبد صنماً ، فرأى يوماً ثعلباً يبول على الصنم فكسره وأنشد هذا البيت وذهب إلى الرسول وأسلم .

(٣) البيت من قصيدة فى الرثاء لأبى تمام .

(٤) نخرت : من النخير وهو صوت الأنف عند الغضب .

(٥) بسر : غضب .

(٦) عبس : أظهر العبوس والغضب .

(٧) أبدأت وأعدت : كررت كلاماً يسوءك .

(٨) يقال أبرق وأرعد إذا هدد .

(٩) هممت بشىء خطير كالقتل ونحو ذلك .

(١٠) الدمستق : من قواد الروم هزمه سيف الدولة ، والقذال : القفا .

بل صَدَقتْ سِنَّ بِكْرِها فيما ذَكَرَتْهُ عنكَ[١] ، وَوَضَعَتْ الهِناءَ مَواضِعَ النَّقْبِ[٢] بما نَسَبَتْهُ إليكَ ، ولم تَكُنْ كاذبةً فيما أَثنَتْ به عليك ، فالمُعيدِيُّ تسمع به خيرٌ من أَنْ تراه :

هجينُ القَذال[٣] ، أَرْعَنُ السِّبَالِ[٤] ، طويلُ العُنُقِ والعِلاوَةِ[٥] ، مُفْرِطُ الحمْقِ والغَباوةِ ، جافى الطبع ، سَيِّئُ الجَابَةِ والسمع[٦] ، بغيضُ الهيئةِ ، سخيفُ الذهابِ والجَيْئَةِ ، ظاهرُ الوَسْوَاسِ ، مُنْتِنُ الأَنفاسِ ، كثيرُ المعايبِ ، مشهورُ المثالبِ ، كلامُكَ تمتمةٌ[٧] ، وحديثكَ غمغمةٌ[٨] ، وبيانُك فهفهةٌ[٩] وضِحْكُكَ قهقهةٌ ، وَمَشْيُكَ هَرْوَلَةٌ ، وغِنَاكَ مسأَلَةٌ[١٠] ، ودينكَ زندقةٌ ، وعِلْمكَ مَخْرَقَةٌ[١١] :

مَسَاوٍ لَوْ قُسِمْنَ على الغوانى لَمَا أُمْهِرْنَ إِلاَّ بالطَّلَاقِ[١٢]

---

(١) يقال صدقت سن بكرها : أى لم تقل إلا صدقاً .
(٢) مثل يضرب لمن يضع الأمر فى موضعه ، والهناء : القطران ، والنقب مبادىء الجرب فى البعير . . .
(٣) كناية عن خسة الأصل .
(٤) السبال : الشنب ، يريد أنه أحمق .
(٥) العلاوة : الرأس ، وطول العنق والرأس عند العرب دليل الحماقة .
(٦) الجابة : الإجابة .
(٧) التردد فى التاء .
(٨) الغمغمة : أن يسمع الصوت ولا تتبين الكلمات والحروف .
(٩) عى عن النطق بترديد الفاء .
(١٠) يريد أن ماله من سؤال الناس .
(١١) مخرقة : من الخرق وهو الحمق .
(١٢) البيت لأبى تمام من قصيدة فى الهجاء .

حتى إنَّ باقِلاً[١] موصوفٌ بالبلاغةِ إذا قُرِنَ بكَ ، وَهَبَنَّقَةَ[٢] مُسْتَوْجِبُ لِاسْمِ العقلِ إذا أُضيفَ إليكَ ، وَطُوَيْساً[٣] مأْثورٌ عنه يُمْنُ الطائرِ إذا قِيسَ عليكَ ، فَوُجُودُكَ عَدَمٌ ، والاغتباطُ بكَ نَدَمٌ ، والخيبةُ منكَ ظَفَرٌ ، والجنَّةُ معكَ سَقَرٌ[٤] . كيفَ رأيتَ لؤمَكَ لِكَرَمِى كِفَاءً[٥] ، وَضَعَتَكَ لِشَرَفى وَفَاءً ؟ وأَنَّى جَهِلْتَ أَنَّ الأَشياءَ إنما تَنْجَذِبُ إلى أَشْكالِهَا ، والطيْرَ إنما تَقَعُ على أُلَّافِها ؟ وهَلاَّ علمتَ أَنَّ الشرقَ والغربَ لا يجتمعانِ ، وشعرتَ أَنَّ المؤمنَ والكافرَ لايتقاربان ، وقلتَ : الخبيثُ والطَّيِّبُ لا يَسْتَوِيَانِ[٦] ، وتمثَّلْتَ :

أَيها المُنْكِحُ الثريَّا سُهَيْلاً عَمْرَكَ اللهَ كيف يَلْتقيانِ[٧] ؟

وذكرتَ أَنى علقٌ[٨] لا يباعُ ممنْ زَادَ ، وطائرٌ لا يَصِيدُهُ مَنْ أَرادَ ، وغَرَضٌ لا يُصِيبُه إلاَّ مَنْ أَجادَ ؟ ما أَحْسَبُكَ إلاَّ

---

(١) باقل : يضرب به المثل فى العى .

(٢) هبنقة : يضرب به المثل فى الخبل وضعف العقل .

(٣) مغن بالمدينة فى العصر الأموى كانوا يتشاءمون منه .

(٤) سقر : جهنم .

(٥) كفاء : مكافئاً ومناظراً .

(٦) إشارة إلى قوله تعالى : « لا يستوى الخبيث والطيب » .

(٧) البيت لعمر بن أبى ربيعة قاله حين تزوجت الثريا سهيل بن عمر بن عبد العزيز .

(٨) العلق : النفيس .

قد تَهيَّأْتَ للتَّهْنِيَةِ ، وَتَرشَّحْتَ للتَّرْفِيَةِ[١] ! ولولا أَنَّ جُرْحَ العَجْماءِ جُبَارٌ[٢] ، للقيتَ من الكواعبِ ما لاقَى يَسَارٌ[٣] ، فماهمَّ إلا ببعضِ ما هَمَمْتُ بِهِ ، ولاتعرَّضَ إلا لأَيسرِ ما تعرَّضتَ لَه ، أَيْنَ ادِّعاؤُك روايةَ الأَشعارِ وتعاطيكَ حفظَ السِّيَرِ والأَخبارِ ، أَما ثابَ إليكَ قولُ الشاعر :

بَنُو دَارِمٍ أَكْفاؤهُمْ آلُ مِسْمَعٍ وتَعْقِدُ فى أَكفائها الحَبِطاتُ[٤]

وهلاَّ عَشَّيْتَ[٥] ولم تَغْتَرَّ ، وما أَشكُّ أَنكَ تكونُ وافدَ البَراجِمِ[٦] أَو تَرْجِعُ بصحيفةِ المُتَلَمِّسِ[٧] ، وهل عَضَلَنى[٨] هُمَامُ بنُ مُرَّةَ فأَقول : زَوْجٌ مِنْ عُودٍ ، خَيْرٌ من قعودٍ .

ولعمرى لو بلغتُ هذا المبلغَ لارتفعتُ عن هذه الحِطَّةِ ،

---

(١) الترفية : الرفاهية .

(٢) حديث للرسول صلى الله عليه وسلم ، والعجماء : البهيمة ، والجبار : الدم الهدر ، والمعنى أن البهيمة إذا جرحت لا دية لها ولا قصاص ، ويريد ابن زيدون أن يستهين بابن عبدوس .

(٣) يسار : عبد دميم آذته مولاته حين توهم أنها تحبه .

(٤) البيت للفرزدق ، وهو فى هجاء حى الحبطات ، والمعنى أن بنى دارم يصهرون إلى بنى مسمع ، أما الحبطات فيصهرون إلى من يشابههم فى الخسة .

(٥) عشيت : رفقت .

(٦) وافد البراجم : رجل من تميم أحرقه عمرو بن هند ، والبراجم خمسة من أولاد حنظلة ، والعرب تضرب المثل بوافد البراجم لأن عمرو بن هند أحرق تسعة وتسعين رجلا من بنى تميم لثأر له عندهم ، وكان قد آلى أن يحرق منهم مائة فبينما هو يلتمس بقية المائة إذ مر رجل اسمه عمار فاشتم رائحة القتار فظن أن الملك اتخذ طعاماً فعدل إليه فقيل له : من أنت ، فقال : أنا وافد البراجم ، فألقى فى النار .

(٧) المتلمس : شاعر جاهلى وقصته معروفة مع عمرو بن هند ملك الحيرة .

(٨) عضل المرأة : منعها من الزواج ، وكان همام بن مرة قد منع بناته الأربع من الزواج وخرجن على رغبته فضرب به وبهن المثل .

ولا رَضِيتُ بهذه الخطة ، فالنارُ ولا العارُ ، والمنيةُ ولا الدنيَّةُ ، والحرَّةُ تجوعُ ولا تأكلُ بِثَدْيَيْها [١] :

فكمْ وفى أَبناءِ قومىَ مَنْكَحٌ وفتيانُ هزَّانَ الطِّوالُ الغرانِقَهْ [٢]

وما كنتُ لأتخطَّى المِسْكَ إلى الرَّمادِ ، ولا أمتطىَ الثَّوْرَ بعدَ الجوادِ ، فإنما يَتَيَمَّمُ مَنْ لم يجدْ ماءً ، ويرعَى الهشيمَ [٣] ، مَنْ عَدِمَ الجَمِيمَ [٤] ، وَيَرْكَبُ الصَّعْبَ [٥] مَنْ لا ذَلُولَ له . ولعلَّكَ إنما غرَّكَ مَنْ عَلِمتَ صبوتى إليه ، وشَهِدْتَ مساعفتى له ، مِنْ أَقمارِ العصر ، ورياحينِ المِصْر ، الذين همُ الكواكبُ عُلُوَّهِمَمٍ ، والرياضُ طِيبَ شِيمٍ :

مَنْ تَلْقَ منهم تَقُلْ لاقيتُ سَيِّدَهُم مثلَ النجومِ التى يَسْرِى بها السارى [٦]

تَحِنُّ قِدْحٌ ليسَ منها [٧] ، ما أَنتَ وَهُمْ ؟ وأَنَّى تقعُ منهم ؟ وهل أَنتَ إلا واوُ عمْرٍو فيهم ، وكالوَشِيظَةِ [٨] فى العَظْمِ بَيْنَهم.

---

(١) هذه أمثلة لمن يفضل الهلاك على قبح الأحدوثة .

(٢) اسم قبيلة ، والغرانقة الشباب ، والبيت للأعشى .

(٣) الهشيم : النبت اليابس .

(٤) الجميم : النبت الرطب .

(٥) الصعب : الذى لا يطيع فهو ضد الذلول .

(٦) البيت لشاعر يسمى العرندس .

(٧) مثل يضرب لمن يتشبه بقوم ليس منهم ، والقدح : أحد قداح الميسر .

(٨) الوشيظة : النتوء فى العظم .

وإنْ كنتَ إنما بلغتَ قَعْرَ تابوتِكَ [١] وتجافيتَ عن بعضِ قُوتِكَ ، وعَطَّرْتَ أَرْدَانَكَ [٢] ، وجررتَ هِمْيانَكَ [٣] ، واختَلْتَ فى مشيتِكَ ، وحذفتَ فضولَ لحيتِكَ ، وأصلحتَ شاربَكَ ، ومَطَطْتَ حاجِبَكَ ورَقَقْتَ خَطَّ عذارِكَ [٤] ، واستأْنَفْتَ عَقْدَ إزارِكَ [٥] ، رجاءَ الاكتنان فيهم ، وطَمَعاً فى الاعتداد منهم ، فظننتَ عجزًا ، واخطأْتَ الغرض . واللهِ لو كساكَ مُحَرِّقُ البُرْدَيْنِ [٦] ، وحَلَّتْكَ مارِيَةُ [٧] بالقُرْطَيْن ، وقَلَّدَكَ عمرٌو [٨] الصَّمْصَامَةَ ، وحَمَلَكَ الحارِثُ [٩] على النَّعَامَةِ ، ما شككت فيكَ ، ولا سَتَرْتَ أَباكَ [١٠] ، ولا كنتَ إلا ذاك . وَهَبْكَ سامَيْتَهم فى ذِرْوَةِ المجد والحَسَب ، وجاريتَهم فى

---

(١) كناية عن لزوم المنزل ، وقوله : وتجافيت عن بعض قوتك : أى أظهرت الكرم بما تستفضله من قوتك .

(٢) الأردان : الأكمام .

(٣) الهميان هنا : السروال .

(٤) العذار : ما ينبت على الخد من الشعر .

(٥) كناية عن التجمل فى الثياب .

(٦) محرق : هو عمرو بن هند ملك الحيرة ، لقب بذلك لتحريقه مائة من العرب ، ويقال إن وفود العرب كانت عنده ، فأخرج بردين وقال : ليقم أعز العرب قبيلة فليأخذهما .

(٧) بنت ظالم زوجة أحد ملوك الغساسنة بالشام اشتهرت بقرطين أهدتهما إلى الكعبة .

(٨) هو عمرو بن معد يكرب الزبيدى اشتهر بسيفه الصمصامة وأدرك الإسلام وأسلم وأبلى فى الفتوح .

(٩) النعامة : فرس الحارث بن عباد البكرى سيد وائل فى الجاهلية .

(١٠) ولا سترت أباك : أى لم تخف على شأنك ونسبك .

غاية الظَّرْف والأدب ، ألست تأوى إلى بيتٍ قَعيدَتُهُ لكاعِ[١] إذ كلُّهم عَزَبٌ خالى الذراع[٢] وأين مَنْ أنْفرِدُ به ممن لا أُغْلَبُ إلاّ على الأَقلِّ الأَخسِّ منه[٣] ، وهل يجتمعُ لى فيكَ إلا الحَشَفُ وسوءُ الكيلَة[٤] ، ويقترنُ علىَّ بكَ إلا الغُدَّةُ والموتُ فى بيتٍ سَلُولِيَّة[٥] :

تعالَى اللهُ يا سَلْمَ بنَ عمرٍو أذلَّ الحرْصُ أعناقَ الرجال[٦]

ما كان أَخْلَقَكَ بأَنْ تَقْدِرَ بِذَرْعِكَ[٧] ، وتَرْبَعَ بذلك على ظَلْعِكَ[٨] ، ولا تكُنْ بَرَاقِشَ[٩] الدالَّةَ على أَهْلِها ، وعَنْزَ السوءِ المستثيرةَ لِحتْفها ، فما أراك إلا سَقَطَ بك العشاءُ على سِرْحانٍ[١٠] ، وَبِكَ لا بظَبىٍ أَعْفَرَ[١١] ، قدْ أَعذَرْتُ إنْ أَغْنَيْتُ شَيئاً ، وأَسمعتُ لو ناديتُ حَيًّا :

---

(١) القعيدة : الزوجة . واللكاع : اللئيمة .

(٢) خالى الذراع : لا يملك شيئاً كما يقال خالى اليد وهو كناية عن خلو اليد عن الزوجة .

(٣) المعنى : كيف أوازن بين زوج أنفرد به ، وآخر لا أنال منه إلا فضلة غيرى من الزوجات ؟

(٤) مثل يضرب فى الخلتين السيئتين تجتمعان ، والحشف : أردأ التمر .

(٥) امرأة من بنى سلول . دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على عامر بن الطفيل ، فظهر فى رقبته غدة ، ومات فى بيت سلولية (من بنى سلول) فقال : غدة كغدة البعير ، وموت فى بيت سلولية .

(٦) البيت لأبى العتاهية .

(٧) تقدر بذرعك . تقيس الأمر بجهدك .

(٨) مثل يضرب لمن يكلف نفسه ما لا يقدر عليه . وتربع : تقيم ، والظلع : العرج فى البعير .

(٩) يشير إلى المثل : جنت على أهلها براقش ، وهى كلبة غزا أهلها قوم ، فلم يعرفوهم حتى نبحت ، فكانت شؤماً عليهم .

(١٠) السرحان : الذئب .

(١١) مثل يضرب للشماتة ، والأعفر : الذى لونه لون العفار أى التراب .

إن العصا قُرِعَتْ لذى الحِلْم [١] والشيءُ تَحْقِرُهُ وقدْ يَنْمِى [٢]

وإن بادرْتَ بالنَّدامة ، ورَجَعْتَ على نفسِكَ بالملامة ، كنتَ قد اشتريتَ العافية لكَ بالعافيةِ منكَ ، وإن قلتَ : جعجعةٌ ولا طِحْن [٣] ، ورُبَّ صَلَفٍ تحتَ الرَّاعِدَةِ [٤] ، وأنشدتَ :

لا يُؤْيِسَنَّكَ من مُخَدَّرَةٍ قَوْلٌ تُغَلِّظُهُ وإن جَرَحَا [٥]

فَعُدْتَ لما نُهيتَ عنه ، وراجعتَ ما اسْتَعْفَيْتَ منه ، بَعَثْتُ مَنْ يزعِجُكَ إلى الخضراءِ [٦] دَفْعاً ، ويستحثُّكَ نحوها وَكْزاً [٧] وصَفْعاً ، فإذا صرتَ إليها عَبِثَ أَكَّارُوها بكَ [٨] ، وتَسَلَّطَ نواطيرُها [٩] عليكَ ، ذلك بما قَدَّمَتْ يَداكَ ، لِتَذُوقَ وبالَ أَمْرِكَ ، وتَرَى مِيزانَ قَدْرِكَ :

فمَنْ جَهِلَتْ نفسُهُ قَدْرَهُ رأى غيرُهُ مِنْهُ مَا لاَ يَرَى

---

(١) مثل للتحذير .

(٢) مثل للتحذير أيضاً والبيت للحارث بن وعلة اليشكرى .

(٣) مثل لمن يتوعد ولا يفعل ، والطحن : الطحين .

(٤) الصلف : قلة الخير ، وسحاب صلف : أى قليل الماء كثير الرعد . وهو مثل يضرب لمن يتوعد من غير أن يفعل .

(٥) البيت لبشار بن برد .

(٦) الخضراء : الناحية المزروعة من البلد .

(٧) الوكز : ضرب الظهر مع الدفع .

(٨) الأكارون : الفلاحون .

(٩) النواطير : جمع ناطور وهو البستانى .

٦ ـ الرسالة الجدِّية

يا مَوْلاىَ وسَيِّدِى الذى وِدادِى له ، واعتدادى به ، واعتمادى عليه ، أبقاكَ اللهُ ماضِىَ حَدِّ العزم ، وارِىَ زَنْدِ الأمل[١] ، ثابتَ عهدِ النعمة . إنْ سَلَبْتَنِى ـ أعزَّكَ اللهُ ـ لِباسَ نعمائكَ ، وَعَطَّلْتَنِى من حُلَى إيناسِكَ ، وأظمأْتَنِى إلى بَرُود إسعافك ، ونَفَضْتَ بى كفَّ حِياطَتِكَ ، وغضضتَ عنى طرفَ حمايتكَ ، بعد أن نَظَرَ الأعمى إلى تأْميلى لكَ ، وسمِعَ الأَصَمُّ ثنائى عليكَ ، وأحسَّ الجمادُ باستنادى إليكَ ، فلا غَرْوَ قَدْ يَغَصُّ بالماءِ شارِبُهُ ، وَيَقْتُلُ الدواءُ المُسْتَشْفِىَ بهِ . ويؤْتى الحذِرُ من مأْمنهِ ، وتكونَ مَنِيَّةُ المتمنِّى فى أُمْنِيَّتِهِ ، والحَيْنُ قد يَسْبِقُ جُهْدَ الحريص :

كلُّ المصائبِ قد تمرُّ على الفتى   وتَهُونُ غَيْرَ شماتةِ الحُسَّادِ

وإنى لأَتَجَلَّدُ وَأُرِى الشَّامِتِينَ أَنى لِرَيْبِ الدهر لا أَتَضَعْضَعُ ، فأقول : هل أَنا إلا يَدٌ أَدْماها سِوارُها ، وجبينٌ عَضَّهُ إكليلُهُ[٢] ، ومشرفىٌّ[٣] أَلْصَقَهُ بالأَرض صاقِلُهُ ، وسمهرىٌّ[٤]

---

(١) ورى الزند : أخرج منه النار واقتدحه .
(٢) الإكليل : التاج .
(٣) المشرفى : السيف .
(٤) السمهرى : الرمح .

عرَضَهُ على النارِ مُثَقِّفُهُ [١] ، وَعَبْدٌ ذَهَبَ به سَيِّدُهُ مَذْهَبَ الذى يقول [٢] :

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا ومَنْ يَكُ حَازماً فليَقْسُ أَحياناً على مَنْ يَرْحَمُ

هذا العَتْبُ محمودٌ عَواقبُهُ ، وهذه النَّبْوَةُ غَمْرَةٌ ثم تَنْجَلِى [٣] ، وهذه النَّكْبةُ سحابةُ صَيْفٍ عن قليل تَقَشَّعُ ، ولن يَرِيبَنِى مِنْ سَيِّدِى أَنْ أَبْطَأَ سَيْبُهُ [٤] ، أَو تَأَخَّرَ – غيرَ ضَنِينٍ – غَنَاؤُه [٥] ، فأَبْطَأُ الدِّلاءِ فَيْضاً أَملؤُها ، وأَثقلُ السحائب مَشْيًا أَحفَلُها ، وأَلَذُّ السرابِ ما أَصابَ غليلاً [٦] ومع اليوم غَدٌ ، ولكلِّ أَجَلٍ كتابٌ . له الحمْد على اهْتِبَالِه [٧] ولا عَتْبَ عليه فى إِغفاله :

فإِنْ يكُنِ الفِعلُ الذى ساءَ واحدًا فأَفعالُهُ اللائى سَرَرْنَ أُلُوفُ

وأَعودُ فأَقول : ليتَ شعْرِى ما هذا الذنبُ الذى لمْ يَسَعْهُ عَفْوُكَ ، والجهلُ [٨] الذى لم يأْتِ من وَرائِهِ حِلْمُكَ ،

---

(١) مثقفه : صانعه وصاقله .
(٢) هو أبو تمام .
(٣) النبوة : الجفوة . والغمرة : الشدة ، وهو مثل يضرب لليسر بعد العسر .
(٤) السيب : العطاء .
(٥) الغناء : المال والنفع .
(٦) الغليل : شدة العطش .
(٧) الاهتبال : الاهتمام وإتاحة الفرصة .
(٨) الجهل : الحمق .

والتَّطَاوُلُ[1] الذى لم يستغرِقْهُ تطوُّلُكَ[2] ، والتحامُلُ الذى لم يَفِ به احتمالُكَ ، ولا أَخلُو من أَن أَكونَ بريئاً فأَينَ العدلُ ؟ أَو مُسيئاً فأَينَ الفضلُ ؟ :

إلاَّ يَكُنْ ذَنْبٌ فَعَدْلُكَ واسعٌ   أَو كانَ لى ذنبٌ ففضلُكَ أَوسع

حَنَانَيْكَ[3] ! قد بَلَغَ السيلُ الزُّبَى[4] ، ونالنى ماحسبى بِه وكَفَى ، وما أُرانى إلا لو أُمِرْتُ بالسجودِ لآدَمَ[5] فأَبيْتُ واستكبرتُ ، وقال لى نُوحٌ : ارْكَبْ مَعَنا[6] فقلت «سَآوِى إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى منَ الماءِ» ، وأُمِرْتُ ببناءِ الصَّرْحِ[7] لعلِّى أَطَّلعُ إلى إلَه موسَى ، وعكفتُ على العِجْلِ[8] ، واعتدَيْتُ فى السَّبْتِ[9] ، وتعاطيتُ فَعَقَرْتُ[10] ، وشَرِبْتُ من النهر الذى

---

(١) التطاول : الاستعلاء .

(٢) التطول : الفضل .

(٣) حنانيك : رحمتك .

(٤) الزبى : جمع زبية وهى الحفرة فى المكان المرتفع ، وهو مثل يضرب حين يتفاقم الأمر .

(٥) يشير إلى استكبار إبليس عن السجود لآدم حين أمره الله بذلك فعصاه وحقت عليه اللعنة ، وفى ذلك قال تعالى : « فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » .

(٦) يتمثل بقصة نوح حين فاض الطوفان فقال لابنه اركب معنا فعصاه فقال كما فى القرآن الكريم « سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء » فغرق .

(٧) يشير إلى قصة فرعون وأنه أمر هامان أن يبنى له صرحاً أى قصراً عالياً لعله يرى إله موسى .

(٨) يشير إلى قصة العجل الذى عبده بنو إسرائيل حين تأخر عليهم موسى .

(٩) يشير إلى قصة بنى إسرائيل حين نهاهم عن الصيد يوم السبت فخالفوا ما نهوا عنه فحق بهم العذاب .

(١٠) يشير إلى ناقة صالح وذنب من عقرها ، وإلى الآية الكريمة : « فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها » .

ابتلىَ به جيوشُ طالوتَ[١] ،وقُدْتُ الفيلَ لأَبْرَهَةَ[٢] ،وعاهدتُ قريشاً على ما فى الصحيفة[٣] ، وتـأَوَّلْتُ فى بيعةِ العقبةِ[٤] ، وانخذلتُ بِثُلْثِ الناسِ يومَ أُحُدٍ[٥] ، وَتَخَلَّفْتُ عن الصلاة فى بنى قُرَيْظَةَ[٦] ، وجئتُ بالإفْك[٧] على عائشةَ الصدِّيقةِ ، وأَنِفْتُ مِنْ إمارَة أُسامَة[٨] ، وزعمت أَنَّ بيعة أَبى بكر كانت فلتةً[٩] ، وَرَوَّيْتُ رُمْحِى من كتيبةِ خالد[١٠] ، ومَزَّقْتُ الأَديمَ[١١] الذى

(١) كان طالوت قد حرم على قومه الشرب من نهر ، فخالفوه ووقعوا فى الإثم .

(٦) يشير إلى قصة أبرهة عامل اليمن من قبل النجاشى وخروجه فى جيش لهدم الكعبة .

(٣) هى الصحيفة التى كتبتها قريش وتعاهدت فيها على مقاطعة الرسول .

(٤) بيعة العقبة بيعة مشهورة بين الرسول وأصحابه ، وقد يفهم من كلامه أن بعض الصحابة قد تأول فيها أى خالف الإجماع ، وهو ما لم يحدث مطلقاً .

(٥) يشير إلى واقعة أحد حين انخذل عن رسول الله ابن سلول ومن معه من المنافقين ، ورجعوا بنحو ثلث الجيش .

(٦) بنو قريظة : طائفة من اليهود ، وقد أمر النبى أصحابه بعد غزوة الخندق أن يصلوا العصر فى بنى قريظة يعنى بذلك أن يسرعوا فى الذهاب إليهم ، على أن من تخلف لم يعتبر هذا ذنباً له !

(٧) قصة الإفك والكذب على السيدة عائشة رضى الله عنها مشهورة .

(٨) يشير إلى ما يروى من أن بعض الصحابة غضب حين ولى رسول الله عليهم أسامة بن حارثة .

(٩) قال عمر : كانت بيعة أبى بكر فلتة ، ولم يرد بقوله سوءاً بأبى بكر ، فمن الخطأ أن يتمثل فى الذنوب بهذه العبارة ، والشيعة يرون أن على بن أبى طالب كان أجدر بالخلافة من أبى بكر وعمر ولعله يشير إلى هذا الرأى .

(١٠) يشير إلى من حاربوا خالداً فى أيام الردة .

(١١) يشير إلى أديم عمر الذى مزقه أبو لؤلؤة حين قتله وإلى قول الشاعر فى رثائه :

جزى الله خيراً من إمام وباركت ... يد الله فى ذاك الأديم الممزق

بارَكَتْ يَدُ اللهِ عليه ، وضحَّيتُ بالأشمط[١] ، الذى عُنوانُ السجودِ بهِ ، وبَذَلْتُ لِقَطَامِ[٢] :

ثلاثةَ آلافٍ وعَبْدًا وقَيْنَةً وَضَرْبَ علىٍّ بالحُسامِ المُسَمَّم

وكتبتُ إلى عُمَرَ بنِ سَعْدٍ[٣] : أن جَعْجِع[٤] بالحُسَيْنِ ، وتمثلت عندما بَلَغَنى من وقعة الحَرَّة[٥] :

ليت أَشياخى ببدرٍ علموا جَزَعَ الخزرج من وَقْعِ الأَسَلْ

ورَجَمتُ الكعبةَ ، وصلبتُ العائذَ[٦] على الثَّنِيَّةِ ـ لكانَ[٧] فيما جَرَى على ما يُحْتَمَلُ أن يُسمَّى نكالا . ويُدعَى ولو على المجاز عِقابا :

وَحَسْبُكَ من حادث بامرئٍ تَرَى حاسِدِيهِ لهُ رَاحِمينَا

فكيفَ ولا ذنبَ إلا نميمةٌ أَهداها كاشحٌ[٨] ، ونبأٌ جاءَ به

---

(١) الأشمط عثمان وفيه يقول حسان :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحاً وقرآنا

(٢) قطام : صاحبة ابن ملجم قاتل على بن أبى طالب .

(٣) يشير إلى قتل الحسين .

(٤) جعجع : ضيق الخناق .

(٥) المتمثل يزيد بن معاوية ، تمثل بهذا البيت لابن الزبعرى الذى نظمه فى واقعة أحد وذلك حين علم يزيد بهزيمة جيوشه لأهل المدينة الخارجين عليه .

(٦) يشير إلى رجم الحجاج الكعبة بالمنجنيق وقتله للعائذ بها ، وهو عبد الله ابن الزبير ، على الثنية وهى طريق الكعبة .

(٧) جواب « لو » المذكورة فى الجملة السابقة « لو أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت ».

(٨) كاشح : عدو ، ومن هنا أخذ يبرئ نفسه من التهمة التى دسها عليه النامون كذباً .

فاسقٌ . وَهُمُ الهمَّازُونَ[١] المَشَّاؤونَ[٢] بِنَمِيمٍ ، والواشونَ الذين لا يلبَثُونَ أَنْ يَصْدَعُوا العَصَا[٣] ، والغواةُ الذين لا يتركُونَ أَديماً[٤] صحيحاً ، والسعاةُ الذينَ ذَكَرَهُم الأَحنفُ بنُ قَيْسٍ فقال : ما ظَنُّك بقومٍ الصدقُ محمودٌ إلاَّ منهم .

حَلَفْتُ فلم أَترُكْ لنفسِكَ رِيبَةً وليسَ وراءَ اللهِ للمرءِ مَذْهَبُ[٥]

واللهِ ما غَشَشْتُكَ بعدَ النصيحة ، ولا انحرفتُ عنك بعدَ الصَّاغِيَةِ[٦] ، ولا نصبتُ[٧] لك بعدَ التشيُّع فيكَ ، ولا أَزمعتُ[٨] يأْساً منكَ مع ضمانٍ تكفَّلَتْ به الثقةُ عنكَ ، وعَهْدٍ أَخَذَهُ حُسْنُ الظنِّ عليكَ . ففيمَ عَبِثَ الجفاءُ بأَذِمَّتِي[٩] ، وعاثَ العُقُوقُ فى مَوَدَّتِى[١٠] ، وتَمَكَّنَ الضَّيَاعُ من وسائلى؟ ولِمَ ضاقتْ مذاهبِى ، وأَكْدَتْ[١١] مطالبِى ؟ وعلامَ رَضِيتُ من المَرْكَبِ

---

(١) الهمازون : من الهمز وهو الغيبة .
(٢) المشاؤون : الساعون بالنميمة .
(٣) كناية عن التفريق .
(٤) الأديم أى الجلد ، كناية عن الشخص كله .
(٥) البيت للنابغة .
(٦) الصاغية : الأذن ، وهى هنا كناية عن خاصة الشخص الذين يصغون إليه ويغشون مجلسه .
(٧) نصب : عادى .
(٨) أزمع : أقدم .
(٩) الأذمة : الحرمات جمع ذمام .
(١٠) العقوق : كفران النعمة .
(١١) أكدت : بخلت .

بالتَّعْلِيقِ ، بل من الغنيمةِ بالإِيابِ [١] ، وأَنَّى غَلَبنى المُغَلَّبُ [٢] وَفَخَرَ علَىَّ العاجزُ الضعيفُ ، ولطمتْنى غيرُ ذاتِ سِوَار [٣] ؟ ومالَكَ لم تَمْنَعْ من قبلِ أَن أُفْتَرَسُ ، وتُدرِكْنى ولما أُمزَّقْ . أَمَ كيفَ [٤] لا تَتَضَرَّمُ جوانحُ الأَكْفاءِ [٥] حَسَدًا لى على الخُصُوصِ بكَ ، وتتقطَّعُ أَنفاسُ النُّظَراءِ منافسةً فى الكرامةِ عليكَ ، فكيفَ وقد زانَنى قديمُ خِدْمتكَ ، وزهانى وَسْمُ نعمتكَ ، وأَبليتُ البلاءَ الجميلَ فى سِماطِكَ [٦] ، وقمتُ المَقَامَ المحمودَ على بساطِكَ ؟

أَلستُ المُوالى فيكَ غرَّ قصائدٍ ... هى الأَنجمُ اقتادتْ من الليلِ أَنجما
ثَناءٌ يُظَنُّ الروضُ منه مُنَوَّرًا ... ضُحًى ويُخَالُ الوشْىُ فيه مُنَمْنَما

وهل لَبِسَ الصباحُ إِلا بُردًا طَرَّزْتُهُ بفضائلكَ وتقلَّدتِ الجوزاءُ إِلا عِقدًا فَصَّلْتُه بمآثرِكَ ، واسْتَمْلَى الربيعُ إِلا ثناءً مَلأْتُهُ بمحاسنِكَ ، وَبَثَّ المِسْكُ إِلاَّ حديثاً أَذعتُهُ فى محامدِكِ؟

---

(١) يشير إلى قول امرئ القيس :

لقد طوفت فى الآفاق حتّى ... رضيت من الغنيمة بالإياب

(٢) المغلب : الضعيف .

(٣) فى المثل لو ذات سوار لطمتنى . أى اللاطم ضعيف .

(٤) انتقل ابن زيدون إلى بيان إخلاصه للممدوح وكيف كان من مداحه وخاصته .

(٥) الأكفاء : النظراء .

(٦) السماط : الصف .

ما يومُ حليمةَ بسِرٍّ [١] ، وإن كنتُ لم أَكْسُكَ سَلِيباً ، ولا حَلَّيْتُكَ عُطْلاً ، ولا وسمتُكَ غُفلاً ، بل وجدت آجُرًّا وجِصًّا فبنيتُ ، ومكانَ القولِ ذا سَعَة فقلتُ . حاش للكَ أَن أُعَدَّ من العامِلَةِ النَّاصِبَةِ [٢] ، وأَكونَ كالذُّبالَةِ المنصوبةِ تُضيءُ للناس وتحترقُ [٣] ، فلكَ المَثَلُ الأَعلى ، وهو - بِكَ وَبِي فِيكَ - أَوْلَى .

ولعمرى إنَّ صريحَ الرأى أن أَتحَوَّلَ [٤] إذا بلغتْنِي الشمسُ ونبا بِيَ المنزلُ ، وأَصفحْ [٥] عن المطامع التى تُقَطِّعُ أَعناقَ الرجال ، ولا أَستوطِئَ العجز ، ولا أَطمئنَّ إلى الغرور ، فَيُضْرَبَ بِى المثلُ : « خامِرِى أُمَّ عامرٍ [٦] » . وإِنى مع المعرفةِ بِأَن الجَلاءَ [٧] سِباءٌ [٨] ، والنُّقْلَةَ مُثْلَةٌ [٩] :

وَمَنْ يغتربْ عن قومِهِ لم يزَلْ يَرَى مصارعَ مظلوم مَجَرًّا ومَسْحَبَا

(١) مثل يضرب فى كل أمر مشهور .

(٢) يشير إلى قوله تعالى : « وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية » .

(٣) نثر قول العباس بن الأحنف :

صرت كأنى ذبالة نصبت تضىء للنـاس وهى تحترق

(٤) هنا ثارت نفس ابن زيدون وأخذ يهدد بفراقه للوطن وأنه لا يصبر على الهوان .

(٥) أصفح : أضرب .

(٦) مثل يضرب لمن عرف الدنيا وتقلباتها ولم تمنعه معرفته أن يميل إليها ويغتر بها .

(٧) الجلاء : النزوح عن الوطن .

(٨) السباء : الأسر .

(٩) مثلة : نكال وعقاب .

وتُدفنُ منه الصالحاتُ وإن يُسئْ يكنْ ماأَساءَالنارَ فى رأس كَبْكَبَا[١]

لَعارِفٌ أَنَّ الأَدبَ الوَطَنُ الذى لا يُخْشَى فراقُهُ ، والخليطُ الذى لا يُتَوَقَّعُ زيالُهُ [٢] ، والنَسَبُ الذى لا يُجْفَى ، والجَمالُ الذى لا يُخْفَى . ثُمَّ ما قِرانُ السعدِ بالكواكب أَبْهى أَثرًا ، ولا أَسْنَى خَطَرًا ، من اقتران غِنَى النفسِ به ، وانتظامِها نَسَقاً معه ، فإن الحائزَ لهما ، الضاربَ بسهمٍ فيهما — وقليلٌ ما هُمْ — أَينما توجَّه وَرَدَ أَعذبَ مَنْهل ، وحَطَّ فى جنابِ قَبولٍ فَنَزَلَ ، وضُوحِكَ قبلَ إِنزالِ رَحْلِهِ ، وأُعطِىَ حُكْمَ الصبىِّ على أَهلِهِ :

وقيلَ له أَهلاً وسهلاً ومرحباً فهذا مَبِيتٌ صالحٌ وَمقِيلُ[٣]

غيرَ أَنَّ الموطِنَ محبوبٌ[٤] والمنشأَ مأْلوفٌ ، واللبيبَ يَحِنُّ إِلى وطنه ، حنينَ النَّجيبِ[٥] إِلى عَطَنِهِ ، والكريمُ لا يجفو أَرضاً فيها قوابله[٦] ، ولا يَنْسى بَلَدًا فيها مراضِعُهُ :

(١) كبكب : اسم لجبل فى الحجاز .

(٢) الزيال : المفارقة .

(٣) مقيل : من القيلولة وهى هنا تقابل « مبيت » فيراد بها قضاء اليوم كله .

(٤) هنا هدأت ثورة ابن زيدون ، فأخذ يعلن أنه لن يزايل جوار أبى الحزم ابن جهور ولا مدينته التى هى وطنه وبلده .

(٥) النجيب : الكريم من الإبل ، والعطن : مبارك الإبل حول الماء .

(٦) القوابل : جمع قابلة وهى التى تستقبل المولود عند نزوله .

أَحَبُّ بلادِ الله ما بينَ مَنْعِجٍ[١] إِلَىَّ وَسَلْمَى أَن يَصُوبَ[٢] سَحَابُها
بلادٌ بها حَلَّ الشبابُ تَمائمى[٣] وأَولُ أَرضٍ مَسَّ جِلْدِى ترابُها

هذا إلى مُغَالاتى بعَقْدِ[٤] جوارِكَ ، وَمُنافَسَتى فى الحظِّ من قُرْبِكَ ، واعتقادى أَن الطمع فى غيرك طَبَعٌ[٥] ، والغِنى من سواك عَفَاءٌ ، والبَدَلَ منكَ عَوَزٌ[٦] ، والعِوَضَ لَفَاءٌ[٧] :

وإِذا نَظَرْتُ إلى أَميرِى زَادَنى ضَنًّا بهِ نَظَرى إِلى الأُمَرَاءِ

وكلُّ الصَّيْدِ فى جَوْفِ الفَرا[٨] ، وفى كلِّ شَجَرٍ نارٌ ، واستَمْجَدَ المَرْخُ والعَفَارُ[٩] .

فما هذِهِ البَرَاءَةُ[١٠] مِمَّنْ يَتَوَلَّاكَ ؟ والمَيْلُ عمن يميلُ إِليكَ ؟ وهَلاَّ كان هواكَ فيمن هواه فيكَ ، ورضاكَ لمن رضاه لكَ :

يامَنْ يَعِزُّ علينا أَن نفارِقَهمْ وِجْدَانُنَا كلَّ شيءٍ بعدَكُمْ عَدَمُ[١١]

(١) منعج : موضع .
(٢) يصوب : يهطل .
(٣) التمائم : جمع تميمة وهى العوذة التى تعلق على الصبى لاتقاء الحسد .
(٤) العقد : الضمان والعهد .
(٥) الطبع : الدناءة والخسة .
(٦) عوز : فاقة .
(٧) لفاء : خسة .
(٨) مثل يضرب فى الشىء الذى يفضل غيره .
(٩) المرخ والعفار : نوعان من الشجر سريعا الاتقاد ، واستمجد : زاد ناراً واتقاداً ، وهو مثل يضرب أيضاً فى الشىء الذى يفضل غيره .
(١٠) رجع ابن زيدون يستعطف ابن جهور متذللا خاضعاً لعله يلين له .
(١١) البيت للمتنبى .

أُعِيذُكَ ونفسى من أَن أَشِيمَ خُلَّباً[1] ، وأَسْتَمْطِرَ جَهَاماً[2] ، وأَكْدِمَ فى غيرِ مَكْدَم[3] وأَشكُوَ شكْوَى الجريح إلى العِقْبانِ والرَّخَمِ[4] . وإنما أَبْسَسْتُ[5] لك لتدرَّ ، وحَرَّكْتُ لكَ الحِوَارَ[6] لِتَحِنَّ ، ونَبَّهتُكَ لأَنامَ ، وسَرَيْتُ إليك ، لِأَحْمَدَ السُّرَى لديكَ . بعد اليقينِ أَنك إن سَنَّيْتَ[7] عَقْدَ أَمْرِى تَيَسَّر ، ومتى أَعْذَرْتَ[8] فى فكِّ أَسرِى لم يَتَعَذَّرْ ، وَعِلْمُكَ محيطٌ بأَن المعروفَ ثمرةُ النعمةِ ، والشفاعة زكاةُ المروءَةِ ، وفضلَ الجاهِ ، تعودُ به ، صَدَقَةٌ :

وإذا امرؤٌ أَهدى إليكَ صَنِيعةً ... من جاهِهِ فكأَنَّها مِنْ مَالِهِ[9]

لعلى أُلقى العصا بِذَراكَ[10] ، وتَسْتَقِرُّ بى النَّوَى فى ظِلِّك ، وأَسْتَأْنِفُ التأَدُّبَ بأَدبِكَ ، والاحتمالَ على مذهبِكَ ، فلا

---

(١) شام خلباً : نظر إلى برق لا يصحبه مطر .

(٢) الجهام : السحاب لا غيث فيه .

(٣) مثل يضرب لمن يريد الشيء من غير موضعه .

(٤) نثر ابن زيدون هنا قول المتنبى :

ولا تشك إلى قوم فتشمتهم ... شكوى الجريح إلى العقبان والرخم

(٥) أبسست : رفقت . وتدر : تسيل ، كناية عن تحوله إلى الرضا .

(٦) الحوار : ولد الناقة .

(٧) سنى : سهل .

(٨) أعذرنى : طلب العذر .

(٩) البيت لأبى تمام .

(١٠) الذرى : الكنف والجانب .

أُوجِدَ للحاسدِ مجالَ لحظةٍ ، ولا أَدعَ للقادح مساغَ لفظةٍ ، واللهُ شهيدُك من إطْلابى[1] بهذه الطَّلِبَةِ ، وإشكائِى[2] من هذه الشكوَى ، بصنيعةٍ تُصيبُ بها مكانَ المَصْنَع[3] ، وتستودِعُها أَحفظَ مُسْتَوْدَعٍ ، حسبما أَنتَ خليقٌ له ، وأَنا منك حَرِىٌّ به ، فذلك بَيِدِ ، وَهَيِّنٌ عليكَ .

* * *

ولَمَّا تَوَالَتْ غُرَرُ هذا النثر ، واتسقتْ دُرَرُهُ . فهزَّ عِطْفَ غُلَوائِهِ ، وجَرَّ ذيلَ خُيَلائه ، عارضه النظْمُ مُباهياً ، بل كايَدَهُ مُدَاهِياً ، حين أَشفَقَ من إن يَعْطِفَكَ استعطافُهُ ، وتميلَ بنفسك أَلطافُهُ ، فاستحسنَ العائدَةَ[4] منه ، واعتدَّ بالفائدةِ له ، فما زال يستكِدُّ الذهنَ العليلَ ، والخاطرَ الكليلَ ، حتى زَفَّ إليكَ عَروساً مجلوةً فى أَثوابها ، منصُوصَةً[5] بِحَلْيِها وَملاَبِها[6] ، وها هى :

الهَوَى فى طلوع تلكَ النجوم لِ والمُنى فى هبوبِ ذاكَ النسيمَ

(١) إطلابى : من أطلبه أى أعطاه ما طلبه .

(٢) إشكائى : إزالة شكواى .

(٣) المصنع : الصنع ، مصدر ميمى .

(٤) العائدة : الصنيع والمعروف

(٥) منصوصة : مجلوة .

(٦) الملاب : الزعفران .

سَرَّنَا عيشنا الرقيقُ الحواشِى لو يدومُ السرورُ للمستديمِ
وَطَرٌ ما انقضى إلى أن تقضَّى زمنٌ ما ذِمامُه[1] بالذميمِ
إذ ختامُ الرِّضا المسوَّغُ مِسْكٌ ومزاجُ الوِصالِ من تَسْنِيمِ[2]
وغريضُ[3] الدَّلالِ غَضٌّ[4] جنَى الصبوةِ نشوانُ من سُلافِ النعيمِ
طالما نافرَ الهوَى منه غِرٌّ لم يَطُلْ عهدُ جيدِهِ بالتميمِ[5]
زارَ مستخفياً وهيهاتَ أن يَخْ فَى سُرى البدرِ فى الظلامِ البهيمِ
فوَشَى الحَلْى إذْ مَشَى وَهَفَا الطِّـ يبُ إلى حِسِّ كاشحٍ بالنَّميم
أيها المؤذِنِى بظُلْمِ الليالى ليسَ يومى بواجدٍ[6] مِنْ ظَلُوم
قمرُ الأُفْقِ إن تأملتَ والشمـ ـسُ هما يُكْسَفانِ دونَ النجوم
وَهُوَ الدهرُ ليسَ ينفكُّ ينحُو بالمصابِ العظيمِ نحوَ العظيم
بَوَّأَ اللهُ جَهْورًا شرفَ السُّؤْ دَدِ فى السَّرْوِ[7] واللُّبابِ الصَّميمِ
واحِدٌ سَلَّمَ الجميعُ له الأمْـ ـرَ فكانَ الخصوصُ وَفْقَ العمومِ

(١) الذمام : العهد .
(٢) التسنيم : ماء الجنة ، وفى القرآن الكريم : « يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم » .
(٣) غريض الدلال : مملوء به .
(٤) غض : ناضر .
(٥) التميم : جمع التميمة وهى العوذة .
(٦) واجد : حاقد .
(٧) السرو : الشرف .

قَلَّدَ الغُمْرُ[١] ذا التجاربِ فيهِ   واكتَفى جاهلٌ بعلمِ العليمِ
خَطَرٌ[٢] يقتضى الكمَال بنوْعَىْ   خُلُقٍ بارعٍ وخَلْقٍ وسيمِ[٣]
أَيهذا الوزيرُ ها أَنا أَشْكُو   والعَصا بدءُ قَرْعِها للحليمِ[٤]
ماعنانا أَن يأْنفَ السابقُ المَرْ   بَطَ فى العِتْق منه والتَّطْهِيمِ
وبقاءُ الحسام فى الجَفْن يَثْنى   مِنه بَعْدَ المضاءِ والتَّصْميمِ[٥]
أَفصبرٌ مئينَ خمساً[٦] من الأَيـ   ـام ناهيكَ من عذابٍ أَليمِ
ومُعَنَّى من الضَّنَى بِهنَاتٍ   نَكَأَتْ[٧] بالكُلُوم قَرْحَ الكلُوم
سَقَمٌ لا أُعادُ فيهِ وفى العا   ئدِ أُنْسٌ يَفى بِبرْءِ السقيم
نارُ بغيٍ سَرَتْ إِلى جنةِ الأَمْـ   ـنِ لَظَاهافأَصبحتْ كالصَّريمِ[٨]
بأَبى أَنتَ إِنْ تشأْ تَكِ بَرْدًا   وسَلاماً كنارِ إِبراهيمِ
للشفيعِ الثناءُ ، والحمدُ فى صَوْ   بِ الحَيَا[٩] للرياح لا للغُيُوم

(١) الغمر : قليل التجربة .
(٢) خطر : شرف .
(٣) وسيم : وقور .
(٤) تضمين للمثل المشهور : « إن العصا قرعت لذى الحلم » .
(٥) السابق : الفرس ، المربط : اسم مكان ، العتق فى الخيل : الكرم والتطهيم : تمام الحسن فيها ، يشبه نفسه ، وهو فى الاعتقال ، بالصافن الذى سُمّ مكانه الذى ربط فيه لعتقه وكرمه .
(٦) إشارة إلى أنه قضى فى السجن خمسمائة يوم .
(٧) نكأ : أدمى . الكلوم : الجروح . القرح : ما بالجرح من فساد .
(٨) الصريم : الليل الأسود .
(٩) الحيا : الغيث .

وزعيمٌ ¹ بأن يُذَلِّلَ لى الصَّعـ ... بَ مَثابى² إلى الهمام ِ الزعيم ِ
ووِدادٌ يُغَيِّرُ الدهرُ ماشا ... ءَ ويَبقَى بقاءَ عهدِ الكريم
وثناءٌ أَرسلتُهُ سلوةَ الظَّا ... عنِ عن شوقهِ ولَهْو المقيم ِ
فهو ريحانةُ الجليسِ ،ولافَخْـ ... رَ ، وفيهِ مِزاجُ كأْسِ النديم ِ
ومتى تَبْدإِ الصنيعةَ يُولِعـ ... ـكَ تمامُ الخِصالِ بالتَتْميمِ

هاكَها – أَعزَّك اللهُ – يبْسُطُها الأَملُ ، ويقبِضُها الخجلُ ، لها ذنْبُ التقصير ، وحُرمةُ الإِخلاص ، فَهَبْ ذَنْباً لِحُرمَةٍ ، واشفع نعمةً بنعمةٍ ، لِيتَأَتَّى لكَ الإِحسانُ من جِهَاتِهِ ، وتَسلُكَ إلى الفضلِ من طُرُقاتِهِ ، إن شاءَ اللهُ تعالى .

* * *

(١) زعيم : كفيل .

(٢) مثابى : رجوعى .



الباب الرابع

الموشحات الأندلسية



الفصل الأول

نشوء الموشحات – قالبها الشعرى

مما لا شك فيه أن لحياة اللهو والمجون ولانتشار السمر والغناء فى الأندلس أثراً فى اختراع الموشح وظهوره فى تلك الأرض ذات الطبيعة الوارفة الظلال . فالشعر الخفيف ، كما نعلم ، مادة الغناء ، فإذا كان انتشار الغناء فى الأندلس قد استدعى ظهور الموشح ، فإنه أيضاً قد حدد له وزنه وحرره من قيود الشعر التقليدى وقوالب الأوزان المعروفة وعبودية القافية الوحيدة . فالنهضة الغنائية إذاً كانت من دواعى ظهور هذا الفن الجديد ، إلا أن هناك دراسات تبين العلاقة بين الشعر الفرنسي – الإسبانى القديم الذى كان ينشده شعراء جنوبى فرانسة المعروفون بشعراء التروبادور Troubadours وبين فن الموشحات [1] . فالشعر الغنائى الذى كان ينشده شعراء التروبادور فى مطلع القرن الثانى عشر الميلادى (وفى هذا القرن كانت الموشحات معروفة فى الأندلس) قد شابَهَ فى أغراضه أغراض الموشحات ، وفى طليعتها الحب والغزل والطبيعة والمدح والحماسة والهجاء ، واتفق معها فى بعض قوالبه كالقصائد المسماة (البالاد) [2] و (الأغانى الوجدانية) [3] . فهذان النوعان من شعر شعراء التروبادور يتألفان من أسماط وأجزاء تشبه ، إلى حدما ، فى ترتيبها أسماط الموشحات وأجزاءها وتتعدد فيها الأوزان والقوافى ، أضف إلى ذلك أن التروبادور كانوا يعتمدون فى نظمهم على الموسيقى والغناء كما هو الشأن فى الموشحات . ولكن هذا التشابه لايكفى ليحل لنا مشكلة التأثير المتبادل . ونرى أن النتائج التى انتهى إليها بعض

---

(١) راجع كتاب الدكتور نيكل : «الشعر الأندلسى وصلته بشعر التروبادور» (نشر بالإنجليزية فى بلتيمور) . وانظر عرضاً لهذا الكتاب للدكتور عمر فروخ فى مجلة «الأديب» بيروت ، نيسان سنة ١٩٤٧

(٢) La ballade

(٣) La chanson courtoise

الباحثين فى بيان الروابط التى تربط بين الموشحات والشعر الأجنبى الذى كان يتاخم المسلمين فى إسبانيا أو يتسرب إلى أوساطهم – أن هذه النتائج لا تزال تحتاج إلى مناقشة ولا يمكننا أن ننظر إليها كحقيقة لا يعتورها الشك . ولكن إنْ شككنا فى مدى هذا التأثير وشكله فلا يمكننا أن ننكر وجوده ، فالطبيعة الجديدة ، سواء أكانت خاصة بالأندلس أم بما يحيط بها وبما يردها من أصداء ، قد لعبت دورها فى اختراع فن الموشح كما لعب الشعر العربى دوره فى حياة الإسبانيين وشعرهم وفى الشعر الأوربى الذى انبثق عن الشعر التروبادورى نفسه . وها نحن نرى أن الغناء العربى قد طبع الغناء الأندلسى بطابعه ، ولا نزال نلمس آثار هذا الطابع فى الأغانى الإسبانية حتى الآن .

فلنقبل إذاً تأثير الوسط الجديد فى اختراع فن الموشحات دون أن نذهب مع بعض المتطرفين إلى أنه فن مستعرب . ولنقبل أيضاً أثر الشعر العربى فيما جاوره من شعر أجنبى فى تلك الفترة ، ولنترك شرح هذه القضية إلى مجال آخر يتسع فيه تفنيد ما كتب فى هذا الموضوع فى مختلف اللغات ولا سيما الإسبانية مع بسط المصادر الأولى التى استند إليها الباحثون ، وهذا أمر يجب أن يفرد له بحث خاص وتعوزنا وسائله ، وهو لا يزال ، فى حد ذاته ، فى نطاق الجدل العلمى وموضوع بعض الأطروحات الأدبية .

أولية الموشح :

ليس الموشح من اختراع المشارقة ، وقد نسب بعض المؤرخين إلى ابن المعتز الموشحة التى مطلعها :

أيها الساقى إليكَ المشتكى قد دعوْناكَ وإنْ لم تسمع

وهى ، فى الواقع ، ليست له وإنما هى لابن زهر الأندلسى [1] . ويعترف

---

(١) هو أبو بكر محمد بن زهر الإشبيلى من أسرة زهر المشهورة فى الأندلس . ولد سنة ٥٠٧ هـ وكان طبيباً وأديباً ، اتصل بدولة المرابطين ثم بدولة الموحدين ومات مسموماً فى آخر سنة ٥٩٥ هـ .

ابن بسام وابن خلدون وغيرهما ممن كتبوا فى الموشح بأن فضل اختراع الموشحات يعود لأهل الأندلس .

وإذا كان المؤرخون قد اتفقوا على أن هذا الفن نتاج أندلسى فإنهم قد اختلفوا فى مخترع الموشح ، فهناك روايتان مختلفتان تقدم كل منهما اسماً لمخترع هذا الفن يختلف عن الاسم الآخر .

فالرواية الأولى ، وهى ما يورده ابن بسام فى ذخيرته ، تقول : « وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقنا واختراع طريقتها — فيما بلغنى — محمد بن محمود (حمود) القبْرى الضرير »[1] .

أما الرواية الثانية ، وهى ما يذكره ابن خلدون فى مقدمته ، فتقول : « وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مُقدَّم بن معافى القَبْرى[2] من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى[3] وأخذ عنه أبو عمر[4] أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما فكان أول من برع فى هذا الشأن عبادة القزّاز[5] شاعر المعتصم بن صُمادح صاحب

(١) الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الثانى ، ص ١ .

(٢) هذا الاسم (مقدم بن معافى القبرى) قد أصابه تحريف وتصحيف فى عدد من نسخ مقدمة ابن خلدون وطبعاتها فظهر على الشكل الآتى : مقدم بن معافر الفريرى . وهذا التحريف حمل المستشرق (دوسلان) فى ترجمته الفرنسية لمقدمة ابن خلدون على أن يجعل مخترع الموشح مولوداً فى قرية فارسية تناسب الاسم المحرف (الفريرى) . ولكن المستشرق (دوزى) قد أشار إلى هذا الخطأ فى الجريدة الآسيوية : (Journal Asiatique. XIV, 186 année 1869) وقال يجب أن نقرأ القبرى عوضاً عن الفريرى نسبة إلى قرية قبرة فى الأندلس .

(٣) كانت خلافته من سنة ٢٧٥ إلى سنة ٣٠٠ هـ .

(٤) لا (أبو عبد الله) كما ورد خطأ فى مقدمة ابن خلدون .

(٥) إن أول من برع فى هذا الفن وحدد أصوله بعد ظهوره هو عبادة بن ماء السماء المتوفى سنة ٤٢٢ هـ ، أما عبادة القزاز فهو أبو عبد الله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز وقد جاء متأخراً عن عبادة بن ماء السماء واشتهر هو أيضاً بموشحاته فى عصره — القرن الخامس — ولكنه لم يكن أول من برع فيها كما يقول ابن خلدون . انظر الذخيرة ، القسم الأول المجلد الثانى ، ص ٢٩٩ .

المرية . . . وزعموا أنه لم يسبقه وشّاح من معاصرين الذين كانوا فى زمن الطوائف [١] » .

فهل كان محمد بن محمود القبرى غير مقدم بن معافى القبرى ؟ كان الشك يعتورنا فى حل هذه المعضلة ، وكنت أظن أن الرجلين رجل واحد وأن مخترع الموشح ما هو إلا محمد بن محمود القبرى كما جاء فى الذخيرة أما مقدم بن معافى الذى يورده ابن خلدون فما هو إلا تحريف لذاك الاسم [٢] .

ولكن الدكتور عبد العزيز الأهوانى أزاح النقاب عن هذه القضية عندما أوضح فى مقال نشره فى مجلة الأندلس الإسبانية [٣] أن كلا الشاعرين الأندلسيين المنسوبين إلى قرية قَبْرة معروفان ولهما تراجم مدونة [٤] وأن محمد بن محمود كان ضريراً أما مقدم بن معافى فلم يكن كذلك ، وأن هناك نصًّا جديداً ظهر منذ حين وهو يثبت الروايتين : رواية ابن بسام ورواية ابن خلدون المنقولة عن الحجارى ، وهذا النص مأخوذ عن كتاب مزية المرية لابن خاتمة الأنصارى وقد نقله عنه المقرى فى أزهار الرياض . ولهذا كله يرى الدكتور الأهوانى أن ليس من داع لأن نفترض أن أحد الاسمين تحريف عن الثانى .

لاشك فى أننا نقر ونعترف ، بعد هذا التحقيق ، بأن مقدم بن معافى

(١) هذه الرواية ينقلها ابن خلدون عن الحجارى عن طريق ابن سعيد فى كتابه (المقتطف فى أزاهر الطرف) وهو كتاب مخطوط فى القاهرة وفى الأسكوريال .

(٢) انظر كتابنا : La poésie profane sous les Ayyubides, P. 172.
كان المستشرق الإسبانى غارسيا غومس يزعم هذا الزعم أيضاً . انظر ما كتبه فى مجلة الأندلس :
Al-Andalus, II, 1934, p 215 - 222 :

(٣) Al-Andalus, XIII, 1948, P. 28 - 31

(٤) انظر ترجمة مقدم بن معافى القبرى فى بغية الملتمس للضبى رقم الترجمة ١٣٨٦ وفى الحلة السيراء لابن الأبار ص ٨٥ وفى المقتبس لابن حيان ص ٤٦ و ٦٥ . أما ترجمة محمد بن محمود القبرى فتجدها فى بغية الملتمس رقم الترجمة ٢٨٥ . ويروى الدكتور الأهوانى أن الثعالبى فى يتيمة الدهر يذكر فى عداد الشعرا الأندلسيين من اسمه محمد بن محمود الوليد الغنوى ويقول إن هذا الاسم ربما كان محرفاً عن اسم شاعرنا محمد بن محمود القبرى .

شخص آخر مستقل غير محمد بن محمود . ولكن ألا يحق لنا أن نعجب مع المستشرق غارسيا غومس[١] من أن يكون مخترع الموشح شاعرين أندلسيين كلاهما من قرية واحدة هى قبرة وكلاهما من عصرواحد هو عصر الأمير عبد الله بن محمد المروانى ؟

نعم لنا الحق فى أن نعجب ، كما كان لنا الحق فى أن نتردد حول شخص مخترع هذا الفن وحول حقيقة اسمه .

ولكن ليس من الواجب ، على الرغم من عجبنا ، أن نعتقد بضرورة وجود مخترع واحد لفن متعدد المنابع كالموشح ، هذا الفن الذى أسهم فى تكوينه عدد من المؤثرات الاجتماعية والإقليمية والأدبية والغنائية . وإننا لنجد طبيعياً ألا يكون ظهوره قد بدأ فجاءة بل لابد ، فى بادئ الأمر ، من محاولات مختلفة تظهر على ألسنة عدد من الشعراء ، شأنه فى ذلك شأن كثير من الفنون الجديدة التى تتعثر فى فاتحة عهدها ثم لا تلبث أن تجد معالمها الواضحة وأسسها الجلية على يد من مارسها واهتم بها ووجد فيها هواه ومبتغاه .

لهذا يمكننا أن نقول إنه منذ نهاية القرن الثالث الهجرى بدأت محاولات شعرية فى هذا الفن الجديد ، إلا أن المحاولات التى قام بها هذان الشاعران وغيرهما ممن لم تصلنا أسماؤهم كانت محاولات ابتدائية ، لهذا كسدت موشحاتهم ولم يروها الناس ، ولم تصلنا أيضاً موشحات ابن عبد ربه الذى زعم بعضهم خطأ أنه مخترع الموشح . وكان علينا أن ننتظر مجىء الشاعر عُبادة ابن ماء السماء (لا عبادة القزاز كما يذكر ابن خلدون[٢]) المتوفى سنة ٤٢٢ هـ ١٠٤٠ م لنرى الموشح قد أصبح فناً قائماً بذاته له أسسه وقواعده وله أثره وجماله وشعراؤه . وفى هذا الصدد يقول ابن بسام :

« وكان أبو بكر (عبادة بن ماء السماء) فى ذلك العصر شيخ الصناعة

---

(١) انظر تعليقه على مقال الدكتور الأهوانى فى العدد نفسه من مجلة الأندلس الإسبانية .

(٢) انظر ص٣٨٧ من هذا الكتاب الحاشية رقم ٥ .

وإمام الجماعة ، سلك إلى الشعر مسلكاً سهلا فقالت له غرائبه مرحباً وأهلا . وكانت صنعةُ التوشيح التى نهج أهل الأندلس طريقتها ووضعوا حقيقتها ، غير مرقومة البُرود ، ولا منظومة العقود ، فأقام عبادة هذا مُنآدَها ، وقوّم ميلها وسنادها ، فكأنها لم تُسمع بالأندلس إلا منه ، ولا أخذت إلا عنه ، واشتهر بها اشتهاراً غلب على ذاته ، وذهب بكثير من حسناته » [١] .

وهكذا أخذ الموشح ، ابتداء من القرن الرابع الهجرى ، يزدهر ويسمو فى سماء الأندلس ، وتتابع شعراء وشاحون على جانب من العبقرية كأبى بكر عبادة ابن ماء السماء ، وعبادة القزاز ، وابن اللَّبانة [٢] والأعمى التُّطَيْلى [٣] وابن بَقِىّ [٤] وابن باجه [٥] وأبى بكر بن زُهْر ، وابن سهل [٦] ولسان الدين بن الخطيب [٧] وتلميذه ابن زمرك [٨] وغيرهم . وقد عجز كثير من المتأخرين عن تقليد موشحات هؤلاء الشعراء وبلوغ عبقريتهم فى هذا الفن ، حتى بقيت موشحاتهم إلى اليوم مثالا يحتذى .

---

(١) الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الثانى ، ص ١ — فوات الوفيات للكتبى ج ١ ص ١٩٩ .

(٢) هو محمد بن عيسى أبو بكر اللخمى اتصل بالمعتمد ومدحه وأكثر من التردد عليه فى سجنه بأغمات وانتقل إلى ميورقة وتوفى سنة ٥٠٧ ه .

(٣) هو الأديب أبو جعفر أحمد بن هريرة كان صديقاً وفياً للوشاح أبى بكر ابن بقى ، وأخباره قليلة ، وهو رأس الوشاحين فى عصر المرابطين عاش فى مبدأ القرن السادس الهجرى فى مرسية ثم انتقل منها وتوفى سنة ٥٢٠ ه .

(٤) أبو بكر يحيى بن عبد الرحمن بن بقى القرطبى ، وشاح بارع توفى سنة ٥٤٠ ه .

(٥) هو أبو بكر محمد بن باجة الأندلسى السرقسطى ، الفيلسوف الشاعر المشهور ، كان متقناً لصناعة الموسيقى مات مسموماً بمدينة فاس ٥٣٣ ه .

(٦) هو إبراهيم بن سهل الإسرائيلى شاعر إشبيلية ووشاحها ، له ديوان مطبوع ، توفى غريقاً سنة ٦٤٩ ه وهو فى الأربعين .

(٧) هو أبو عبد الله لسان الدين محمد المعروف بابن الخطيب ، ولد سنة ٧١٣ ه بمدينة غرناطة وكان وزيراً لأبى الحجاج يوسف أحد ملوك بنى الأحمر ثم لابنه ، اتهم بالخيانة والزندقة ففر إلى المغرب ، وسعى أعداؤه به حتى أسلموه فسجن بفاس وخنق بسجنه سنة ٧٧٦ ه . وكان شاعراً كاتباً مؤرخاً فقيهاً متفلسفاً .

(٨) هو أبو عبد الله بن زمرك ولد بغرناطة سنة ٧٣٣ ه وكان وزيراً للغنى بالله من ملوك بنى الأحمر ، قتل سنة ٧٩٧ ه .

ويظهر أن جميع هؤلاء الوشاحين الأندلسيين لم يبينوا لنا بصورة واضحة قواعد الموشح ، وإن كنا نرى ، هنا وهناك ، فى كتب الشعر والتراجم التى تتحدث عن الأندلسيين كالذخيرة ونفح الطيب ، بعض الإشارات إلى أصول هذا الفن . ولعل ابن سناء الملك الشاعر المصرى الذى ولد بالقاهرة سنة ٥٥٠ ﻫ وقضى فيها أكثر أيامه منعماً حتى توفى سنة ٦٠٨ ﻫ ، هو أول من قام بهذه المهمة فحاول فى كتابه « دار الطراز » [1] أن يحدد قواعد هذا الفن الشعرى ويبين خصائصه وطرق نظمه وأوزانه ، فكان بذلك الشاعر الأول المنظم لقواعد الموشح فى المشرق والمغرب . والمؤرخون ، عندما يذكرون ابن سناء الملك ، يشيرون إليه كأول مشرقى كان له فضل إدخال فن الموشحات إلى الشرق . إلا أن الشاعر المصرى لا يتردد ، هو نفسه ، فى الاعتراف بقصوره عن مجاراة الأندلسيين فى هذا الفن . ومن المؤكد أن موشحاته لا تبلغ جودة موشحات الأندلسيين .

لقد قلنا إن هذا الفن الجديد لم يحدث فجاءة على شكله التام ، وهو أيضاً لم ينظمه الشعراء دون أن يلقى مقاومة من النقاد . فقد كان يرى فيه المحافظون خروجاً على القديم وبدعة شعرية لم يألفوها ، فعابوا لذلك أصحابه فى الغرب وفى الشرق واعتبروه ضعفاً وظاهرة من ظواهر الانحطاط الأدبى .

ومما لا شك فيه أن ظهوره فى عصور الانحطاط إلى جانب أثره الضار فى اللغة ، يؤيد هذا القول ، ولكن يجب ألا ننسى أن بعض المحاولات فى الخروج على نظام القصيدة التقليدية قد ظهرت عند المشارقة منذ صدر الدولة العباسية عندما ضاقت الحياة العباسية فى بغداد بنظام القصيدة وحاولت التحرر من قيودها لتجارى البيئة الحضرية الجديدة . لذا قام بعض الشعراء كمسلم بن الوليد وأبى نواس وأبى العتاهية يخترعون بعض الأوزان وينظمون فيها ، كما اخترعت مولاة للبرامكة (المواليا) وكانت ترثيهم به . ولما حملت إلى الرشيد ،

---

(١) انظر طبعتنا لهذا الكتاب الذى قمنا بتحقيقه ونشره .

وكان قد منع من يرثيهم بشعر ، قالت الجارية ليس هذا شعراً لأنه عامى ملحون ، وهو فى الواقع شعر عامى على وزن البسيط كانت تصيح الجارية بعد كل قطعة منه (واموالياه) ، وإلى جانب التحرر من الوزن بدأ تجديد فى القافية فظهرت المخمسات ، وهو أن يؤتى بخمسة أقسمة من وزن وقافية ثم بخمسة أخرى من الوزن وقافية أخرى إلى آخر القصيدة ، كالقصيدتين المنشورتين فى ديوان ابن زيدون تحت عنوان موشح[1] فهما من المخمسات لا من الموشحات ، لمحافظة أسماطها على وزن واحد فى الأبيات والأقفال وعدم اختلاف قوافى الأقفال عن قوافى الأبيات إلا فى الجزء الأخير من القفل ، وقد ظهر أيضاً ، فيما يتعلق بالقافية ، المسَمَّط وهو أن يبتدئ الشاعر ببيت مصرع ثم يأتى بأربعة أقسمة على غير قافيته ، ثم يعيد قسيماً على قافية البيت الأول ، وربما خلا من البيت المصرع وكان على أقل من أربعة أقسمة كقول القائل :

غزالٌ هاجَ لى شَجَنا فَبِتُّ مُكابِدًا حَزَنا
عميدَ القلب مُرْتَهِنا بذكرِ اللهوِ والطربِ

وظهرت المزدوجات وهو أن يؤتى بشطرين من قافية ثم بآخرين من قافية أخرى كقول أبى العتاهية :

حسبك ما تبتغيه القوت ما أَكثر القوت لمن يموت
إن الشباب حجة التصابى روائح الجنة فى الشباب

ويقال إن أول من نظم المزدوج بشار ثم تبعه أبان بن عبد الحميد وأبو العتاهية ، ولكن نقاد الشعر كابن رشيق رأوا فيه عبثاً واستهانة بالشعر ، حتى إن فحول الشعراء ابتعدوا عن هذه الأنواع التى عدوها مظهراً من مظاهر العجز والضعف

---

(١) الديوان ص ١٠٩ و ٢٢٩ .

وفضلوا التزام القافية الواحدة . فليس غريباً إذاً أن يلاقى الموشح مقاومة ، وهو أكثر حرية من هذه الأنواع ، وأن يبقى فى نظر المحافظين والنقاد دليلا على الانحلال الشعرى .

إلا أن سكان الجزيرة الأندلسية على الرغم من ذلك استساغوه وأقبلوا عليه لملاءمته لهوى نفوسهم ، ولأنه استمد مقوماته وعناصر وحيه من هذا الوسط الأندلسى الذى عاش فيه متناغماً مع حياة شعرائه الذين مالوا إلى السهل ونشدوا اللهو والإمتاع والموسيقى . لذلك لم يجدوا حرجاً فى أن يغرفوا من معينه فى مختلف الأغراض الشعرية متجاهلين ما فيه من إسفاف وضعف ، بل لعل هذا الضعف اللغوى ما كان ليبدو لهم واضحاً لبعدهم عن مواطن اللغة ومنابعها الأصلية ولاختلاطهم بعناصر أجنبية . ولهذا بقيت الموشحات غذاء الأندلسيين يجدون فيها ذلك اللحن الموسيقى وتلك النشوة المتصلة التى لا تعرف اليقظة إلا على يأس جديد ولهو جديد . وكان ابتداع فن الموشح فتحاً جديداً فى التفلت من قيود الوزن والقافية .

وسنرى عند الكلام على أوزان الموشحات كيف أن ابن سناء الملْك يجعلها ملازمة للموسيقى والغناء تستمد منهما أوزانها ونغمتها وتهزأ بعد ذلك بقواعد العروض وبحور الشعر التقليدية .

تعريف الموشحات وعناصرها :

ذكر ابن سناء الملْك فى كتابه دار الطراز معرفاً الموشح فقال : « الموشح كلام منظوم على وزن مخصوص . وهو يتألف فى الأكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات ويقال له التام ، وفى الأقل من خمسة أقفال وخمسة أبيات ويقال له الأقرع . فالتام ما ابتدئ فيه بالأقفال ، والأقرع ما ابتدئ فيه بالأبيات » .

وقد سُمِّى هذا الفن بالموشح لما فيه من ترصيع وتزيين وتناظر وصنعة فكأنهم شبهوه بوشاح المرأة المرصّع باللؤلؤ والجوهر .

ويحسن بنا لنفهم أجزاء الموشحة ونظامها أن نورد هنا موشحاً يكون تطبيقياً لما نقول :

قال الأعمى التطيلى فى موشح له [١] :

ضاحك عن جمان	سافرٌ عن بدر	ضاق عن الزمان	وحَواه صدرى
جزء ١	جزء ٢	جزء ٣	جزء ٤

آه مما أَجِـد شَفَّنى ما أَجد ١ جزء مركب

قامَ بِى وَقَعَـد باطِشٌ مُتَّئِد ٣ جزء مركب

كلما قلتُ قد قال لى أين قد ٣ جزء مركب

فمطلع الموشح المؤلف من أربعة أجزاء يسمى اصطلاحاً القفل الأول ، والقفل الثانى هو :

وانثنى خُوطَ بان ذا مَهَزٍّ نَضْرِ عابَثَتْهُ يَدان للصَّبا والقَطْرِ

وما بين هذين القفلين يطلق عليه اسم البيت ، وليس من الضرورى أن يكون بيتاً من الشعر مؤلفاً من شطرين كما هو معروف فى القصيدة التقليدية .

والأقفال أجزاء مؤلفة يلزم أن يكون كل قفل منها متفقاً مع بقيتها فى وزنها وقوافيتها وعدد أجزائها .

والأبيات هى أجزاء مؤلفة مفردة أو مركبة يلزم فى كل بيت منها أن يكون متفقاً مع بقية أبيات الموشح فى وزنها وعدد أجزائها لا فى قوافيها .

ونلاحظ إذا تلونا هذا الموشح بكامله أن القفل قد تكرر ست مرات مع المحافظة على قوافى أجزائه فى جميع الأقفال . وأن البيت قد تكرر خمس مرات ولم تلتزم قافية واحدة فى جميع الأبيات .

(١) دار الطراز ص ٤٣ .

ومثل هذه الموشحة تامة لأنها تبتدئ بقفل وتنتهى بقفل . والنوع الذى يبتدئ بالبيت وينتهى بالقفل يسمى أقرع كما ذكرنا .

وأقل ما يتركب القفل من جزءين فصاعداً إلى ثمانية أجزاء وعشر أجزاء .

وأقل ما يكون البيت ثلاثة أجزاء (كما هو فى الموشح المذكور) وقد يكون فى النادر من جزأين وقد يكون من ثلاثة أجزاء ونصف ، وهذا لا يكون إلا فيما أجزاؤه مركبة ، وأكثر ما يكون خمسة أجزاء .

والجزء من القفل لا يكون إلا مفرداً ، والجزء من البيت قد يكون مفرداً فيسمى البيت بسيطاً ، وقد يكون مركباً ، والمركب لا يتركب إلا من فقرتين أو من ثلاث أو من أربع فقر ، وقد يتركب فى الأقل من خمس فقر ،

مما تقدم نرى أن القفل فى هذا الموشح مؤلف من أربعة أجزاء والبيت مؤلف من ثلاثة أجزاء مركبة من فقرتين .

ولنوجز فيما يلى خصائص الأقفال والأبيات التى أشرنا إليها

القفل :

يتركب القفل من جزأين فأكثر إلى ثمانية أو عشرة وقد أوصله ابن سناء الملك إلى أحد عشر .

البيت :

هو إما بسيط أو مركب .

فإن تألف البيت من أجزاء مفردة سمى بسيطاً .

وإن تألف كل جزء منه من فقرتين أو أكثر سمى مركباً .

والبيت البسيط يتألف من ثلاثة أجزاء أو أربعة أو خمسة . فمثال البيت البسيط المؤلف من ثلاثة أجزاء قول ابن بقى :

عَبِثَ الشوقُ بقلبي فاشْتَكَى   أَلَمَ الوَجْدِ فَلَبَّتْ أَدْمُعِي

(قفل من جزأين)

جزء ١ أَيها الناسُ فؤادى شَغِفُ	بيت بسيط من ثلاثة أجزاء
جزء ٢ وهو فى بَغْى الهوى لا يُنْصِفُ	
جزء ٣ كم أُدارِيه ودَمْعِى يكفُ	

أَيها الشاذنُ مَنْ علَّمكا   بسهام اللحظِ قتلَ السَّبُع

(قفل من جزأين)

أما المركب من الأبيات فهو ما كان كل جزء منه مركباً من فقرتين أو ثلاث أو أربع أو خمس فقر . فإذا لاحظنا أن البيت نفسه يكون مكوناً من ثلاثة أجزاء أو أكثر ، نرى أنه يحدث من ذلك صور كثيرة .

فمثال البيت المركب من فقرتين وثلاثة أجزاء موشح الأعمى التطيلى الذى قدمناه ، وهذا الموشح الذى يذكره ابن سناء الملك [١] :

كَذا يقتادُ سَنَا الكوكبِ الوقَّاد   إلى الجلاس مشعشةَ الأَكواس

أَقِمْ عُذْرِى فقد آنَ أَن أَعكفْ	بيت من فقرتين أو ثلاثة أجزاء
على خمرٍ يطوف بها أَوْطَفْ	
كما تَدْرِى هضيمُ الحَشا مُخْطَفْ	

ومثال البيت المركب من ثلاث فقر وثلاثة أجزاء هذا الموشح الذى يذكره أيضاً ابن سناء الملك[٢] :

---

(١) دار الطراز ص ٥٥ .

(٢) دار الطراز ص ٦٣ .

من لى به يرنو بمقلتىْ ساحِرْ إلى العِباد
ينأى به الحسنُ فينثنى نافرْ صعب القِياد
وتارةً يدنو كما احتسىَ الطائرْ ماءَ الثَّماد

بيت من ثلاث فقر وثلاثة أجزاء

* * *

نلاحظ أن الأندلسيين حاولوا أن يفتنوا فى الأقفال والأبيات ، وعدد أجزائها ، والتزام قوافيها ، ليصلوا من ذلك إلى أنواع جديدة تحمل أسماء جديدة ، فمن ذلك أن يسموا القفل لازمة إذا كان القفل بيتين صدراهما قافية واحدة وعجزاهما كذلك ، ثم يأتى بعد ذلك البيت ثلاثة أجزاء ، كل جزء فقرتان ، متفقة صدورها فى القافية وكذلك أعجازها ، ثم يأتى القفل وبعده بيت وهكذا إلى النهاية .

مثال ذلك قول ابن زمرك :

باللهِ يا قامةَ القضيب ومُخْجِلَ الشمس والقمرْ
مَنْ مَلَّكَ الحُسْنَ فى القلوب وأَيَّدَ اللحظ بالحَوَرْ

لازمة

* * *

من لم يكنْ طبعهُ رقيقا لم يدرِ ما لذةُ الصِّبَا
فربَّ حُرٍّ غَدا رَقِيقا تملكه نفحةُ الصَّبا
نشوانَ لم يشرب الرحيقا لكنْ إلى الحسن قد صَبا

* * *

فَعَذَّبَ القلبَ بالوجيبِ ونَعَّم العينَ بالنظرْ
وباتَ والدمعُ فى صَبيبِ يُقْدَحُ فى قلبهِ الشَّرَرْ[١] | لازمة

هذا وكل قفل مع البيت الذى يليه يسمى بالسمط ، ونرى أن الموشحة تتألف من عدة أسماط متشابهة فى أقفالها مختلفة فى أبياتها ، وهذا ما يكون نوعاً من الترصيع يقربه من وشاح المرأة الذى شبهت به الموشحات .

وقد ذكر ابن سناء الملك فى كتابه « دار الطراز » أمثلة على جميع ما ذكرنا يمكن الرجوع إليها لتسهيل الإيضاح .

الخرجة :

وآخر قفل من الموشح يسمى الخرجة ، ويفضل الوشاحون أن تكون عامية لبعث الهزل والظرف فى الموشحة ، إلا فى المديح . وفى ذلك يقول ابن سناء الملك :

« والشرط فيها أن تكون حجَّاجيَّة[٢] من قبل السخف ، قزمانية[٣] من قبل اللحن ، حارة محرقة ، حادة منضجة ، من ألفاظ العامة ، ولغات الداصة ، فإن كانت معربة الألفاظ منسوجة على منوال ما تقدمها من الأبيات والأقفال خرج الموشح من أن يكون موشحاً اللهم إلا إن كان موشحَ مدحٍ وذكر الممدوح فى الخرجة فإنه يحسن أن تكون الخرجة معربة كقولى ابن بقى :

إنما يحيى سليلُ الكرام واحدُ الدنيا ومَعْنَى الأَنام

وقد تكون الخرجة معربة وإن لم يكن فيها اسم الممدوح ولكن بشرط أن تكون ألفاظها غزلة جداً ، هزَّازة سحَّارة خلابة ، بينها وبين الصبابة قرابة ،

---

(١) العذارى المائسات ص ٩٤ .

(٢) نسبة إلى الشاعر أبى عبد الله الحجاج البغدادى المشهور بمجونه توفى سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠٠م

(٣) نسبة إلى ابن قزمان القرطبي شاعر الزجل المشهور توفى سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م .

وهذا مُعجِز معوِز وما يوجد منه فى الموشحات سوى موشحين أو ثلاثة كقول ابن بقى :

ليلٌ طويل وما مُعين ياقلبَ بَعضِ الناس أَمَا تلين؟

فمن قدر أن يقول هكذا فليعرب وإلا فليغرب »[1] .

ويجعل الوشاحون الخرجة فى الغالب على ألسنة الصبيان والنسوان والسكارى أو على ألسنة الحيوانات كالحمام أو المجردات كالغرام والحرب ويمهدون لها بكلمة قال أو غنى أو ما يقارب ذلك كقول عبادة :

إن الحَمامَ فى أَيكها تَشْدُو

قل هلْ عُلِمْ أَوهل عُهِد أَو كانْ كالمعتصم والمعتضد مَلِكان

وهناك صفات أخرى للخرجة ذكرها ابن سناء الملك فى كتابه « دار الطراز » .

---

(١) دار الطراز ص ٣٠ – ٣١ .

الفصل الثانى

أَوزان الموشحات ـ أَغراضها وفنها وقيمتها

أوزان الموشحات :

تنقسم الموشحات ، بشكل عام ، إلى قسمين من ناحية أوزانها ، فمنها ما جاء على أوزان أشعار العرب ، ومنها ما لا وزن له فيها ولا إلمام له بها كما يقول ابن سناء الملك [١] .

أما القسم الأول : أى ما جاء على بحور الشعر المعروفة ، فيعدُّه الوشاحون مرذولا وهو فى نظرهم أشبه بالمخمسات منه بالموشحات ولا ينظمه إلا الضعفاء من أصحاب صنعة التوشيح ، إلا إذا اختلفت قوافى قفله فإنه يخرج باختلاف قوافى الأقفال عن المخمسات كقول ابن زهر فى موشحته الشهيرة التى هى من بحر الرمل :

أَيها الساقى إليكَ المشتكى قد دعوناك وإنْ لم تسمع

وهم يستحسنون أن يحوروا فيه ويخرجوه عن الوزن المعروف بإدخال كلمة أو حركة تتخلل فقراته . فمثال الكلمة قول ابن بقى :

صبرتُ والصبرُ شِيمةُ العانى ولم أَقلْ للمطيلِ هُجرانى مُعَذِّبى كَفَانى

فهذا من المنسرح وأخرجه منه قوله : « معذبى كفانى » .

ومثال الحركة :

ياويحَ صبٍّ إلى البرقِ.له نظرُ وفى البكاءِ مع الوُرقِ . له وَطَرُ

فهذا من البسيط ،والتزام حركة الخفض فى البرق والورق أخرجه عن وزنه .

---

(١) دار الطراز ص ٣٣ .

وقد تكون أقفال الموشح موافقة لأساته فى الوزن وقد تكون مخالفة لها ، وقد شرح ابن سناء الملك فى كتابه مختلف الحالات [١] .

أما القسم الثانى : فهو ما خالف أوزان العرب ولم يخضع لعروض الشعر التقليدى وكان غرضه الغناء أكثر من الإنشاد وهو الكثير الشائع فى الموشحات ، وقد أشار إليه ابن سناء الملك بقوله :

« والقسم الثانى من الموشحات هو ما لا مدخل لشىء منه فى شىء من أوزان العرب . وهذا القسم منها هو الكثير ، والجم الغفير ، والعدد الذى لا ينحصر ، والشارد الذى لا ينضبط . وكنت أردت أن أقيم لها عروضاً يكون دفتراً لحسابها ، وميزاناً لأوتادها وأسبابها فعز ذلك وأعوز ، لخروجها عن الحصر وانفلاتها من الكف ، وما لها عروض إلا التلحين ولا ضرب إلا الضرب ، ولا أوتاد إلا الملاوى ، ولا أسباب إلا الأوتار ، فبهذا العروض يعرف الموزون من المكسور ، والسالم من المزحوف ، وأكثرها مبنى على تأليف الأرغن ، والغناء بها على غير الأرغن مستعار وعلى سواه مجاز »[٢] .

وقال فى مكان آخر من كتابه :

« والموشحات تنقسم من جهة أخرى إلى قسمين : قسم يستقل التلحين به ولا يفتقر إلى ما يعينه عليه ، وهو أكثرها ، وقسم لا يحتمله التلحين ولا يمشى به إلا بأن يتوكأ على لفظة لا معنى لها تكون دعامة للتلحين وعكازاً للمغنى كقول ابن بقى :

مَن طالبٌ ثارَ قتلى ظبَياتُ الحدوج فتاناتُ الحجيج

فإن التلحين لا يستقيم إلا بأن يقول : لالا بين الجزأين الجيميين من هذا القفل » [٣] .

---

(١) دار الطراز ص ٣٥ — ٣٨ .
(٢) دار الطراز ص ٣٥ .
(٣) دار الطراز ص ٣٧ .

يتبين مما تقدم أن العرب إنما اخترعوا الموشحات من أجل الغناء ، فيجدر بنا إذن ألا نطلب من الشاعر الوشاح أن يتقيد بوزن قديم معروف تقيداً شديداً . إن الذى يميز هذا الفن ويكسبه جمالا ليس العروض المقنن بل حرية الوزن ، وهى – مع هذا – حرية تقودها أذن موسيقية وضرورات التلحين ، وعلى هذا فليس العجز هو الذى جعل العرب يحجمون عن إيجاد عروض مقنن للموشح كعروض الشعر العربى التقليدى بل وجدوا ذلك يتنافى مع روح هذا الفن الخاضع للحرية والتجديد والتلحين والغناء . ونلاحظ أن المستشرق الألمانى (هارتمان) فى كتابه القديم عن الموشح قد حاول إرجاع أوزان الموشحات إلى ١٤٦ وزناً أو بحراً مشتقة من بحور الشعر العربى الستة عشرة ، ولكن لا يمكننا أن نرى فى هذه المحاولة إلا التصنع والتكلف ، إذ هناك موشحات تشذ عن الأوزان التى ذكرها هارتمان ولا تخضع لها(١) .

أغراضها ومعانيها ولغتها وقيمتها :

قال ابن سناء الملك : « الموشحات يعمل فيها ما يعمل فى أنواع الشعر من الغزل والمدح والرثاء والهجو والمجون والزهد، وما كان منها فى الزهد يقال له المكفِّر ، والرسم فى المكفر خاصة أن لا يعمل إلا على وزن موشح معروف وقوافى أقفاله، ويختم بخرجة ذلك الموشح ليدل على أنه مكفره ومستقيلٌ ربَّه عن شاعره ومستغفره »(٢) .

يتبين لنا من هذا القول أن الموشح قد نظم فى أكثر أغراض الشعر المعروفة ، ولكن لما كانت الموشحات قد اخترعت فى سبيل الغناء كان من الطبيعى أن تنظم بكثرة فى الأغراض التى تناسب هذا الفن كالغزل ووصف مجالس اللهو والخمر ووصف الطبيعة . كما أنهم قد نظموها فى المدح بغية التكسب ، ولأن قصور الخلفاء والأمراء كثيراً ما كانت تضم مجالس الغناء الفخمة فيجد الشاعر والمغنى

---

(١) Das muwashshah P. 199 - 200

(٢) دار الطراز ص ٣٨ .

فرصة لإيصال مدحه إلى آذان الأمير عن طريق الغناء فتزداد نشوة الممدوح وهو فى طربه ويزيد إغداقه وكرمه .

ويظهر أن الموشحات خلقت لتصف حياة الدعة والأنس والهناء ، ولهذا كلما تعرضت لهذه الأغراض بدا تأثيرها وظهرت جدتها وكانت أعلق بالنفوس ، ولا سيما عندما تتعرض لوصف الطبيعة — وما أكثر ما تتعرض — فتصورها بألوانها وأصباغها ، وطيورها وبلابلها ، وأزهارها وأشجارها ، وجداولها وعبيرها ، ويتجلى لنا حب الأندلسى لوطنه ، واختلاط الطبيعة بروحه ، وكيف أنها ملتقى العشاق وساحة اللهو والطرب ، ومبعث السلوان والحنين .

فلنسمع هذه الموشحة الشهيرة لابن زُهْر ، إننا لا نجد فيها من المعانى ما يجلب انتباهنا ولكنها تخلق لنا جواً حبيباً وتدغدغنا بموسيقاها فتبعث فينا هذه النشوة الحبيبة ، نشوة من يرى منظراً طبيعياً ندياً تظلله الأضواء الخفيفة وتعبق فيه الأشذاء المرنحة ينشرها الريحان العائم على الماء الواجم فى جريانه :

ما للمولَّهْ مِنْ سُكْرِهِ لا يُفيقْ يا له سكران

من غيرِ خمرِ ما للكئيبِ المَشُوق يندُب الأَوطان

هل تستعاد أَيامُنا بالخليج ولياليـنـا

أَو يستفاد من النسيمِ الأَريج مِسك دارينا

أَو هل يكاد حسنُ المكان البهيج أَنْ يُحَيِّينا

* * *

روضٌ أَظَلَّه دوحٌ عليه أَنيقْ مورقُ الأَفنان

والماءُ يجرى وعائمٌ وغريقْ من جَنَى الريحان[٢]

وكذلك موشحة ابن سهل الإشبيلى ، إنها تلعب فينا بألفاظها الغزلية وموسيقاها ، على أننا لا نجد فيها من المعانى ما يسترعى الانتباه ، وإنما هى قصيدة مرنحة نشعر بحلاوة قوافيها المتواترة ونغماتها العذبة :

هل دَرَى ظبيُ الحِمَى أن قَدْ حَمَى قلب صَبٍّ حلَّه عن مَكنِس

فهو فى حَرٍّ وخَفْقٍ مثلما لَعِبَتْ ريحُ الصَّبا بالقَبَس

* * *

يا بدورًا أَشرقتْ يومَ النوى غُرَرًا تسلك بى نَهْجَ الغَرَر

ما لقلبى ،فى الهوى ، ذنبٌ سوى منكم الحسنُ ومِنْ عينى النظر

أَجتنى اللذاتِ مكلومَ الجَوَى والتذاذى من حبيبى بالفِكَر

* * *

كلما أَشكوه وَجْدى بَسَما كالرُّبَى بالعارِض المنبجِس

إذ يقيمُ القَطْرُ فيها مأْتما وهى من بهجتها فى عُرُس

* * *

أَيها السائلُ عن جرمى لديه لى جزاءُ الذنبِ وَهْوَ المذْنِبُ

أَخذت شمسُ الضحى من وجنتيه مَشْرِقاً للشمس فيه مغرِبُ

---

(١) مقدمة ابن خلدون . انظر أيضاً الموشحات الأندلسية عدد ١٨ ص ٣١ طبع مكتبة صادر ، بيروت .

ذَهَبَ الدمع بـأَشواقى إِليه وله خدٌّ بلحظى مُذْهَبُ

* * *

ينبت الوردُ بغرسى كلما لا حَظَتْهُ مقلتى فى الخُلَس
ليتَ شعرى أَى شىءٍ حَرَّمَا ذلك الوردَ على المغترِسِ ؟[١]

* * *

وهكذا فإننا لا نجد فى معانى الموشحات جِدّة وعمقاً . وإنما هى لطيفة حلوة على ابتذالها ، يستسيغها الذوق لنعومة خيالها وبريق صورها التى تتآلف مع ألوان الطبيعة وتأخذ منها عطرها وغضارتها وأشكالها .

وهذه المعانى التافهة يسترها طلاء خارجى مستمد من ضروب البيان والبديع . إلا أن الشاعر كثيراً ما يفرق فى استعمال هذا الطلاء فتبدو موشحته كغادة بالغت فى الزينة واستعمال المساحيق فخسرت الكثير من جمالها ولكنها على الرغم من ذلك قد استطاعت أن تحافظ على رشاقتها ومشيتها المرقصة فألهتنا بهذا الغنج الذى تبديه عن البحث عن معانيها والغوص على أسرارها . ويبدو لنا أن الوشاح الأندلسى لم يكن همه البحث عن معنى مبتكر ، بل لعله لم يستطع أن يأتى بمعنى مبتكر دقيق بعد أن عجز عن إدراك هذه الغاية فى الشعر التقليدى . وإنما يبغى من موشحاته خلق أجواء الحب وإثارة عواطف الحنين وشطحات الخيال بعبارات ساذجة لينة تحف بها موسيقى هادئة تصويرية حيناً ومرقصة ملهية حيناً آخر فتطرب لها الروح وتخلد لنوع من الطمأنينة والنسيان والنشوة والمرح .

هذه المعانى الساذجة التافهة إن عبرت عنها موسيقى ناجحة على الأغلب فإنها لم تحوها قوالب متينة من الألفاظ والعبارات . فلغة الموشحات يغلب عليها الضعف

---

(١) الموشحات الأندلسية عدد ١٨ ص ٤٣ .

والركاكة . وهى فى لينها وحريتها وائتلافها مع روح العامة قادت اللغة الشعرية إلى الركاكة وأساءت من هذه الناحية إلى اللغة العربية . فأصبح الشاعر الوشاح لا يجد حرجاً فى التساهل اللغوى طالما يبغى إرضاء الأذواق العامة كما ترضى الأغانى الشعبية هذه الأذواق . وكانت الموشحات قفزة من القفزات التى أدت إلى الشعر الشعبي العامى المسمى بالزَّجَل .

على أنه يجب ألا يفهم من ذلك أن الموشحات هى وحدها التى أدت إلى ظهور شعر الزجل . لأن هذا الشعر فى نظرنا كان دائماً نتيجة طبيعية لانتشار اللهجات العامية على ألسنة الناس واستساغتها فى جميع أنماط أحاديثهم ونتاجهم الأدبى . وهذا الانتشار يمكن أن يحدث فى كل زمن وفى كل بقعة تضعف فيها السليقة العربية . ولذا فإن الموشحات ليست السبب كله فى ظهور شعر الزجل . إنها لم تدع إلى نشوئه لأنه نشأ من نفسه . وإنما تطورت باتجاهه وساعدت على انتشاره ورواجه . ولعل الموشحات كانت تحمل فى طياتها بذور هذا الانحراف عندما نص شعراؤها على أن تكون الخرجة عامية وعندما رأينا أن لغتها فى الأغلب الأعم مهلهلة ضعيفة .

ولكن من الإنصاف أن نقول إن الموشحات لم تهوِ إلى هذا الدرك من الضعف والبعد عن الأساليب الفصيحة إلا فى عصور الانحطاط . وقد قدَّر شعراء العصر الحديث ميزاتها الفنية وخصائصها فحرروها من العامية وعادوا بها إلى اللغة الفصحى ، وقام شعراء المهجر ينظمون فيها أشعاراً فصيحة صحيحة فياضة برقيق المعنى وجرس الموسيقى مبتعدين عن الإغراق فى ضروب البيان والبديع . وإذا رأينا أن شعراء الأندلس وغيرهم من المغاربة قد افتتنوا فى استعمال هذه الحلية اللفظية فما ذلك إلا لأنهم كانوا فى عصر التأنق اللفظى فخضعوا لتياره طائعين ولم يدروا ، وقد جرفهم التيار ، أن شعرهم قد أصبح فى جميع مظاهره آنية فارغة تزينه الزخارف .

هذه هى أغراض الموشحات وخصائص معانيها وصفاتها العامة فهل استطاعت أن تثبت وجودها كفن ناجح ؟

لا مراء فى أن الموشحات قد لاقت ، لدى ظهورها ، رواجاً وانتشاراً سريعين لاعتمادها على الغناء وملاءمتها للنفوس الهانئة ، فمثلت بذلك العصر الذى نشأت فيه والأرض التى ترعرعت تحت سمائها ، وهى أرض الأندلس فى مطلع القرن الرابع الهجرى وما بعده . ولكن لا يمكننا أن نقول إن الموشحات قد مثلت وجه الشعر العربى المزدهر .

فنحن إذا نظرنا إليها من خلال تاريخ الشعر العربى ، نراها ظاهرة من ظواهر الانحطاط ، إذ أنها فى أوج ازدهارها فى بلاد الأندلس لم تبلغ قوة الشعر التقليدى ولا صفاء خياله وعمق معناه وقوة لغته . ولعل ذلك ناجم عن أن الحرية التى جاء بها الموشح لم تقتصر على الوزن والقافية بل شملت اللغة والأسلوب وقادتهما إلى العامية والإسفاف كما ذكرنا . ولو قدر لشعراء عباقرة ، وهم يستثمرون حرية هذا الفن ، أن يحترموا نقاء اللغة وقوة الأسلوب القديم وأن يرتفعوا عن سفساف القول إلى روعة معانى الشعر التقليدى وصحة أسلوبه ، لكان هذا التجديد الذى جاءت به الموشحات تجديداً ناجحاً . إذ لا يمكننا أن نجحد المجال الرحب الذى فتحه هذا الفن أمام الشعر العربى ، ولكن الذى يدهشنا أن المحاولات التى جرت فى هذا المضمار لم تكن موفقة اللهم إذا استثنينا بعض موشحات مشاهير الوشاحين الأندلسيين كابن زهر وابن بقى وابن سهل ولسان الدين بن الخطيب ، وموشحة ابن سناء الملك التى يقول فى مطلعها :

كلِّلى ، يا سحبُ تيجانَ الرُّبى بالحُلى

واجْعَلى ، سوارَها منعطفَ الجدول

تجاه هذا الفقر فى الموشحات نتساءل : هل كان الموشح شكلا غريباً عن عبقرية اللغة العربية التى لم تتألق ببهاء إلا فى الشعر القديم والأدب التقليدى بصورة عامة ؟ أم أن الموشح لم يقدر له شعراء عباقرة كأبى نواس والبحترى وابن الرومى والمتنبي ومن لف لفهم لكى يرفعوه إلى المكانة التى يستحقها والتى توحى بها ميزاته ؟ إن ظهوره فى عهد الانحطاط يؤيد ما قلناه من أنه ظاهرة من ظواهر هذا

الانحطاط . ولكننا نعتقد بأن شعراء أقوياء ذوى ثقافة لغوية متينة يستطيعون أن يستعملوا هذا الفن متجنبين مساوئه التى أشرنا إليها مستثمرين خصائصه الموسيقية البادية فى حرية الوزن وتعدد القافية ، وعندئذ يمكنهم أن يرفعوا هذا الفن الجديد إلى مكانة الشعر الكلاسيكى دون أن يفقدوه ميزاته الأصلية . إذ لا يخفى أن الموشح إذا روعيت فيه الفصاحة شائق جميل وهو شعر الحب والنجوى واللهو أكثر من أن يكون شعر التأمل والفلسفة ، ولذا نغتفر له أحياناً سذاجة معانيه ولكننا لا نغتفر له ركاكة أسلوبه وهلهلة ألفاظه وضعف لغته .

وصفوة القول : يجب أن نشير إلى الموشح كفتح جديد فى الأدب العربى جرير بأن يقدم لنا نتائج أفضل مما قدم حتى الآن . ولا يجب أن نطلب منه وأن يكون غذاء الذهن والفكر بل يكفينا منه ما يثيره فينا من عاطفة وخيال وما تخلق موسيقاه فى نفوسنا من لذة محببة .

الفصل الثالث

مختارات من الموشحات

١

قال عبادة بن ماء السماء المتوفى سنة ٤٢٢ هـ :

مَنْ وَلِي فى أُمَّة أَمرًا ولم يعدل   يعزل إلا لحاظَ الرشإ الأَكحل

* * *

جُرْتَ فى حكمك فى قتلى يا مسرفُ
فانصفِ فواجبٌ أَن يُنْصَفَ المنصِفُ
وارأَف فإِن هذا الشوقَ لا يرأَفُ
علّلِ قلبى بذاك البارد السلسلِ   ينجلى ما بفؤادى من جَوى مُشْعَلِ

* * *

إنما   تبرزُ كى توقدَ نارَ الفتن
صنما   مُصَورًا فى كل شىءٍ حسن
إن رمى   لم يخطِ من دونِ القلوب الجنن
كيف لى تخلُّصٌ من سَهمِكَ المُرْسَلِ   فَصِلِ واستبقنى حيًّا ولا تَقْتُلِ

* * *

يا سنى الشمس ويا أبهى من الكوكبِ
يا منى النفس ويا سؤلى ويا مطلبى
ها أنا حَلَّ بأعدائك ما حلَّ بى

عُذَّلِى من ألم الهجران فى مَعْزِلِ والخَلى فى الحُب لا يسأل عمن يَلى

* * *

أنت قدْ صيرتَ بالحسن من الرُّشدِ غىّ
فاتئدْ فى طرفى حبك ذنباً علىّ
فاتئدْ وإن تشا قتلى شيئاً فشىّ

أجْمِلِ ووالى منك يدَ المُفْضِل فهى لى من حسناتِ الزمن المُقْبِل

* * *

ما اغتذى طرفى إلا بِسَنى ناظريك
وكذا فى الحب مابى ليس يخفى عليك
وكذا أُنشِدُ والقلبُ رهينٌ لديك

يا على سَلَلْتَ جفنيك على مقتلى فابقِ لى قلبى وَجُدْ بالفضل ياموئلى[1]

* * *

---

(١) انظر هذه الموشحة فى فوات الوفيات للكتبى ، ج ١ ص ٢٠٠ .

٢

قال أبو عبد الله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز ، من شعراء المعتصم بن صمادح صاحب المرية ، عاش فى القرن الخامس الهجرى :

بِأَبِى ظبىُ حِمَى تكنُفُه أُسْدُ غِيلْ
مذهبِى رَشفُ لَمَى قَرْقَفُه سلسبيلْ
يستبِى قلبِى بما يعطِفُه إذ يميلْ
ذو اعتدالْ يُعزى إلى ذى نعمةٍ ثابتِ
فى ظلالْ تحت حُلَى قطرِ الندى بايتِ

وفتورْ ذو غَنَجٍ ذو مرشفٍ ألعسِ
العبيرْ فى أَرجِ والحسنُ فى ملبسِ
كم يثيرْ وَجْدَ شجٍ بالدَّنَفِ مكتَسِ
ذو اعتلالْ لو عُلِّلا أَنطقَ عن ساكتِ
وغزالْ لو مُقِّلا أَلْحَظَ عن باهتِ

نَيِّرُ حَدُّ الهوى أَن يجدوا حَدَّه
كوثرُ سِرُّ الصَّدَى أَنْ يَرِدُوا وِرْدَه
انظروا محمدًا واتئدوا عنده
فى هلالْ لو يجتلَى جلَّ عن الناعت
وزُلالْ لو بُذلا يَرْتَقِى للقانت

بَدْرُ تَمْ شَمْس ضُحى غُصْنُ نَقَا مِسْكُ شَمْ
ما أَتَمْ ما أَوضحَا ما أَوْرَقَا ما أَنَمْ
لا جَرَمْ مَنْ لَمَحَا قد عَشِقا قَدْ حُرِمْ

فالوصالْ ماقد خَلا من أملٍ فايتِ
والخيالْ ما قد عَلاَ من نَفَس خافتِ

قاتلى أَهِنْ دَما مَنْ قَدْ غَدا مُلّحِدا
واصلى كنتَ فما عما بَدا قَدْ عَدا
سايلى مُسْتَفْهِما جيشَ الردَى أُعْتِدَا

لا سؤالْ عن مبتلى يَنْحَتُ فى صامتِ
لينالْ ما أَمَّلا والأَمرُ للشامتِ

كم يتيهْ كَمْ وَكَمْ يأْبِى الجَوَى أَن يحولْ
أَرتضيهْ وإِن حَكَم حُكم الهوى فى العقولْ
قلت فيهْ والحبُّ لم يرضَ سوى ما أَقولْ

الجمالْ وقفٌ على ظبيٍ بنى ثابتِ
لا زوالْ فى الحبّ لا عن عهدِهِ الثابتِ

---

(١) دار الطراز ص ٦٥ .

٣

قال محمد بن عيسى بن محمد أبو بكر اللخمى الأندلسى المشهور بابن اللبانة المتوفى سنة ٥٠٧ هـ :

فى نرجس الأَحداقْ وسوسن الأَجيادْ نبت الهوى مغروسْ بين القنا الميّادْ

* * *

وفى نقا الكافورْ والمَنْدَلِ الرَّطبِ
والهودج المزرورْ بالوَشْى والعَصْبِ
قُضْبٌ من البِلَّوْر حُمِينَ بالقُضْبِ
نادىَ بها المهجورْ من شِدةِ الحبِ

أَذابتِ الأَشواقْ روحى على أَجساد أَعارها الطاووس من ريشِهِ أَبرادْ

* * *

كواعبٌ أَترابْ تشابهتْ قَدًّا
عضَّتْ على العنابْ بالبَرَدِ الأَنْدَى
أَوْصَتْ بىَ الأَوصابْ وأَغْرَتِ الوَجْدَا
وأَكثرُ الأَحبابْ أَعدَى من الأَعدا

تفترُّ عن أَعلاقْ لآلئٍ أَفرادْ فيه اللَّمَى محروسْ بأَلسن الأَغْمادْ

* * *

من جوهر الذكرى عَطِّلْ نحورَ الحُورْ
وقَلِّد الدُّرا سلالةَ المنصورْ
جاوِزْ به البحرا واخرِقْ حجابَ النورْ
وقُلْ له شِعْرا بفضلكَ المشهورْ
جَمعتَ فى الآفاقْ تنافرَ الأَضدادْ فأَنتَ ليثُ الخِيس[1] وأَنتَ بدرُ النادْ

* * *

خرجتُ محتالا أَبغى سَنى البرقِ
أَقطعُ أَميالا غرباً إلى شرقِ
مؤملاً حالا يكون من وَفْقِى
فقالَ مَنْ قالا وفاهَ بالصدقِ
دعْ قطعَكَ الآفاقْ يـأَيها المرتادْ واقصدِ إلى باديسْ خيرِ بنى حَمَّاد

* * *

يا مَنْ رَجَا الطَّلا وأَمَّلَ التعريسْ
إن شئتَ أَن تَحْلاَ بطائلِ التأْنيسْ
لا تعتمِدْ إلاَّ على عُلا باديسْ

---

(١) الخيس : الأجمة .

من فَرْقِهِ أَعْلَى قدرًا من البرجيسْ

مواطنُ الأَرزاقْ أُولئك الأَمجادْ فاحطط رحالَ العيْس وانقضْ بقاءَ الزادْ[١]

* * *

٤

قال الأعمى التطيلى وهو من الوشاحين المشهورين فى مطلع القرن السادس توفى سنة ٥٢٠ هـ :

ضاحكٌ عن جمانْ سافرٌ عن بدرِ ضاقَ عنه الزمانْ وحواه صدرِى

آه مما أَجِدْ شفَّنِى ما أَجِدْ

قامَ بى وقَعَدْ باطشٌ متئدْ

كلما قلتُ قَدْ قال لى أَين قدْ

وانثنَى خوطَ بانْ ذَا مِهزٍّ نَضْرِ عابثَتْهُ يدانْ للصَّبَا والقَطْرِ

ليس لى منك بدْ خُذْ فؤادى عن يدْ

لم تدعْ لى جَلَدْ غير أَنى أَجهدْ

مكرع من شُهُد واشتياقى يشهدْ

ما لِبنْتِ الدنانْ ولذاكَ الثغرِ أَين مَحَيَّا الزمانْ من حُمَيَّا الخمرِ

بى هوى مُضْمَرُ ليتَ جُهدِى وَفْقُهُ

(١) انظر : فوات الوفيات للكتبى ، ج ٢ ص ٢٦٠ .

كلما يظهر ففؤادى أُفْقُهُ
ذلك المنظرُ لا يداوَى عشقُهُ
بـأَبى كيف كانَ فلكىٌّ دُرِّى راقَ حتى استبانْ عذرُه وعذْرِى

هل إليكَ سبيلْ أَو إلى أَنْ أَيـأَسا
ذُبْتُ إلا قليلْ عبْرَةً أَو نَفَسا
ما عَسَى أَن أَقولْ ساءَ ظنى بِعَسَى
وانقضى كلُّ شانْ وأَنا أَستشرِى خالعاً من عِنانْ جَزَعِى وصبرى

ما علَى مَنْ يلومْ لو تَنَاهى عَنِّى
هل سِوى حُبِّ ريمْ دينُه التَّجَنِّى
أَنا فيهِ أَهيم وهْوَ بى يُغَنِّى
قدرأَيتُكْ عَيانْ ليس عليكساتَدْرى سايطولُ الزمانْ وستنسى ذِكْرى[1]

* * *

٥

قال يحيى بن بقى القرطبى ، وهو وشاح بارع فى عصر المرابطين ، توفى سنة ٥٤٠ هـ :

عَبِثَ الشوقُ بقلبى فاشتكَى أَلَمَ الوَجْدِ فلبَّتْ أَدمعى

* * *

(١) دار الطراز ص ٤٣ .

أَيها النّاسُ فؤادى شَغِفُ
وهو من بَغْيِ الهوى لا يُنْصَفُ
كمْ أُداريه ودمعى يَكِفُ
أَيها الشادنُ من علَّمكا بسهام اللحظ قَتْلَ السَّبُعِ

* * *

بدرُ تَمٍّ تحت ليلٍ أَغطشِ
طالعٌ فى غصن بانٍ مُنْتَشِ
أَهيفُ القَدِّ بخَدٍّ أَرْقَشِ
ساحرُ الطَّرف وكم ذا فَتَكا بقلوبِ الأُسْدِ بينَ الأَضْلُع

* * *

أَىُّ ريمٍ رُمْتُه فاجتنبا
وانثنى يهتزُّ من سُكْرِ الصِّبا
كقضيبٍ هزَّه ريحُ الصبا
قلتُ: هب لى ياحبيبى وصلَكا واطَّرِحْ أَسبابَ هجرِى وَدَعِ

* * *

قال: خَدَّى زهرُهُ مُذْ فَوَّفا
جَرَّدَتْ عيناى سَيْفاً مُرْهَفا

حَذَرًا منه بأَنْ لا يُقْطَفا
إنَّ مَنْ رامَ جَناه هَلَكا فأَزِلْ عنكَ عِلال الطَّمَع [١]

* * *

ذابَ قلبي في هوى ظَبيٍ غريرْ
وَجْهُهُ في الدَّجْن صبحٌ مستنير
وفؤادي بينَ كَفَّيْه أَسيرْ
لم أَجِدْ للصبرِ عنه مَسْلَكا فانتصاري بانسكابِ الأَدْمُعِ

* * *

٦

وله أيضاً هذه الموشحة :

أَدِرْلنا أَكوابْ يُنسى بها الوجدُ واستصحبِ الجُلاسْ كما اقتضى العهدُ

* * *

دِنْ بالهوى شَرْعا ما عشتَ يا صاحِ
ونزِّه السمعا عن منطقِ اللاحِي
والحكمُ أَن يُدعى إليكَ بالراحِ

---

(١) علال الطمع : استدراره باستمرار ، من عل الناقة : حلبها صباحاً ومساء وظهراً .
(٢) انظر : نفح الطيب ج ٥ ص ٣٦٧ – ٣٧٢ (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) وانظر الموشحات الأندلسية عدد ١٨ ص ١٦ ، طبعة مكتبة صادر ، بيروت .

أَناملُ العُنَّابْ ونَقْلكَ الوردُ حَفًّا بصِدْغَى آسْ يلْوِيهما الخدُّ

* * *

للهِ أَيامٌ دارت بها الخمرُ
والروض بسامٌ باكَرَه القطرُ
وَصْلٌ وأَنغامٌ وأَوجُهٌ زُهْر
فنحنُ بالأَصحابْ قد ضمنا عِقْدُ وأَفرط الإِيناسْ مما له حَدُّ

* * *

بينا أَنا شاربْ للقهوة الصِرْفِ
وبيننا تائبْ لكن على حَرْفِ[1]
إِذْ قال لى صاحبْ من جملةِ الظُّرفِ
أَميرُنا قد تابْ غَنِّ له واشْدُ واعْرِض عليه الكاسْ عساه يرتَدُّ[2]

* * *

٧

قال أبو بكر محمد بن باجة الأندلسى السرقسطى المتوفى سنة ٥٣٣ هـ :

جَرِّرِ الذيلَ أَيما جَرِّ وصِلِ الشكر منك بالشكرِ

* * *

(١) تائب على حرف : أى على وجه واحد ، كأن يتوب عن معصية ولا يتوب عن أخرى .
(٢) الموشحات الأندلسية عدد ١٨ ص ٢٢ دار الطراز ص ٤٧ .

خَضِّبِ الزندَ منكِ باللهبِ
من لجينٍ قد حُفَّ بالذهبِ
تحت سِلْكٍ كجوهرِ الحبب
مع أَحْوى وأَعذبِ الشنبِ

أُودعتْ كَفُّه من السحرِ جامدَ المَا وذائبَ التِّبرِ

* * *

هاكَ نورَ الصباحِ قد لاحا
ونسيمَ الرياضِ قد فاحا
فتأَهب وشعشع الراحا
لا تَقِدْ فى الظلام مصباحا

حين تنهلُّ أَدمعُ القطرِ فعلى الروض ناسمٌ عِطرى

* * *

فهمومٌ راحتْ بأَفراحِ
فى مساءٍ وعندَ إصباحِ
والغوادى تجودُ بالراحِ
وهى تَسقِى الرُّبى بأَقداحِ

وقدودُ الأَغصانِ بالسُّكْرِ تنثنى فى غلائل خُضْر[1]

* * *

طاب شربى من خمر خَمَّارِ
بين مُرْد وبين أَبكارِ
وجَنَيْنَا وردًا ولا حارِ[2]
ويد الصبح زندُها وارِ[3]
قد جنتْ لى من أَحسن الزهرِ جذوةً عنبريةَ النَّشْر[4]

* * *

٨

قال أبو بكر محمد بن زهر الأشبيلى المتوفى سنة ٥٩٥ ه وموشحته على نمط موشحة ابن بقى[5] :

أَيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناكَ وإن لم تسمع

* * *

ونديم هِمتُ فى غرتهِ

(١) الغوادى : غيوم الصباح . الراح : أى المطر . الأقداح : يقصد بها هنا أوراق الزهر التى يرويها المطر .
(٢) حار : ترخيم حارس ، وهو مع غير النداء ضرورة .
(٣) زندها وار : أى مخرج ناره .
(٤) انظر : العذارى المائسات ص ٨٩ – ٩١ والموشحات الأندلسية عدد ١٨ ص ٢٦ .
(٥) انظر ص ٣١٦ من هذا الكتاب .

وبُشْربِ الراح من راحتهِ
كلما استيقظ من سكرتِهِ
جذبَ الزِّقَّ إليه واتكا   وسقانى أَربعاً فى أَربع

* * *

ما لعينى عشيتْ بالنظرِ
أَنكرتْ بعدَك ضوءَ القمرِ
وإِذا ما شئتَ فاسمعْ خبرى
عشيتْ عيناى من طول البُكا   وبكا بعضِى على بعضِى معى

* * *

غُصْنُ بانٍ مالَ من حيثُ استوَى
بَات من يهواه من فَرْط الجوى
خَفِقَ الأَحشاءِ موهونَ القُوَى
كلما فكَّرَ بالبينِ بَكَى   ويحَه يبكى لِمَا لم يَقَع

* * *

ليس لى صبرٌ ولا لى جَلَدُ
يا لَقَوْمى عَذَلُوا واجتهدُوا
أَنكرُوا شكوايَ مما أَجِدُ

مثلُ حالى حقُّه أَن يُشتكَى كَمَدُ اليـأْسِ وذُلُّ الطَّمَعِ

* * *

كَبِدى حرَّى ودمعى يَكِفُ
يَعْرِفُ الذنبَ ولا يَعْتَرِفُ
أَيها المُعرِضُ عمَّا أَصِفُ
قد نما حبُّك عندى وزكَا لا تقلْ فى الحبِّ إِنى مُدَّع [١]

* * *

٩

وله أيضاً هذه الموشحة :

ما للمولَّهْ من سُكره لا يُفيقْ ياله سكرانْ
من غير خمرِ ما للكئيب المشوقْ يندب الأَوطانْ

* * *

هل تستعادْ أَيامُنا بالخليجْ وليـــاليـــــنا
أَو يستفادْ من النسيم الأَريجْ مسكُ دارِينا [٢]
أَو هل يكادْ حسنُ المكان البهيجْ أَن يُحيِّينا

---

(١) انظر : دار الطراز ص ٧٣ والموشحات الأندلسية عدد ١٨ ص ١٣ .
(٢) بلد بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند ويباع بها فصار ينسب إليها .

روضٌ أَظلَّهْ دوحٌ عليه أَنيقْ مورقُ الأَفنانْ
والماءُ يجرى وعائمٌ وغريقْ مِنْ جَنى الريحانْ

* * *

أَو هلْ أَديبْ يُحيي لنا بالغُروس ما كانَ أَحْلى
مع الحبيبْ وصافياتِ الكؤوسْ فاسقنى وامْلا
عيشٌ يطيبْ وَمَنْزَهٌ كالعروسْ عندما تُجْلَى
عيشٌ لعلَّهْ يعودُ منه فريقْ كالذى قد كانْ
أَضغاثُ فِكْرِ تحدُو به وتسوقْ هذه الأَلحانْ

* * *

يا صاحبيًّا إلى متى تعذلانى أَقْصِرا شيًّا
قَدْ مِتُّ حيًّا والمُبْتَلى بالغوانى مَيِّتٌ حيًّا
جَنَى عليًّا عذبُ اللَّمَى والمعانى عاطرٌ رَيًّا
هلالُ كِلَّهْ غزالُ أُنْسٍ يفُوقْ سائرَ الغزلانْ
يا ليتَ شعرِى هل لى إليهِ طريقْ أَو إلى السُّلوانْ

* * *

١٠

وله أيضاً هذه الموشحة وهى من مجزوء الخفيف :

سلِّمِ الأَمرَ للقضا فهو للنفس أَنفعُ

* * *

واغتنمْ حين أَقبلا
وجهَ بدرٍ تهلَّلا
لا تقلْ بالهموم لا
كل ما فاتَ وانقضَى ليس بالحزنِ يرجعُ

* * *

واصطبح بابنة الكروم
من يدىْ شادنٍ رخيمِ
حين يفترُّ عن نظيمِ
فيه برقٌ قد أَومضا ورحيقٌ مشعشعُ

* * *

أَنا أَفديه مِنْ رَشَا
أَهْيَفُ القَدِّ والحَشَا
سُقِيَ الحسنَ فانتشَى

مذ تولَّى وأَعرَضَا ففؤادى يقطَّعُ

* * *

من لصبٍّ غَدَا مَشُوقْ
ظلَّ فى دَمْعِه غَريقْ
حين أَمُّوا حِمى العقيقْ
واستقلوا بذِى الغَضَا أَسفى يومَ وَدَّعوا

* * *

ما ترى حينَ أَظعنا
وسرى الركبُ مَوْهِنا [1]
واكتسى الليلُ بالسنا
نورهمْ ذا الذى أَضَا أَم مع الركبِ يُوشَعُ [2]

* * *

١١

قال إبراهيم بن سهل الإشبيلى المتوفى سنة ٦٤٩ هـ :

ليلُ الهوى يقظانْ والحبُّ تِربُ السهرِ
والصبرُ لى خوَّانْ والنومُ من عينى بَرِى

(٢) الموهن : نصف الليل . أو بعد ساعة منه .
(١) يوشع : أى يشوع بن نون ، والمراد أنه رد الشمس عن المغيب فبقى نورها ليلا .

* * *

يا زهرةَ الأُنسِ روض المنى منكَ جديبْ
لولاكَ لم أمسِ فى الأَهل والدار غريبْ
رضاكَ للنفسِ مثلُ الصِّبا بعد المشيبْ
والأَمنُ للَّهْفانْ واليسرُ بعد المَعسَرِ
وجنةُ الرضوانْ بعد العذابِ الأَكبرِ

* * *

يسومنى مقلوبْ بسَوم من يَسبِى القلوبْ[1]
ذاك المنى المطلوبْ يامدَّعِ صبرَ الكذوبْ
يا ظالماً محبوبْ يا مذنباً حلوَ الذنوبْ
عابُكَ لى بُهتانْ فخابَ سَعْىُ المفترى
هل يَقْبَلُ الظمآنْ عيباً بماءِ الكَوْثرِ ؟

* * *

يا مُبْطلاً عَنوهْ أَعذر لمن لم يعشقِ
يا ناصرَ الصبوهْ على تُقى كلِّ تقى
يا مُظْهِرَ الشقوهْ حسناءَ فى عين الشقى

---

(١) يسومنى : يكلفنى . مقلوب : اسم علم .

يا حجة الأَشجانْ على السلو المدبرِ
يا شَرَكَ الأَذهانْ يا قيدَ عينِ المبصرِ

* * *

عَيْنِىَّ من بعدِهِ لِصرفِ ماء الدمع عَيْنَ[١]
عُوِّضتُ فى بُعْدِهِ بالبدر رعىَ الفرقدينْ
جُرِّعتُ من فَقْدِهِ فوصلُهُ لا شكَّ عَيْن[٢]
إذ هجرُهُ كسلانْ والعيشُ طَلْقُ المنظرِ
وتيهُهُ يقظانْ وصدُّه لم يَشْعُرِ

* * *

١٢

لابن سهل الأشبيلى أيضاً هذه الموشحة الشهيرة :

هل درى ظبيُ الحِمى أَن قدحَمَى قلبَ صَبٍّ حلَّه عن مَكْنِسِ[٣]
فهو فى حَرٍّ وخَفْقٍ مثلما لعبتْ ريحُ الصَّبا بالقَبَسِ

* * *

(١) العين الثانية : عين الماء .

(٢) العين : خيار الشيء والسحاب الماطر .

(٣) حمى الحمى : منعه ودفع عنه، والمراد هنا أنه استقل وحده بقلبه . المكنس : مأوى الظبى ، وقوله عن مكنس ، أى بدلا من مكنس، فعن هنا للبدل .

يا بدورًا أَطلعتْ يومَ النوَى غُررًا تسلك فى نهج الغَرَرْ [١]
ما لقلبي فى الهوى ذنبٌ سوى منكم الحسنُ ومن عيني النظرْ
أَجتنى اللذاتِ مكلومَ الجوى والتذاذى من حبيبى بالفِكَر
كلما أَشكوه وجدى بَسَما كالرُّبَى بالعارض المنبجسِ
إذ يقيم القَطْر فيها مأْتما وهى من بهجتها فى عُرُس

* * *

غالبٌ لى غالبٌ بالتؤده بأَبى أَفديه من جافٍ رقيقْ
ما رأَينا مثلَ ثَغرٍ نضَّدَه أقحواناً عُصِرَتْ منه رحيقْ
أَخذت عيناه منه العربدَه وفؤادى سكرُهُ ما إن يُفيقْ
فاحمُ الجُمَّةِ معسولُ اللَّمَى أَكحلُ اللحظِ شهىُّ اللَّعسِ [٢]
وجههُ يتلو الضُّحى مبتسما وهو فى إعراضه فى عَبَسِ [٣]

* * *

أَيها السائلُ عن ذُلى لديهْ لى جزاءُ الذنبِ وهو المذنبُ
أَخذتْ شمس الضحى من وجنتَيْه مشرِقاً للشمس فيه مغربُ
ذهبتْ أَدمعُ أَجفانى عليْه وله خدٌّ بلحظى مُذْهَبُ [٤]

---

(١) الغرر : جمع غرة ، أى طلعة وجوه الحسان ، الغرر بالفتح : التعريض للهلكة .

(٢) الجمة : مجتمع شعر الرأس . اللعس : سواد مستحسن فى الشفة .

(٣) الضحى وعبس : من سور القرآن ، وفيهما توريتان لطيفتان .

(٤) مذهب : مطلى بالذهب ، والمراد مورد خجلا .

يَنْبُتُ الوردُ بغَرسى كلما لاحظته مقلتى فى الخُلَسِ
ليتَ شعرى أَىُّ شيءٍ حَرَّما ذلك الوردَ على المغترِسِ ؟

* * *

كلما أَشكو إليه حُرَقى غادرتْنى مقلتاه دَنِفا [١]
تركتْ أَلحاظُه من رمَقِى أَثرَ النمل على صُمِّ الصَّفَا
وأَنا أَشكرُهُ فيما بَقِى لستُ أَلحاهُ على ما أَتْلفا
فهو عندى عادلٌ إِن ظلما وعذولى نُطْقُهُ كالخَرَس
ليس لى فى الحبِّ حُكمٌ بعدما حلَّ من نفسى محل النَفَسِ

* * *

منه للنار بأَحشائِى اضطرام يلتظى فى كل حينٍ ما يشا
وهى فى خديه بردٌ وسلام وهى ضُرٌّ وحريقٌ فى الحشا
أَتقى منه على حُكْمِ الغرام أَسَدَ الغاب وأَهواه رَشا
قلتُ لما أَن تبدَّى مُعْلَما وهو من أَلحاظه فى حَرَسِ
أَيها الآخذُ قلبى مَغْنَما اجعلِ الوصلَ مكانَ الخُمُسِ [٢]

* * *

---

(١) الدنف : المريض .

(٢) الخمس : نصيب قائد الجيش من الغنيمة بتسكين الميم ، وضمت للشعر .

١٣

قال أبو الحسن المرينى ، من شعراء القرن السابع للهجرة ، يذكر ملاهيه على سد قرطبة :

فى نغمةِ العودِ والسُّلافَهْ والروضِ والنهرِ والنديمْ [١]
أَطال من لامنى خِلافَه فظلَّ فى نُصْحه مَليم [٢]

* * *

دعنى على منهج التصابى ما قام لى العذرُ بالشبابِ
ولا تُطِلْ فى المُنى عِتابى فلستُ أُصغى إلى عتابِ
لا ترجُ ردِّى إلى جوابِ والكأْسُ يفترُّ عن حَبَابِ
والغصنُ يُبدى لنا انعطافَهْ إذا هفا فوقه النسيمْ
والروضُ أَهدى لنا قطافَهْ واختالَ فى بُرْدِهِ الرقيمْ

* * *

يا حبذا عهدىَ القديمْ ومن به هِمتُ مُسعدى
ريمٌ عن الوصلِ لا يُريمْ مولعٌ بالتوددِّ
ما تمَّ إلا به النعيمْ طَوْعاً على رغم حُسَّدى
معتدلُ القدِّ ذو نحافَهْ أَسقمنى طَرفُه السقيمْ

---

(١) السلافة : الخمر .

(٢) مليم وملوم : واحد .

ورامَ طرفى به انتصافَهْ فخدَّ فى خدِّه الكليم[١]

* * *

غصنُ الصبا عاطرُ المُقَبَّلْ أَحلى من الأَمن والأَملْ

ظامى الحشا مفعمُ المخلخلْ حلو اللمى ساحرُ المُقَلْ[٢]

لكل ما رامهُ توصَّلْ لم يخشَ ردًّا بما فعلْ

أَشكو فَيُبدِى لىَ اعترافَهْ إِن حادَ عن نهجه القويمْ

لا أَعدم الدهرَ فيه رافَهْ فحُقَّ لى فيه أَن أَهيم[٣]

* * *

لله عصرٌ لنا تقضَّى بالسد والمنبر البهيجْ

أَرى ادكارى إِليه فرضا وشوقُه دائماً يهَيجْ

فكم خلعنا عليه غَمْضا وللصَّبا مسرحٌ أَريجْ

وردٌ أَطالَ المنى ارتشافَهْ حتى انقضَى شربُهُ الكريمْ

لله ما أَسرعَ انحرافَهْ وهكذا الدهرُ لا يُديمْ

* * *

يا من يحثُّ المطىَّ غربا عرِّجْ على حضرة الملوكْ

---

(١) انتصافه : أخذ حقه منه . الكليم : الجريح ، والمراد أنه أدماه بأنظاره إذ احمر خجلا .

(٢) ظامى الحشا : ضامر البطن . مفعم المخلخل : ممتلئ الساق .

(٣) رافه : رأفة .

وانثر بها ،إن سفحتَ غربا ، من مدمعٍ عاطلٍ سَلوكْ [1]
واسمع إلى من أَقام صَبًّا واحلكِ صداه لا فُضَّ فُوكْ
بلِّغ سلامى قصر الرُّصافهْ واذكر له عهدىَ القديمْ
وحىِّ عنى دارَ الخلافَهْ وقفْ بها وقفةَ الغريمْ [2]

* * *

١٤

هذه موشحة مشهورة لذى الوزارتين لسان الدين محمد بن عبد الله بن الخطيب ، شاعر الغنى بالله محمد بن أبى الحجاج أحد ملوك بنى الأحمر ووزيره ، المتوفى سنة ٧٧٦ ﻫ قالها فى الغزل وذكر الطبيعة ومدح بها سلطانه الغنى بالله ، معارضاً بها موشحة ابن سهْل [3] :

جادك الغيثُ إذا الغيث همى يا زمانَ الوصل بالأَندلسِ
لم يكن وصلُك إلا حُلُما فى الكَرَى أَو خلسةَ المختلسِ

* * *

إذ يقودُ الدهرُ أَشتاتَ المُنى ننقلُ الخطوَ على ما تَرسُمُ
زُمَرًا بين فُرادى وثُنا مثلما يدعو الحجيجَ الموسمُ
والحيا قد جَلَّلَ الروضَ سنا فثغورُ الزهرِ فيه تبسِمُ

(١) الغرب : الدمع .
(٢) الغريم : المدين .
(٣) انظر ص ٣٢٨ من هذا الكتاب .

وروى النعمانُ عن ماءِ السما كيفَ يَرْوِى مالكٌ عن أَنَسِ [١]
فكساه الحسنُ ثوباً مُعلَما يزدَهِى منهُ بأَبهى مَلبَسِ

* * *

فى ليالٍ كتمتْ سرَّ الهوى بالدجى لولا شموسُ الغُررِ
مال نجمُ الكأْس فيها وهَوَى مستقيمَ السير سعدَ الأَثرِ
وطَرٌ ما فيه من عيب سوى أَنه مرَّ كلمح البصرِ

حينَ لذَّ النومُ شيئاً أَو كما هجمَ الصبحُ هجومَ الحرس
غارت الشهبُ بنا أَو ربما أَثرتْ فينا عيونُ النرجِسِ

* * *

أَى شىءٍ لامرئٍ قد خَلَصَا فيكونُ الروضُ قد مُكِّنَ فيه
تنهبُ الأَزهارُ فيه الفُرَصا أَمِنَتْ من مَكْره ما تتَّقيه
فإِذا الماءُ تَناجَى والحَصَا وخلا كُلُّ خليلٍ بأَخيه

تُبصِرُ الوردَ غيورًا بَرِما يكتسى من غيظِه ما يكتسى
وترى الآسَ لبيباً فَهِما يسرقُ السمعَ بأُذْنَىْ فرَسِ

* * *

(١) النعمان : ملك الحيرة ، والمراد هنا شقائق النعمان . ماء السماء : أم المنذر وجدة النعمان ، والمراد هنا المطر . مالك : إمام المدينة وأحد الأئمة الأربعة . أنس : والده . والمراد : رواية مالك عن أبيه رواية صدق ، ومثلها رواية الشقيق عن أبيه المطر ، وصدقها باد فى زهره وحسن منظره .

يا أُهَيْلَ الحى من وادى الغضا وبقلبى مسكنٌ أنتمْ بهِ
ضاقَ عن وجدى بكم رحبُ الفَضا لا أُبالى شرقَهُ من غربِهِ
فأَعيدوا عهدَ أُنْسٍ قد مَضَى تُعْتِقُوا عبدَكُمُ من كَرْبِهِ

واتقوا الله ، وأَحْيُوا مُغْرَمَا يتلاشَى نَفَساً فى نَفَسِ
حَبَسَ القلبَ عليكم كَرَمَا أَفَتَرضَوْنَ عَفَاءَ الحُبُسِ [١]

* * *

وبقلبى منكمُ مُقْتَرِبُ بأَحاديثِ المُنى وهو بعيدْ
قمرٌ أَطلعَ منه المَغْرِبُ شِقوَةَ المُضْنَى به وهو سعيدْ
قد تساوى محسنٌ أَو مذنبُ فى هواه بين وَعْدٍ ووعيدْ

أَحوَرُ المقلة معسولُ اللَّمَى جالَ فى النفسِ مجالَ النَّفَسِ
سدَّدَ السهمَ فأَصمى إذ رَمى بفؤادى نبلةَ المُفْترِسِ

* * *

إِن يكن جارَ وخابَ الأَملُ ففؤادُ الصب بالشوقِ يذوبْ
فهو للنفسِ حبيبٌ أَولُ ليس فى الحبِّ لمحبوب ذنوبْ
أَمرُهُ مُعْتَمَلٌ مُمْتَثَلُ فى ضلوعٍ قد بَراها وقلوبْ

---

(١) الحبس : جمع حبيس ، وهو الموقوف فى سبيل الله ، وهنا القلب المحبوس فى سبيل الحب .

حكَّمَ اللحظَ به فاحتكما لم يُراقبْ فى ضعافِ الأَنفس [١]
يُنصِفُ المظلومَ ممَّن ظَلَما ويُجازى البَرَّ منها والمُسِى

* * *

ما لقلبى كلما هبَّتْ صَبا عادَه عيدٌ من الشوقِ جديدْ
جَلَب الهمَّ له والوَصَبا فهو للأَشجان فى جهدٍ جَهيد
كان فى اللَّوْح له مكتَتَبا قوله : إن عذابى لشديد [٢]

لاعِجٌ فى أَضلعى قد أُضرِما فهى نارٌ فى هَشيمِ اليَبَس
لم يدَعْ فى مُهجتى إلا ذِمَا كبقاءِ الصُّبح بعد الغَلَسِ [٣]

* * *

سلِّمى يا نفسُ فى حُكْم القضا واعمُرى الوقتَ برُجعَى ومَتابْ [٤]
ودعِى ذكرَ زمانٍ قد مضَى بين عُتْبى قد تَقَضَّتْ وعتابْ [٥]
واصرِفى القول إلى المولى الرضى مُلْهِم التوفيق فى أُمِّ الكتابْ
الكريم المنتهى والمُنْتَمى أَسدِ السرج وبدرِ المَجْلسِ [٦]

---

(١) لم يراقب : أى لم يحاذر الله .
(٢) اللوح : أى لوح قضاء الله .
(٣) الذماء : بقية الروح .
(٤) الرجعى : الرجوع .
(٥) العتبى : الرضى .
(٦) أم الكتاب : الفاتحة أو القرآن جميعه أو لوح القدر المحفوظ .

يُنزَلُ النصرُ عليه مثلما يُنزلُ الوحىُ بروح القُدُس

* * *

مُصطفى الله سَمىُّ المصطفى الغنى بالله عن كلَّ أَحَدْ [٢]
من إذا ما عَقَدَ العهدَ وَفى وإذا ما فَتَحَ الخطبَ عَقَدْ
من بنى قيس بن سعدٍ وكَفَى حيثُ بيتُ النصرِ مرفوعُ العَمَدْ

حيث بيت النصر محمىُّ الحِمى وَجنى الفضلِ زكىُّ المغرِسِ
والهوى ظلٌّ ظليلٌ خَيَّما والنَّدَى هبَّ إلى المُغْتَرِسِ

* * *

هاكَها يا سبطَ أنصار العُلى والذى إن عَثَرَ الدهر أَقالْ
غادةً أَلبسها الحُسْنُ مُلا تَبْهَرُ العينَ جلاءً وصِقالْ [٣]
عارضتْ لفظاً ومعنى وحِلَى قولَ من أَنطقَهُ الحبُّ فقالْ :

«هل درى ظبىُ الحمى أَن قد حمى قلب صبٍّ حَلَّه عن مَكْنِس»
«فهو فى حَرٍّ وخفقٍ مثلما لعبت ريحُ الصَّبا بالقَبَس»

* * *

---

(١) روح القدس : جبريل .
(٢) سمى المصطفى : أى اسمه محمد كاسم النبى المصطفى .
(٣) ملا : أى ملاء ، جمع ملاءة .

١٥

هذه موشحة لأبى عبد الله بن زمرك ، تلميذ لسان الدين بن الخطيب وخلفه وكاتب سر الغنى بالله ، المتوفى سنة ٧٩٨ هـ ، قالها يعارض موشحة ابن سهل : « ليل الهوى يقظان(١) » ويمدح السلطان :

نواسِمُ البستانْ تَنْثُرُ سِلْكَ الزَّهَرِ
والطَّلُّ فى الأَغصانْ يَنْظِمُه بالجوهرِ

* * *

وراحةُ الإصباحْ أَضاءَ منها المشرقُ
تَنْشُرها أَرواحُ(٢) فلا تزال تخفِقُ
والزهرُ زهرٌ فاحْ له عيونٌ تَرمُقُ
فأَيقظ النُّدمانْ يُبصِرْنَ ما لم يُبْصَرِ(٣)
جواهرُ الشبانْ قدعُرِضتْ للمشترى(٤)

* * *

قدحتَ لى زَندا يا أَيها البارقُ

---

(١) انظر ص ٣٢٦ من هذا الكتاب .

(٢) الأرواح : جمع ريح .

(٣) يبصرن : الضمير يعود إلى عيون الزهر .

(٤) المشترى : كوكب طالعه سعد . وفيه تورية .

أَذكرتَنى عهدا إِذِ الشبابُ رائقُ
فالشوقُ لا يَهْدَا ولا الفؤادُ الخافقُ
وكيف بالسلوانْ والقلبُ رهنُ الفِكَرِ
وسُحُبُ الهجرانْ تحجُبُ وجهَ القَمَرِ

* * *

لولا شموس الكاسْ مديرُها بين البدورِ
وعرَّجَ الإِيناسْ منَّا على رَبْعِ الصدورِ
لكنْ لها وسواسْ يُغرى بربَّاتِ الخدور
كم والهٍ هيمانْ بصبحِ وجهٍ مُسْفِرِ
ضياؤه قد بانْ من تحت ليلٍ مُقمرِ

* * *

يا مَطلَعَ الأَنوارْ كم فيك من مرأى جميلْ
ونُزْهَةَ الأَبصارْ ماضرَّ لو تَشْفى الغليلْ
يا روضةَ الأَزهارْ وعَرْفُها يُبْرِى العليلْ
قضيبُكَ الفتَّانْ يُسقَى بدمعٍ هَمِرِ
فلاعجُ الأَشجانْ فيضُ الدموعِ يَجرِى

* * *

هل فى الهوى ناصرْ أَو هل يُجار الهائمُ
لو كان لى زائرْ طيفُ الخيال الحائمُ
ما بِتُّ بالساهرْ ودمعُ عينى ساجمُ

والحب ذو عدوانْ يَجْهَدُ فى ظُلْمِ البَرِى
وصارم الأَجفانْ مؤيدٌ بالحَوَرِ

* * *

رُحماكَ فى صبٍّ أَذكرَنهُ عهدَ الصِّبا
بواعثُ الحُبِّ قادتْ إليْه الوَصَبا [1]
لم تهفُ بالقلبِ ريحُ الصَّبا إلا هَبَا [2]

بَليلةُ الأَردانْ قَدْ ضُمِّخَتْ بالعنبرِ
يشيرُ غصنُ البانْ منها بفضلِ المئزرِ [3]

* * *

وطيُّها حَمْـــــدُ فَخْرُ الملارِكِ المُجْتَبى

---

(١) الوصب : المرض .
(٢) هبا : أى ثار كالغبار .
(٣) الفضل : الزيادة عن الحاجة .
(٤) المجتبى : المصطفى .

مَنْ يُرْجَحُ الطَّوْدُ مِنْ حِلْمه إذا احتَبى [١]
قد جَرَّدَ السعدُ منه حساماً مُذْهَبا

فالبأسُ و الإحسانْ والغوثُ للمستنصرِ
تحمِلُه الركبانْ تحيَّةً للمنبرِ

* * *

عِصابةُ الكتَّاب حُقّ لها الفوزُ العظيمُ
تختالُ فى أَثوابْ حُقَّ لها الفخرُ الجسيمُ
فحسبها الإطنابْ فى الحمد والشكرُ العميمُ

خليفة الرحمنْ لا زلتَ سامى المظهر
يا مُورِدَ الظمآنْ ورأسَ مالِ المُعْسرِ

* * *

خُذْهَا على دَعْوَى تُزْرى على الروض الوسيم [٢]
جاءَت كما تَهْوَى أَرقَّ من لَدْنِ النسيم [٣]
قد طارحتْ شكوَى من قالَ فى الليل البهيم :

---

(١) احتبى : جلس عاقداً يديه على ركبتيه .
(٢) الوسيم : الجميل .
(٣) اللدن : اللين من كل شىء .

« ليلُ الهوى يقظانْ والحبُّ تِربُ السَّهَرِ »
« والصبرُ لى خَوَّانْ والنومُ من عينى بَرِى »

* * *

١٦

ولابن زمرك أيضاً هذه الموشحة قالها فى ذكر الصبوح ومدح سلطانه ابن الأحمر :

ريحانةُ الفجرِ قد أَطَلَّتْ خضراءَ بالزُّهْر تَزْهَرُ
ورايةُ الصبحِ قد أَظَلَّتْ فى مَرقَب الشرق تُنْشَرُ

* * *

فالشهبُ من غارةِ الصباحْ تُرعَد خوفاً وَتخفِقُ
وأَدهمُ الليلِ فى جِماحْ أَعنَّةَ البرق يُطلقُ
والأُفقُ فى ملتقى الرياح بأَدمع الغيث يَشْرَقُ

والسحبُ بالجوهر استهلَّتْ فالبرق سيفٌ مُجوهرُ [1]
صِفاحه المذهباتُ سُلَّتْ فى راحةِ الجوِّ تُشهَرُ

* * *

كم للصَّبا ثَمَّ مِنْ مقيلْ بطيبهِ الزهرُ يشهدُ
والنهرُ كالصارِمِ الصقيلْ فى حِليةِ النَّوْرِ يُغمد

---

(١) استهلت : أمطرت .

وربَّ قال وقيلْ للطيرِ فى حينَ تُنْشِدُ

فألسنُ الوُرْق فيه أَمْلَتْ مدائحاً عنه تَشْكُرُ [١]

ونسمةُ الصبحِ حينَ كلَّتْ فى سُنْدُسِ الروضِ تعثرُ

* * *

والكأْسُ فى راحةِ النديم يَجْلُو بها غيهبَ الهُمُومْ

أَقبستِ النارَ فى القَديمْ مِنْ قبلِ أَن تُخْلَقَ الكرومْ

والنهرُ فى ملعبِ النسيمْ للزهرِ فى عِطفِهِ رُقُومْ

فَلَبَّةُ النهرِ قد تحلَّتْ والطَّلُّ فى الحلْىِ جوهرُ [٢]

وبهجةُ الكونِ قد تجلَّتْ والروضُ بالحسنِ يَبْهَرُ

* * *

يا غصنَ بانٍ يميلُ زهوا ريَّانَ فى روضةِ الشبابْ

لو كنت تُصغى لرفع شكوى أَطلتُ من قصة العتابْ

ومن لمثلى يَبُثُّ نجوَى للبدرِ فى رَفْرَفِ السحابْ

عزائمُ الصبر فيكَ حُلَّتْ وعقدةُ الصبر تُزخَرُ

قد أَكثرتْ منك ما استقلَّتْ وليتَ لو كنتَ تَشْعُرُ

* * *

---

(١) الورق : الحمام . تشكر : أى تشكر المطر نائبة عن الزهر .

(٢) اللبة : موضع القلادة من الصدر .

* * *

كم ليلةٍ بِتُّها وبتَّا ضدَّين فى السهد والرقادْ
أَسامرُ النجمَ فيكَ حتى علَّمت أَجفانها السهادْ
أَرقُبُ بدرَ الدّجَى وأَنتا قد لُحتَ فى هالة الفؤادْ

نفسىَ ولَّيتَ ما تولَّتْ دَعْها على الشوق تَصْبِرُ
لو سُمتَها الهجرَ ما تولَّتْ ولم تكنْ عنكَ تَنفرُ

* * *

علَّمَها الصبرَ فى الحروب سلطانُها عاقدُ البنودْ
معفِّرُ الصِّيد للجُنوبِ أَغرُّ مَن حُفَّ بالجنودْ [1]
يضرِبُ بالرعب فى القلوبِ والبيضُ لم تبرح الغُمودْ

عنايةُ الله فيه جلَّتْ بسعده الدينُ يُنصَرُ
والخلقُ فى عصرِهِ تملَّتْ غنائِماً ليس تُحصرُ [2]

* * *

مولاى يا نكتةَ الزمانِ دَارَ ، بما ترتضى ، الفَلَكْ
جَلَّلتَ باليُمنِ والأَمان كلَّ مليكٍ وما مَلَكْ

---

(١) الصيد : الملوك والمتكبرون . الجنوب : جمع جنب .
(٢) تملت : تمتعت .

لم يدرِ وصفى ولا عِيانى أَمَلِكٌ أَنتَ أَم مَلَكْ ؟

جنودُك الغُلْبُ حيث حلَّتْ بالفتح والنصرِ تُخْفَرُ
وعادة الله فيكَ دلَّتْ أَنكَ بالكُفْرِ تظفرُ

* * *

يا آية الله فى الكمالِ ومخجلَ البدرِ فى التمامْ
قُدِّمتَ بالعِزِّ والجلالِ والدهرُ فى ثغره ابتسامْ
يختالُ فى حُلَّةِ الجمالِ والبدرُ قد عاد فى اختتامْ

ريحانةُ الفجر قد أَطَلَّتْ خضراءَ بالزُّهر تَزهَرُ
وراية الصبح قد أَظلَّتْ فى مَرقَب الشرق تُنشَرُ

* * *

١٧

ولابن زمرك أيضاً هذه الموشحة فى التشوق إلى غرناطة ومدح الغنى بالله :

بالله يا قامةَ القضيبِ ومُخْجِل الشمسِ والقمرْ
من مَلَّكَ الحسنَ فى القلوب وأَيَّدَ اللحظَ بالحَوَرْ ؟

* * *

مَنْ لم يكن طبعه رقيقا لم يدرِ ما لَذَّةُ الصِّبا

فربَّ حُرٍّ غدا رقيقا تملكه نفحةُ الصَّبا
نشوانَ لم يشرب الرحيقا لكنْ إلى الحسن قد صَبا

فعذَّبَ القلبَ بالوجيبِ ونعَّمَ العينَ بالنظرْ
وبات والدمعُ فى صبيبِ يُقْدَحُ من قلبه الشررْ

* * *

عجبتُ من قلبى المُعنَّى يهفو إذا هبَّتِ الرياحْ
لو كان للصبِّ ما تمنَّى لطار شوقاً بلا جناحْ
وبلبلُ الدَّوْح إذ تغنَّى أسهرَ ليلى إلى الصباحْ

عساكَ إن زرتَ ، يا طبيبى ، بالطيف فى رقدةِ السَّحَرْ
أَن تجعلَ النومَ من نصيبى والعينَ تحمى من السهرْ

* * *

كم شادنٍ قاد لى الحُتوفا بمَرْبَعِ القلبِ قد سَكَنْ
يسلُّ من لحظِه سُيُوفا فالقلبُ بالرَّوْعِ ما سَكَنْ
خُلِقْتُ من عادتى أَلوفا أَحن للإلف والسكَنْ

غرناطةٌ منزلُ الحبيبِ وقُرْبُها السؤلُ والوَطَرْ
تَبْهَرُ بالمنظر العجيبِ فلا عَدا رَبعَها المطرْ !

* * *

عروسةٌ تاجها السبيكه وزهرُها الحلْىُ والحُلَلْ [١]
لم ترضَ من عزها شريكهْ بحسنها يُضْرَبُ المثلْ
أَيدها اللهُ من مليكَهْ تملِكُها أَشرفُ الدولْ
بدولة المرتجَى المَهيبِ الملكِ الطاهرِ الأَغرِّ
تختال فى بُردها القشيبِ فى حالة النُّور والزَّهَرْ

* * *

كرسيُّها جنةُ العريف مرآتها صفحةُ الغديرْ [٢]
وجوهرُ الطَّلِّ فى شُنُوفِ تُحكمه صنعةُ القديرْ [٣]
والأُنسُ فيه على صنوف فمن هَديل ومن هديرْ
كم خرَّق الزهرُ من جيوبِ وكَلَّلَ القُضبَ بالدُّررْ
فالغصنُ كالكاعبِ اللعُوبِ والطيرُ تشدو بلا وَتَرْ

* * *

ولائم النصرِ فى احتفال وصرحُ دِين الهدى جديدْ
سلطانها شارعُ العوالى محمدُ الظافرُ السعيدْ [٤]

---

(١) السبيكة : موضع بغرناطة .
(٢) جنة العريف : موضع فى غرناطة كان مصيفاً لأمراء العرب ، ولا تزال آثاره قائمة .
(٣) الشنوف : ما يعلق فى الآذان من الحلى .
(٤) شارع : مسدد .

ومُخجل البدرِ فى الكمالِ سلطانُها المُجتبَى الفريدْ

أَصْفَحُ مولًى عن الذنوبِ أَكرمُ عافٍ إذا قَدَرْ
وشمس هَدْيٍ بِلا مغيبِ وبحرُ جُودٍ بلا حَسَرْ[١]

* * *

مولاى يا عاقدَ البنودِ تُظلِّلِ الأَوْجُهَ الصِّباحْ
أَوحشتَ ، يا نُخبةَ الوجود ، غرناطةً نَجْمَةَ الصَّباحْ
سافرتَ باليُمْنِ والسُّعُودِ وعُدْتَ بالفتحِ والنجاحْ

يا ملهمَ القلبِ للغيوبِ ومُطْعِمَ النصرِ والظفرْ
أَسمعكَ اللهُ عن قريبِ : على السلامِ من السفرْ

* * *

١٨

هذه موشحة شهيرة لابن سناء الملك الشاعر المصرى المتوفى سنة ٦٠٨ هـ ، وقد قالها معارضاً موشحة عبادة بن ماء السماء[٢] :

كلِّلى ياسحبُ تيجان الربى بالحُلى واجعلى سوارها منعطفَ الجدول[٣]

* * *

(١) بلا حسر : أى بلا نضوب .
(٢) انظر ص ٣٠٩ من هذا الكتاب .
(٣) تيجان الربى : أعاليها . الحلى أى أنواع الأزهار .

ياسما فيكِ وفى الأَرض نجومٌ وما [١]

كلما أَغربتِ نجماً أَطلعتْ أَنجما

وهى ما تهطِلُ إلا بالطلا والدُّمى

فاهطلى على قطوف الكرم كى تمتلى وانقلى للدَّنْ طعم الشَّهْدِ والقَرنفل

* * *

تتقدْ كالكوكب الدُّرِّىِّ للمرتصدْ

يعتقدْ فيها المجوسىُّ بما يعتقدْ [٢]

فاتئدْ يا ساقىَ الراح بها واعتمدْ

واملَ لى حتى ترانى عنكِ فى مَعزلِ قلِّلِ فالراحُ كالعشق إن يَزِدْ يقتُل

* * *

لا أُليمْ فى شُرب صهباءَ وفى عشقِ ريمْ

فالنعيمْ عيشٌ جديدٌ ومُدامٌ قديمْ

لا أَهيمْ إلا بهذينِ فقُمْ يا نديمْ

واجلُ لى من أَكؤسٍ صُيِّرتْ من فَوْفَلِ [٣] أَلذَّ من نكهة العنبر والمندلِ [٤]

* * *

(١) المراد بنجوم الأرض أنواع الأزهار . وما : مسهل ماء .

(٢) يعتقد : أى يرى فيها الألوهية لأنها تتقد كمعبودته النار .

(٣) الفوفل بالفتح والضم : نخلة كنخلة النارجيل تحمل كبائس فيها الفوفل أمثال التمر ، طيب النكهة ، ويمضغ فيحدث طرباً فى النفس .

(٤) المندل : عود هندى طيب الرائحة .

خذ هَنى[1] واعطنى كاسَكَ مثلَ كاسى هَنى
واسقنى على رضابِ الفَطِنِ المُلْسِنِ
والْهِنى ببعض ما صيغَ من الأَلُسن
لو تُلى مدحُ سناه مع رشاً أَكحلِ لذَّلى على سنا الصهباءِ والسلسل

* * *

أَزهرتْ ليلتُنا بالوَصْل مذ أَسفرتْ
أَصدرتْ[2] بزَوْرَةِ المحبوب إِذ بشّرتْ
أَخَّرتْ[3] فقلت للظلماءِ إِذ قصَّرت
طوّلى ياليلةَ الوصلِ ولا تبخلى واسْبِلى سِتْرَكِ فالمحبوبُ فى منزلى

* * *

من ظلمْ فى دولة الحسن إِذا ما حكمْ
فالأَلمْ يجول فى باطنه والندمْ
والقلمْ يكتبُ فيه عن لسانِ الأُممْ :
من وَلى فى دولة الحسن ولم يعدلَ يَعذُلِ أَلحاظَ الرشا الأَكحل

* * *

---

(١) هنى : شيئ أى كاسى .
(٢) أصدرت : أى أتمت الأمر .
(٣) جعلت الزيارة إلى آخر الليل .

١٩

قال شهاب الدين العَزَازىّ المشرقى المتوفى سنة ٧١٠ هـ[١] :

يا ليلةَ الوصـلِ وكاسَ العُقارْ

دون استتارْ

علمتمانى كيفَ خلعُ العِذارْ[٢]

* * *

فاغتنِم اللذاتِ قبـل الذهاب

وجرّ أَذيالَ الصِّبـا والشبابِ

واشربْ فقد طابتْ كؤوسُ الشرابِ

على خدودٍ تُنْبِتُ الجُلَّنارْ[٣]

ذاتِ احمرارْ

طَرَّزَهـا الحسنُ باسِ العِذارْ

* * *

الراحُ لا شكَّ حياةُ النفوسْ

---

(١) هو شهاب الدين أحمد بن عبد الملك العزازى . كان بزازاً وكان ينظم الشعر للمطارحة والمفاكهة وقد أجاد الموشح خاصة . وفى شعره كثير من الألغاز التى كان يحسن صوغها . وديوان شعره ناقص بدار الكتب المصرية ، وفيه قسم خاص بالموشحات . توفى سنة ٧١٠ هـ . والعزازى بفتح العين والزاى المخففة نسبة إلى عزاز وهى بلدة قرب حلب . انظر : إعجام الأعلام لمحمود مصطفى ص ١٥١ .

(٢) خلع العذار : ترك الحياء واتباع الهوى .

(٣) الجلنار : زهر الرمان .

فحلٍّ منها عاطلاتِ الكؤوسْ
وافتضَّها ، بين الندامى ، عروسْ
تُجْـلى على خُطَّابها فى إزارْ
من النُّضارْ
حَبابهـا قامَ مقـام النِّثارْ [١]

* * *

واجْنِ من الوصلِ ثمارَ المُنَى
وواصل الكاسَ بمـا أمْكنا
مع طَيِّبِ الرِّفْقَةِ حلوِ الجَنَى
ذى مقلةٍ أفتكَ من ذى الفقارْ [٢]
ذاتِ احورارْ
منصورةِ الأَجفـان بالانكسارْ

* * *

زارَ وقد حلَّ عقودَ الجَنَا
يختالُ فى ثوبِ الرضَى والوَفَا

(١) النثار : ما ينثر فى العرس للحاضرين ، أو ما ينثر على العروس .
(٢) ذو الفقار : سيف على بن أبى طالب .

فقلتُ : والوقتُ به قَدْ صَفَا

ياليــلةً أَنعمَ فيهــا وزارْ

شمسُ النهارْ

حُيِّيتِ من دونِ الليالى القصارْ !

* * *

٢٠

هذه موشحة فى التصوف قالها محيي الدين بن عربي الأندلسى ، ولد بمرسية بالأندلس سنة ٤٦٨ﻫ ونزح إلى الشرق وطوف فى أنحائه ومات بدمشق سنة ٥٤٣ﻫ :

سرائرُ الأَعيانْ [١] لاحتْ على الأَكوانْ للناظرينْ

والعاشِقُ الغيْرانْ من ذاك فى حران [٢] يبدى الأَنينْ

* * *

يقولُ والوجــدُ أَضناه والبعدُ قد حيَّرَهْ

لما دَنَا البُعــدُ لم أَدرِ من بَعدُ مَنْ غَيَّرَه

وهيَّم العبــدُ والواحدُ الفردُ قد خَيَّرَه

فى البوح والكتمانْ والسرِ والإِعلانْ فى العالمينْ

---

(١) الأعيان : حقائق الأشياء المدركة بالعيان .

(٢) حران : رملة بالبادية ، كنى بها عن شدة الظمأ للاتصال بالله تعالى . والحران أيضاً الشديد العطش .

أَما هو الديَّانْ يا عابدَ الأَوثانْ أَنتَ الضنينْ [١]

* * *

كل الهوى صعبُ على الذى يشكو ذلَّ الحجابْ [٢]
يا من له قلبُ لو أَنه يذكُو [٣] عند الشبابْ
قد قرَّبَ الربُّ لكنه إِفـــكُ فَانْوِ المتابْ
ونادِ يا رحمانْ يا ربِّ يا منَّانْ إِنى حَزينْ
أَضنانى الهُجْرانْ ولا حبيبٌ دانْ ولا معينْ

* * *

فنيتُ باللهِ عما تراه العينْ من كونِهِ
فى موقف الجاهِ وصِحْتُ : أَينَ الأَيْن [٤] فى بَيْنِه ؟
فقالَ يا ساهى ما عاينتْ قطُّ عَيْنْ بعينـــهِ [٥]
أَما ترى عَيْلانْ وقيسَ أَو مَنْ كانْ فى الغابرين ؟
قالوا الهوى سلطانْ إِن حلَّ بالإِنسانْ أَفناهُ دِين [٦]

* * *

(١) عابد الأوثان : عابد الجسد المادى . أنت الضنين : أى أنت البخيل بقهره لتقوية الروح .
(٢) الحجاب : أى المادة التى تحجب الإنسان عن مشاهدة الله .
(٣) يذكو : يتقد بنور الصوفية .
(٤) الأين : التعب والإعياء .
(٥) بعينه : بذاته وجوهره وقربه ، أى أن العين إذا شاهدت ذاته لا ترى سواها من الموجودات .
(٦) الدين : الداء والغلبة والقهر والطاعة والذل ، وهذه المعانى كلها صالحة لتفسير كلام الشاعر .

كم مرةٍ قَالا : أَنا الذى أَهْوَى مَن هُو أَنا ؟ !
فلا أَرى حالا [١] ولا أَرى شكْوى إِلاَّ الفَنَا
لستُ كَمَنْ مَالا عن الذى يَهْوَى بَعْدَ الجَنى
ودانَ بالسُلوانْ هذا هو البُهتانْ للعـــارفينْ [٢]
سلوهمُ ما كانْ عن حضرةِ الرحمنْ والآفكـــينْ

* * *

دخلتُ فى بستانْ الأُنس والقربِ كَمكنَسِه [٣]
فقال لى الريحانْ يختال بالعُجبِ فى سُنْدُسِه :
أَنا هُوَ الإِنسانْ مُطيِّبُ الصَّبِّ فى مجلسه
جَنَّانُ يا جَنَّانْ [٤] اِجْنِ من البُستانْ اليـــاسمينْ
وحَلِّل الريحانْ [٥] بحرمةِ الرحمنْ للعاشقينْ !

* * *

(١) الحال : حالة نفسية يشعر بها الصوفى ، كلذة الفقر ، وهى عارضة مفارقة ، فإذا ثبتت صارت مقاماً .

(٢) العارفون : اصطلاح صوفى يراد به شيوخ المتصوفة الذين بلغوا معرفة الحقائق اللدنية والكشف الإلهى .

(٣) كمكنسة : أى مكنس القرب من الله والأنس به . والمكنس : المأوى .

(٤) الجنان : أى حارس الجنة أو صاحبها ، وتطلق الجنة عند الصوفيين على جنة المطاعم اللذيذة والمشارب الهنية ثواباً للأعمال الصالحة ، وتسمى جنة الأعمال وجنة النفس أيضاً .

(٥) الريحان : أراد به تجليات الله أو حلوله ، وكذلك قال : أنا هو الإنسان على مذهب الحلولية .

المراجع

أ - مراجع عربية :

ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) الحلة السيراء - نشر دوزى منها مقتطفات ، مدريد ١٨٨٦ .

- التكملة لكتاب الصلة ، نشر جزءاً منه كوديرا فى المكتبة الأندلسية (ج ٥ - ٦ مدريد ١٨٨٧ - ١٨٩٠) .

ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، مجلدان ، طبعة مصر ١٣٠٤

ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة - نشرت منه كلية الآداب بجامعة القاهرة ثلاثة مجلدات : القسم الأول فى مجلدين ، ثم المجلد الأول من القسم الرابع . القاهرة ١٩٣٩ - ١٩٤٥ .

ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) : كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم - طبعة كوديرا فى مجلدين ، مدريد ١٨٨٢ - ١٨٨٣ .

ابن حزم : طوق الحمامة فى الألفة والألاف - طبعة دمشق ثم طبعة القاهرة ١٩٥٠.

ابن حمديس : ديوان ، طبعة بالرم ١٨٨٣ ، روما ١٨٩٧ و بيروت ١٩٦٠ .

ابن حوقل : كتاب المسالك والممالك - ليدن ١٨٧٣ .

ابن حيان : كتاب المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس (مخطوط وحيد فى أكسفورد) نشر الأب ملشور أنطونيا الجزء الخاص بإمارة المنذر وعبد الله ، باريس ١٩٣٧ .

ابن خفاجة : ديوان ، طبعة القاهرة ١٢٨٦ ، وطبعة مكتبة صادر ، بيروت ١٩٥١.

ابن خلدون : المقدمة .

- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، بولاق ١٢٨٤ هـ - ٧ أجزاء .

ابن خلكان : وفيات الأعيان – القاهرة ١٣١٠ هـ ، جزءان .

ابن خير (أبو بكر محمد) : الفهرسة ، فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة فى ضروب العلم وأنواع المعارف – نشره ريبيرا وكوديرا فى سرقسطة ١٨٩٤ – ١٨٩٥ (B. A. H.,t IX – X) ؛

ابن رشيق : العمدة ، القاهرة ١٣٢٥ هـ ١٩٠٧ م جزءان فى مجلد .

ابن زيدون : ديوان ، طبعة كامل كيلانى وعبد الرحمن خليفة ، القاهرة ١٣٥١ / ١٩٣٢ . وطبعة على عبد العظيم ، القاهرة ١٩٥٧ .

ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ١ و ٢ ، بتحقيق الدكتور شوقى ضيف ، طبع دار المعارف بمصر ١٩٥٥ .

ابن سناء المُلك : دار الطراز فى عمل الموشحات ، نشر الدكتور جودت الركابى – دمشق ١٩٤٩ .

ابن شهيد الأندلسى : رسالة التوابع والزوابع – نشرها مع مقدمة طويلة بطرس البستانى ، بيروت ١٩٥١ .

ابن عبد ربه : العقد الفريد – طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤١ – ١٩٥٢ .

ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب – نشر دوزى الجزأين الأول (عن المغرب) والثانى (عن الأندلس) فى ليدن ١٨٤٨ – ونشر ليفى بروفنسال الجزء الثالث عن الأندلس فى عصر الطوائف والمرابطين ، باريس ١٩٣٠ – وطبعت مكتبة صادر فى بيروت الجزأين الأول والثانى سنة ١٩٥٠ .

ابن غالب : فرحة الأنفس – مقتطفات فى نفح الطيب .

ابن قزمان : ديوان – نسخته الوحيدة مطبوعة بالتصوير الشمسى فى برلين ١٨٩٦ – ونشر الدكتور نيكل هذا الديوان بحروف لاتينية مع مقدمة وتعليقات وترجمة إسبانية لبعض قطعه فى مدريد ١٩٣٣ .

ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس – مدريد ١٩٢٦ (مع ترجمة إسبانية) .

ابن نباتة المصرى : سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون — القاهرة ١٣٢١ هـ
ابن هانئ الأندلسى : ديوان ، طبعة مصر وطبعة بيروت .
أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، القاهرة ١٣٢٥ هـ — ٤ أجزاء .
— تقويم البلدان ، طبعة دوسلان ، باريس ١٨٤٠ .
الأبشيهى : المستطرف من كل فن مستظرف ، القاهرة ١٣٣٠ هـ — جزءان .
أحمد الإسكندرى وأحمد أمين ورفاقهما : المفصل فى تاريخ الأدب العربى ، القاهرة ١٩٣٦ .
أحمد ضيف : بلاغة العرب فى الأندلس القاهرة ١٣٤٢ / ١٩٢٤ .
أخبار مجموعة ، فى تاريخ الأندلس : كتاب مجهول المؤلف — نشره وترجمه للإسبانية لافوينتى إى ألكنترا ، مدريد ١٨٦٨ .
الإدريسى : وصف إفريقية وإسبانيا — نص عربى وترجمة فرنسية ، نشرهما دوزى ودخويه ، ليدن ١٨٦٦ .
بالنثيا (آنخيل جنثالث) : تاريخ الفكر الأندلسى ، نقله عن الإسبانية حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ .
بطرس البستانى : أدباء العرب فى الأندلس وعصر الانبعاث ، بيروت ١٩٣٧ .
البكرى (أبو عبيد عبد العزيز) : صفة إفريقية — طبعة دوسلان — الجزائر ١٩١١ .
الثعالبى : يتيمة الدهر — القاهرة ١٩٤٧ .
جبرائيل جبور : ابن عبد ربه وعقده — المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٣٣
— مقال فى الأدب الأندلسى فى مجلة الأبحاث التى تصدرها الجامعة الأميركية فى بيروت ، العددان ٢ و ٣ من السنة الثانية ، حزيران — أيلول ١٩٤٩ .
جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٣٦ .
الحجارى : المعجب فى أخبار المغرب — مقتطفات فى نفح الطيب .
حسين مؤنس : انظر بالنثيا ، وغومس .
الحصرى (أبو اسحاق) زهر الآداب وثمر الألباب — طبعة زكى مبارك ، القاهرة ١٣٤٤ — ١٩٢٥ ، ٤ أجزاء .

حنا الفاخورى : تاريخ الأدب العربى — المطبعة البولسية ، حريصا — لبنان ١٩٥١ .

خير الدين الزركلى : الأعلام — الطبعة الثانية فى عشرة أجزاء ، القاهرة ١٩٥٩ .

سيد نوفل : شعر الطبيعة فى الأدب العربى ، القاهرة ١٩٤٥ .

شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، منشورات مكتبة الأندلس ، بيروت ١٩٥٦ .

— الفن ومذاهبه فى النثر العربى ، منشورات مكتبة الأندلس ، بيروت ١٩٥٦

— ابن زيدون ، طبع دار المعارف ، بيروت ١٩٥٣ .

الصفدى : نَكْت الهميان فى نُكت العميان — طبعة أحمد زكى باشا . القاهرة ١٣٢٩ — ١٩١١ .

الصنوبرى : الروضيات — طبعة محمد راغب طباخ ، حلب ١٣٥١ / ١٩٣٢ .

الضبى (أحمد بن يحيى بن عميرة) : بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس — نشره كوديرا ، مدريد ١٨٨٥ .

عبد الرحمن البرقوقى : حضارة العرب فى الأندلس ، القاهرة ١٣٤١ / ١٩٢٣ .

عبد المنعم الحميرى : صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، طبعه ليڤى بروفنسال مع ترجمة بالفرنسية ، القاهرة ١٩٣٧ وليدن ١٩٣٨ (النص العربى طبع القاهرة والترجمة الفرنسية طبع ليدن وكلاهما مجموع فى جزء واحد أنيق) .

عبد الواحد المراكشى : المُعْجب فى تلخيص تاريخ المغرب — طبعة دوزى الثانية ، ليدن ١٨٨١ ، وطبعة القاهرة ١٣٢٤ / ١٩٠٦ . (ترجمه Fagnan للفرنسية بعنوان : Histoire des Almohades, Alger 1898)

على عبد العظيم : ديوان ابن زيدون ورسائله ، القاهرة ١٩٥٧ .

غومس (ميليو غارسيه : الشعر الأندلسى ، عربه عن الإسبانية حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٢ .

الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ، طبعة مصر ١٣٢٠ هـ .

– مطمح الأنفس ومسرح التأنس فى ملح أهل الأندلس ، طبعة مصر ، ١٣٢٥ هـ .

فيليب قعدان الخازن : العذارى المائسات فى الأزجال والموشحات ، مطبعة الأرز ، جونية ١٩٠٢ .

كامل كيلانى : نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى ، القاهرة ١٣٤٢ / ١٩٢٤ .

لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى تاريخ غرناطة – القاهرة ١٣١٩ هـ .

– أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام – طبعة ليڤى بروفنسال ، باريس ١٩٣٤ .

المتنبى : ديوان – شرح العكبرى ، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٩٣٦ .

محمد بن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ، مصر ١٢٩٩ هـ .

محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ، القاهرة ١٩٤٩ .

محمد كرد على : غابر الأندلس وحاضرها – القاهرة ١٩٢٣ .

– الإسلام والحضارة العربية ، القاهرة ١٩٣٦ ، جزءان .

محمود مصطفى : الأدب العربى وتاريخه – الجزء الثالث ، القاهرة ١٩٣٧ .

– إعجام الأعلام ، المطبعة الرحمانية ، مصر ١٣٥٤ / ١٩٣٥ .

مصطفى صادق الرافعى : تاريخ آداب العرب ، فى ثلاثة أجزاء (فى الجزء الثالث بحث عن الموشح) القاهرة ١٩٤٠ .

مصطفى عنانى : إظهار المكنون من الرسالة الجدية لابن زيدون – القاهرة ١٩٠٦ .

المعتمد بن عباد : ديوان – (جمعه أحمد أحمد بدوى وحامد عبد المجيد) ، مطبوعات وزارة المعارف العمومية – القاهرة ١٩٥١ .

المقرى (شهاب الدين أحمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، بولاق ١٠٧٩ هـ . أعاد نشره فى عشرة مجلدات محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ .

الموشحات الأندلسية : الأعداد ١٨ و ١٩ و ٢٠ ، طبع مكتبة صادر فى بيروت ١٩٤٩ .

النويرى (شهاب الدين أحمد : نهاية الأرب فى فنون الأدب — طبعة القاهرة ١٩٢٣ — ١٩٣٥ ، ١١ مجلداً (طبع الجزء الخاص بتاريخ المغرب والأندلس فى مجلدين بمدريد سنة ١٩١٧ — ١٩١٩) .

نيكل : مختارات من الشعر الأندلسى — نشرت بإشراف الدكتور عمر فروخ ، بيروت ١٩٤٩ .

ياقوت الحموى : معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب — ٢٠ جزءاً، القاهرة ١٩٣٨ .

— معجم البلدان ، ٨ أجزاء ، القاهرة ١٩٠٦ .

ب – مراجع غير عربية :

Blachére) *Rī***n**(: *Un pionnier de la culture arabe orientale en Espagne au X siècte Sa ide de Bagdad, in Héspéris, t. X*, 1930, *PP*. 15 - 36.

— *La vie et l' oeuvre du poète - épistolier andalou Ibn Darrag al Qastalli, in Hespéris, t. XVI*, 1923, *PP*. 99-121.

— *Un poéte arabe du lIV siècle de l'hégire*) *X siécle de J. C.*) *Abou-Tayyib al-Moutanabbi, Paris* 1935.

Brockelmann : *GAL* = *Geschichte der Arabischen Littiratur*, Leyde 1943-1949, 2 vol. +) supplément 1 - III (, Leyde 1937 - 1912.

Cour ﺀ **A** ī (: *Un poète arabe d'Andalousie*] *Ibn Zaidoun*, Constantine 1920.

Dozy ﺀ **R**ī ﺀ : *Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquéle de l'Andalousie par les Almoravides*) 711 - 1110). nouvelle édition revue et mise à jour par Lévi-Provencal, Leyde 1932, 3 Vol.

— *Recherches sur l'histoire et la hittérature de l'Espagne pendant le Moyen Age*, 3 éd. Leyde - Paris 1881, 2 vol.

Encyclopédie de 1'**Islam**ţ éd. francaise, 4 volumes et 1 vol. de supplément, Leyde 1908 - 1938.

Groetz ﺀ **H**ī ﺀ : *Les juifs d'Espagne*) 945 - 1205 (, trad. G. Stenne, Paris 1872.

Hartmann ﺀ **M**. ﺀ : *Das* ara*bische Slrophengedicht. Das Muwassah*, Weimar 1897.

Jeanroy ﺀ **A**ī (: *La poésie lyrique des Troubadours*, Toulouse - Paris 1934, 2 vol

Léviē**ProvenÇal** ﺀ **E**ī ﺀ : *Histoire de l'Espagne muslmane*, Paris 1950 - 1953, 3 tomes) T. I, La conquéle et l'Emirat hispano - umaiyade « 710 - 912 ». T. 11, Le Califat umaiyade de Cordoue « 912 - 1031 ». T. III, Le siècl du Califat de Cordoue ,

— *L'Espagne musulmane au X siécle. Institutions el vie sociale*, Paris 1332.

— *La civilisation arabe en Espagne*, nouvelle édition, Paris 1948.

MarÇais ﺀ **G**. ﺀ : *Manuel d'art musulman. L*'architecture, Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile ; 2 vol. Paris 1926 - 27.

— *Echanges artistiques entre l'Egypte et l'Islam occidental*, in Hespéris, XIX, fac. 1 - 2) 1931 (, PP. 95 - 106.

Massé ؛ **Hī** ؛ *Ibn Zaidūn*, in Hespèris, t. I) 1921 (, PP. 183 - 193.

Menéndez Pidal ؛ **Rī** ؛ : *Poésia arabe y poésia europae*, dans la *Rivsta Cubana* janvier - mars 1937, aussi dans *Bulletin Hispanique*, octobre - décembr 1938.

Nykl ؛ **Aī Rī** ؛ : *ispano - Arabie Poelry*, Baltimore 1946.

Pérès ؛ **Hī** ؛ : *La poésie andalouse en arabe classique au Xl siècle*, Paris 1937.

Rikabi ؛ **Jawdat** ؛ : *La poésie profane sous les Ayyūbides et ses principaux res - présentats*, Paris 1949.

Simont ؛ **Fī Jī** ؛ : *Historia de los Mozarabes de Espana*, *M*adrid 1903.

Tarrasse ؛ **Hī** ؛ : *L'art hispano - mauresque des origines au XIII siécle*, Paris 1932

ج – دوريات ومجموعات ومجلات :

مجلة الآداب – بيروت .

مجلة الأبحاث – الجامعة الأميركية ، بيروت .

مجلة الأديب – بيروت .

مجلة الثقافة – القاهرة .

مجلة الكاتب المصرى – القاهرة .

مجلة الكتاب – القاهرة .

مجلة المجمع العلمى العربى – دمشق .

مجلة المشرق – بيروت .

مجلة معهد المخطوطات العربية – تصدرها الجامعة العربية ، القاهرة .

AlēAndalusṭ Revista de las Escuelas de Estudios Arabes de Madrid y Granada. (تصدر مرتين فى العام ابتداء من عام ١٩٣٣) .

Bī Aī Hī : *Bibliotheca arabico hispana.*

Hespérisṭ publié par l'Institut des hautes études marocaines, Paris

Jī Aī : *journal asiatique.*

Rī Eī Iī : *Revue des études islamiques.*

فهرس الأعلام وأسماء الأماكن والقبائل

ح = حاشية

ب

ت

غ

ف

ق

و

ى


رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس الكتاب

الصفحة

الباب الثانى

الباب الثالث

ابن زيدون

الصفحة

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر



فى الأدب الأندلسى

يتناول هذا الكتاب عرضاً وافياً للحياة السياسية والاجتماعية والفكرية لبلاد الأندلس فى مختلف أدوارها التاريخية ، ثم يتعرض لبيان الشروط الاجتماعية والثقافية التى عاشها الشعراء فى الأندلس ويأتى على ذكر طائفة من الأدباء والشعراء موضحاً مميزات الشعر الأندلسى .

ويتناول هذا الكتاب بعد ذلك شعر الطبيعة كغرض بارز من أغراض الشعر الأندلسى ، ثم يفرد بحثاً خاصاً عن ابن زيدون يدرس فيه جوانب هذا الشاعر الفذ بروح جديدة . يعقب ذلك دراسة لفن جديد عرف نشأته وازدهاره فى بلاد الأندلس ألا وهو فن الموشحات ، فيوضح قواعده وأوزانه وخصائصه ويكشف عن منزلته فى الأدب العربى . وعلى هذا فالكتاب يعد أوفى دراسة عن مظاهر الأدب فى الأندلس والفنون الشعرية التى ازدهرت فيها . وهو يقدم لنا فضلا عن ذلك عدداً من النصوص المشروحة التى يصعب العثور عليها مجتمعة فى كتاب غيره .